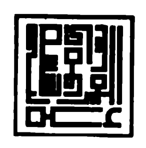

١٩٠٠ - ١٩٨٠
ايران
الثورات المعاصرة ، القوى السياسية والاجتماعية
دور الدين والعلماء ، التسلح وسياسة التوكيل

ايران

١٩٠٠ـ١٩٨٠

الثورات المعاصرة
القوى السياسية و الاجتماعية
دور الدين و العلماء
التسلح و سياسة التوكيل



مؤسسة الابحاث العربيـة

ايـران ، ١٩٠٠ ـ ١٩٨٠ ، الثـورات المعـاصرة ـ القـوى السياسيـة والاجتماعيـة ـ دور الدين والعلمـاء ـ التسلـح واستراتيجية التوكيل ٠
الطبعة الاولى ، نيسان ، ابريل ، ١٩٨٠ .

مؤسسة الابحاث العربية
صندوق البريد ٥٠٥٧ ـ ١٣ ، هاتف ٨٠٤٢٥٧
بيروت ـ لبنان

المحتويـــات

تقديم

ان كون الثورة الايرانية قد فاجأت الجميع لم يعد امرا ذا بـــال . اما الشيء الذي يظل ذا اهمية مركزية فهو ان نفهم وان نعرف القوى التاريخية والعملية التاريخية ، التي ادت الى حدوثها . يضاف الـــى هذا ان الثورة التي لم يتنبأ احد بها لا تزال تفرض كثيرا من التحديات، سواء داخليا او خارجيا ، تحديات تتطلب تحليلا رصينا ومحسوسا .

لقد كان دافعي عند تجميع وتحرير هذا المجلد هو الموضوعـــة الاساسية عن الحاضر بوصفـــه تاريخا . لهـــذا حاولت ان أميز النمط ، او العملية التاريخية التي تفسر نضال الشعوب الايرانية ، لا باعتبارها زيفا او حدثا غير متوقع ، انما باعتبارها ذروة تاريخ صنعه وكتبه شعب ايران .

سياسة الولايات المتحدة واستجابتها

ادى سقوط الشاه الى مناقشة جادة في مؤسسة السياســـة الخارجية الاميركية . وقد تركز معظم هذه المناقشة على الكيفية التي يتعين على الولايات المتحدة ان تتلخص بها من «الاعراض الفيتنامية ». ولهذا يعد من الضروري تسجيل بعض الملاحظات العامة عن اعتبارات السياسة الخارجية الاميركية ازاء التطورات ، لس في ايران وحدها ، بل في افغانستان ايضا .

لقد خلق احتلال السفارة الاميركية في طهران يوم ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٧٩ اهتماما متزايدا بايران . وكان رد الفعل فـــي الغرب ـــ خاصة في الولايات المتحدة ـــ مما يمكن التنبؤ به . ففي يوم ٧ تشرين الثاني ١٩٧٩ كتبت صحيفة **بوست ديسباتش** التي تصدر في مدينة « سان لويس » على لسان خبير شارك في « ورشة العمـــل » الخاصة بايران والخليج : « كان فقدان ايران لشكل اسلامي من الحكم

اكبر نكسة منيت بها الولايات المتحدة منذ سنين » .

ويسجل ادوارد سعيد رد فعل الاميركيين على النحو التالي : « بدا – قبل كل شيء – اننا نحن – كنا في وضع حرج ، ومعنا كل النظام الديمقراطي العقلاني العادي للامور . وفي مواجهتنا كان « الاسلام » بوجه عام يتألب في نوبة استنارة ذاتية . وكان المظهر الذي انعكس فيه في تلك الساعة هو ايران عصابية الى حد مثير للانزعاج » . (١)

ان تولد مثل رد الفعل هذا هو انعكاس لادراك اميركا لتدني هيمنتها دوليا . فمرة اخرى اثارت التطورات في ايران التساؤلات عن مدى فاعلية سياسة الحروب المحدودة ، اي سياسة التدخل . وحددت في الاذهان جديا اسئلة عن جدوى ومرغوبية تدخل عسكري اميركي في ايران (٢) .

لقد كان مبدأ الحروب المحدودة – طوال ربع القرن الماضي – مبدأ اساسيا في تشكيلات السياسة الخارجية الاميركية . فقد وقع – في المتوسط – تدخل اميركي مرة كل ١٤ شهرا في احد بلدان « العالم الثالث » خلال الفترة بين العام ١٩٤٨ والعام ١٩٧٠ ، اما ضد حكومة او ضد حركة لا توافق عليها الولايات المتحدة(٣) . وقد فهم كيسنجر، وهو من دعاة الحروب المحدودة ، المظهر الاساسي لمثل هذه الحروب بأنها ليست حروب غزو ولا حروب دفاع ، انما هي حروب محافظة . وقد اظهر فطنة – قبل ان يدخل السلطة في العام ١٩٦٨ – في فهمه لحرب فيتنام . وكتب يقول « ايا كانت نتيجة الحزب في فيتنام ، فان من الواضح انها قلصت الى حد كبير استعداد الاميركيين للتورط في هذا الشكل من الحروب في اي مكان . لهذا فان فائدتها كسابقة ، قد قوضت الى حد كبير(٤)».فكانت سياسات التدخل الاميركية عند مفترق طرق . وكان القرار هو مواصلة هذه السياسة لكن على ان يتحمل آخر عباها . وفي البداية اسمت « فتنمة » – كجزء من مبدأ نيكسون ومن هدفه المقترح وهو « بنية السلام » .

كانت السمات الاساسية الثلاث لهذا المبدأ هي :

أ – الانفراج كسياسة تكافل متضامن بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي .

ب – الانفراج الاميركي – الصيني .

ج – سياسة التدخلات المنخفضة التكاليف .

وقد استلزمت هذه الاستراتيجية :

١ — دعم وكلاء للولايات المتحدة في مناطق مهمة استراتيجيا في العالم .

٢ — اعادة تنظيم القوات المسلحة الاميركية في اسلحة تعتمد على تكنولوجيا رفيعة وكثافة راسمالية لدعم الجيوش المحلية كحلفاء يتعرضون للتهديد .

٣ — خفض عقبة * استخدام الاسلحة الذرية .

بزغت النقاط المحورية في مبدأ نيكسون في المناطق التي يحدها البحر الابيض المتوسط والمحيط الهندي ، حيث زرعت شبكة من الوكلاء الموالين للولايات المتحدة : تركيا تولت القواعد العسكرية الاطلسية والاميركية للتسمع على تحركات القوات السوفياتية . اليونان واسرائيل وايران والبرتغال — حيث قدمت دكتاتورية سالازار الموالية وجنوب افريقيا وبعض الدول الاخرى الاضعف العميلة للولايات المتحده التي لعبت دورا ثانويا . في هذا السياق بدأ نيكسون مبيعات الاسلحة للشاه ، التي ارتفعت قيمتها صاروخيا من ١٠ ملايين دولار في العام لاميركا قواعد عسكرية للاستخدام الاميركي والاطلسي ، وزائير — التي استخدمت كقاعدة لتقويض حركات التحرر الوطني الافريقي — ، ١٩٥٠ الى ٣٫٩١ مليارا في ١٩٧٤ ، و ٢٫٥ مليار دولار في العام ١٩٧٥ و ١٫٣ مليار دولار في ١٩٧٦ . وكانت اسلحة بقيمة ١٢٫١ مليار دولار معدة للتصدير الى الشاه حينما سقط .

ولم يكن في « بنية السلام » التي كان يخطط لها نيكسون وكيسنجر غير صدع واحد : انها كانت تسير في اتجاه مضاد لقوة التاريخ المنطلقة وللعملية التاريخية . وبالاضافة الى هذا فانها استهانت بقوة القوى الاجتماعية الصاعدة ، اذ نظرت الى الشعوب نظرتها الى بناء هندسي جامد . لقد ارادت استقرارا في منطقة تغيير ، وبحث عن دول عميلة في قرن للتحرر الوطني . وربطت مستقبلها بالحالة الراهنة المحتضرة ، حالة انعدام العدالة . « وقد ادى منطقها جدليا الى التكافل مع الطغيان ، مع البرتغال الفاشية واليونان العسكرية وايران الملكية ، واثيوبيا الملكية ... في النصف الثاني من

---

* يقصد بهذا المصطلح النقطة التي عندها يحدث التحول من الاعتماد على الاسلحة التقليدية الى الذرية .

القرن العشرين كانت هذه هي احجار الدومينو المتساقطة . » (٥)

بحلول منتصف العام ١٩٧٤ كانت « بنية السلام » النيكسونية قد انهارت تقريبا . كان الشاه يقف شبه وحيد ، يشتري المزيد من الاسلحة ويفرض المزيد من الاعباء على ايران . وبحلول العام ١٩٧٨ حول سقوط الشاه ونجاح الثورة الايرانية مبدأ نيكسون (الذي كان كارتر يطبقه فعليا) الى شيء بال .

وكان على الولايات المتحدة ان تصوغ سياسة جديدة بإزاء هذا التغيير الجذري في المنطقة . فسلمت بالحاجة الى بناء « جيش عمن جديد » (على درجة عالية من قدرة الحركة والالية . تتم ادارته بواسطة الحاسبات الالكترونية — الكومبيوتر — ويتكون من عناصر كلها من الجنود — التقنيين المتطوعين) . كان تصميم هذا الجيش يهدف الى الانتشار السريع ، والعمل الفوري ثم الفرار السريع . ومع ذلك فان الولايات المتحدة — طبقا لما تحدد في اوساط « اللوبي » بوزارة الدفاع الاميركية — كانت مصابة بعقدة « الاعراض الفيتنامية » وكتب معهد هوفر التابع لجامعة ستانفورد الذي يمتتع بنفوذ كبير — « ... لقد ترددت الادارة (كارتر) في التصرف بطريقة حاسمة او التخطيط على مدى استراتيجي . ان الاميركيين في الوقت الحاضر يخشون التدخل في اي مكان من العالم ، بصرف النظر عن مدى اهمية مصالحنا فيه . انهم يضعون ثقتهم في الدبلوماسية ، وليس في القوة العسكرية ... » ثم يشير المصدر نفسه بقوة الى انه « يتعين على الرئاسة ان تعيد تأكيد ذاتها في الثمانينات ، وان توقف الكونغرس عن التدخل في امور السياسة الخارجية ، وان تعود الى الدبلوماسية السرية »(٦). وهذا الذي يقترحه المعهد المذكور - الذي يجري تنفيذه بالفعل — هو تسخين الحرب الباردة (٧) .

وبالفعل فان الميزانية العسكرية الاميركية كانت قد بدأت تتزايد بحلول العام ١٩٧٨ . والمجالس الاستشارية الخاصة اوصت والحت على الحاجة الى وجود عسكري اضخم للقوات الاميركية في الخارج . فيوصي المجلس الاطلسي — نظرا لما يراه من انحدار في نفوذ الولايات المتحدة امام الاتحاد السوفياتي في مناطق داخل او حول الشرق الاوسط (افغانستان ، اثيوبيا ، اليمن الديمقراطي) بأن « على الولايات المتحدة ان تهيء نفسها لمواجهة التهديد السوفياتي عن طريق اجراءات للردع العسكري ... » ويحبذ التقرير نفسه « زيادة في

القوة البحرية للولايات المتحدة والحلفاء في المحيط الهندي ... ينبغي ان تكون القوات الاميركية مستعدة لتدخل انفرادي في الثورات المحلية او الصراعات الاقليمية ، على الرغم من ان الدعوة قد يمكن ان توجه اليها من دول محلية لكي تساعد في حماية المنشآت النفطية ، ويمكن ان تكون عليها مهمة منع اي تدخل بالقوة من جانب دول خارجية » (٨) كل ما يحتاج اليه الامر — اذن — هو بعض الذرائع التي تسمح للرئيس كارتر بأن يدفع الحرب الباردة نحو مستوى الغليان ... واخيرا اصبح بالامكان تبرير مطالب « اللوبي » الدفاعي واعطائها مشروعية ، وبالتالي اطلاق اشارة النهاية الممكنة لازالة « الاعراض الفيتنامية » .

ومنذ وقوع هذه التطورات تحركت ادارة كارتر سريعا لزيادة الميزانية الدفاعية ، فادخلت زيادة بنسبة ٥ بالمئة (بالاسعار الثابتة) على هذه الميزانية للسنة المالية ١٩٨١ ، الامر الذي رفع الميزانية العسكرية الى ١٥٧ مليار دولار . وتجري تقوية قوات حلف شمال الاطلسي من حيث القوة البشرية وحجم وتنوع ترسانتها . وبالاضافة الى هذا اكد الرئيس كارتر انه « لهذا الغرض فاننا بحاجة — ليس فقط الى قوات اقوى ، انما ايضا الى وسائل افضل للانتشار السريع للقوات من التي نملكها بالفعل . » (٩) .وباختصار فان التطورات في ايران لم تجعل اميركا تتخلى عن دورها الامبريالي او تعيد النظر فيه ولهذا فانها — لكي تبطل اثر سقوط الشاه — قد وضعت في جدول اعمالها دورا عسكريا اكثر سفورا في مكان آخر من المنطقة .

ايران ، تاريخ مقاومة

يتعين علينا — لكي نعود الى موضوعنا — ان نلاحظ ان المزيد من التحديد في رسم استراتيجية هجومية اميركية لن يردع الثورة في ايران . اذ يبين التدقيق في التاريخ الايراني — طوال السنوات المئة الماضية — ان الحركة الوطنية الايرانية قد حاربت الملكية وحلفاءها — المؤسسات والحكومات الاجنبية — في مناسبات عديدة . فان معركة ١٩٧٨ — ١٩٧٩ كانت ذروة سلسلة صراعات طويلة ومتداخلة . والحقيقة ان اول ائتلاف وطني في ايران ظهر في العام ١٨٧٨ لمعارضة « امتياز رويتر » .وكانت الملكية الحاكمة قد منحت البارون « جوليوس دي رويتر » حق احتكار لمدة خمسين عاما لكافة مصادر التعدين

والاتصالات في ايران . فبزغ ائتلاف من رجال الدين ومثقفي الطبقة الوسطى وتجار الاسواق للاحتجاج على هذه الامتيازات ، ونجح في الغائها .

وهكذا كسبوا معركة واحدة ضد مؤسسة اجنبية ، ولكن الحرب كانت ابعد ما تكون عن نهايتها . في العام ١٨٩٥ عادت الحركة للاحتجاج على منح امتيازات التبغ للمدعو الميجور تالبوت . واستمرت الانتفاضة ١٨ شهرا . والغيت الامتيازات . ولكن جاء في اعقاب هذا توسع المصالح البريطانية ودورها في التدخل في ايران .

عاود الوطنيون نشاطهم في العام ١٩٠٥ — وهو التاريخ الذي عنده يبدأ تحليل مجموعة الدراسات المختارة التي ننشرها هنا . وهي تتضمن خمس دراسات كتبها ابراهاميان منفصلة وعلى فترات زمنية مختلفة في خلال السنتين الماضيتين . ويبرز في كتابات ي. ابراهاميان الادراك بان الحشود السياسية لعبت دورا مهما في صنع التاريخ الايراني الحديث . فكانت وسيلة الى تنفيذ الثورة الدستورية وكسب الحرب الاهلية التي نتجت عنها ، وفي الصراع ضد الدول الامبريالية . ويشير وجود « الحشود » التي شاركت في الاضرابات والتظاهرات — من الناحية التاريخية — الى وجود عنصر تبرير تنظيمي (١٠) .

ويشير ابراهاميان — في الفصل عن « اسباب الثورة الدستورية » الى ان ادخال الدستورية والقومية والعلمانية — قد ساعد على تقويض النظام السياسي في ايران في عهد القاجار ويبين ان التأثير الاقتصادي — الاجتماعي للغرب هو السبب الرئيسي الحاسم » في الثورة . فقد كانت الطبقة الوسطى من الملاكين وشيوخ الطوائف الحرفية هي التي لعبت دورا مسيطرا في تشكيل نتيجة الثورة .

وطوال السنوات الاربعين اللاحقة — او نحو ذلك — واجه البريطانيون حركة وطنية استعادت حيويتها ، ترفض محاولات البريطانيين فرض وصايتهم . لهذا حارب الوطنيون في العام ١٩١٩ ضد محاولات اللورد كيرزون لفرض المعاهدة الفارسية الانكليزية التي كان من شأنها ان تحول ايران الى مستعمرة بريطانية فعلية . لهذا شنت المعركة والغيت المعاهدة . وفي العام ١٩٢١ قاد البريطانيون — من خلال محمد رضا خان — انقلابا . واعلن هذا الاخير نفسه — في العام ١٩٢٣ — ملكا واسس حكم اسرة بهلوي . وفي مطلع الحرب العالمية الثانية ، شك البريطانيون في وجود تعاون بين رضا خان

وهتلر ، من ثم تعاونوا مع الوطنيين في ارساله الى المنفى في جنـوب افريقيا . ومع ذلك فان البريطانيين لم يسلموا السلطـة للوطنيين ، واحتفظوا بدلا من ذلك بنظام وصاية حيث كان ابن رضا خان يتربـى في حضن الوصاية الاستعمارية . وبعد الحرب العالمية الثانية ، مـع الضعف الذي اصاب مركز البريطانيين دوليا ، دخلت الولايات المتحدة الى الساحة لتأييد حكم بهلوي حتى سقوطه في ١٩٧٨ ـــ ١٩٧٩ .

وفي الفصل عن « نقاط القوة والضعف في الحركة العمالية فـي ايران ، ١٩٤١ ـــ ١٩٥٣ » يتضح ان الحركة العمالية في العام ١٩٥٣ كانت على درجة من الضعف بحيث لم يكن باستطاعتها الحيلولة دون الانقلاب الذي وقع . ومع ذلك فانها « في العام ١٩٧٩ كانت على درجة كافية من القوة وعلى درجة كافية من الحسم بحيث تحول تمرد الطبقة الوسطى الى ثورة مشتركة للطبقة الوسطى والطبقة العاملة » .

لكن ينبغي ان لا يقودنا ظهور هذا التحالف باي حال الى القـول بأن الطبقة العاملة هي التي كانت تقوده . ففي خلال الفترة التـي تغطيها الدراسة كانت نقاط قوة الحركة العمالية مستمدة مـن

(أ) المأزق الاقتصادي لاصحاب الاجور ،

(ب) استعداد حزب « توده » لعرض هذه المظالم الاقتصادية من خلال اشكال متعدده من العمل النضالي . وعلى النقيض من ذلك فان نقاط ضعف الحركة كانت تتمثل في :

(أ) انها لم تكن تجاري القوات المسلحة في قوتهـا ، (ب) ان الطبقة العاملة لم تكن تشكل الا اقل من ١٠ بالمئة من مجموع السكان البالغين ، ولم تكن « اكثر من واحات منعزلة من الراديكالية محاطـة بصحراء من النزعة الاجتماعية المحافظة » .

وبعد ان نزود القراء بصورة عن تاريخ ديناميكيـة الشعـب الايراني ، نحول مركز اهتمامنا الى اسباب الثورة الايرانية ١٩٧٨ ، الأسباب الاساسية والتفسيرية . ويؤكد ابراهاميان هنا على التطورات الاقتصادية ـــ الاجتماعية في ايران ، التي ادت في النهاية الى تقويض هيمنة الشاه . ويشير في الوقت نفسه الى ان الشاه كان قد اخفـق في اقامة قاعدة اجتماعية لسلطته . وينتهي ابراهاميان الى انه « لكي تتمكن اية دولة من البقاء متخطية ازمة اقتصادية ـــ (ولا بد ان تواجه كل دولة عاجلا او آجلا مثل هذه الازمة) ـــ فانها تحتاج لان تكـون

قاعدة اجتماعية وان تتمتع بدعم طبقة كبيرة الى درجة لها مغزاها » .

ومن هذه النقطة ينتقل ابراهاميان الى التركيز على « القوى الاجتماعية في الثورة الايرانية » . وهو يدرج هذه القوى — لاسباب تحليلية — في خمس فئات ، لكي يمكننا من ان نفهم تعقيدات الوضع السياسي القائم والمكتمل . وفي الفصل عن « حركات حرب العصابات في ايران ، ١٩٧١ — ١٩٧٧ » يصف ابراهاميان غرضه من هذا الفصل في العبارات التالية » ... على الرغم من اهمية حركة حرب العصابات فان تاريخها سريعا ما يشوه ، ويساء استغلاله ، ويساء تفسيره ... من ناحية لان الحكم الجديد — شأن سلفه — معني بشده بنبذ الثوريين والتنديد بهم باعتبارهم ارهابيين و « ملحدين » وعملاء للاجانب . ويمكننا ان نميز بينهم مجموعتين من الاراء الاولى تسعى لتعزيز المكاسب التي تحققت من خلال « الثورة البورجوازية الوطنية » ، بينما تسعى الثانية الى تحويلها الى تغير اجتماعي ودفع الثورة نحو "ثورة اشتراكية للعمال والفلاحين" .

وخلال الفترة السابقة على العام ١٩٧٨ — وبناء على الادلة المتوفرة — لا يمكن تمييز نشاط سياسي منظم من جانب الفلاحين . لهذا يتولى ايريك ج . هوغلوند في الفصل عن « المشاركة الريفية في الثورة » البحث في السبب في ان الشباب الريفي كان مشتركا بنشاط شديد — خاصة في منطقة شيراز . وهو يلاحظ ان « جانبا من تفسير مشاركتهم يمكن ان يعزى الى تغيرات اقتصادية — اجتماعية ريفية في ايران منذ العام ١٩٦٢ » .

ونظرا للدور الرئيسي الذي لعبه آية الله الخميني في الثورة فاننا نختتم مجموعتنا من الدراسات المختارة بمقال يبحث في افكاره وآرائه في المجتمع والدين .

افكار نقدية

منذ سقوط الشاه صمدت الثورة في وجه ضغوط داخلية وخارجية على السواء ، بدت في خلال صراعات سياسية حقيقية . فجميع اولئك الذين قمعت حقوقهم منذ بداية القرن يعبرون عن انفسهم ويثيرون مطالب لهم . واصبح هناك وضع ثوري يتميز بتعبئة للجماهير الايرانية لم يسبق لها مثيل . لقد استطاع قسم كبير من الشعب ان يفجر ثورة في فترة زمنية قصيرة . وفي هذا السياق فان السؤال الذي يطرحه جون بيرغر هو سؤال مهم ويدخل في صلب الموضوع

بصورة ملفتة . انه يتساءل « الى اي حد يتطابق المستقبل الذي يجرى بناؤه الآن مع آمال الشعب في الماضي ؟ (١١) من ثم فان نجاح الحكم السياسي الجديد في ايران لن يختبره — ولا يمكن ان يختبره — مدى استقراره ، لان الاستقرار غالبا يدل على جمود ، ولا مستوى النمو الاقتصادي الذي سيتم بلوغه ، ولا ازاحة ارستقراطية (بيروقراطية) مميزة . وبأختصار فان النمو الاقتصادي ينبغي ان يستخدم لاشباع مطالب عدالة التوزيع ، والمؤسسات الجديدة لا بد ان تكون ادوات ليس فقط للتعبئة والسيطرة ، انما ايضا للمحاسبة . ولا بد ان يستجيب الدستور الذي اقر مؤخرا ورئيس الجمهورية الذي انتخب اخيرا استجابة نقدية وذات مغزى للازمة ، او لعقبات من نوع : الشرعية ، تصفية الاستعمار ، الديمقراطية ، التنمية ، التوزيع (للسلطة وللموارد) ، التكامل (القوميات والاقليات) .

لسوف يستمر المحللون — لزمن طويل آت — في دراسة ثورة العام ١٩٧٨ الايرانية . ومع ذلك فان المهم هو ان صراعا طويلا وخطيرا سوف يستمر في مداعبة شعب ايران وهو يتعلم كيف يتصارع مع الازمات التي ذكرناها .

اما فيما يتعلق بأميركا ، فانه سيتعين عليها ان تقبل الوقائع لهذا العصر ، عصر التحرير . وما ايران الا حكاية واحدة في هذه العملية . ويمسك كارلوس فونتيس — احد كبار الكتاب المكسيكيين ، في مقابلة مع صحيفة « نيويورك تايمز » بالحالة المزاجية للزمن الحاضر التي تمثل ايران تشخيصا لها . اذ « تذكر رحلة قام بها في انحاء المناطق النائية من المكسيك . وعندما وصل الى قرية بعيدة سال رجلا مسنا عن اسمها فكان جواب العجوز في الاوقات العصبية نسميها زاباتا ، وفي اوقات السلم نسميها سانتاماريا » .

وبالنسبة للسيد فونتيس فان هذا التقسيم الذهني المسالم ، هذا القبول في آن واحد بتاريخين متحاربين ، التاريخ الثوري التقليدي ، هو مفتاح احساس بالزمن والتاريخ يتعين على الغرب ، ليس فقط ان يفهمه ، انما ايضا ان يتعلم منه . فهو يقول « سوف نحتاج الى ذلك العجوز ، فان له ابن عم في الصين ، وشقيقا في ايران وابن اخ في مدغشقر » (١٢) .

نوبار هوفسبيان

بيروت ، شباط (فبراير) ١٩٨٠

١ — ادوارد سعيد ، فقرة من مخطوطة مقال معد للنشر عن الاعلام الاميركي وايران (١٩٨٠) . ولمزيد من الايضاح للموضوعة الرئيسية في هذه الفقرة انظر كتاب ادوارد سعيد الاستشراق ((Orientalism)) الذي سيصدر عن مؤسسة الابحاث العربية قريبا .

2- «Access to oil — The United States Relationship with Saudi Arabia and Iran», Staff Study, Senate (US.) Committee on Energy and Natural Resources (Dec. 1977).

ويدل الاطلاع على هذه الوثيقة على ان مثل هذه الخيارات كانت مطروحة قبل سقوط الشاه .

٣ — هذه النقطة موثقة توثيقا وافيا في المصادر التالية :

This point is adequately documented in the following : General David M. Shoup, «The New American Militarism». **Atlantic Monthly**, April 1969, pages 51-56, Harry Magdoff, «Militarism and Imperialism», **Monthly Review**, Feb. 1970, pages 1-14, Eqbal Ahmad, «A Perspective From the Third World on War and its Abolition» - Interview with Virginia Heisemen of the Institute for World Order, 1979.

في العام ١٩٦٢ — في خلال « ازمة الصواريخ الكوبية » — قدم دين راسك ، وكان آنذاك وزيرا للخارجية ، قائمة تحتوي على « امثلة لاستخدام القوات المسلحة الاميركية في الخارج ، ١٧٩٨ — ١٩٤٥ » الى اجتماع مشترك للجنة العلاقات الخارجية ولجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ الاميركي يوم ١٧ ايلول (سبتمبر) عام ١٩٦٢

وقد قدم راسك هذه الوثيقة التي حددت ١٦٩ مثالا خلال الفترة المذكورة ، كدليل على سوابق عديدة على استخدام القوة دون تخويل من الكونغرس .

Authorization. (US. Senate Committee on Foreign Relations and Committee on Armed Services, **Hearing**, «Situation in Cuba», 87th Congress, second session, September 17, 1962 - Wash. D.C. Government Printing Office, 1962, pages 82-87.

وفي دراسة اخرى — قوة بدون حرب : **القوات المسلحة الاميركية كاداة سياسية** يؤكد المؤلفان انه بين العام ١٩٤٦ والعام ١٩٧٥ استخدمت الولايات المتحدة قواتها المسلحة كاداة سياسية خفية نحو ٢١٥ مرة .

Force Without War: U.S. Armed Forces as a Political Instrument; Barry M. Bleechman and Stephen S. Kaplan, Brookings Institution, Dec. 1978, 4584 pages.

٤ — كما نقلها اقبال احمد في:

«What's Behind the Crises in Iran and Afghanistan» — Lecture at the Riverside Church Disarmament Program, New York, Jan. 20, 1980,

p. 8 of the transcript».

5- i.b.i.d. p. 9.

6- Peter Duignan and Alvin Rabushka (editors) **The United States in the 1980's**, «Middle East» by Peter Duignan and L.H. Gann, pages 757-797 (p. 797).

٧ — فصل هذا الراي بدقة :

Richard J. Ghalen in «Its Time to Reverse our Retreat and Resume the Cold War.» **The Washington Post**, Jan. 20, 1980.

وفي العدد نفسه يردد جورج بول وكيل وزارة الخارجية السابق ، وعضو مجلس العلاقات الخارجية نغمة الحاجة الى مكانة عسكرية متجددة في « شريان حياتنا المهدد » .

8- «Oil and Turmoil: «Western Choices in the Middle East» - **The Atlantic Community Quarterly**. Vol. 17, No. 3, Fall 1979.

يرأس مجموعة العمل الخاصة بالشرق الاوسط التي وضعت هذا التقرير اللفتنانت جنرال اندرو ج. غود باستر قائد الاكاديمية العسكرية الاميركية (رئيسا) ، اللفتنانت جنرال برينت سكوكرافت المساعد السابق للرئيس لشؤون الامن القومي ، جون سي كامبل المدير السابق للدراسات ، مجلس العلاقات الخارجية — وهو اهم هيئة مقررة في مجال صياغة السياسة الخارجية الاميركية (مقررا) ، اما الاعضاء الاخرون فبينهم : جيمس ايكنز السفير السابق لدى السعودية ، جورج بول وكيل وزارة الخارجية السابق ، وريتشارد هيلمز المدير السابق لوكالة الاستخبارات المركزية والسفير السابق لدى ايران ... الخ

٩ — خطاب الرئيس كارتر امام مجلس الاعمال Business Council في صحيفة نيويورك تايمز ، ١٣ / ١٢ / ١٩٧٩ . انظر ايضا خطاب الرئيس كارتر عن « حالة الاتحاد » نيويورك تايمز ، ٢٤ / ١ / ١٩٨٠ .

١٠ — ناقش ابراهاميان مفهوم « الحشود » باستفاضة في مقاله

«The Crowd in Iranian Politics», **Past, Present**, No. 41, Dec. 1968, pp. 1842-211. (انظر الجزء الثاني من هذا الكتاب) .

11- John Berger «The Peasant Experience and the Modern World», **New Society**, May 17, 1979 - See also his **Pig Earth** (London: Writers and Readers Publishing Cooperative, 1979).

وهذا الاخير هو المجلد الاول من عمل بصدد الاعداد من ثلاث مجلدات — ادبي ، وتحليلي وتاريخي عن الانتقال من المجتمع الفلاحي الى المدينة الحديثة .

12- Richard Eder «For the Writer Carlos Fuentes, Iran Brings Deja Vu» **New York Times**, Jan. 9, 1980.

الجزء الأول

- **خلفيات و عوامل الثورة الدستورية ١٩٠٦**
- **عوامل القوة و الضعف في الحركة العمالية ١٩٤١-١٩٥٣**
- **اسباب ثورة ١٩٧٨**
- **القوى السياسية في الثورة الايرانية**
- **حركة حرب العصابات ١٩٧١-١٩٧٧**

يرفند ابرهميان

- **مشاركة الريف في الثورة**

ايريك هوغلوند

خلفيات و عوامل الثورة الدستورية ١٩٠٦

يرفند ابرهميان

نظريات الثورة

ربما لم يعد شبح كارل ماركس ، نبي الثورة ، يطارد السياسيين المحافظين ، الا ان ماركس ، منظر الثورة ، يستمر في شد واثارة علماء الاجتماع.ويقول احد تلامذة السياسة بأن العلوم الاجتماعية ، وخاصة علم الاجتماع السياسي،يمكن أن توصف بأنها « حوار قرن مع كارل ماركس » (١) . وكما صرح بذكاء أحد مؤرخي الافكار البارزين : يمكن ان نعتبر كارل ماركس قابلة الفكر الاجتماعي للقرن العشرين ، « ففي نبذهم لما اعتبروه باطلا في الماركسية ، وتوضيحهم للنواحي المفيدة فيها ، اتخذ مجددو أواخر القرن التاسع عشر خطواتهم الاولى نحو بناء نظرية أعم للواقع الاجتماعي (٢) » . فقد طور اميل دوركهايم مثلا ، نموذج « التضامن العضوي الميكانيكي » لمواجهة نظرية الصراع الطبقي (٣) . واكد كل من فلفريد باريتو وكايتانوموسكا على الانقسام الثنائي بين النخب الحاكمة والجماهير المحكومة ، وذلك من أجل استئصال مفهوم الطبقات الاجتماعية – الاقتصادية (٤) . وصاغ روبرت مايكلز « القانون الحديدي للاوليغارشيا » لكي يحذر من أن التنظيمات الجماهيرية ، كالاحزاب

● يرفند ابراهيميان : Ervand Abrahamian ، ايراني ، حصل على درجة دكتوراه في التاريخ من جامعة كولومبيا في الولايات المتحدة ، عن رسالة حول حزب « توده » عام ١٩٦٨ . وضعه الماهه بالبنية الاجتماعية في ايران في مقدمة المتخصصين في تاريخ ايران المعاصر ، وهو يعمل أستاذا في نيويورك في جامعة City University, New York-Baruch

● نشرت هذه الدراسة في :

Int.J. Middle East Studies 10/1979
The Causes of the Constitutional Revolution in Iran

الاشتراكية الديمقراطية لن تحل عصر الاشتراكية الديمقراطية محل عصر اوتوقراطية الاشتراكيين البيروقراطيين (٥) . وكرس ماكس فيبر Max Weber ، بالطبع ، الكثير من عمله ليبين أن ديناميكية الصراع الطبقي يجب ان تدرس بشكل متلازم مع المخلفات الثقيلة للايديولوجيات المحافظة ، والاديان التقليدية والجماعات الاثنية المنغلقة ، والمؤسسات البيروقراطية (٦) .

أضرم احياء الاهتمام مؤخرا بنظريات الثورات من جديد ، نار الحوار القديم بين الماركسيين الذين يؤكدون على دور الطبقات وغير الماركسيين الذين يؤكدون على دور الافكار والثقافات والاديان والايديولوجيات (٧) . لقد جادل ماركس قائلا بأن التغيرات في القاعدة الاقتصادية للمجتمع قد خلقت قوى جديدة ومصالح جديدة في البنية الطبقية للمجتمع ذاته . كما أن هذه التغيرات الاجتماعية ، بالمقابل ، قد قوضت أساس البنى الفوقية السياسية والمؤسساتية والايديولوجية للطبقة الحاكمة . وأبن انجلس زميله وقت الجنازة قائلا بأن مساهمة ماركس الاساسية كانت في أنه برهن على أن البنية الفوقية لاي مجتمع وخاصة القيم والقوانين والتنظيمات السائدة تقوم على أساس البنية الطبقيةلا العكس ، كما ادعى الفلاسفة السابقون ومنهم هيغل بشكل خاص (٨) . وهكذا ، يعتقد ماركس أن سبب الثورات لا ينبع من التمزق الحاصل في نمط الادراك بل من التحديث في وسائل الانتاج ، لا من الافكار الراديكالية بل من الطبقات الثورية ، لا من « المحرضين الخارجين » و « الدعاة فارغي الرؤوس » ، و « الفوضويين السريين » و « خيميائي الانتفاضة السحرة » * . بل من قبل الطبقات الاجتماعية الواسعة القابلة للحياة ، وليس من قبل مجموعات المثقفين الصغيرة بل من قبل الطبقات الرئيسية التي تقاتل في سبيل مصالحها الخاصة في الوقت الذي « تلهم » الجماهير فيه بحلم « النظام الاجتماعي الجديد » (٩) .

بالرغم من أن ماركس وانجلس اعتبرا الايديولوجيات بمثابة جزء من البنية الفوقية الخاضعة للبنى الاجتماعية ، الا أنهما لم ينكرا امكانية تطور الايديولوجيين الراديكاليين أحيانا الى قوى مستقلة قادرة على المساهمة في تحطيم الطبقة الحاكمة . وقد احتج

---

* الذين اشتغلوا بالكيمياء القديمة (المترجم) .

انجلس في شيخوخته عندما حاول تلامذة جدد اختزال كل الظواهر واخضاعها للتفسيرات الاقتصادية ، لان « دليل ماركس للتاريخ » قد وضع ليبرهن على ان نمط الانتاج قد شكل القوة الجازمة « الاساسية » ، ولكن ليس بالضرورة « الوحيدة » ، في عملية التغيير :

حسب المفهوم المادي للتاريخ ، ان العنصر المقرر في النهاية في التاريخ هو انتاج واعادة انتاج الحياة الحقيقية . ولم نؤكد ، لا أنا ولا ماركس على اكثر من ذلك . لذا ، اذا ما حاول شخص ما أن يحرف ذلك بقوله ان العنصر الاقتصادي هو العنصر الوحيد الحاسم، فانه يحول هذه المقولة الى تعبير مجرد تافه لا معنى له . ان الوضع الاقتصادي هو الاساس ، الا ان العناصر المختلفة من البنية الفوقية — الاشكال السياسية للصراع الطبقي ، الدساتير ، الاشكال القضائية، وانعكاسات كل هذه النضالات الحقيقية في أذهان المشاركين فيها ، كالنظريات السياسية والقانونية والفلسفية ، والآراء الدينية ونظم المعتقدات — تؤثر في مجرى النضالات التاريخية ، وقد تطغى في احوال كثيرة ، في تحديد شكلها . هناك تفاعل بين كل هذه العناصر ، حيث تفرض الحركة الاقتصادية نفسها في النهاية كضرورة (١٠) .

ان التفاعل بين البيئة الاجتماعية — الاقتصادية والقوى الايديولوجية ، قد أصبح محور اهتمام مدرسة المؤرخين الماركسيين التجريبيين في بريطانيا . فقد كرس كرستوفر هل قسما كبيرا من اعماله مثلا ، لدراسة العلاقة المركبة بين البيوريتانية وجماعة الطبقة الوسطى في الثورة الانجليزية (١١) . وفصل ادوارد تومبسون مساهمة الثقافة الراديكالية في تكوين وعي الطبقة العاملة في بداية انجلترا الصناعية (١٢) . وبحث جورج روده في دور القيم الشعبية، في بداية أوروبا الحديثة ، في الاضطرابات الجماهيرية ، كأعمال الشغب المطالبة بالخبز ، والاضطرابات الفلاحية ، والمظاهرات السياسية (١٣) . وأخيرا ، وصف اريك هوبسبوم كيف يعبر الاستياء الجماهيري عن نفسه بأشكال مختلفة في المجتمعات الزراعية والمجتمعات في طور التصنيع وفي المجتمعات الصناعية تماما (١٤) . ففي مقالته « مساهمة كارل ماركس في التأريخ » ، وصف هوبسبوم زملاءه من الماركسيين الذين يفشلون في ادراك العلاقة المركبة بين البنية الاجتماعية والبناء الفوقي الايديولوجي بأنهم

« حتميون مبتذلون » (١٥) .

وبينما يعزو الماركسيون الايديولوجيا للواقع الاجتماعي والافكار الراديكالية للطبقات المستاءة ، عادة ما يستعمل غير الماركسيين — السلوكيون منهم ، واصحاب المذهب الوظائفي البنيوي — * الاطار الذي طوره في البداية دي توكوفيل ، الذي ربط الثورات السياسية والانتفاضات الاجتماعية بالتجديدات الفكرية والتمزقات الثقافية(١٦) . لقد جادل تالكوت بارسونز احد قياديي الوظائفيين البنيويين ، قائلا بأن النظم الاجتماعية عادة ما تكون مندمجة جيدا بواسطة نظم القيم فيها ، ولكنها تفقد توازنها الداخلي احيانا بسبب « ثقافات مضادة « منحرفة » أو « ممزقة » (بكسر الزين) أو « مختلة الوظيفة » أو « مستلبة » (١٧) .

وبشكل مماثل نرى ان « تيد جر » ، السلوكي الرئيسي الذي تفحص اسباب الثورة قد جادل قائلا بأن وجود هوة واسعة بين توقعات الافراد وما يحصلون عليه تخلق « حرمانا نسبيا » ، وان هذا الحرمان النسبي يخلق بدوره « احباطا عدوانيا قد ينمي بالتالي « عقلية ثورية » (١٨) .

ان هدف هذه المقالة هو تطبيق نظريات الثورة ،الماركسية وغير الماركسية،على الثورة الدستورية الايرانية ١٩٠٥ — ١٩٠٧ .وبالرغم من أن كثيرا من المؤرخين — في ايران وخارجها — قد تفحصوا أسباب اضطرابات عام ١٩٠٥ — ١٩٠٧ ، الا ان قليلا منهم اختبروا هذه النماذج النظرية بشكل منهجي . على العكس من ذلك فقد استعمل معظمهم ، بشكل غير منهجي — وحتى من دون معرفة — طريقة تشابه تلك التي طورها في البداية دي توكوفيل .
لقد جادل المؤرخون الكلاسيكيون الايرانيون للحركة الدستورية — احمد كسراوي ومهدي ملك زاده ويحيي دولة عبادي ونظام الاسلام كرماني — قائلين بأن الافكار الحديثة حول الحرية والمساواة والاخاء التي دعا اليها المثقفون المتغربنون ، قد « ايقظت » « الجمهور النائم » في نهاية القرن التاسع عشر ، وأدت الى فتح الطريق أمام « الانبعاث القومي » (١٩) .

---

* Bechaviorists and structural functionalists

كما اكد اهم المؤرخين المعاصرين في ايران مثل فريدون وعلي شامم وابراهيم صفائي وحافظ فرمان فرمايان ، ان الاسس الايديولوجية للاستبداد التقليدي قد صدعها دخول المفاهيم الحديثة حول الوطنية ، والعلمانية ، والليبرالية (٢٠) . هذا التفسير الهويغي * يتجسد عن طريق تأريخ شعبي حديث للحركة الدستورية فالمؤلف يستهل مناقشته قائلا « ان الماضي يبرهن أن ليس هناك قوة بمقدورها أن تمنع انتصار الحرية » ، ثم يخلص الى ان قدوم المفاهيم الغربية قد خلق ثورة ثقافية انتجت ، بالمقابل ، ثورة اجتماعية ـ سياسية (٢١) .

استعملت المراجع الغربية حول ايران الاسلوب ذاته دون تغيير (٢٢)

فقد بدأ ادوارد براون مثلا ، دراسته الكلاسيكية حول «الثورة الفارسية بين ١٩٠٥ ـ ١٩٠٩ » واصفا كيف ترك الفكر السياسي الاوروبي اثره على جمال الدين الافغاني وميرزا ملكوم خان ، وغيرهما من المصلحين المشهورين في نهاية القرن التاسع عشر في ايران (٢٣).

وارجع السير بيرسي سايكس ، في كتابه « تاريخ فارس » اصول « اليقظة » السياسية للبلد الى انشاء الآلة الطابعة ، والمؤسسات التعليمية وخطوط البرق والمصارف الاجنبية والقنصليات البريطانية (٢٤) . وفي كتابه « ايران : الماضي والحاضر » ، ادعى دونالد ولبر بأن جذور « الهياج السياسي » تعود الى اتصال المثقفين الشبان بـ « الفكر الليبرالي الغربي » (٢٥) . وفي الوقت الذي وصف فيه « بيتر افري » في كتابه الرئيسي « ايران الحديثة » ، الانحدار العام للبلد في منعطف القرن العشرين ، أكد على دور الافكار الجديدة في الثورة الفعلية (٢٦) . وأخيرا ، جادل ليونارد بندر ، مؤلف دراسة نادرةتطبق النماذج السوسيولوجية، وبخاصة النموذج الوظائفي البنيوي على التطور التاريخي لايران الحديثة،جادل بأن ادخال المفاهيم الغربية حول الشرعية ، وبخاصة مبادىء القومية والعلمانية والدستورية قد ولد عصر الثورة في ايران المعاصرة (٢٧) . لقد كان هدف ماركس وضع هيغل « على قدميه » حين بين بأن جذور الوعي

---

* نسبة الى حزب « الهويغ » whig البريطاني الذي أيد الاصلاح في الماضي وسعى بعد ثورة ١٦٨٨ الى اخضاع سلطة التاج للبرلمان والطبقات العليا ، وخلفه لاحقا حزب « الاحرار » (المترجم) .

البشري انما تكمن في الوجود الاجتماعي . الا ان بندر حاول قلب ماركس « رأسا على عقب » حين جادل قائلا أن الثورات الايديولوجية — لا الطبقات وجماعات المصالح المشتركة والتكونات الاجتماعية الاخرى — هي التي تسير الثورات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

تختبر هذه الدراسة نظريات الثورة الماركسية منها وغير الماركسية من خلال تقييمها للاهمية النسبية للتجديد الايديولوجي والقوى الاجتماعية في الثورة الايرانية . فهي تقارن دور الافكار الراديكالية مع دور الطبقات المستاءة ، ودور المفاهيم والمعتقدات ونظام القيم الحديثة مع دور المجموعات الاقتصادية — الاجتماعية الحديثة ، ودور المثقفين — حملة الافكار الجديدة — مع دور المصالح الاجتماعية الرئيسية ، ودور الابتكارات في نمط المفهوم العقلي ، مع دور التمزقات الحاصلة في نمط الانتاج والتوزيع الاقتصاديين .

ويتطلب تعبير « الثورة » توضيحا اوليا حيث انه اصبح كلمة اسفنجية تمتص ظواهر متنوعة مثل انتفاضات الفلاحين وتمردات الجيش والاصلاحات التي تمليها الحكومة والتجديدات العلمية والتحولات الصناعية والاشكال المختلفة لتصفيف الشعر وبطبيعة الحال ، التغييرات السنوية في تصميم السيارات . واكثر من ذلك ، فقد جادلت آن لامبتن قائلة انه لا يمكن وصف الثورة الدستورية في ايران كثورة حقيقية لان المشاركين فيها ارادوا اصلاح المجتمع التقليدي وليس اقامة نظام حكم عصري . (٢٨) انني استعمل تعبير « ثورة » ليعني تغييرا حادا ومفاجئا واحيانا عنيفا في الموقع الاجتماعي للسلطة السياسية ، يعبر عن نفسه في تحول جذري في النظام وفي الاساس الرسمي للشرعية وفي مفهوم الدولة للنظام الاجتماعي (٢٩) . ان تعابير « حاد » و « مفاجيء » و « عنيف » تستعمل لتمييز الثورات عن كل من التحولات التدريجية التي تحققها قوى خارج الحكم ، وعن الاصلاحات السلمية التي يطلقها محدثون داخل الحكم . ان التغيير في الموقع الاجتماعي للسلطة السياسية يعني أن مواقع الحكم في مركز الدولة تنتقل اما من ايدي طبقة الى اخرى او من مجموعة الى مجموعة اجتماعية اخرى تختلف عنها اختلافا ذا دلالة . ان النظام يعني نظام حكم الدولة : استبداديا او ملكيا او ملكيا محددا او برلمانيا او ديمقراطيا او اليغارشية برلمانية . اما الاسس الرسمية للشرعية فتعني طريقة النظام في ادعاء

سيادته وانشاء قانونيته وتحويل السلطة الثورية الى سلطـــة مقبوله . ان مفهوم الدولة للنظام الاجتماعي يعني ادراك النظـــام لماهية المجتمع الصحي وما يجب أن يكون عليه دور الحكومة في مثل هذا المجتمع وماذا كانت مسببات انحطاط النظام السابق .

باستخدامنا هذا التعريف تكون الثورة الدستوريـــة في ايران ثورة حقيقية . لقد كانت حادة ومفاجئة وعنيفة ، وخاصة في الاقاليم خلال عامي الحرب الاهلية التاليين . وتضيق المساحة هنا عـــن مناقشة الحرب الاهلية الدموية ، والاهم هو ان الثورة الدستوريـــة سببت نقلة فورية في الموقع الاجتماعي للسلطة من البلاط الملكـــي الذي يحكمه شاهات القاجار الى برلمان وطني تسيطر عليه أساســـا الطبقات الوسطى في المدن . وأكثر من ذلك فان القاجار لم ينجحـــوا قط في اعادة ارساء استبدادهم رغم أن الحركة الثورية ضعفت فـــي العقد الثاني من هذا القرن بسبب التناقضات الداخلية والتدخـــلات الاجنبية والانتفاضات القبلية . وابعد من ذلك ، أن ما نشأ فـــي العشرينات لم يكن اعادة تأسيس الاستبداد القديم بل كان تأسيس حكم مطلق جديد مسلح بأدوات قسر عصرية مثل جيش دائم عامـــل وبيروقراطية ممتدة على نطاق البلاد كلها . لقد اختلف رضا شـــاه بهلوي عن القاجار اختلاف نابوليون عن آل بوربون واختلاف كرومويل عن آل ستيوارت . لقد سببت الثورة الدستورية كذلك تحـــولات جذريـــة في نظام الحكم (مـــن الملكية الاستبداديـــة الى الملكيـــة الدستورية) ، وفي الاسس الرسمية للشرعية (من ادعاء ظل الله على الارض والحق الالهي للملوك الى سيادة الشعب والى حقـــوق الانسان وحقوق الملكية غير القابلة للتصرف) . كما احدثت الثورة تحولات جذرية في المفهوم الرسمي للنظام الاجتماعي (من نظام وراثي وهرمي الى نظام مساواة ديمقراطي مفترض حيث يتمتع جميـــع المسلمين نظريا ، دون اعتبار لاصلهم العائلي ، بفرصة مفتوحـــة للوصول الى مراكز في السلطة .

واخيرا ، كانت الثورة الدستورية ثورة حقيقية اذ أنهـــا استحدثت نظاما جديدا بدل أن تعيد بناء النظام القديم . وقد نفـــى بالطبع الكثيرون من المشاركين في هذه الثورة ان يكون قصدهم ادخال نظام جديد ، واعتقدوا ، صادقين ، بأنهم كانوا يصلحون النظـــام القديم ويمنحونه حياة جديدة وعزما جديدا . ولكن بالطريقة نفسهـــا التي حلا بها للجمعية الفرنسية أن تصور نفسها وكأنها الجمهوريـــة

الرومانية وكما اعتبر البيوريتانيون الانجليز انفسهم انجلو ـ سكسونيين أحرارا يريدون القضاء على النير النورماندي ، كذلك اعتقد الثوريون الايرانيون بأنهم يعودون الى التقاليد القديمة ، بينما كانوا في الحقيقة ، يدخلون شيئا جديدا لم يعرفه مجتمعهم من قبل الا وهو حركة سياسية على نطاق البلاد تطالب بجمعية وطنية منتخبة للحد من سلطة الشاهنشاهيين . وغالبا ما اشاروا الى تعاليم الائمة ، علي والحسين والحسن ، ولكن لم يسبق لاي من ائمة الشيعة هؤلاء ان تحدث عن جمعيات وطنية منتخبة . وبكلمات ماركس :

ان تقاليد كل الاجيال الميتة ما زالت ثقل ككابوس على عقول الاحياء . وفي الوقت الذي يبدو الناس فيه منشغلين بتنوير ذواتهم والاشياء وفي خلق اشياء لم توجد قط من قبل ، في مثل فترات الازمات الثورية هذه ، على وجه الدقة ، تراهم تواقين الى استحضار أرواح الماضي لخدمتهم ، يستعيرون منها الاسماء ، وصرخات الحرب والازياء من اجل تقديم المشهد الجديد في قناع الزمن المبجل هذا ، وهذه اللغة المستعارة . (٣٠)

ايران في أوائل القرن التاسع عشر

استعمل علماء الاجتماع تعبير « طبقة » بطريقتين مختلفتين على الاقل : اولا ، كتصنيف سوسيولوجي للافراد ذوي مصادر الدخل المتماثلة ، وذوي الدرجات المتماثلة من التأثير ، وذوي انماط الحياة المتماثلة . ثانيا ، كتعبير اجتماعي ـ سيكولوجي لتصنيف الافراد الذين يتشاركون ليس في مراكز متوازية في التسلسل الهرمي الاجتماعي فحسب ، بل الذين تجمعهم أيضا مواقف اقتصادية وثقافية وسياسية .

وصف ماركس الاولى كطبقة « بحد ذاتها » ولكن ليس طبقة من « أجل ذاتها » بعد ، ووصف الثانية كطبقة « من اجل ذاتها » و « بحد ذاتها » أيضا (٣١) . وبالطريقة نفسها ميز علماء الاجتماع الحديثون بين الطبقات الاجتماعية ـ الاقتصادية ، الكامنة والموضوعية ، مقابل الطبقات الاجتماعية ـ السياسية الظاهرة والذاتية (٣٢) . ومن الواضح ان الطبقات بالمعنى الاول تتواجد فعلا ، بدرجات متفاوتة في كل المجتمعات ، اما الطبقات بالمعنى الآخر فلا توجد بالضرورة في كل المجتمعات .

في أوائل القرن التاسع عشر ، تواجدت الطبقات في ايران حسب المفهوم الاول ولكنها لم تتواجد حسب المفهوم الثاني (٣٣) .

ويمكن تصنيف السكان ، الذين لم يزد عددهم عن ٥ ملايين نسمة في خمسينات القرن التاسع عشر ، الى طبقات رئيسية اربع . الاولى هي طبقة ملاك الاراضي العليا ، والتي تألفت من نخبة مركزية ومن العديد من النخب المحلية . وشملت النخبة المركزية سلالة القاجار والامراء الملكيين ورجال البلاط ذوي النفوذ واصحاب الاقطاعات الواسعة والمحاسبين بالوراثة والوزراء الملكيين والحكام الاميريين ، وموظفي الدولة ذوي الالقاب (اعمدة الملك) و « الملكز » (منتصري المملكة) و « الدولز » (مساعدي الدولة) ، والممالك (قوى المملكة). اما النخب المحلية فكانت تضم الاعيان المحليين ، والنبلاء الريفيين (الاشراف) ،وزعماء القبائل ، والاداريين من اصحاب الاملاك الثابتة وحملة الالقاب بالوراثة . المعينون من قبل الدولة اي القضاة المشرفون على محاكم الدولة ، وكذلك ائمة الجمعة ، المسؤولون عن « مساجد الجمعة » في المدن الرئيسية ، وشيوخ الاسلام الذين يديرون المحاكم الدينية الرئيسية . واصبحت النخب المركزية والمحلية تعرف ، فيما بعد باسم الارستقراطية ، والاقطاب ودوائر القوة ، وطبقة ملاك الاراضي « الاقطاعية » . وشملت الطبقة الرئيسية الثانية ، اي الطبقة الوسطى المالكة تجار المدن ، وملاك الاراضي الصغار ، بالاضافة الى اصحاب حوانيت البازار والمشاغل . وحيث ان رجال الاعمال والتجار والحرفيين هم الذين مولوا جوامع البازار والمدارس ، والمدارس الدينية ، و « التكايا » ، والمؤسسات الدينية الاخرى (الاوقاف) ، فان الطبقة الوسطى الملكية قد ارتبطت بقوة برجال الدين (العلماء) وبكافة الوعظة ومدرسي القرآن ، وطلبة المعاهد الدينية ، ورجال الدين الصغار ، وحتى بعلماء الدين الكبار ، اضف الى ذلك ان بعض افراد البازار قد ادعوا انهم من سلالة الرسول .

وتكونت الطبقة الثالثة من كسبة المدن ، كالحرفيين الاجراء والمتدربين والعمال المياومين وخدم البيوت والحمالين والشغيلة وعمال البناء .

واخيرا ، تألفت الطبقة الرئيسية الرابعة من غالبية سكان الريف والجماهير القبلية ، والفلاحين المعدمين وشبه المعدمين .

كانت هذه الطبقات الاربع مجرد طبقات سوسيولوجية كامنة وموضوعية فحسب . وفشلت في أن تتطور الى طبقات اجتماعية – سيكولوجية ظاهرة وذاتية ، وذلك بسبب سيطرة الروابط

الطائفية * المحلية المعتمدة على النسب القبلي والطوائف الدينية والمشاعر اللغوية والنسب الابوي . مخترقة الخطوط السوسيولوجية ـ الاقتصادية ، مزقت الولادات الطائفية الشرائح الافقية ، وقوت الانقسامات العامودية ، واعاقت بالتالي ، نمو طبقات سوسيولوجية ـ سياسية واعية ذاتيا . وكان ماركس قد قال بكلمات اخرى ، أنه طالما يتشارك افراد عديدون في طرق حياة متماثلة وفي مواقع متماثلة في نمط الانتاج وفي علاقات متماثلة تجاه وسائل الادارة ، فانهم يكونون طبقات اجتماعية ـ اقتصادية . ولكن طالما تقيد هؤلاء بالروابط المحلية ، وفشلوا في تخطي العوائق الاقليمية ، وفي ابراز مصالح تمتد على نطاق البلاد ، فانهم لا يشكلون طبقات اجتماعية ـ سياسية مستقلة .

تجد الانقسامات الطائفية (Communal) جذورها بشكل رئيسي في جغرافية ايران . لقد ادت شحة واضحة في الامطار ونقص عام في الانهر والبحيرات الصالحة للملاحة ووجود هضبة مركزية شاسعة واربع سلاسل جبلية هائلة ، مجتمعة ، الى جعل السفر عملية شاقة والاتصالات عملية صعبة . وهكذا فان الجغرافيا تقسم السكان الى طوائف صغيرة والى قرى منعزلة ومدن صغيرة وقبائل رحل . وعاش الفلاحون ، الذين يشكلون اكثر من ٦٠ بالمئة من سكان البلد، في حوالي ١٠ آلاف قرية صغيرة . وعاش السكان الحضر الذين يشكلون اقل من ٢٥ بالمئة ، في حوالي عشرة مدن كبيرة وحوالي ٧٠ مدينة صغيرة ، كما أن البدو ، الذين يشكلون حوالي ١٥ بالمئة من السكان ، تجمعوا في ١٦ اتحادا فيدراليا رئيسيا . ينقسم كل اتحاد منها الى قبائل عديدة وقبائل فرعية ومضارب متنقلة .

لقد انعكست الانقسامات في عزلة اقتصادية نسبية وتعززت بها .

وحتى نمو التجارة في الجزء الثاني من القرن التاسع عشر ، كانت مناطق كثيرة مكتفية ذاتيا بشكل واسع ، تنتج وتستهلك الكثير من الحاجات الزراعية والحرفية (٣٤) . وانحصرت التجارة المتواضعة آنذاك في بضائع الترف الموجهة الى الاسواق الاجنبية او الى احد المراكز المدينية القليلة . اضف الى ذلك ان هذه التجارة المتواضعة كانت مقيدة على الدوام بالطرق ، التي لا يعتمد

---

* Communal

عليها ، والمناطق الوعرة والمسافات الطويلة والكوارث الطبيعية واهمال الحكومة والاضطرابات الاجتماعية كاللصوصية الريفية والانتفاضات القبلية.كان الطريق العام بين الميناء الجنوبي خوارمشهر وطهران بطيئا جدا بحيث انه كان من الاسرع السفر من الخليج الفارسي الى البحر الاسود بالقارب ، ومن البحر الاسود الى بحر قزوين عن طريق اليابسة ، ومن باكو الى انزيلي Anzeli بالقارب ثانية ، واخيرا ، من أنزيلي الى طهران عن طريق اليابسة أيضا . وخلق الفقدان العام لوسائل الاتصال أزمات دورية حيث كان يمكن لمنطقة ما أن تعاني من المجاعة الرهيبة في حين كانت أخرى تتمتع بوفر من المحاصيل .

غالبا ما اجتمعت العوائق الجغرافية الى الفروقات اللغوية ، فقد عاش الفرس ، وقبائل بختيار وقاشقايس ، والعرب واللور ، في الهضبة المركزية ، وتوزعت مجموعات صغيرة من البلوش والافشار (٢٣) والعرب في الصحاري الجنوبية الشرقية . وعاشت في المناطق الشمالية الشرقية قبائل الازيرس ، والشاهسوان والاكراد بالاضافة الى الارمن والاشوريين المبعثرين في مستوطنات وقرى صغيرة . وسكن افراد الجلاكس والتاليش والمازندراان مقاطعات القزوين . واخيرا سكن الفرس والتركمان والاكراد والشاهسوان والافشار والتيمور والبلوش والطاجيك والجمشيديين ، في المناطق الشمالية الشرقية . لذا ، كانت ايران بلد التنوع اللغوي .

عقدت الانقسامات الدينية العوائق الاجتماعية . فهذه الانقسامات عززت في بعض المناطق الفروقات الطائفية الموجودة ، في الوقت الذي تسببت في خلق فروقات جديدة في مناطق اخرى . وانقسم سكان البلد بشكل واضح الى اكثرية شيعية ، واقلية سنية تألفت من الاكراد والتركمان والعرب والبلوش ، واقلية غير مسلمة من الارمن والاشوريين واليهود والزرادشتيين . الا ان الاكثرية الشيعية ذاتها كانت منقسمة الى طوائف وفرق ومدارس دينية مختلفة . بعض المناطق استقطبت نحو المذاهب الحيدرية والنعماتية ، وغيرها نحو مذهب المجتهدين الاثني عشر الارثوذكسي ونحو المذاهب غير الارثودكسية ، كالاسماعيلية والكريم خانية والشيخية .

هذه الطوائف الدينية عزلت نفسها بشكل ثابت داخل احيائها الخاصة في المدن . وتكونت مدينة شيراز مثلا من خمسة احياء

شرقيـــــة حيدرية ، وخمسة احياء غربية نعماتية ، وحي يهـــــودي واحد يقع في الضاحية (٣٥) . وضمت مدينة تبريز ــ اكبر مدينة عام ١٨٥٠ اذ بلغ عدد سكانها ١٠٠ الف نسمة ــ ١٣ محلة منفصلـــــة : ضاحية ارستقراطية ، ستة مناطق زراعية كان يقوم على زراعتهـا الاثني عشريون المعروفون محليا باسم المتشرعين ، حي الارمن ، ثلاث نواح مركزية(خيابان ، ونوبار ، وامير كيزي)، يسكنها المقايضـــــون والتجار والحرفيون من الشيخيين ، واثنين من احياء الفقراء الشمالية في دواتشي وسركناب ، مزدحمين بعمال المتشرعين ،والحمالة والباعة المتجولين ، وعمال الصباغة وناسجي السجاد (٣٦) .

تعززت هذه العوائق الطائفية اكثر فأكثر عن طريق التنظيمات الاجتماعية . فلكل قبيلة ، أو قرية ، أو محلة بنيتها الهرمية المنفصلة الخاصة . في القمة كان ملاك الاراضي الوجهاء زعماء القبائـــل واصحاب الاقطاعات الرئيسيون واعيان المدن . وفي القاعدة ، كـــان عامة الناس ــ الفلاحون البدو وسكان المدن . وبينهما كانت شرائـــح من الوسطاء على راسها ، في طول البلاد وعرضهـــــا زعمـــــاء (Khadkudas) القرية والقبيلة والحي والنقابة . هؤلاء الزعماء المتحدرون دوما من عائلات ذات دخل متوسط ، كانوا ينتخبون الـــى مراكزهم غالبا عن طريق الطوائف المحلية . وكزعماء كانوا يقومـــون بوظيفتين اثنتين : التوسط لفض النزاعات بين أفراد طائفتهم وتمثيلها في تعاملها مع العالم الخارجي ، سواء مع السلطة ، خاصة فـــي جمع الضرائب ، أو مع الطوائف المجاورة ، خاصة في النزاعـــــات الدورية التي تحصل على الاراضي المحاذية وحقوق الري وتخميـن الضرائب . وبسبب هذه النزاعات المتكررة كان الزعماء ومــــلاك الاراضي النافذون يتصرفون كحماة يدافعون عـــــن طائفتهم ضـــد الطوائف الاخرى . ويلخص جوهر هذا النظام الابوي بالمثل الايراني القديم الذي يقول « ان انسانا بلا حماية ككلب يعوي في البرية » .

هذه الانقسامات الطائفية ، بتمزيقها السكان الى وحـــدات صغيرة منطوية ، لم تمنع نمو الطبقات الاجتماعية فحسب ، وبـــل سمحت لشاهات القاجار بالسيطرة على البـــلاد علـــى نمـــط « الاستبداديين الشرقيين » النموذجيين . يقول مراقب أوروبي زائر أن الملوك قد « ضمنوا سلامتهم الخاصة » « باثارتهم » المستمـــرة و « وموازنتهم الدقيقة للغيرة المتبادلة القائمة » (٣٧) . وكانـــت آن لامبتون Ann Lambton مصيبة حين صرحت ان الملوك الحاكمين

قد استغلوا بشكل منهجي « عدم المقدرة الدستورية » لملاك الاراضي على التوحد ، وتبنوا « ديمومة الحزازات القبليـــة » كـ « أدوات لسياسة الدولة » (٣٨) . أضف الى ذلك انهم استغلوا بوعـــي الصراعات الطائفية في المدن لاضعاف التحديات المحتملة من قبـــل الجماهير المدينية . وأشار احد الرحالة البريطانيين الـــى أن المدن الايرانية ، بعكس مدن أوروبا القرون الوسطى ، كانت منقسمـــة بحدة الى احياء متنافسة بشكل يجعلها غير قادرة على مقاومة الحكومة المركزية (٣٩) . واذا استعرنا ماركس فانه يمكننا ان نقـــول أن مستبدي القاجار تلاعبوا بالطوائف الصغيرة (النموذج المتولـــب للنظم الاجتماعية) . وبذلك « راقبوا بانتباه » كل الطوائف الاصغر الاقل شأنا ، «ورفرفوا فوقها» ، وكانوا « رمز وحدتها » .

ويبدو المستبد هنا أبا لكل الطوائف المتعددة الاقل شأنا ، وهـــو يحقق بذلك الوحدة العامة للجميع . وبناء على ذلك يصبح الانتـــاج الفائض ملكا لهذه الوحدة الاعلى . وهكذا ، يبدو ان الاستبـــداد الشرقي يقود الى غياب شرعي الملكية (بضم الميم) . وفي الحقيقة، فان اساسه يكمن في الملكية القبلية او العامة ، الناتجة في معظـــم الحالات عن مزيج من المانيفكتورة والزراعة داخل المجتمع الصغيـر الذي يصبح مكتفيا ذاتيا بشكل كلي ومحتويا في داخله كل شـــروط الانتاج والانتاج الفائض (٤٠) .

تأثير الغرب

حطم تأثير الغرب العلاقات الهشة بين دولة القاجار والمجتمـــع الايراني . وانتهت سلسلة من الهزائم العسكرية ، (هزيمتان امـــام روسيا وثلاث هزائم أمام انجلترا) بمعاهـــدات تركمانتشـــاي Turkmanchai (١٨٢٧) وباريس (١٨٥٧) . فبالاضافة الـــى تنازلات اقليمية واستسلام اقتصادي قاس ادى الى تخفيض عائدات التصدير ، اتاحت هذه الاتفاقيات لبريطانيا وروسيا فتح وكالات تجارية حيثما كان داخل ايران ، واعفت تجارهما من القوانين المحليـــة والتعرفات الجمركية ورسوم عبور الطرقات . هذا الاستسلام الذي توافق والثورة الصناعية في اوروبا ، فتح الطريق أمام اغراق ايـــران ببضائع الانتاج الكبير . وخلال هذا القرن ، ازداد حجم التجـــارة

الخارجية بحدود عشرة اضعاف (٤١) ، وسبب نموها بدوره هلاك كثير من الصناعات اليدوية ، كصناعة الغزل والنسيج ، من جهة ، وأدى من جهة أخرى الى بناء وسائل اتصال حديثة وتتجير الزراعة، خاصة في المناطق القزوينية وتوسيع الصناعات الموجهة نحو التصدير وخاصة السجاد اليدوي . وباختصار فان الحاق ايران بالنظام الاوروبي العالمي حول الاقتصاد من اقتصاد قبل رأسمالي ، ذي انتاج القيمة الاستعمالية ، الى اقتصاد تسويقي ، ذي انتاج القيمة التسويقية (٤٢) . وكما قال ماركس ، فان الاسعار الرخيصة للسلع الصناعية قد شكلت « المدفعية الثقيلة » التي « دك » الراسماليون الغربيون بواسطتها كل « أسوار الصين » في العالم غير الغربي » (٤٣) .

اضف الى ذلك ان هذا التأثير (الغربي) خلق ارتفاعا حادا في اسعار السلع الاساسية . ان الحاق ايران بالسوق العالمي ، المتوافق مع هبوط عالمي في اسعار الفضة ، سبب انحدارا مخيفا في قيمة العملة الفضية للبلد . وحطم هذا بدوره الثقة الشعبية بالقطع النقدية وضخم بالتالي كلفة المنتجات المستوردة . كما أن فرض اجراءات الرقابة على الحدود ضد الاوبئة ، وبناء الطرق الى المناطق المبتلية بالمجاعة وادخال الطب الحديث الى المدن ، كلها أمور ساهمت في مضاعفة عدد السكان من ٥ ملايين عام ١٨٥٠ الى حوالى ١٠ ملايين عام ١٩٠٠ . وقد زاد ذلك الطلب على الغذاء وأثار التالي ارتفاعا اضافيا في اسعار السلع الضرورية (٤٤) .

استجاب القاجار في البداية ، للتحديات الغربية وبداوا برامج طموحة للاصلاحات العسكرية والادارية والاقتصادية (٤٥) . ولكن فشلهم في تعبئة موارد مالية كافية واثارة معارضة النخب في الاقاليم (التي شعرت بالخطر يتهددها نتيجة تكوين دولة مركزية قوية) ، دفع بالقاجار اللاحقين ، وخاصة ناصر الدين شاه (١٨٤٨ـ ١٨٩٦) الى الاكتفاء بالاصلاحات الاقل طموحا . وكان الكثير من هذه الاصلاحات عونا للغرب بدلا من ان تتحداه ، وقوت الدولة في مواجهة المجتمع بدل أن تقوي المجتمع في مواجهة الدول الاجنبية، وخلقت تحديثا مجزءا قاعدته البلاط ، بدلا من تحديث شامل للدولة كلها . وشهد الحكم الطويل لناصر الدين شاه تأسيس فرقة صغيرة من القوزاق ، وقوة من الشرطة البلدية وإعادة تنظيم ادارة البلاط غير الرسمية وتحويلها الى وزارة حكومية اكثر رسمية ، بوزراء

دولة ولكن بدون وزارات على مستوى واسع ، وافتتاح أول سكة حديد لتربط طهران بمزار الشاه عبد العظيم على بعد بضعة أميال، وايجاد دار مركزية لسلك العملة لتحل محل ٣١ دارا محلية . كما شهد حكمه انشاء أول جريدة رسمية ، وصحيفة علمية ومكتب للترجمة واكاديمية عسكرية ومدرسة ثانوية حديثة ، هي « دار الفنون » . وكانت « دار الفنون » ، التي اعتادت أن تقبل حوالى ٢٥٠ طالبا كل عام معظمهم من أبناء الطبقة العليا ، تقدم مواضيع علمانية كتعليم اللغات الاجنبية والعلوم السياسية وهندسة المعادن والعلوم العسكرية والطب ، والطب البيطري . وارسل أكثر من أربعين طالبا من المتخرجين الاوائل الى أوروبا لاكمال دراستهم .

وقامت دار الفنون ومكتب الترجمة ودار نشر أقدم في تبريز بطباعة أكثر من ١٦٠ كتابا في غضون ذلك القرن . واشتملت هذه الكتب على ٨٨ كتابا في المواضيع العسكرية والعلمية والطب واللغات الاجنبية ، و١٣ كتابا عن الادب الفارسي و٤ سير ذاتية لشخصيات شهيرة في الاسلام ، و١٠ كتب رحلات حول الغرب ، بما فيها وصف ناصر الدين شاه الخاص لرحلته الاوروبية ، و١٠ ترجمات كلاسيكية من الادب الاوروبي مثل « روبنسون كروزو » (لدانيال دفو) ، « والفرسان الثلاثة » (لدوماس) ، ومسرحيات موليير ، و١٠ كتب حول تاريخ ايران ، بما فيها كتاب جون مالكولم الشهير : « تاريخ فارس » . وهكذا بدأ الايرانيون رؤية تاريخهم الخاص بأعين أوروبيي القرن التاسع عشر .

ونشرت ، اخيرا ، عشرة ترجمات لاعمال أوروبية حول التاريخ الغربي : دراسات عن روما وأثينا وفرنسا والمانيا وروسيا وبريطانيا ، بالاضافة الى سيرة الاسكندر الكبير ، وبطرس الاكبر وشارل العظيم ملك السويد ، ولويس الرابع عشر ونابليون ، وفردريك الاكبر ملك بروسيا .

ومن اجل أن يدفع تكاليف الاصلاحات المتواضعة ، ويخفف من التخفيضات الكبيرة في عائدات البلاط الناتجة عن التضخم الحاد ، لجأ ناصر الدين شاه بشكل متزايد ، الى بيع الوظائف والالقاب واراضي الدولة وضريبة المزارع واهم من ذلك كله ، بيع الامتيازات الاقتصادية للحكومات الاجنبية ولصيادي الامتيازات . فالبارون دي رويتر

Reuter ، وهو مواطن بريطاني اشترى حقوقا لبناء طرق السكك الحديدية وللتنقيب عن المعادن .

وحازت الشركة البريطانية « لينش برذرز » Lynch Brothers على حق ادارة الشجن البحري في نهر كارون . واشترى البنك الامبراطوري لفارس ، وهو مؤسسة بريطانية أخرى ، احتكار طبع الاوراق النقدية وامتياز جمع رسوم الطرق الجنوبية . في هذه الاثناء حازت الشركة الروسية « شركة الطرق » Cie de la Route على عقود تعبيد الطرق العامة في الشمال وتنظيف ميناء انزيلي . وحصلت شركة روسية اخرى على حق احتكار صناعة صيد السمك في بحر قزوين ، وأخرى على احتكار التأمين على النقل على الطرق الشمالية . كما واستثمر الملتزمون الاوروبيون مزيدا من المبالغ المحدودة في مشاريع صغيرة ، كالنقل البحري في بحيرة أورمية (رضائية) ، وحياكة السجاد في سلطان اباد (آراك)، وزراعة القطن في خراسان وزراعة الافيون في كرمان . وهكذا ، زادت الاستثمارات الاجنبية في القسم الاخير من القرن من لا شيء الى اكثر من ١٢ مليون جنيه استرليني . لقد فتحت ايران امام رأس المال الاوروبي وأمام التجارة الاوروبية .

خلق التحدي الغربي واستجابة القاجار له تغيرين بنيويين هامين داخل المجتمع الايراني . فمن جهة أدى تدفق بضائع الانتاج الكبير وتتجير الزراعة ، وادخال وسائل الاتصالات الحديثة (التلغراف خاصة) وبيع الاحتكارات لصيادي الامتيازات الى لحم البازارات الاقليمية العديدة في طبقة متوسطة تجاوزت الاقاليم،تعي لاول مرة مصالحها على مستوى الدولة كلها كما تعي منافسيها الاجانب .

واصبحت البورجوازية طبقة اجتماعية ــ سيكولوجية وطبقة اجتماعية ــ اقتصادية في آن ، طبقة « لذاتها » و « بحد ذاتها » أيضا. من جهة أخرى فان فتح المؤسسات التربوية العلمانية ، وتوسيع الادارة المركزية ، وتدريب موظفين حكوميين جدد وضباط جيش ومهنيين فنيين ، ادى الى خلق طبقة متوسطة مأجورة ، صغيرة ولكن حيوية . واصبحت هذه الطبقة تعرف فيما بعد بالانتلجنتسيا الحديثة (Manaver al Fekr) .

تحولت البازارات المحلية الى طبقة متوسطة وطنية بطرق عدة .
اولا : ادى دمج الاسواق المحلية في سوق وطنية ودمـــــــج السوق الوطنية في السوق العالمية الى اذابة الوحدات ذات الاكتفــاء الذاتي النسبي الى وحدة اقتصادية رئيسية على مستوى البلاد كلها .
ثانيا : اختزل ادخال وسائل الاتصالات الحديثة المسافـــــات الجغرافية وقرب بالتالي ما بين المراكز المدينية المتعددة . **ثالثــا** : ان بدايات الدولة الحديثة ، وبخاصة تأسيس دار مركزية لضرب العملــة وجرائد حكومية ونظام مجلس الوزراء ركزت اهتمام المدن الاقليمية على العاصمة القومية . **رابعا** : توض تدفق بضائـــع الانتاج الكبيـــــر ، الصناعات اليدوية التقليدية ، وقدم ، بالنتيجة لكافة البازارات عـــدوا مشتركا هو المنافس الاجنبي . وفي دراسة مفصلة حول الازمـــــــة التجارية في اصفهان ، كتب أحد جامعي الضرائب قائلا :

في الماضي ، كانت المنسوجات الجيدة تصنع في اصفهان حيث كان الناس ، فقراؤهم واغنياؤهم ، يلبسون المنتجات المحلية . ولكــن في السنوات الاخيرة ، تخلى الناس عن اجسادهم وارواحهم ليشتـــروا المنتجات الاوروبية الملونة وذات النوعية المنخفضة ولكن الرخيصة . واحدث الناس بعملهم هذا خسائر فادحـــــة اكثر ممـــا تصوروا : فالناسجون المحليون ، بتقليدهم الاقمشة الاجنبية ، خفضوا مـــــن نوعية بضائعهم ، لذا امتنع الروس عن شراء المنسوجات الايرانية ، وعانى كثير من الصناعات من الخسائر الفادحـــــة . فقد شكـــل الناسجون عشر النقابات في هذه المدينة ، على الاقل ، ولم ينـــج حتى الخمس . وكان حوالي واحد من عشرين من الارامل يعتشن مـــن الغزل . اما الان فقد خسرن مصدر العيش الوحيد . كما وعانت ، ايضا نقابات هامة اخرى ، كالصباغين والقصارين ... (٤٦)

خامسا : خلق سيل راس المال الاجنبـــي طبقة بورجوازيـــــة كومبرادورية صغيرة معادية لغالبية البرجوازية الوطنية . وبالرغم من ان هذه الاخيرة قد اعتبرت الاولى عنصرا غريبا غير مسلـــم ، الا ان تقريرا بريطانيا مفصلا حول ايران في عام ١٨٩٧ يبين أنه من اصل ٥٣ من رجال الاعمال الاثرياء في البلد كان ستة فقط غيـــر مسلميـــن . واخيرا ، فان استجابة التاجار ــ أو فلنقل فقدان الاستجابة الفعالـــة للتهديد الاجنبي ــ قد زادت من حدة معارضة البورجوازية الوطنية

للحكومة المركزية .

يمكن معرفة الكثير من المشاكل التي واجهت الطبقة المتوسطة المالكة من تقرير قدمه لناصر الدين شاه عام ١٨٨٢ أحد الموظفين الحكوميين من ميناء بوشاير على الخليج الفارسي (٤٨).فبعد وصفه النمو الحديث لبوشاير ، أوضح الموظف بأن الازدهار لم يفد التجار الايرانيين لانهم ، بعكس المنافسين البريطانيين ، كانون معاقين بسبب اهمال الحكومة وفقدانهم لمستودعات التخزين والقوارب التجارية الحديثة وبسبب الضرائب المرتفعة ورسوم الاستيراد ورسوم الطرقات. وحذر التقرير من انه على التجار المحليين أن يختاروا بين الافلاس أو شراء الجنسية البريطانية . وعلى ظهر التقرير ، انتقد ناصر الدين شاه التجار « لانانيتهم » ومدح الموظف « لملاحظته المثيرة للاهتمام » ولكنه فشل كالعادة في اطلاق اي علاج حكومي .

وسع فشل القاجار الهوة العميقة القائمة بين السلالة وسكان المدن ، فثقافة ما قبل الاسلام القديمة كانت تمجد الشاهنشاهات باعتبارهم ظل الله على الارض المودعين مسؤولية الهية في حماية رعاياهم من الاخطار الخارجية وفي نشر « العدل » بين الطبقات الاجتماعية (٤٩). وكان أدب «مرآة الامراء» يؤكد بشكل ثابت أن واجب الملك الاساسي هو الحفاظ على توازن « عادل بين رجال القلم ورجال السيف ورجال التجارة ورجال الزراعة » . (٥٠)

أما الثقافة الشيعية المسيطرة ، فقد نظرت الى الملك كمغتصب دنيوي للسلطة الدينية التي عهد بها « الامام الغائب » ، المهدي ، مؤقتا الى « المجتهدين » البارزين . وكما لاحظ أحد المؤرخين المعاصرين بشكل صحيح فأن « الدولة الشيعية هي تناقض في التعابير » (٥١). وهكذا ففي فشلهم في حماية رعاياهم وموازنة الطبقات الاجتماعية أضعف القاجار أكثر فاكثر شرعيتهم الايديولوجية الضعيفة في اعين الطبقة الوسطى المدينية .

الانتلجنتسيا

بنى القاجار مؤسسات جديدة لتقوية موقعهم . الا ان المؤسسات ذاتها بخلقها انتجلنتسيا حديثة ذات مصالح ومفاهيم ومطامح جديدة قوضت في النهاية دعائم القاجار . وفي وصفهم أنفسهم « بالمفكرين

المستنيرين » ، (منابر الفكر) ، اظهرت الانتجلنتسيا الكثير عن ذاتها .
ان تعرضها لافكار الغرب ، وبخاصة أفكار التنور الفرنسية ، أقنع الانتلجنتسيا بأن التاريخ ليس الا مسيرة التقدم الانساني ، وليس اظهارا لارادة الله كما يعتقد ، كما إنه ليس الصعود والسقوط الدوريين للسلالات الملكية كما يرى مؤرخو البلاط . لقد علمهم التاريخ الغربي بأن **التقدم الانساني** ليس أمرا مرغوبا فحسب ، وبل يمكن الوصول اليه ايضا شرط أن يحطم الانسان القيود الثلاثة : الاستبداد الملكي و الدوغمائية الاكليريكية ، والامبريالية الاجنبية . نظروا الى القيد الاول كعدو للحرية والمساواة والسعي نحو التقدم . والى القيد الثاني كخصم ايديولوجي للمعرفة العلمية العقلانية ، والى القيد الثالث كمستغل اقتصادي للدول الضعيفة كدولتهم مثلا .

لذا رأت الانتلجنتسيا في الدستورية والعلمانية والقومية ثلاث وسائل حيوية من أجل التوصل الى تأسيس ايران حديثة ، قوية ومتطورة .

وبالرغم من ان هذه الاهداف الثلاثة صبت في الهدف النهائي الواحد الا أنها كثيرا ما أحدثت تحولات في التكتيكات المباشرة . فقد وجدت الانتلجنتسيا نفسها أحيانا ، متحالفة مع الشاه ضد العلماء ، وأحيانا أخرى مع العلماء ضد الشاه ، ومع الشاه ضد القوى العظمى ، وفي أحيان كثيرة ، كما في الثورة الدستورية ، مع العلماء ضد الشاه والقوى العظمى على حد سواء .

هذه التقلبات التكتيكية ، مضافا اليها تماسك الموقف العام ، يمكن رؤيتها في حياة وأعمال ميرزا ملكوم خان ، أحد الرموز القيادية في جيل الانتلجنتسيا الاول .

ولد ملكوم عام ١٨٣٣ من ابوين ارمنيين في الحي المسيحي من جولفا الجديدة خارج أصفهان (٥٢).كان والده ، الذي حصل علومه في الهند يدرس الفرنسية والانجليزية في البلاط الملكي . وكمعجب متحمس بالغرب ، أرسل ولده ملكوم خان في منحة من الدولة الى فرنسا لدراسة الهندسة . وفي باريس نما لدى ملكوم خان اهتمام حاد بالماسونية والفلسفة السياسية ، وخاصة بمدرسة سان سيمون **للتنظيم الاجتماعي** ودين الانسانية الجديد Religion of Humanity عند اوغست كومت . ولما عاد الى ايران ، انضم الى كلية دار الفنون وأثر بناصر الدين شاه بتجاربه العلمية ، وتحول نحو الاسلام (ربما

لتعزيز عمله الحكومي) ، والف جمعية سرية عرفت باسم جمعية السلوان Faramushkaneh House of Oblivion على طراز المحافل الماسونية ، الا انها لم ترتبط بها .

بعد كسب انتباه الشاه ، صك ملكوم خان للبلاط (دفتر التنظيمات) Daftar i - Tanzimat ، كتاب الاصلاح . وشكل هذا الدفتر متأثرا بشكل واضح بحركة التنظيمات المعاصرة في الامبراطورية العثمانية ، أول اقتراحات منهجية للاصلاح تكتب في ايران الحديثة . بدأ هذا « الدفتر » بتحذير عام بان البلاد سرعان ما ستبتلعها القوى العظمى ما لم يصدر الشاه سريعا قرارات اصلاح جديدة . واستعمل ملكوم خان كلمة قانون Qanun لهذه القوانين كي يفرق بينها وبين القوانين الدينية (الشريعة) وقوانين الدولة القائمة (العرف) . وأكد بأن هذه القوانين يجب أن تعتمد على مبدأين هامين اثنين : تحسين حالة الشعب والمساواة بين كل المواطنين .

وانتهى « الدفتر » بلائحة من التوصيات المحددة : فصل الحكومة الى مجلس تشريعي والى وزارة تنفيذية ، يعينان كلاهما من قبل الشاه ، قبول الراي العام ، تنسيق وجمع كل القوانين السابقة ، تكوين جيش محترف ، انشاء قسم ضرائب مستقل ، ادخال نظام تعليمي شامل ، بناء طرق عامة جديدة توصل بين المدن الرئيسية ، وتأسيس بنك للدولة مهمته تمويل التطور الاقتصادي .

أصغى ناصر الدين شاه للاقتراحات في البداية ، حتى انه أخذ يقلب مسألة قبول منصب المعلم الاكبر لجمعية « السلوان » . ولكن ما أن شجبت السلطات الدينية في طهران مفهوم « القانون » ، واعتبرته « بدعة هرطقية » ، واتهمت جمعية السلوان بأنها مرتبطة بالماسونيين الجموريين الملحدين في اوروبا ، حتى حرم ناصر الدين الجمعية ، ووضع على الرف « دفتر التنظيمات » ، ونفى ملكوم خان الى الامبراطورية العثمانية (٥٣) .

من المرجح أن ملكوم خان قد كتب ، في فترة النفي هذه كتابه الساخر عن رجال الادب التقليديين بعنوان : « حكاية مسافر » . في هذا المؤلف ، حاكى بسخرية مثقفي وكتاب وشعراء البلاط لكلامهم الفارغ وولعهم بتوافه الامور ولتزلفهم اللغوي ، كما هاجم السلطات الدينية لتباهيها وجهلها وعدم تسامحها واحتقارها للعلم الحديث واستعمالها لغة عربية غير مفهومه ولجوئها الى البربرة الخفية واشعالها المشاعر

الطائفية ، واستغلالها المالي للجماعة المؤمنة . وبالاضافة الى كونه أول كتاب هجائي معاد لرجال الدين ينتشر في ايران ، كان كتاب « حكاية مسافر » ايضا بين الاعمال الادبية الاولى التي كتبت بنثر فارسي واضح متحرر من الاسلوب التقليدي المنمق .

صاحب ملكوم خان في منفاه في اسطنبول ميرزا حسين خان ، السفير الايراني ذا الميول الليبرالية ، وحصل بواسطته على منصب القنصل العام في القاهرة ، الا أن سنوات النفي انتهت عام ١٨٧١ عندما تلاعب ناصر لدين شاه ثانية بامكانية الاصلاح وعين حسين خان كبيرا للوزراء ، وسمى ملكوم خان مستشارا خاصا بلقب « نظام الملك » (منظم المملكة) . ولكن ، ما أن بدات الحكومة الجديدة تخفيض ميزانية البلاط وتقسيم الادارة الى وزارة تنفيذية ومجلس تشريعي استشاري ، وزيادة الاعتمادات المالية من خلال بيع امتياز « رويتر » ، حتى ووجهت بردة فعل الارستقراطية ورجال الدين . وفي حين صرف حسين خان ، أرسل ملكوم خان الى لندن بصفته السفير الجديد ، ذا الثقافة الغربية .

كسفير لبلاده في انجلترا ، تابع ملكوم خان مطالبته الشاه بالاصلاح ، وانشأ علاقات مع المنفي جمال الدين الافغاني ، وشجع زملاءه في ايران على المطالبة بمزيد من التحسينات الادارية . الا ان ملكوم خان أصبح اكثر راديكالية بعد عام ١٨٨٩ ، عندما خسر منصب السفارة نتيجة بيعه احتكار قمار وهمي الى مجموعة من صيادي الامتيازات البريطانيين ، ورفضه مقاسمة الغنائم مع اصحاب البلاط في طهران . وحوله صرفه من منصبه من ملتمس داخلي للاصلاح ، الى دخيل يدعو الى الثورة ، من ليبرالي معتدل يسعى لحماية الشاه ضد « العلماء » ، الى راديكالي صريح يتحالف مع « العلماء » ضد الشاه ، ومن اداري ملكي يقدم الاقتراحات الى صحفي راديكالي يمثل افكار اوروبا الحديثة ، وبخاصة افكار سان سيمون الوضعية ، و « دين الانسانية » لاوغست كومت ، باشكال مقبولة لايران التقليدية. ففي محاضرة علنية ، بعنوان : « الحضارة الفارسية » ، القاها في لندن مباشرة بعد صرفه من الخدمة ، اعترف ملكوم خان بأن هدفه الاساسي كان ان يجعل فلسفة السياسة الغربية مقبولة من خلال الباسها تعابير القرآن والحديث وائمة الشيعة (٥٤). وفي طرحه السؤال عن اسباب تخلف ايران ، رفض التفسيرات الاوروبية التقليدية القائمة على العرق والدين . بدلا من ذلك ، وضع اللوم

على الاستبداد السياسي والعزلة الثقافية . ولقهر الاستبداد ، ايد القوانين التي تحمي الحياة والملكية والحرية ، لانه بدون هذه الاشياء الثلاثة لن يكون هناك أمن وبدون أمن لن يكون هناك تقدم . ولقهر العزلة الثقافية ، اقترح ادخال المفاهيم الحديثة بتعابير يستسيغها الاسلام التقليدي :

« لقد وجدنا ان الافكار التي لم تكن مقبولة باي شكل عندما جاءت عن طريق عملائكم في اوروبا ، كانت تصبح مقبولة حالا وبحبور عظيم عندما كان يؤتى بالبرهان على انها تكمن في الاسلام . وباستطاعتي ان اؤكد لكم أن التقدم القليل الذي ترونه في فارس وتركيا ، خاصة في فارس ، يعود الى حقيقةأن بعض الناس قد اخذوا مبادئكم الاوروبية وبدل ان يقولوا بانها جاءت من انجلترا او فرنسا او المانيا قالوا : « ليس لنا اي شان مع الاوروبيين ولكن هذه هي المباديء الحقيقية لديننا ، (وهذا صحيح بالفعل) ، التي أخذها الاوروبيون ! » وكان لهذا تاثير رائع في الحال » .

اضف الى ذلك ان ملكوم خان اوجد الصحيفة الشهيرة : « القانون » ، من اجل نقل أرائه من لندن الى ايران . وبالرغم من أن صدور هذه الصحيفة كان متقطعا ، ومشروع رجل واحد ، الا أنها خلقت اهتماما كبيرا في طهران لدرجة انها منعت واعتبر مجرد اقتنائها جريمة بحق الدولة . كما اعتبرت فيما بعد عاملا رئيسيا في انـدلاع الثورة الدستورية .

أعطى العدد الاول الصادر عام ١٨٩٠ ، الاتجاه العام للاربعين عددا التي ظهرت خلال الثماني سنوات التالية . فتحت شعار « الوحدة والعدالة والتقدم » ، الذي تصدرها ، بدأت الصحيفة بصلاة اسلامية بالعربية واكملت بافتتاحية طويلة بلغة فارسية صريحة لتؤكد على الحاجة للقوانين العقلانية :

« لقد بارك الله ايران . ولكن بركته لسوء الحظ ، نفاها فقدان القوانين . لا يشعر احد في ايران بالامان لان لا احد يشعر انه محمي بالقوانين . فالحكام يعينون دون قوانين ، والضباط يعزلون دون قوانين . والاحتكارات تباع دون قوانين . واموال الدولة تبعثر دون قوانين .

بطون المواطنين الابرياء تشق دون قوانين ، ويجري ابعاد خدام الله دون قوانين .

كل انسان في الهند وباريس وتفليس ومصر واسطنبول وحتى بين القبائل التركمانية ، يعرف حقوقه وواجباته . ولكن لا يعرف احد في ايران حقوقه وواجباته .

باي قانون تم نفي هذا المجتهد ؟

باي قانون قطع ذلك الضابط اربا اربا ؟

باي قانون طرد هذا الوزير ؟

باي قانون اعطي ذاك الغبي رداء الشرف ؟

ان خدام الدبلوماسيين الاجانب يشعرون بالامان اكثر من امراء ايران النبلاء .

وحتى أخوة وأبناء الشاه لا يعرفون ما يخبئه الغد : النفي الى العراق أو الهرب حرصا على الحياة العزيزة الى روسيا .. (٥٥) » .

وصفت الاعداد التالية من جريدة القانون انواع القوانين التي يمكن أن تحقق الامن وتنشط بالتالي التقدم الاجتماعي : النقاش الحر لكل المواضيع وثيقة الصلة بصالح الشعب ، التحالف العميق مع « العلماء » ، انهاء كل الصراعات الطائفية ، خاصة بين الشيعة والسنة وبين « الشيخيين » و « المتشرعين » ، انهاء كل الامتيازات الممنوحة « للمستغلين » الاجانب ، تكوين الجمعيات التي ستنشر مباديء « الانسانية Adamiyat (مباديء الوحدة ، والعدالة ، والتقدم) ، واستحداث جمعية استشارية وطنية .

كان ذلك أول ظهور باللغة الفارسية للمطالبة بحكومة برلمانية .

ولحض عامود صغير في العدد السادس من « قانون » الكثير من هذه المسائل :

« يكتب تاجر من قزوين قائلا : « باي قانون تبيع حكومتنا حقوقنا القومية لمبتزي الاموال الاجانب ؟ ان هذه الحقوق ، حسب مباديء الاسلام وقوانين ايران التقليدية معا ، هي ملك لشعب بلدنا . ان هذه الحقوق هي وسائل معيشتنا . الا ان حكومتنا تقايض أملاك المسلمين وتعطيها لغير المؤمنين . بأي قانون ؟ هل مات شعب ايران حتى تبيع الحكومة ارثه بالمزاد العلني » ؟

عزيزي التاجر ، لقد اخطأت الحكومة فهم سكوننا متوهمة أنه الموت . آن الاوان لكي ينهض المجتهدون واصحاب المعرفة الاخرون ، من اجل ان يخلصوا شعب ايران . اننا نقترح علاجين بسيطين لخلاص ايران : القانون ومزيدا من القانون . وقد تسأل محقا : « من اين سياتي القانون ؟ » . الجواب بسيط ثانية : يجب ان يدعو الشاه

حالا مئة من المجتهدين ومن أفراد البلاد المتعلمين الاخرين الى جمعية وطنية استشارية (Majlis Shawra) ، ويجب أن يكون لهذه الجمعية السلطة المطلقة لصياغة القوانين التي تطلق التقدم الاجتماعي (٥٦) » .

بالرغم من ان ملكوم خان كان من ابرز انصار الحكومة الدستورية الا ان عجز الشيخوخة منعه من المشاركة الفعالة في الثورة الدستورية الفعلية .

وفي الوقت الذي كان فيه الثوريون يحيونه كمعلم لهم ويعيدون طبع مؤلفاته ويسعون لاخذ نصيحته، بقي ملكوم خان في المنفى ومات في أوروبا عام ١٩٠٨ ، بعد ايام قليلة من اندلاع الحرب الاهلية في ايران .

من الاحتجاج الى الثورة ١٨٩١ — ١٩٠٥

انفجر الاستياء المتصاعد للطبقة الوسطى المالكة وللمثقفين العصريين علنا في أزمة التبغ لعام ١٨٩١ — ١٨٩٢ . وقد سبب هذه الازمة بيع ناصر الدين شاه امتيازا اخر ، هذه المرة لانجليزي يدعى الميجر تالبوت Talbot ، مقابل ٢٥ الف جنيه استرليني تدمها كهدية شخصية للشاه ، وأجر سنوي مقداره ١٥ الف جنيه للدولة و٢٥ بالمئة من الارباح السنوية لايران . بذلك حصل تالبوت على احتكار لمدة خمسين عاما لانتاج وتوزيع وتصدير التبغ . وعبرت صحيفة النجم (Akthar) ، وهي صحيفة ليبرالية كان يصدرها مثقفون ايرانيون منفيون في اسطنبول ، عن القلق العام للطبقة الوسطى الايرانية :

« من الواضح جدا ان صاحب الامتياز سيبدا براسمال صغير ، وسيشتري التبغ من المزارعين ، وسيبيعه للتجار والصناعيين بأسعار اعلى ، وستبقى كل الارباح ، بالتالي ، في محفظة الانجليزي . وبما أنه لا يحق للتجار الفرس تصدير التبغ من ايران ، فان أولئك الذين كانوا يعملون سابقا في هذه التجارة ، سيكونون مكرهين على التخلي عن عملهم والتفتيش عن عمل اخر بديل،فهذا الامتياز لا ياخذ بعين الاعتبار كم من التجار العاملين في هذا الحقل سيصبحون بلا عمل ... (٥٧)

رافق تدوم عملاء الشركة الى شيراز ، وهي منطقة التبغ

الرئيسية ، اضراب محلي فوري . وانتشر هذا الاضراب المحلي بسرعة بفضل جهاز التلغراف ، وتحول الى اضراب عام في الاسواق الشرقية الرئيسية ، وبخاصة في طهران وأصفهان وتبريز ومشهد وقزوين ويزد وكرمنشاه.وتوسع انتشار هذا الاضراب العام بتشجيع من كبار المجتهدين وتحول الى مقاطعة واسعة من قبل المستهلك اشعلت شرارة المظاهرات الجماهيرية الخطرة في كل أنحاء البلد ، وأجبرت الشاه في النهاية على الغاء الامتياز . واظهر هذا الغليان التغيرات الاساسية التي حدثت في ايران القرن التاسع عشر ، فقد أوضح ، بأن باستطاعة الاضرابات أن تتحول الى عصيان قومي ، وانه كان باستطاعة الانتلجنتسيا والطبقة المتوسطة المالكة أن يعملا جنبا الى جنب ، وأن الشاه ، رغم ادعاءاته المتباهية ، لا يملك ادوات اكراه واسعة . لقد كان يحلق فوق مجتمعه كجبار ولكن بأقدام من الطين . وفي الحقيقة كان احتجاج التبغ بمثابة تجربة للثورة الدستورية القادمة .

في السنوات التي تلت أزمة التبغ ، تحول ناصر الدين شاه نحو مزيد من القمع السياسي ، وبعيدا عن التجديدات الخطرة ، فباع قليلا من الامتيازات ، وانهى تطور « دار الفنون » ، ومنع فتح مدارس جديدة ، ولم يكترث عندما حرق حشد متدين احدى المؤسسات التعليمية الحديثة ، وحرم استيراد الصحف الليبرالية ، وحاول اشعال النزاعات القبلية والصراعات الطائفية وانهى أعطاء منح الدولة للدراسة في الخارج ، ومنع حتى أقاربه من زيارة أوروبا . وقيل بأن الشاه بات يفضل رجال البلاط الذين لا يعرفون ما اذا كانت بروكسل مكانا أو خضارا . وانتهت فترة ردود الفعل هذه عام ١٨٩٦ ، عندما اغتال تاجر مفلس — كان أحد التلامذة المخلصين للافغاني ، داعية الجامعة الاسلامية المعروف — ناصر الدين شاه . لقد شكلت الرصاصة التي قتلت الشاه بداية زوال النظام القديم .

سرع الملك الجديد ، مظفر الدين شاه ، من عملية انهيار النظام القديم وذلك بقلبه سياسات سلفه راسا على عقب . ففي الوقت الذي كان يجري فيه المحادثات للحصول على قرض من بريطانيا وروسيا ليمول جزئيا زياراته « الطبية » الى أوروبا ويسلم الجمارك الى موظفين بلجيكيين كضمانة مالية للقروض،دشن مظفر الدين شاه حقبة ليبرالية . فقد خفف للرقابة ، ورفع المنع عن السفر ، وعين

ملكوم خان سفيرا في روما ، وفتح كليات الزراعة والعلوم السياسية والثقافية والتربوية . وفي اصفهان أسس مجموعة من التجار « الشركة الاسلامية » وهي أول شركة مساهمة رئيسية . وكان هدفهم « الحفاظ على الاستقلال القومي » عن طريق حماية الحرف اليدوية التقليدية وتعزيز الصناعات الحديثة ، وبخاصة صناعات الغزل والنسيج (٥٨). وقامت حلقة من المثقفين في تبريز الذين مكنتهم معرفتهم اللغة التركية من متابعة الاتجاهات الثقافية في القوقاز والامبراطورية العثمانية ، باصدار صحيفة نافذة باللغة الفارسية باسم « كنـز المعرفـة » (Gnanjeh i - Funun) . (٥٩) وأسست مجموعة اخرى من المثقفين في طهران جمعية التعليم (Anjuman i - Maaref) واول مكتبة وطنية في البلد . وبتشجيع من الدولة ،ساعدت جمعية التعليم المربين الخاصين على فتح أكثر من ٥١ مدرسة ثانوية حديثة . وفي حفل افتتاح ، احدى هذه المدارس ، لخص رئيس الجمعية اراء زملائه على الشكل التالي :

« ان التربية هي التي تفرق الانسان عن الحيوان ، والمواطنين المفيدين عن الجهال العقيمين ، والكائنات المتحضرة عن البرابرة المتوحشين . وتولد التربية النور في الظلام الثقافي . انها تعلمنا كيف نبني المحركات الجارفة ومصانع الطاقة وطرق السكة الحديدية والمصانع . لقد مكنت التربية اليابان من أن تحول ذاتها ، في جيل واحد ، من مجتمع ضعيف متخلف الى أمة قوية متقدمة . أن التربية ، بشكل مماثل ، ستؤهل ايران ليس لاستعادة عظمتها الماضية فحسب وبل لخلق جيل جديد سيعي مساواة الافراد ، والعدالة الاجتماعية والحرية الشخصية والتقدم القومي . (٦٠) »

بدأ مظفر الدين شاه سياسته الليبرالية آملا ارضاء المعارضة . الا أن هذه السياسة ذاتها ، المتوافقة مع الدخول الغربي المكثف ، قد شجعت المعارضة على تكوين منظمات شبه سرية . من بين هذه ستلعب المنظمات الخمس التالية أدوارا هامة في الثورة : « الجمعية السرية » ، المركز السري ، الحزب الاشتراكي الديمقراطي جمعية الانسانية ، واللجنة الثورية .

تشكلت الجمعية السرية ، اهم هذه المنظمات قاطبة ، في مدينة طهران في اوائل عام ١٩٠٥ من مجموعة من العلماء والتجار ذوي

الارتباط الوثيق بالنقابات الحرفية والتجارية . (Asnaf) ، وصف نظام الاسلام كرمائي ، أخذ المؤسسين البارزين نظام سلوك الجمعية وبرنامجها الوطني في يومياته المفصلة التي نشرت تحت عنوان « تاريخ النهضة الايرانية » (٦١) . ونص نظام السلوك هذا الذي يجري الالتزام به كقسم على القرآن ، على الالتزام بالسرية ومعارضة «. الطغيان » ، واحترام « العلماء » ، واداء الصلاة في نهاية كل اجتماع وقبول المهدي بصفته « الحامي الحقيقي » الوحيد للمجتمع .

وطالب البرنامج الوطني بنظام قانوني مكتوب ومجلس عدلي (Adalatkhaneh .) ، ومسح تسجيل الاراضي ، ونظام ضريبي عادل ، واصلاحات عسكرية ، وقواعد لتعيين وطرد الحكام المحليين وتشجيع التجارة ، واعادة تنظيم الجمارك ، وتطبيق الشريعة. أضف الى ذلك أن الجمعية أقامة اتصالات مع « العلماء » البارزين في كربلاء والنجف ، بالاضافة الى اتصالاتها مع السيد عبد الله بهبهاني والسيد محمد طباطبائي ، وهما اثنان من أصل ثلاثة مجتهدين بارزين يعيشون في طهران .

وفي حين أن الطبقة المتوسطة المالكة هي التي شكلت بشكل طاغ الجمعية السرية ، جاء معظم الاعضاء القلائل في التنظيمات الاخرى من الانتلجنتسيا الحديثة .

فقد نظم « المركز السري » في تبريز اثني عشر مثقفا راديكاليا ارتبطوا بصحيفة « كنز الفنون » (٦٢) . وكانت هذه المجموعة بقيادة علي كربلائي وهو شيخ لقب « بالمسيو » بسبب اهتمامه بالادب وبالفكر السياسي الفرنسيين . اما الاخرون في المجموعة فكانوا ثلاثة من التجار الذين كثيرا ما كانوا يسافرون الى باكو في عمل ، وبائع كتب وصيدليا واثنين من الدباغة ، وموظفا حكوميا ومتخرجا شابا من مدرسة الارسالية الفرنسية المحلية . وركز هذا المركز نشاطاته على « مكتبة التربية » التي شكلت مكان تجمع اساسي للمثقفين المحليين القلائل المهتمين باللغات الاوروبية وبالعلوم الحديثة .

اسس الحزب الاشتراكي الديمقراطي في باكو في مطلع عام ١٩٠٤ من قبل ١١ لاجئا من أذربيجان الايرانية نشطوا لفترة من الزمن داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي (٦٣) . وبالرغم من أن قيادة الحزب كانت بيد المثقفين ، الا انها حاولت ان تفتح فروعا بين حوالي ٨٠ الف عامل مهاجر من أذربيجان الايرانية يعملون في حقول النفط

في باكو . ودعا برنامج الحزب ، الذي كان أساسا ترجمة للمطالب الاقتصادية لدى الاشتراكيين الديمقراطيين الروس ، الى حق العمال في التنظيم والاضراب ، وتحديد ساعات العمل بثمان يوميا ، ومعاشات التقاعد للمسنين ، وضريبة دخل تصاعدية وتوزيع الارض على من يزرعها وتأمين المسكن للفقراء وتخفيض الضرائب على المستهلك وحرية الصحافة والكلام والتجمع والتسامح لكل الاديان « المقبولة من الشريعة » (٦٤) . ونشرت الجمعية السرية في تبريز ، التي أقامت روابط حميمة مع الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، برنامج الحزب داخل ايران .

في الوقت الذي نرى فيه تأثر هذين التنظيمين بالاشتراكية الثورية لروسيا الماركسية ، تأثرت « جمعية الانسانية » ، بالانسانية الليبرالية لاوغست كومت .

وكان مؤسس الجمعية ميرزا عباس خولي خان قازويني ، الملقب فيما بعد « بالادمية » (اي الانسانية) ، تلميذا لملكوم خان وموظفا كبيرا في وزارة العدل . ويكتب ولده فريدون ادمية ، المؤرخ المشهور للحركة الدستورية ، بأنه كان للجمعية أهداف ثلاثة : استعمال الهندسة الاجتماعية للتنمية القومية وتأمين الحرية الفردية كي يصبح بمقدور العقل البشري أن « يتفتح » ، والحصول على المساواة القانونية لكل المواطنين ، دون اعتبار للاصل والدين (٦٥) . واخذت الجمعية افرادها بشكل رئيسي من كلية دار الفنون ، ومن مراتب الادارة المركزية العليا ، ولكن ليس من مراتب الامراء ، واستهوت صرخة المساواة القانونية ، الحرفيين المدربين الذين يكرهون الامتيازات الموروثة ، كما أن مفهوم **الهندسة الاجتماعية** قد وعدهم بأدوار حيوية في عملية التنمية القومية ، هذا ناهيك عن أن الامل بالحرية قد استجاب لتوقهم الى الامان الفردي من الحكومة الاستبدادية . كما حمتهم السرية الطقوسية للجمعية ، المنسوخة عن الماسونية الاوروبية عبر « فرمشكانة » (جمعية السلوان) ملكوم خان ، من السلطات المحافظة من جهة ومن الجماهير المتدينة من جهة أخرى .

وبينما نرى جمعية الانسانية حذرة في أهدافها الانية ، كانت اللجنة الثورية راديكالية في كل من استراتيجيتها وتكتيكاتها . واستنادا الى « ملك زاده » ، الذي تراس والده « ميرزا ملك المتكلمين » المجموعة . تألفت اللجنة من ٥٧ « مثقفا راديكاليا » كانوا يترددون على المكتبة

الوطنية (٦٦) . وفي اجتماعهم السري الذي جرى في ضواحي طهران في شهر أيار ، مايو من عام ١٩٠٤ ، وضع هؤلاء المثقفون خطة « لقلب الاستبداد » و « بناء حكم العدالة والقانون » . ودعت الخطة الى استغلال الغيرة الشخصية والفروقات السياسية بين الوزراء ورجال البلاط والقادة الدينيين والى العمل دائما لدعم العناصر الاقل محافظة ضد العناصر الاكثر محافظة والى اقامة الاتصال بالقادة الدينيين « المستنيرين » الجماهيريين ، وتجنب كل النشاطات المعادية للاسلام لتهدئة شكوك السلطات الروحية ، بالرغم من اتفاق اللجنة على أن التسامح الديني كان أحد « مبادئها الاساسية » ، كما دعت الى استعمال المواعظ والمقالات والترجمات والمحاضرات والنشرات لبسط أفكار الديمقراطية الدستورية بين الجماهير الايرانية . وبعد سنوات لاحقة علق ملك زادة قائلا بأن هؤلاء العلمانيين الراديكاليين قد أجبروا على السعي للحصول على مساعدة « العلماء » لان « الطبقة الدنيا » كانت ما تزال تحت سيطرة « الطبقة الحاكمة » من الامراء وزعماء القبائل ، وأسياد الاراضي (٦٧) .

عكست اللجنة الثورية التكون السوسيولوجي لجيل الانتلجنتسيا الاول . كان المثقفون السبعة والخمسون يتكونون من ١٥ موظفا مدنيا وثمانية تربويين واربعة مترجمين وطبيب واحد و١٤ رجل دين (درسوا كلهم مواضيع معاصرة) ، واحد زعماء القبائل وثلاثة تجار واربعة حرفيين . كلهم كانوا على معرفة بالثقافة الغربية أما عبر دار الفنون او دراسة اللغات الاوروبية أو قراءة ترجمات حديثة ، أو عبر تأثير ملكوم خان . وكان كثير من هؤلاء في منتصف العمر . وجاء ثلاثة منهم من نبلاء القاجار ، و ٢١ من عائلات « علماء » و٧ من عائلات موظفين حكوميين و٨ من بيوت تجار البازار ، وكان اثنان منهم زرداشتيين وواحد كان قائدا لجماعة النعماتي واتهم خمسة منهم على الاقل ، من قبل رجال الدين المحافظين ، بأنهم « مفكرون احرار » سريون . (٦٨)

وهكذا فان ايران عام ١٩٠٥ كانت تسير بسرعة نحو الثورة . ان الطبقة المتوسطة المالكة ، التي نظرت الى الملكية دائما بعين الريبة ، اصبحت اقتصاديا وايديولوجيا معزولة عن السلالة الحاكمة . كما أن الانتجلنتسيا الحديثة ، المتأثرة بالدستورية والعلمانية والقومية كانت ترفض الماضي .وتتساءل عن الحاضر ،وتعتنق رؤية جديدة للمستقبل. اضف الى ذلك ، ان الطبقة المتوسطة المالكة والانتلجنتسيا ، بالرغم

من الفروقات بينهما ، كانتا توجهان هجماتهما نحو الهدف ذاته وهو الحكومة المركزية . كلاهما كان يشكل جمعياته واتحاداته واحزابه السرية وشبه السرية الخاصة كما انهما ادركا أن سلالة القاجار لم تكن مفلسة ماليا فحسب ، بل وضعيفة اداريا ومشوهة اخلاقيا ،واهم من ذلك كله ، غير فاعلة عسكريا ، ايضا . وانتظرت البلاد دفعا اخيرا لتدخل الثورة الدستورية .

الثورة : حزيران (يونيو) ١٩٠٥ ــ آب (اغسطس) ١٩٠٦

هذا الدفع الاخير ، جاء عبر الازمة الاقتصادية الحاصلة في أوائل عام ١٩٠٥ . فالمحصول السيء والتعطيل المفاجيء في التجارة الشمالية بسبب داء الكوليرا والثلوج الثقيلة والحرب الروسية ــ اليابانية ، والثورة اللاحقة في روسيا ، كلها أمور ادت الى التضخم اللولبي في ايران .

ففي الاشهر الثلاثة الاولى من عام ١٩٠٥ ، ارتفع سعر السكر ٣٣ بالمئة وسعر الذرة ٩٠ بالمئة في مدن طهران وتبريز ورشت ومشهد (٦٩). ولما وجدت الحكومة أن عائدات الجمارك تنخفض ، وان تكاليف الاغذية ترتفع ، وان طلباتها للحصول على قروض جديدة قد رفضت ، رفعت بسرعة التعرفات على التجار الوطنيين ، واجلت وفاء الديون للدائنين (٧٠) . واحدث ذلك ثلاثة احتجاجات جماهيرية كل واحد اشد من الاخر ، بلغت ذروتها في ثورة آب (اغسطس) عام ١٩٠٦ .

اخذ الاحتجاج الاول شكل المظاهرة السلمية خلال شهر الحداد في محرم . وقام بهذه المظاهرة حوالي الفين من اصحاب الحوانيت والدائنين في طهران . وطالب هؤلاء بتسديد القروض الحكومية وطرد المسيو ناوس (Naus) ، المدير البلجيكي للجمارك ، واقفلوا محلاتهم ووزعوا صور ناوس متنعا كفقيه (Mulla) في حفلة للملابس التنكرية ، وتابعوا طريقهم وعلى راسهم تاجر أوشحة ثري ، نحو حرم الشاه عبد العظيم . ولخص ناطق باسم المجموعة ماسيهم لمراسل « الحبل المتين » (Habl al Matin) ، الجريدة التي يصدرها مثقفون ايرانيون في كلكوتا فقال : « يجب على الحكومة أن تعكس سياستها الحالية التي تؤدي الى كارثة ، والقائمة على مساعدة

التجار والدائنين والصناعيين الروس على حساب رجال الاعمال الايرانيين . على الحكومة أن تحمي رجال أعمالنا حتى ولو لم تكن منتجاتهم بجودة منافسيهم الاجانب . واذا ما استمرت السياسة الحالية ، فان اقتصادنا سيدمر بمجمله » . (٧١)

وبعد اسبوعين من المحادثات ، ارضى مظفر الدين شاه ، المتلهف للقيام برحلة اخرى الى اوروبا ، المحتجين واعدا بأنه سينفذ مطالبهم حالما يعود من أوروبا الا أن وعده لم يتحقق عمليا ، اذ بقيت الخزانة مفلسة وهدد الروس باتخاذ « الاجراءات الضرورية » اذا ما انتقلت ادارة الجمارك من « الايدي الامينة » (٧٢) .

حصل الاحتجاج الثاني في شهر كانون الاول عندما حاول حاكم طهران تخفيض أسعار السكر عن طريق ضرب اثنين من مستوردي السكر البارزين بالعصي حتى الموت . وكان احد الضحايا تاجرا عجوزا محترما يبلغ من العمر ٧٩ عاما ، وكان مول اصلاح البازار المركزي وأعاد بناء ثلاثة جوامع . وقد دافع عبثا بأن الاسعار المرتفعة لا تعود الى التخزين بل الى الانقطاعات في روسيا . ويقول احد شهود العيان بأن اخبار الضرب قد « انتقلت كالبرق » في البازار (٧٣) فأغلقت المخازن والمحلات ابوابها ونظم زعماء النقابات اجتماعا جماهيريا في الجامع المركزي ،وسار الفان من التجار وقادة النقابات وطلاب المعاهد الدينية وأعضاء « العلماء » بزعامة الطباطبائي والبهبهاني الى حرم الشاه عبد العظيم . وأرسلوا للحكومة ، من هناك ، مطالب رئيسية اربعة : استبدال الحاكم ، طرد ناوس ، تطبيق الشريعة ، وتكوين مجلس عدلي . أجاب البلاط ، في البداية ، بأن مؤسسة كهذه ستحطم كل المراتب « حتى بين الامراء النبلاء وعامة البقالة » (٧٤) . وأضاف أحد الوزراء انه اذا كان زعماء الفتن غير راضين عن الاوضاع في ايران الاسلامية ، فعليهم أن يهاجروا الى دول « ديمقراطية » غير مسلمة ، مثل المانيا . ولكن بعد محاولاته الفاشلة في حل الاضراب الذي استمر شهرا كاملا ، وافق الشاه في النهاية على كل هذه المطالب . وعند عودتهم المظفرة الى طهران ، استقبلت المحتجين حشود ضخمة تهتف : لتحيا الامة الايرانية . ويشير نظام الاسلام كرماني في يومياته بأن هذه كانت المرة الاولى التي يسمع فيها تعبير « الامة الايرانية » في شوارع طهران (٧٥) .

اندلع الاحتجاج في صيف عام ١٩٠٦ خلال شهر محرم . وثـــار المحتجون اساسا بسبب فشل الشاه في عقد المجلس العدلي ، وجزئيا بسبب المحاولة المتهورة التي قامت بها الشرطة لاعتقال عدد من الدعاة البارزين المعادين للحكومة . وبينما دعت النقابات الى اضراب اخر ، ووزعت الجمعيات السرية مناشير غاضبة ، قامت مجموعة من طلبـــة المعاهد الدينية بالتجمع أمام مركز شرطة المدينة حيث احتجز الدعـــاة وتلا ذلك صدام عنيف كانت نتيجته اصابة احد المتظاهرين اصابة قاتلة. وصادف أن كان المصاب « سيدا » . وفي صباح اليوم التالي ، سار الوف من التجار والحرفيين وطلبة المعاهد الدينية ــ كان الكثير منهم يلبس ملاءة بيضاء (أكفان) كعلامة على استعدادهم للموت في حملـــة الدين ــ بجثمان « السيد » من سوق البازار الرئيسي في جنازة شعبية الى الجامع المركزي . الا أن رجال القوزاق تصدوا لهم خارج الجامع. كان الصدام قصيرا ولكن دمويا فقد قتل اثنان وعشرون شخصـــا ، وأصيب أكثر من مئة بجراح خطيرة (٧٦) . وبما أن نهرا من الدماء أصبح يفصل الان بين البلاط و « البلاد » ، فقد بدأ بعض أفراد مـــن « العلماء » يماثلون علنا بين القاجار « ويزيد » الشهير ، أحد قـــواد السنة ، الذي قتل الامام الشيعي الحسين .

ردت المعارضة على العنف بتنظيم المظاهرات الجماهيريـــــة . وأخذ الطباطبائي ، والبهبهاني . وغيرهما من الزعماء الدينييـــــن ، باستثناء امام الجمعة المعين من قبل الدولة ، عائلاتهـــــم وتوابعهم وحوالي الفين من طلبة المعاهد الدينية ، وذهبوا الى قم المدينة الدينية المقدسة التي تبعد ٩٠ كيلو مترا عن طهران . ومن مدينة قم ، اذاعوا أن البلد سيترك من دون توجيه روحي ــ وبالتالي مـــــن دون قرارات قضائية ومعاملات شرعية ــ حتى ينفذ الشاه وعوده السابقة . لقـــد أضرب « العلماء » .

في هذه الاثناء ، سأل تاجران بارزان ـــ ـــأحدهما كان نشيطـــا في « الجمعية السرية » ــ ممثلي بريطانيا عما اذا كان بامكانهم وامكان أصدقائهم الاعتصام في المقر الصيفي للبعثة البريطانية في قرية «جلهاك» على بعد اميال قليلة شمالي طهران . وفصلت البعثة البريطانيـــــة الاحداث اللاحقة في مذكرة أرسلتها الى لندن :

« بعد اطلاق النار ، بدا وكأن الحكومة قد ربحت الجولة . كانت المدينة بيد القوات العسكرية . وفر القادة الشعبيون واحتل الجنـــود

البازار . وبدا وكأنه ليس هناك مكان للجوء اليه . في ظل هذه الظروف لجأ الحزب الشعبي الى عادة مقدسة قديمة ــ ممعنة في القدم حقا ــ عادة الاعتصام . وتقرر اللجوء الى هذه الوسيلة بعد فشل كل الوسائل الاخرى .. واتصل شخصان بمقر البعثة في جلهاك وسالا عما اذا كان القائم بالاعمال سيلجأ لطلب المساعدة العسكرية في حال اعتصم الناس في مقر البعثة . وعبر السيد غرانت دف (Grant Duff) عن امله بالا يلجأ الناس الى هذه الوسيلة ، الا انه قال بانه ليس في مقدوره ، على ضوء العرف المعمول به في ايران ، ان يستعمل القوة اذا ما جاؤوا الى مقر البعثة ... وفي مساء اليوم التالي ظهر خمسون تاجرا وفقيها في مقر البعثة واتخذوا ماوى لهم لهذه الليلة . وزاد عددهم تدريجيا وسرعان ما وصلوا الى ١٤ الف شخص في حديقة البعثة (٧٧) » .

جاء معظم هؤلاء من البازار ، وكانوا بقيادة لجنة من زعماء النقابات . وعينت هذه اللجنة الاماكن للنقابات المختلفة : واشار احد الزائرين بانه رأى اكثر من ٥٠٠ خيمة « لكل النقابات ، حتى الاسكافيين وباعة الجوز والسمكريين ، كان لكل نقابة خيمة واحدة على الاقل » (٧٨) . وفرضت اللجنة القانون لحماية ممتلكات المضيف . واشارت البعثة فيما بعد بأنه لم يتضرر اي شيء تقريبا (٧٩) ..

ونظمت هذه اللجنة المظاهرات النسائية خارج القصر الملكي وخارج مقر البعثة البريطانية . كما نظمت عملية الدخول الى مقر الاعتصام والتي اقتصرت على طلاب وهيئة تدريس دار الفنون وكليات الزراعة والعلوم السياسية . عمليات الدخول هذه ، كما يقول نظام الاسلام كرماني ، حولت المقر الى « مدرسة واسعة للعلوم السياسية في العراء ، حيث تم القاء المحاضرات حول النظم الدستورية في أوروبا » (٨٠) .

ويقول شاهد عيان اخر ان بعض طلاب دار الفنون تحدثوا حتى عن فوائد الشكل الجمهوري للحكومة (٨١) . كما حرصت اللجنة ، بالاضافة الى ذلك ، على جمع النقود من التجار الاغنياء لمساعدة ذوي الاجور الفقراء على تحمل الاضراب الطويل . وكتب احد المشاركين في مذكراته قائلا :

ما زلت اتذكر بوضوح ذاك اليوم عندما سمعنا بان الرجعيين كانوا منشغلين بزرع عدم الرضا بين صغار النجارين وناشري الخشب .

النجارون ، الغاضبون بسبب حرمانهم من موارد عيشهم ، ارادوا معرفة الفوائد التي سيجنون من جراء هذه المجازفة بمجملها ، اما الاخرون فقد دفعهم جهلهم ولا عقلانيتهم الى رفض اي حوار منطقي . ولو ان هاتين المجموعتين خرجتا فان كل حركتنا كانت ستعاني . ولكننا لحسن الحظ استطعنا اقناعهم بالبقاء في حرم البعثة . (٨٢)

واخيرا ، طالبت لجنة كبار النقابات الشاه بناء على نصيحة الزملاء المثقفين العصريين ليس بمجلس عدلي فحسب ، بل بجمعية دستورية وطنية ايضا ، مهمتها وضع دستور مكتوب .

في البداية طرد البلاط المحتجين واعتبرهم « عصابة من الخونة استأجرتهم انجلترا » . ولكنه عندما واجه اضرابا عاما طويلا في طهران وسيلا من البرقيات من المقاطعات ، عرض تحقيق «الجمعية الاسلامية» ذات الصدى الاقل ديمقراطيا (٨٤) . وعندما واجه ثانية مطلب تحقيق « الجمعية الوطنية » الذي لا يقبل الجدل ، وسيلا من البرقيات الغاضبة من الجماعة الايرانية في باكو التي هددت بارسال « متطوعين مسلحين » (٨٥) ، وواجه « الاعلان القائل » أن القوزاق أنفسهم يحضرون للتخلي عنه بعد تأخر معاشاتهم (٨٦) ، استسلم البلاط . ففي الخامس من آب اي بعد حوالي شهر من لجوء المحتجين الاول الى مقر البعثة البريطانية ، وقع مظفر الدين شاه اعلانا بدعوة جمعية وطنية دستورية . وبعد سنوات لاحقة كتب صحافي ماركسي ايراني . معلقا على نظرية الثورة الفوضوية ، قائلا بأن ثورة ١٩٠٥ — ١٩٠٦ كانت فريدة في سجلات تاريخ الثورات البورجوازية ، اذ برهنت أنه ، في ظل ظروف معينة ، يمكن للاحتجاجات السلمية والاجتماعات الجماهيرية والاضرابات العامة ، ان تسقط النظام القديم (٨٧) .

النضال من اجل الدستور
آب (اغسطس) ١٩٠٦ ــ تشرين اول (اكتوبر) ١٩٠٧

بالرغم من أن الثورة بدت وكأنها منتهية في شهر اب اغسطس عام ١٩٠٦ ، الا ان عملية وضع الدستور تحولت الى صراع طويل استمر حتى شهر تشرين الاول اكتوبر عام ١٩٠٧ .

انعقدت الجمعية التأسيسية في طهران في شهر أيلول (سبتمبر)عام ١٩٠٦ لوضع قانون انتخابي للجمعية الوطنية القادمة . وتألف

المندوبون في معظمهم من التجار ، و « العلماء » ، وكبار نقابات البازار (٨٨) . وليس من المستغرب أن يعكس قانون الانتخابات خلفيتهم الاجتماعية (٨٩) . وانقسم جمهور الناخبين الى ست « طبقات » : الامراء والقاجار ، « العلماء » وطلبة المعاهد الدينية ، النبلاء (Ayan) والارستقراط (Ashraf) ، التجار ذوي المكانة التجارية المحددة » ، اصحاب الاراضي الذين لا تقل ملكيتهم عن الف دونم على الاقل (٩٠) ، والحرفيون ـ التجار « من النقابات المعترف بها » والذين يملكون دكانا يعادل ايجارها « معدل الايجار في المحلة » على الاقل .

وكان على الانتخابات في المقاطعات أن تتم على مرحلتين : ترسل كل « طبقة في كل مقاطعة مندوبا واحدا الى العاصمة المحلية ، وينتخب هؤلاء المندوبون ، بالمقابل ، ممثليهم المحليين في الجمعية الوطنية .

الا أن الانتخابات في طهران كانت تجري على مرحلة واحدة : ينتخب القاجار ٤ نواب ، وملاك الاراضي ١٠ ، و « العلماء » ٤ ، والتجار ١٠ ، والنقابات حوالي ٣٤ من اصل عدد مقاعد البرلمان الاجمالية البالغة ١٥٦ مقعدا .

مثلت انتخابات الجمعية الوطنية دور العامل المساعد لتطوير التنظيمات السياسية . في المدن الاقليمية ، اسرع التجار ، مدفوعين من قبل « العلماء » ونقابات البازار ، الى تكوين جمعيات محلية مستقلة وثابتة المعارضة للحكام المحليين .

وفي العاصمة ، ظهر على الساحة السياسية اكثر من ثلاثين جمعية . بعضها كان جمعيات مهنية « كجمعية النقابات » ، و « جمعية الكتاب » وجمعية « طلبة المعاهد الدينية » . وبعضها الاخر ، كجمعية الاذربيجانيين ، وجمعية الارمن ، وجمعية اليهود ، ، وجمعية الايرانيين الجنوبيين ، كان جمعيات طائفية . الا أن كل هذه الجمعيات بمجملها ساندت الثورة وقامت بالحملات لانتخاب افضل مرشحيها للجمعية الوطنية . وكانت الصحافة ناشطة بالمقدار نفسه .ارتفع عدد الجرائد والمجلات المنشورة داخل ايران من ست عشية الثورة ، الى اكثر من مئة خلال الاشهر الستة التي تلت الجمعية الدستورية ، وحمل الكثير منها أسماء متفائلة وقومية وراديكالية كجرائد : الترقي والنهضة ، والوطن ، والإنسانية ، والاتحاد ، والامل ، والعصر

الجديد . واصدر المركز السري في تبريز : الحر ، والمجاهد . واصدر نظام الاسلام كرماني ، من الجمعية السرية في طهران ، نداء الوطن . وحرر اربعة اعضاء من اللجنة الثورية نشراتهم الخاصة : الحقوق ، والمساواة وروح القدس ، وصرخة اسرافيل المدوية . ويبدو ان المعارضة ، بعد سنوات من الصمت المفروض ، كانت تسرع الآن الى المطابع كي تصب كل افكارها السياسية ، قديمها وجديدها .

افتتحت الجمعية الوطنية في شهر تشرين الاول . وكما كان متوقعا انعكس الدور الهام للطبقة المتوسطة المالكة في التركيب الاجتماعي للنواب : ٢٦ بالمئة منهم كانوا زعماء نقابات ، و٢٠ بالمئة رجال دين ، و٥ بالمئة تجارا (٩١) . وبدت الطبيعة السياسية للجمعية واضحة عبر التكون التدريجي « للاتجاهات » الثلاثة الرخوة ، ولكن الواضحة : الملكيين والمعتدلين والليبراليين . انعزل الملكيون ، الذين تشكلوا اساسا من الارستقراطيين اصحاب الاراضي عن مناقشات البرلمان بسبب صغر مجموعتهم ، وتألف المعتدلون من نواب الطبقة المتوسطة المالكة ، وشكلوا الاغلبية العظمى في الجمعية ، وكانوا بزعامة تاجرين ثريين : محمد علي شلفوروش ، قائد المسيرة السلمية نحو الشاه عبد العظيم في شهر حزيران عام ١٩٠٥ ، وامين الزرب الملتزم السابق لدار الضرب الملكية ، والممول الاساسي للاعتصام في مقر البعثة البريطانية ، والذي كان ما يزال اغنى رجل في ايران بالرغم من الضرائب الكبيرة التي فرضها ناصر الدين شاه . كما تلقى المعتدلون دعما كبيرا من الطباطبائي والبهبهاني اللذين ، بالرغم من عدم كونهما نائبين ، غالبا ما شاركا في النقاشات البرلمانية .

وبينما حصل المعتدلون على الدعم من الطبقة المتوسطة المالكة ، مثل الليبراليون بشكل مهيمن الانتلجنتسيا . وبالرغم من تخطيطهم للاصلاحات الشاملة الواسعة ، وحتى لاصلاحات علمانية ، لطف الليبراليون من راديكاليتهم في حينه من اجل التعاون مع المعتدلين بغية وضع دستور مناسب . كانت مجموعتهم الصغيرة المؤلفة من ٢١ نائبا بقياد سيد حسن طاقي زاده Sayyed Hassan Taqizadeh ، وهو نائب فصيح حطم ماضيه الديني المحافظ ، كما قال ، ليتبع « اهتمامه المتأجج » بالعلوم الاوروبية ، وخاصة الطب (٩٢) . وانتمى معظم هؤلاء اما الى اللجنة الثورية أو جمعية الانسانية ، أو كنز الفنون . وتم انتخاب بعضهم من قبل طائفة الشيخيين في تبريز ،

وبعضهم من قبل النقابات في طهران ، وبعضهم الاخر من قبل الجمعية الوطنية ذاتها لملء الفراغات الحاصلة اما بسبب الوفاة او الاستقالات (٩٣) . وبالرغم من أن هؤلاء العلمانيين ـ الراديكاليين ابتعدوا عن تحالفاتهم الدينية ـ التقليدية وانفصلوا في النهاية ، عن الحركة الدستورية بعد عام ١٩٠٩ ، الا أنهم كانوا تواقين للتحالف مع المعتدلين عام ١٩٠٦ ـ ١٩٠٧ ، من أجل صياغة القوانين الدستورية .

بدأ النواب وضع الدستور بضمان دور البرلمان باديء ذي بدء . ففي وثيقة سميت فيما بعد باسم « القوانين الاساسية » ، توضحت بشكل شامل سلطات الجمعية الوطنية . فلها « كممثل لكل الشعب » « الحق في ان تقترح بصدد جميع الامور اي اجراء يقود الى صالح الحكومة والشعب » . ولها القرار النهائي بالنسبة الى كل القوانين والقرارات والميزانيات والمعاهدات والقروض والاحتكارات والامتيازات.وعليها ان تعقد الجلسات التي تستمر عامين ، حيث لا يجوز خلال هذه الفترة اعتقال اي عضو من إعضائها بدون اذن منها . وكتنازل للبلاط اعطي الشاه صلاحية تعيين ثلاثين عضوا من أصل ستين في « مجلس الشيوخ » الا ان الجمعية الوطنية احتفظت بحق تحديد الدور الحقيقي لهذا المجلس ، في وقت لاحق .

وبعدما صوت المجلس بالاجماع على هذه الوثيقة ، أسرع النواب بتقديمها للشاه المريض ، وصادق الشاه ، بناء على الحاح مستشاريه الروحيين الذين أحاطوا بسرير الموت على القوانين الاساسية في ٣٠ كانون الاول ، قبل ٥ أيام من وفاته فقط . .

صمم الملك الجديد محمد علي شاه ، الذي حكم اذربيجان بيد من حديد كوريث شرعي ، على أن يحكم ايران لا كأبيه مظفر الدين شاه بل كجده ناصر الدين . استخف بالنواب بسرعة بعدم دعوتهم لحفلة تتويجه . وحاول فاشلا ، اعادة ناوس والتباحث بشأن الحصول على قرض من بريطانيا وروسيا . وشجع وزراءه على تجاهل إلجمعية الوطنية ، وامر حكامه بأهمال الجمعيات المحلية ، كما حاول اضعاف المعارضة باثارته للنعرات الطائفية ، وبخاصة بين الشيخيين والمتشرعين في تبريز ، وبين الازيريين والعرب والناطقين بالفارسية في طهران . اضف الى ذلك أنه عين رئيسا لوزرائه أمين السلطان ، وهو رئيس وزراء محافظ سابق ، والذي ، نتيجة زيارة حديثة لليابان ،جادل

قائلا بأنه لا يمكن تحقيق الاصلاحات من دون حكومة مركزية قوية مصممة .

الا أن الصراع الاساسي بين الشاه والجمعية الوطنية تمحور حول تكملة الدستور . فقد وضع النواب العاملون على ترجمة الدستور البلجيكي ، نظاما برلمانيا للحكم ، وانقسمت وثيقتهم النهائية التي سميت « القوانين الاساسية المتكاملة » الى جزئين رئيسيين . اشتمل الجزء الاول على « ميثاق الحقوق » الذي يضمن لكل مواطن المساواة أمام القانون ، وحماية « الحياة » ، والملكية والشرف ، والحماية من الاعتقال الاعتباطي ، وحرية تنظيم الجمعيات واصدار الصحف . وفي حين قال الجزء الاول بمبدأ « الفصل بين السلطات » فقد ركز السلطة في الفرع التشريعي على حساب الفرع التنفيذي . فبالاضافة للسلطة الممنوحة له في القوانين الاساسية ، حصل الفرع التشريعي على سلطة تعيين رؤساء الوزراء والتحقيق معهم وصرفهم وكذلك مع الوزراء والوزارات ، ومحاكمة الوزراء بتهمة « التقصير والاهمال » والموافقة على كل المصروفات العسكرية السنوية . واعتبرت السلطة التنفيذية من اختصاص الشاه على أن يكون التطبيق من قبل الوزراء . وكان على الشاه أن يقسم اليمين امام النواب ، وعلى الجمعية الوطنية ان توافق على ميزانية البلاط وحرم على اقارب الشاه المباشرين الدخول في الوزارة . « وعهد » الى « شخصه » بالقيادة الاسمية للقوات المسلحة .كما أن سلطته وصفت بأنها مستمدة من الشعب لا من الله : « ليست السيادة الا ثقة تمنح (كهبة سماوية) من قبل الشعب الى شخص الملك » . ولان وزراءه كانوا مسؤولين أمام البرلمان فقط لم يعد بأمكانهم « التخلي عن مسؤولياتهم عن طريق التماس الاوامر من الملك » . وفي الحقيقة ، احتفظ الشاه بمصدر هام وحيد من السلطة :

امتياز تعيين نصف أعضاء مجلس الشيوخ . ولكن ، بما أن هذا المجلس لم ينعقد منذ أكثر من ٤٣ سنة فقد تحول امتياز الشاه هذا الى امتياز أجوف .

واجرت الجمعية الوطنية ، التي تبنت الدستور البلجيكي تعديلين رئيسيين لملائمة الوضع الايراني . فقد اعترفت بوجود الجمعيات

والمجالس المحلية عن طريق اعطائها سلطة « ممارسة الاشراف الحر على كل القوانين المرتبطة بالمصلحة العامة شرط ان تأخذ بعين الاعتبار الحدود التي رسمها القانون ». كما اعترفت في عدد من المواد بأهمية الدين بوجه عام ، وباهمية القادة الدينيين بوجه خاص .واعلن المذهب الشيعي الاثني عشري دين الدولة في ايران . واعطيت المحاكم المذهبية سلطانا قضائيا واسعا على الشريعة .وحرم على غير المسلمين دخول الحكومة ، واخذت السلطة التنفيذية مسؤولية حظر التنظيمات والنشرات « الملحدة » . كما وعد « العلماء » « بلجنة عليا » مؤلفةمن خمسة مجتهدين مهمتها التدقيق بالقيمة الروحية لكل تشريع يقدم الى البرلمان حتى« ظهور المهدي... (تبتهل الى الله ان يسرع بقدومه) » هنا تم دمج التشيع التقليدي بالدستورية الحديثة . او كما قال مونتسكيو بكلمات اخرى ، فان « روح » المجتمع قد ساعدت في صياغة « قوانين » الدولة .

رفض الشاه ، الخائف من زوال كل السلطة الملكية ، التصديق على وثيقة « القوانين المتكاملة » . وبدلا من ذلك ادان زعماء المعارضة بصفتهم « هراطقة » و « جمهوريين مخربين » . وادعى « كمسلم مخلص » بأنه من الممكن ان يقبل تعبير « قانوني » ، ولكنه يرفض مفهوم مشروط (   ) « دستوري » الغريب (٩٤) . الا انه في الوقت ذاته تحمس للدستور الالماني الذي يسمح لراس السلطة بتعيين كل الوزراء ، بمن فيهم وزير الحربية . واقترح ايضا أن يتمتع الشاه بالقيادة الفعلية والاسمية للقوات المسلحة ، ويحتفظ بالقيادة الشخصية على حرس ملكي مستقبلي قوامه ١٠ آلاف رجل .

اشعلت هذه الاقتراحات المضادة احتجاجات جماهيرية في كل المدن الايرانية ، خاصة في طهران وتبريز وأصفهان وشيراز ومشهد وانزيلي ورشت وكيرمان وكرمنشاه . ففي كرمنشاه مثلا ، نقل القنصل البريطاني هناك ما يلي : « كل أصحاب المهن في البازار ، بما في ذلك الحمالون ، اعتصموا في مكتب البرق (٩٥) . » وفي تبريز اقسم ٢٠ الف متظاهر من احياء المتشرعين والشيخيين على الاستمرار بالاضراب « حتى يتم التصديق على الدستور » (٩٦) . وفي طهران الفت الجمعيات العديدة جمعية مركزية واحدة نظمت اضرابا عاما في البازار وفي دواوين الحكومة ، وعقدت اجتماعا جماهيريا ضم ٥٠ الف نسمة في الساحة المركزية ، وجندت ٣ آلاف مقاتل للدفاع عن الجمعية الوطنية . في هذا الوقت اغتال أحد المرابين من تبريز ،

المرتبط بعلاقة مرجحة مع الحزب الاشتراكي الديموقراطي رئيس الوزراء ، وانتحر فورا (٩٧) . وفي اليوم التالي ، اجتمع ١٠ آلاف مشيع اجلالا للقاتل الميت ، وتظاهروا تأييدا للدستور .

تراجع الشاه عن موقفه بعدما هزته عملية الاغتيال والمظاهرات الجماهيرية . وعلق أحد المراقبين الاوروبيين : « بجيش غير مسلح وبلا معاشات وبجنود جائعين مهملين : أي شيء آخر يمكن للشاه أن يقوم به في وجه التهديد العام بالاضراب والاضطرابات الجماهيرية » (٩٨) وكبديل لرئيس الوزراء ، عين الشاه ناصر الملك ، وهو رجل مثقف خريج أوكسفورد ، ذو ميول ليبرالية . وسعى للانضمام الى « جمعية الانسانية » ووعد بتنفيذ برنامج يعتمد دين الانسانية لاوغست كومت . كما ارسل امراءه امام البرلمان ليقسموا الولاء للدستور . وبعد ايام قليلة دخل الشاه نفسه الجمعية الوطنية واقسم على احترام الدستور ، ووضع الختم الملكي علنا على القوانين الاساسية المتكاملة . واجبر الشاه الذي كان يود ان يخلد شكل استبداد القاجار ، على قبول النظام الحديث للدستورية البرلمانية .

وبالرغم من محاولة محمد علي شاه تفكيك الثورة عبر انقلابه الحاصل في شهر حزيران (يونيو) ١٩٠٨ ، فان انتصار الدستوريين في الحرب الاهلية في حزيران (يونيو) ١٩٠٨ — تموز ١٩٠٩ ، تضمن ثانية منجزات الثورة . نظريا ، بقيت القوانين الاساسية ، والقوانين الاساسية المتكاملة حتى يومنا هذا ، الركيزتين الاساسيتين للدستور الايراني .

افكار ثورية مقابل طبقات ثورية

تؤيد المصادر الاساسية التفسير المقبول والقائل بأن افكار الغرب ، وبخاصة مفاهيم الدستورية والقومية والعلمانية ، قد ساعدت على تحطيم النظام السياسي لقاجار ايران . ادخلت الدستورية فكرة ان سلطة الملك يجب ان تحدد ليس بواسطة مجرد مفاهيم فضفاضة حول العدالة الاجتماعية وملكيات القرون الوسطى ، بل بواسطة مؤسسات الحكومة التمثيلية ذات التحديد الارادي الواضح . واستحدثت القومية المفهوم القائل بأن على الدولة ان تكون التعبير المنظم للشعب ، وليس ارث السلالة الحاكمة . اما العلمانية بالمقابل ، فخلقت الرغبة في الاستعارة من الغرب ، حيث برهن هذا الاخير عن تفوقه العلمي على الشرق ، كما وعززت هذه

العلمانية القناعة الموجودة لدى الاداريين المركزيين ، والقائلة بوجوب فصل شؤون الدولة عن العقائد الدينية ، وبوجوب فصل المصالح السياسية عن مبادىء الايمان ، ومسؤوليات الحكومة عن تعاليم « العلماء » .

ان ادخال الافكار الغربية والتوسع التدريجي للادارة المركزية ، خلقا طبقة ثورية جديدة : الانتلجنتسيا العصرية . وانقطعت هذه الانتلجنتسيا ، التي نالت علومها في المدارس العلمانية ، عن علماء الدين وعن أدباء البلاط المحافظين . وكونها توظفت بشكل رئيسي في بيروقراطية الدولة ، فقد كرهت الانتلجنتسيا البنية التقليدية التي تضع حياة الاداريين العامين وممتلكاتهم وشرفهم تحت رحمة واهواء الشاهنشاهات . ولانها انحدرت بشكل طاغ من خارج نبالة القاجار ، فقد حبذت وشجعت فتح مهن جديدة لاصحاب المواهب ، وعارضت بيع الوظائف لذوي النسب الملكي . ومتأثرة بأفكار الغرب ، اعتقدت الانتلجنتسيا أن بامكان البلد ان يتقدم سريعا اذا ما استبدلت الارادة الاعتباطية للملوك بالقوانين التي يمكن التنبؤ بحكمها ، وسلطة السلالات بسلطة الممثلين المنتخبين ، والاسلوب التقليدي في السيطرة على المجتمع بالعلم الحديث للهندسة الاجتماعية . باختصار ، ارادت الانتلجنتسيا استبدال الاستبداد الشرقي بالدستورية الغربية .

الا ان المسألة المركزية ليست ما اذا كانت الافكار الغربية ، ومناصروها من الانتلجنتسيا ، قد لعبت دورا في الثورة الدستورية ام لا ، بل ما اذا كانت لعبت الدور الرئيسي الحاسم . واذا ما قارنا اهمية الانتلجنتسيا باهمية الطبقة الوسطى المالكة ، لتبين لنا بوضوح ان اهمية الاخيرة قد بزت بكثير اهمية الاولى . فبينما كان عدد المثقفين العلمانيين يقدر بالمئات على الاكثر ، كان تجار البازار والحرفيون واصحاب المؤسسات التجارية والتجار ، يعدون بمئات الالوف على الاقل . وفي حين شكلت امية الجماهير عقبة أمام الصحف الليبرالية ، كان بمقدور القيادة الدينية أن تجذب ، في أي وقت ، التجمعات الواسعة . وبينما كانت الجمعيات السياسية في أعوام ١٩٠٤ ــ ١٩٠٥ ، لا تضم اكثر من بضع مئات من الاعضاء ، كان بمقدور نقابات البازار القديمة أن تحشد اكثر من ١٤ الف محتج في مقر البعثة البريطانية . وبينما حول المثقفون الراديكاليون العصريون مطلب المجلس العدلي الى مطلب الجمعية الدستورية الذي لا يقبل النقاش ، كان التجار ذوي العقلية التقليدية ، وزعماء النقابات ووعظة

الجوامع ينظمون بنجاح المظاهرات الجماهيرية والاجتماعات الشعبية واضرابات البازار ، والاضرابات العامة الشاملة . وفي حين ترجم النواب الليبراليون الدستور البلجيكي ، كيفه المعتدلون والظروف المحلية وشرعوه في قانون . وفي حين اثر التاريخ الاوروبي في نخبة صغيرة ، الهم الماضي الاسلامي جماهير الشعب . وفي وقت الازمات كان الجمهور ينتقل الى الفعل دون أن تحركه صور كرومويل وروبسبيير وفولتير وملاعب التنس والباستيل المحاصر ، بل كانت تحركه المفاهيم التقليدية للعدالة الاجتماعية والرموز العاطفية المستمدة من التراث الشيعي — وبخاصة من استشهاد الحسين وأفراد عائلته. باختصار كان المثقفون مستشاري الثوريين ، الا ان أعضاء النقابات التقليدية للبازار كانوا الثوريين الفعليين .

وبدا الدور المسيطر للطبقة الوسطى المالكة اكثر وضوحا في السنوات اللاحقة ، خاصة في عام ١٩١٠ ، عندما انشقت الحركة الدستورية بعدما ربحت الحرب الاهلية ، الى تيارين اثنين . فبينما وجه المحافظون بقيادة الطباطبائي والبهبهاني ، تجار البازار نحو الحزب المعتدل (حزب الوسط) Firqeh i - Itedal ، نظم الراديكاليون العلمانيون بقيادة طاقي زاده الانتلجنتسيا في الحزب الديمقراطي المنافس Firqeh i - Demokrat . ولكن خلال عام واحد فقط بات الحزب الديموقراطي يعيش حالة من التشوش والبلبلة وانعدم وزن اصوات نوابه في البرلمان واتهم زعماؤه « بالهرطقة » من قبل السلطات الدينية ، واجبروا على الفرار الى المنفى ، واصبح تنظيمه هدف احتجاجات جماهيرية تحركها نقابات البازار . وفي صدام مباشر بين الانتلجنتسيا والطبقة الوسطى المالكة ، ربحت الاخيرة المعركة بشكل حاسم . وحتى المؤرخون التقليديون الذين جادلوا بأن الافكار الحديثة هي التي سببت الثورة ، عادوا فادعوا فيما بعد بأن الجماهير « التقليدية » « المؤمنة بالخرافات » « المتخلفة » والامية هي التي حددت الفشل اللاحق للحركة الدستورية . فكسراوي مثلا . الذي بدأ كتابه الضخم : « تاريخ الدستور الايراني » بمقدمة حول كيفية « ايقاظ » الافكار العصرية الحديثة للبلد ، أمضى آخر سنوات حياته ليصف لماذا بقي الجمهور « متخلفا » « فاسدا » ، « غير مستنير » ، و « غير ناهض » (٩٩) . وبدأ كاتب آخر هو احمد مجد الاسلام كرماني ، كتابه « تاريخ الثورة الدستورية في ايران » ، بمدح اهمية الافكار الحديثة ، ولكنه انتهى بتحسر على استمرار المشاعر

التقليدية بين الجماهير ، وعلى الانتشار المحدود للافكار الحديثة ذاتها بين اقل من « الف فرد مستنير » (١٠٠) .

بالرغم من ان التأثير الايديولوجي للغرب قد بولغ به كثيرا ، الا انه من الممكن وصف التأثير الاقتصادي ـــ الاجتماعي للغرب على انه السبب الرئيسي المقرر للثورة الدستورية . اذ أن الاختراق الاقتصادي لايران أدى الى دمج الاقتصادات الاقليمية الكثيرة في اقتصاد قومي واحد ، كما ان تكون الاقتصاد القومي قد خفف تدريجيا من الصراعات التقليدية بين الطوائف المدينية المختلفة ، خاصة بين الحرفيين الشيخيين والمتشرعين ، وبين التجار الحيدريين والنعماتيين ، وبين تجار طهران وتبريز واصفهان والقزوين وشيراز .

ان تخفيف الصراعات الطائفية ساعد على خلق طبقة متوسطة مالكة أصبحت بدورها ، تحت وطأة تهديد المنافسين الاجانب والكمبرادور المحلي لها ، بورجوازية وطنية مستاءة ، واعية نقاط قوتها ونقاط ضعف السلالة الحاكمة . وقد تطورت هذه البورجوازية الوطنية المستاءة ، بتشجيع من الاحاسيس المعادية للدولة لدى علماء الشيعة ، الى طبقة ثورية . ولقد احدثت التغيرات الاقتصادية تغيرات اجتماعية قادت بدورها الى تغيرات سياسية . واذا أعدنا صياغة ماركس يمكن القول انه لم يكن ادخال الوعي الثوري هو الذي خلق النظام الاجتماعي الجديد ،بل على العكس .ان وجود النظام الاجتماعي الجديد هو الذي سمح بتكييف جوانب انتقائية من الوعي الثوري .

هوامش

1- E. Nordlinger, ed. Politics and Society: Comparative Political Sociology (Englewood Cliffs, N.J., 1970), p. 8.

2- S. Hughes, Consciousness and Society (New York, 1958), p. 74.

3- E. Durkheim, The division of Labor (New York, 1964).

4- V. Pareto, The Ming of Society (London, 1935); G. Mosca, The Ruling Class (New York, 1939).

5- R. Michels, Political Parties (New York, 1949).

6- H. Gerth and C. W. Mills, eds. From Max Weber: Essays in Sociology (New York, 1969).

7- For recent works on theories of revolution see: L. Stone, «Theories of Revolution World Politics, 18, 2 (January 1966), 159-176: P. Zagorin,

«Theories of Revolution in Contemporary Historiography, Political Science Quarterly, 88, 1 (March 1973, 3-26; L. Kaplan, ed. Revolution: A Comparative Study (New York, 1973); C. Welch and M. Taintor, ed. Revolution and Political Change (Los Angeles, 1972); C. Johnson, Revolutionary Change (Berkeley, 1968); special issue «Revolution and Social Change, Comparative Politics, 5, 3 (April 1973); special issue «Theories of Revolution,» Comparative Studies in Society and History, 18, 2 (April 1976).

8- F. Engles, «Speech at the graveside of Karl Marx,» Selected Works (Moscow, 1958), II, 167.

9- S. Padover, ed., Karl Marx on Revolution New York, 1971), pp. 55, 422, 456-462.

11- C. Hill: Puritanism and Revolution (New York, 1964); Century of Revolution (Edinburg, 1961); God's Englishman (London, 1970).

12- E. P. Thompson, The Making of the English Working Class (London, 1963).

13- G. Rude: The Crowd in History (New York, 1964); The Crowd in the French Revolution (New York, 1967); co-authored with E. Hobsbawm, Captain Swing (New York, 1968).

14- E. Hobsbawm: Labouring Men (London, 1964); Primitive Rebels (New York, 1959); Bandits (New York, 1971); Revolutionaries (New York, 1973).

15- E. Hobsbawm, «Karl Marx's Contribution to Historiography,» in R. Blackburn, ed., Ideology in Social Sciences, (London, 1972), pp. 265-288.

16- M. Richter, «Tocquevillés Contribution to the Theory of Revolutions», in C. Friedrich, ed., Revolutions (New York, 1969).

17- T. Parsons, The Social System (New York, 1964), pp. 521-523.

18- T, Gurr, Why Men Rebel (Princeton, 1971).

19- A. Kasravi, Tarikh-i Mashruteh-i Iran (The History of the Iranian Constitution) (Tehran, 1961); M. Malekzadeh, Tarikh-i Inqilab-i Mashrutiyat-i Iran (The History of the Constitutional Revolution in Iran), Vol. I (Tehran, 1949); Y. Dawlatabadi, Hayat-i Yahyai (The Life o f Yahyai), Vol. I. (Tehran, 1957); Nizam al-Islam Kermani, Tarikh-i Bidari, I.

20- F. Adamiyat, Fekr-i Azadi va Moqadimeh-yi Nahzat-i Mashrutiyat-i Iran (The Concept of Liberty and the Beginnings of the Constitutional Movement in Iran) (Tehran, 1961); Admiyat, Andisheh-ha-yi Mirza Aqa Khan Kermani (The Ideas of Mirza Aqa Khan Kermani) Tehran, 1967 ; Adamiyat, Fekr-i Demokrasi-yia Ijtima'yi va Nahzat-i Mashru-

tiyat-i Iran (The Concept of Social Democracy and the Constitutional Movement in Iran) (Tehran, 1975); A. Shamim, Iran dar Dawreh-i Saltanat-i Qajar (Iran during the Qajar Dynasty (Tehran, 1963); I. Safa'i, Rahbaran-i Mashruteh (The Leaders of the Constitution) (Tehran, 1963); H. Farmayan, 'The Forces of Modernization in Nineteenth Century Iran,' in W. Polk and R. Chambers, eds., Beginnings of Modernization in the Middle East (Chicago 1966), pp. 119-151.

21- M. Razavani, Inqilab-i Mashrutiyat-i Iran (The Constitutional Revolution in Iran, (Tehran, 1965), pp. 10-11.

22- For rare works that stress the economic causes of the revolution see N. Keddie: 'Iranian Politics, 1900-1905: Background to Revolution, 'Middle Eastern Studies, 5, 1 (January 1969), 2-35; 'The Origins of the Religious-Radical Alliance in Iran,' Past and Present, 34 (July 1966), 70-80; J. Bill, The Politics of Iran; Groups, Classes, and Modernization (Columbus, 1972); M. Pavlovich and J. Iranski, Inqilab-i Mashrutiyat-i Iran (The Constitutional Revolution of Iran), translated from Russian by Hushiyar Constitutional Revolution of Iran), translated from Russian by Hushiyar (Tehran, 1961); B. Momeni, Iran dar Astaneh-yi Inqilab-i Mashrutiyat (Iran on the Eve of the Constitutional Revolution) (Tehran, 1966).

23- E. Browne, The Persian Revolution of 1905-1909 (London, 1910).

24- P. Sykes, A History of Persia (London), 1963, II, 395-397.

25- D. Wilber, Iran : Past and Present (Princeton, 1955), p. 81.

26- P. Avery, Modern Iran (London, 1965). pp. 106-139.

27- L. Binder, Iran : Political Development in a Changing Society (Berkeley, 1963).

28- A. Lambton, 'The Persian Constitutional Revolution of 1905-6' in P. Vatikiotis, ed. Revolutions in the Middle East (London 1972) pp. 173-182.

29- For an elaboration of this definition see F. Kamenka, 'The Concept of Political Revolution,' in Friedrich, ed., Revolution, pp. 122-135.

30- K. Marx, 'The Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte,' Selected Works (Moscow, 1958), I, 247.

31 K. Marx, The Poverty of Philosophy (Chicago, 1920), pp. 188-189.

32- S. Ossowski, Class Structure in Social Consciousness (London, 1963), pp. 69-87; R. Centers, The Psychology of Social Class (Princeton, 1949) pp. 21-27.

33- For a description of the class structure in nineteenth-century Iran see

E. Abrahamian, European Feudalism and Middle Eastern Despotisms, 'Science a nd Society', 39, 2 (Summer 1975), 129-156.

34- F. Khamsi, 'The Development of Capitalism in Rural Iran' unpublished M.A. thesis, Columbia University, 1968.

35- H. Busse, History of Persia under Qajar Rule (New York, 1972).

36- E. Abrahamian, 'The Crowd in the Persian Revolution,' Iranian Studies, 2. 4. (Autumn 1969), 128-150.

37- J. Kinneir, A Geographical Memoir of the Persian Empire (London, 1813), p. 45.

38- A. Lambton, 'Persian Society under the Qajars,' Journal of the Royal Central Asian Society, 48, 4 (July-October 1961), 130.

39- J. Malcolm, History of Persia (London, 18293, II, 429.

40- K. Marx, Pre-Capitalist Economic Formations, ed. E. Hobsbawm (London, 1964), p. 70.

41- C. Issawi, The Economic History of Iran, 1900 - 1914 (Chicago, 1971) p. 132.

42- The term 'European world-system' is borrowed from I. Wallerstein, The Modern World - System (New York, 1974).

43- K. Marx, 'The Communist Manifesto,' Selected Works, I, 38.

(٤٤) ادعى كثير من مراقبي القرن التاسع عشر ان سبب التضخم يعود الى تخفيض التاجار لكمية الفضة في القطع النقدية . ان هذا التخفيض لم يتطابق والتضخم لا في التوقيت ولا في الدرجة . لقد أثر التخفيض بنسبة ٥٠ بالمئة بالكاد في تضخم الاسعار الذي وصل الى ٦٠٠ بالمئة . وحصلت معظم التخفيضات في النصف الاول من القرن ، بالرغم من أن صعود أسعار المواد الغذائية الحاد كان في النصف الثاني . للاطلاع على الاحصائيات أنظر :

Issawi, Economic History of Iran, pp. 339-399.

45- For the early attempts at modernization see F. Adamiyat, Amir Kabir va Iran (Amir Kabir and Iran) Tehran, 1969 ; J. Lorentz, 'Modernization and Political Change in Nineteenth - Century Iran,' unpublished Ph. D. dissertation, Princeton University, 1974.

46- Mirza Hussein Khan Tahvildar-i Isfahan, Jukhrafiha-yi Ishahan (The Geography of Isfahan) (Tehran, 1963), pp. 100-101.

47- Lieutenant-Colonel Picot, 'Persia: Biographical Notices,' F.O. 881/ Persia 1897/7028.

48- Mirza Taqi Khan Hakimbashi, 'Reports on Bushire,' Esnad-i Nowuaf-

teh (Recently Found Documents), ed. I Safa'i (Tehran, 1970), pp. 104-115.

49- R. Frye, 'The Charisma of Kingship in Ancient Iran,' Iranica Antiqua, 4, (1964), 36-54.

50- A. Lambton, 'Justice in the Medieval Persian Theory of Kingship,' Studia Oslamica, 17 (1957), 91-119.

51- H. Algar, Religion and State in Iran, 1785-1906 (Berkeley, 1969), p. 57.

52- For detailed biographies see Adamiyat, Fekr-i Azadi, pp. 100-120; H. Algar, Mirza Malkum Khan (Berkeley, 1973).

(٥٣) نشرت السلطات الدينية شائعات تقول بأن جمعية السلوان كانت تنظم حفلات العربدة لـ « شبان دار الفنون الذين لا لحى لهم » .

1 Rain, Faramushkhaneh va Fremansuri dar Iran (The house of Oblivvion in Iran) (Tehran 1968) 1. 525.

54- Malkum Khan, 'Persian Civilization,' Contemporary Review, 54 (February 1891), 238-244.

55- Malkum Khan, 'God has Blessed Iran,' Qanun, 1 (February 1890).

56- Malkum Khan, 'A Letter from Qazvin,' Qanun, 6 (July 1890).

57- Quoted by N. Keddie, Religion and Rebellion in Iran: The Tobaco Protest of 1891-1892 (London, 1966), p. 49.

58- Malekzadeh, Tarikhi Inqilab, 1, 174-177.

59- M. Mujtahedi, Tarikh-i Zindigani-ui Taqizadeh (The History of Taqizadeh's Life) (Tehran, 1942); H. Taqizadah, 'My Life,' Rahenma-yi Ketab, 13, 7 (May-June 1970). 243-266.

60- Quoted by Malekzadeh, Tarikh-i Inqilab, I, 153-154.

61- Nizam al-Islam Kermani, Tarikd-i Bidar, Vol. I.

62- S. Javid, Fedakaran-i Faramuch-shudeh (Forgotten Heroes) (Tehran, 1966); 'A. Iqbal,' 'Sharifzadeh,' 'Yadgar', 3, 10 (May June 1947), 58-73; K. Taherzadeh-Behzad, Qiyam-i Azerbayjar dar Inqilab-i Mashrutiyat-i Iran (The Revolt of Azerbayjan in the Constitutional Revolution) (Tehran, 1953).

63- S. Javid, Nahzat-i Mashrutiyat-i Iran (The Constitutional Movement in Iran) (Tehran, 1968), pp. 60-70.

64- Document, 'Concerning the Iranian Social Democratic Party,' Donya, 5, 2 (Summer 1966 0, 99-103; document, 'The Regulations of the Iranian Social Democratic Party,' Donya, 3, 4 (Winter 1962), 76-80.

65- Adamiyat, Fekr-i Azadi, pp. 206-217.

66- Malekzadeh, Tarikh-i Inqilab, II, 5. 18.

67- M. Malekzadeh, Aindigani-yi Maled al-Motakallemin (The Life of Maled al-Motakallemin) (Tehran, 1946), p. 148.

68- The biographical information has been obtained from interviews, miscellaneous newspapers, and M. Bamdad, Tarikh-i Rajal-i Iran (The History of Iranian Statesmen — Vols. I-IV (Tehran, 1968).

69- Habl al-Matin, 2-23 March 1905.

(٧٠) رفض الشاه عرضا روسيا بمبلغ ٣٥٠ الف جنيه شرط وضع ضابط روسي على رأس كل الفرق العسكرية بالاضافة الى فرقة القوزاق .

(British Minister to the Foreign Office, 'Annual Report for 1905'. F.O. 371/ Peésia 1906.

71- Habl al-Matin, 19 June 1905.

72- British Minister to the Foreign Office, 'Annual Report for 1905,' 371 Persia, 1906/106.

73- H. Qudsi, Kitab-i Khatirat-i Man ya Tarikh-i Sad Saleh (The Book of My Life or the History of One Hundred Years), (Tehran, 1963), I, 99-100.

74- Malekzadeh, Tarikh-i Inqilab, II, 104.

75- Nizam al-Islam Kermani, Tarikh-i Bidari, I, 124.

76- Habl al-Matin, 28 September 1906.

77- Great Britain, Correspondence Respecting the Affairs of Persia (London, 1909), I, pp. 4-4.

78- Kasravi, Tarikh-i Mashruteh, p. 110.

79- Great Britain, Correspondence Respecting the Affairs of Persia, I, 4.

80- Nizam al-Islam Kermani, Tarikh-i Bidari, I, 274.

81- Hajji Ahmed Tarresh Husseini, Ruznameh-i Akhbar-i Mashrutiyat (A Diary of the Constitution) (Tehran, 1972), p. 40.

82- M. Heravi-Khurasani, Tarikh-i Payadayish-i Mashrutiyat-i Iran (The History of the Iranian Constitution) (Tehran, 1953), p. 50.

(٨٣) رواها الشيخ يوسف ، محاضر جلسات الجمعية الوطنية ، المجلس الاول ، ص ٣٥١ .

(٨٤) تخوف بعض أعضاء المعارضة من أن الشاه سيطردهم من مثل هذه الجمعية الاسلامية باتهامهم « بالهرطقة » .

Nizam al-Islam, Tarikh-i Bidari, I. 329.

(٨٥) المرجع السابق ص ٣٥٩ .

86- Great Britain, Correspondence Respecting the Affairs of Persia, I, p. 4.

87- H. Arsanjani, 'Anarchism in Iran,' Darya, 17 July 1944.

88- Malekzadeh, Tarikh - Inqilab, II, 180.

89- Translations of the constitutional laws have been reprinted in Browne. The Persian Revolution, pp. 345-400.

(٩٠) شملت الالف دونم كثيرا من اصحاب الاراضي ذوي الدخل المتوسط ، ولكنها لم تشمل الفلاحين الاحرار .

91- Z. Shaji-i, Nemayandegan-i Majlis-i Shawra-yi Melli dar Bistuyek Dawreh-i Qamunguzari (The Members of the National Assembly during Twenty-One Legislative Sessions (Tehran, 1965), p. 176.

92- H. Taqizadeh, 'My Life,' Rahenma-yi Ketab, 13, 7 (May - June 1970), 243-266.

93- H. Taqizadehr, 'List of Members of the First Majlis,' Kavek, 15 July 1918.

94- For a discussion o f these terms see H. Taqizadeh, 'The First National Assembly,' Ittila-at-i Mahaneh, 5. 5 (July-August 1954), 3-6.

95- Great Britain, Correspondence Respecting the Affairs of Persia, I, 27.

96- Kasravi, Tarikhi Mashruteh, p. 519.

97- See N. Keddie, 'The Assassination of Amin al-Sultan,' in C. E. Bosworth, ed., Iran and Islam (Edinburgh, 1971), pp. 316-319.

98- Quoted by Browne, The Persian Revolution, p. 137.

99- A. Kasravi, Inqilabi Christ? (What is a Revolution?) (Tehran, 1945).

100- A. Majd al-Islam Kermani, Tarikh-i Inqilab-i Mashrutiyat-i Iran (The History of the Constitutional Revolution in Iran) (Isfahan, 1972), III, 21.

عوامل القوة والضعف في الحركة العمالية ١٩٤١-١٩٥٣

يرفند ابرهميان

تفسح الفترة الممتدة من آب ١٩٤١ ، عند سقوط حكم رضا شاه ، ولغاية اب ١٩٥٣ ، عند قيام حكم محمد رضا شاه ، امامنا فرصة ثمينة ونادرة لتفحص الصراعات الاجتماعية الموجودة حاليا في ايران . فهذه الفترة هي خير مساعد لعلماء الاجتماع في الغوص وراء الظواهر السياسية والكشف عن نقاب البنية الاجتماعية ودراسة الانقسامات الداخلية الرئيسية ، وتتبع الروابط المركبة بين القوى السياسية المتنافسة وخاصة الاحزاب المنظمة منها، من جهة، والقوى الاجتماعية وعلى وجه التحديد الطبقات الاجتماعية ـ الاقتصادية ، من جهة أخرى . وباختصار فان هذه السنوات الثلاث عشرة تمكن علماء الاجتماع من تدوين علم اجتماع سياسي لايران الحديثة .

من بين الاحزاب السياسية العديدة التي ظهرت بعد عام ١٩٤١ والتي هددت الوضع القائم ، كان حزب « توده ايران » (حزب الجماهير الايرانية) والتنظيم النقابي العمالي المرتبط به والمعروف بـ « المجلس المركزي للنقابات المتحدة لعمال وكادحي ايران » .

بدا هذا الحزب في ايلول ١٩٤١ كحلقة صغيرة من المثقفين الماركسيين ، ولكنه ما لبث ان شهد نموا سريعا بين سنتي ١٩٤١ و ١٩٤٥ ليصبح من بعدها حزب الجماهير قولا وفعلا . ولم يحن منتصف عام ١٩٤٦ حتى كان الحزب قد انشأ فروعا في كل مدينة تقريبا يزيد عدد سكانها على عشرة الاف نسمة ، وضم في صفوفه اكثر من أربعين الف عضو ، كان اربعون بالمئة منهم من العمال. وبلغ مجموع ما ضمه الحزب الى العمل النقابي ٣٥٥ الفا من

الاجراء وعمال الياقات البيض . وفي عيد العمال ذاك العام ، نظم الحزب مسيرات شارك فيها حوالي اربعون الفا في اصفهان ، وخمسون الفا في طهران وثمانون الفا في عبدان (١) . وقد حذر السفير البريطاني وزارة خارجية بلاده من قوة حزب توده المتضاعفة، معتبرا اياه القوة الاساسية المتماسكة في البلاد ، والتي تتمتع بسيطرة كاملة على الحركة العمالية في ايران (٢) . غير ان الحزب عانى خلال سنتي ١٩٤٧ ــ ١٩٤٩ كثيرا من الاعتقالات الجماعية والانشقاقات التي اضعفته ، ولكنه ما لبث أن استعاد نشاطه بعد عام ١٩٥١ واصبح يشكل تحديا ملموسا لجهاز الحكم . وما ان حل منتصف عام ١٩٥٣ ، حتى وصل عدد المشاركين في تظاهرات طهران الى مئة الف نسمة ، وبلغ عدد الاعضاء والمؤيدين حوالي ٣٢٥ الفا، حتى أن التنظيم النقابي العمالي المرتبط به تجاوز قمة النجاح التي وصل اليها عام ١٩٤٦ . وكما صرح أحد المراسلين الاجانب عشية انقلاب ١٩٥٣ ، « أن « توده » ينمو بسرعة وينتشر خاصة بين صفوف العمال ، « ولسوف يستلم السلطة عاجلا أم اجلا » دون اللجوء الى العنف (٣) » .

كان « تودة » ، اذن ، يشكل التحدي الثوري الرئيسي في وجه ايران التقليدي ، ومع ذلك فان قلة من علماء الاجتماع درست قواعد الحزب الاجتماعية وحركته العمالية (٤) . لذلك رأينا أن نركز البحث في هذه الدراسة على ثلاث نقاط رئيسية :

أولا : تتبع نشوء الحركة العمالية بين سنتي ١٩٢١ ــ ١٩٤١ .

ثانيا : دراسة تطورها السريع بين عامي ١٩٤١ ــ ١٩٥٣ . وبهذا يمكن الكشف عن نطاق قوتها ونقاط ضعفها ، وبالتالي يمكن القاء ضوء على الاسباب التي سمحت للتركيبة التقليدية للسلطة بأن تستمر في البقاء .

ثالثا : ستبين هذه الدراسة قوة وضعف الحركة العمالية من خلال وصف خير نموذج على ذلك وهو الاضراب الدراماتيكي العام الذي حصل في تموز ١٩٤٦ في صناعات النفط . فبالرغم من أن هذا الاضراب لم يزعزع كيان الحكم القائم انذاك ، غير انه تجربة ليس لازمة النفط لاعوام بل لازمة ١٩٧٨ ــ ١٩٧٩ الاكثر شدة .

لمحة تاريخية : ١٩٢١ ــ ١٩٤١

بالرغم من أن بعض العمال المهرة ، وخاصة عمال الطباعة في طهران بداوا بانشاء النقابات منذ عام ١٩١٠ ، وأن العمال غير المهرة ،

وخاصة عمال الموانىء في انظلي (بهلوي) اضربوا سنة ١٩١٠ مطالبين برفع الاجور ، وان كثيرا من العمال المهاجرين من ايران شارك في ثورتي ١٩٠٥ و ١٩١٧ في باكو،وكان ذلك في سنة ١٩٢١ عندما ظهرت أولى الحركات العمالية ، الا انه كان لا بد من الانتظار حتى عام ١٩٢١ لتظهر أول حركة عمالية ذات دلالة . في ذلك العام ، ساعدت الاحزاب الشيوعية والاشتراكية ، التي كانت قد تشكلت حديثا ، على ضم تسعة من الاتحادات العمالية في طهران في ما يسمى بـ « المجلس المركزي لفدرالية اتحادات العمال » (٥) . وقد تألفت هذه الاتحادات التسعة الممثلة في « المجلس المركزي » من نقابات : عمال المطابع والصيادلة والاسكافيين ، وخدم الحمامات وعمال الافران ، وعمال البناء وموظفي البلديات والخياطين وعمال النسيج في مصنع طهران الحديث . وفي السنوات الثلاث التالية، أصبح عدد أعضاء « المجلس المركزي » * في ايران ثمانية الاف عضو ، وأصدر صحيفة « الحقيقة » ، ونظم في يوم العمال احتفالات في طهران ، كان عدد المشاركين بها يتعدى الالفي نسمة . واستطاع أيضا أن يجتذب نقابتي المعلمين ، وموظفي البريد والهاتف . وقد قاد اضرابات عمال المطابع ضد الرقابة ، واضرابات المعلمين ، وموظفي البريد وعمال الافران ومصانع النسيج للمطالبة بزيادة الاجور والمعاشات . وساعد ايضا على تنظيم واحد وعشرين اتحادا جديدا في مختلف المناطق ضمت اتحادات : عمال الموانىء في انظلي ، وحائكي السجاد في كرمان وعمال نسيج في أصفهان وعمال نفط في خوزستان ، والمعلمين والحمالين وعمال صناعة التبغ وعمال تنظيف الارز في راشت ، والمعلمين ، والخياطين والاسكافيين ، وموظفي المكاتب وحائكي السجاد وبائعي الحلويات ، وعمال البرق في مشهد، وايضا الطباخين ، وحائكي السجاد وسائقي العربات ، وخدم المنازل والنجارين وعمال صناعة التبغ في طهران . وهكذا ، فان الحركة العمالية في بدايتها كانت تعكس طبيعة التخلف في الاقتصاد. ففي العام ١٩٢٥ كان بين ٣٢ نقابة : ١٢ تمثل اجراء البازار وموظفي المشاغل والحرفيين ، و ٨ تمثل موظفي الدوائر والمهنيين والفنيين، و ٦ تمثل العمال غير المهرة كالحمالين والشغيلة وخدم المنازل و ٦

* « المجلس المركزي لفدرالية اتحادات العمال » ، وسيرد هكذا في بقية النص .

منها فقط كانت تمثل اجراء عصريين مثل عمال المطابع والمصانع والنفط .

غير أن نمو الحركة العمالية سرعان ما اصطدم بحكم رضا شاه. ففي سنة ١٩٢٦ ، توج رضا شاه نفسه وقام بحل « المجلس المركزي » ومنع جميع النقابات ، وحظر قانونيا نشاط الاحزاب الشيوعية والاشتراكية . كما اصدر احكاما قاسية على كل من ينادي بأفكار اشتراكية واعتقل اكثر من مئتي منظم عمالي . وقد « مات » خمسة من هؤلاء في السجن ، بينهم زعيم نقابة عمال الطباعة.

بالرغم من أن رضا شاه أخر الحركة العمالية على المدى القصير ، ولكنه ساعدها دون قصد ، على المدى الطويل ، وذلك حين عصرن الاقتصاد مما ادى الى نشوء طبقة عاملة صناعية . فمن جملة اعماله ، انه باشر بانشاء الخط الحديدي عبر ايران وبناء مرافىء في بندرشاه ، وبندرشابور وشق١٢الف ميل من الطرقات، والاهم من كل هذا انه شجع على بناء المصانع الحديثة . ففي عام ١٩٢٥ ، لم يكن عدد المصانع يتعدى العشرين ، بينها خمسة مصانع كبيرة يحوي كل منها حوالي ٥٠ عاملا . بينما ازداد هذا العدد في سنة ١٩٤١ الى اكثر من ٣٤٦ مصنعا حديثا (٦) منها حوالي المئتين من المنشآت الصغيرة ، مثل الاهراءات والمصافي ومدابغ الجلود ومحطات توليد الكهرباء . أما بقية المصانع ، والتي عددها ١٤٦ مصنعا ، فكانت تشمل منشآت كبيرة : ستة وثلاثون مصنعا للنسيج ، وثماني مصافي للسكر واحد عشر معملا للكبريت وثماني شركات كيمائية ومشغلين حديثين للزجاج وخمسة معامل أخرى لتحضير الشاي والتبغ . وكان من الطبيعي اذن ان يزداد عدد الاجراء في المصانع الكبرى الحديثة من الف في عام ١٩٢٥ الى اكثر من ٥٠ الفا في عام ١٩٤١ .

بالاضافة الى ذلك ، ارتفع عدد العاملين في صناعة النفط في الفترة ذاتها من حوالي ٢٠ الفا الى حوالي ٣١ الفا . واندمج كثير من المشاغل الصغيرة كمصانع الاحذية ومخازن السجاد ومحلات الخياطة ، الى مشاغل اكبر يحوي كل منها ٣٠ عاملا على الاقل . وهكذا ، فان نحن جمعنا عدد الاجراء في مصانع النفط والمصانع الكبيرة الحديثة وحوالي ١٠ الاف عامل في المصانع الصغيرة الحديثة و ٢٫٥٠٠ عامل في صناعة السمك في بحر قزوين و ٩ الاف في الخطوط الحديدية و ٤ الاف في حقول الفحم و ٤ الاف في الموانىء ، واضفنا

اليهم عددا هاما من عمال البناء الموسميين ، نجد أن مجموعهم ١٧٠ الف عامل . وهكذا ولدت بروليتاريا عصرية .

لم تكن هذه البروليتاريا عصرية فحسب ، بل كانت غير راضية. فساعات العمل طويلة والاجور منخفضة والضرائب تثقل كواهل العمال وكانت اوضاع العمل ، على حد قول معلق بريطاني ، «تشبه العبودية » (٧) . وبسبب عدم توفر الاتحادات العمالية انذاك ، فقد كان العمال يعبرون عن تذمرهم من خلال خلايا غير شرعية ، واضرابات عفوية . ففي عام ١٩٢٩ ، مثلا ، طالب ١١ الف عامل في صناعة النفط في عبدان بزيادة اجورهم وثماني ساعات عمل في اليوم وبدفع الاجازات ، وتأمين منازل للعمال ، وحرية الاتحادات العمالية ، وكان نتيجة ذلك ان زادت شركة النفط الاجور للعمال، ولكن البحرية البريطانية سارعت بارسال سفينة مدفعية الى البصرة، فعمدت السلطات الايرانية عند ذلك الى توقيف اكثر من ٥٠٠ عامل، وبقي خمسة من قادة المتظاهرين في السجن لغاية عام ١٩٤١ . وفي عام ١٩٣١ ، توقف ٥٠٠ عامل في مصنع النسيج الرئيسي في أصفهان عن العمل ، وطالبوا برفع مستوى الاجور ، وبثماني ساعات عمل ، وبدفع الرواتب عن ايام الجمعة . وبالرغم من أن منظمي هذه التظاهرات سجنوا وبقي البعض في السجن لغاية ١٩٤١ ، فقد زادت الاجور بنسبة ٢٠ بالمئة وخفضت ساعات العمل من عشرة الى تسع . وفي عام ١٩٣٧ ، وبعد سنتين فقط من انهاء أول خط حديدي من «خطوط عبر ايران» ، تظاهر ٨٠٠ عامل في سكة الحديد في مزندران مطالبين بزيادة الاجور . وقد نالوا ما طالبوا به بالرغم من بقاء منظمي هذه التظاهرة في السجن لغاية عام ١٩٤١ . وقد لخص القنصل البريطاني في تبريز الوضع العمالي العام في قوله : (٨)

« نحن الان في مرحلة انتقالية بين القديم والحديث . بدأ الموظف يفقد صلته الحميمة مع رب العمل ، كما بدأ يفقد الكثير من اعتزازه بمنتوجه . وليس هناك حتى الان في عقود العمل ما يضمن للعامل التعويض في حالة اصابات العمل او البطالة والتي ممكن ان تحل مكان الالتزام الادبي القديم لدى رب العمل التقليدي . لقد ازالت الدوله بنية دون استبدالها بجديدة : لقد ازاح رضا شاه « الله » من المجال الاقتصادي ، ووضع نفسه مكانه في قلب أخلاقيات الصناعة».

قضى الغزو السوفياتي ــ الانكليزي على ديكتاتورية رضاشاه، وفتح أبواب السجون امام اكثر من ١٢٥٠ سجينا سياسيا ، بينهم قدماء النقابيين ومجموعة من الشباب الماركسيين المثقفين المعروفين باسم المنشقين « الثلاثة والخمسين » . فما كان من هؤلاء مجتمعين الا ان نظموا حزب « توده » ، وبداوا باحياء حركة النقابة العمالية ، وذلك بعد أيام قليلة من اطلاق سراحهم . وحصروا خلال عام ١٩٤٢ اهتمامهم بالمشاغل والمصانع الحديثة في طهران،وحقول الفحم في شامشك خارج العاصمة ، ومصانع النسيج في شالوس وشاهي وبيشار في مزنداران . وفي عام ١٩٤٣ ، كان جل همهم التغلب على عدد من الاتحادات المستقلة التي بدات تظهر في كل من تبريز ومشهد وراشت ، وبالاخص تلك التي انتشرت بين صفوف عمال النسيج في اصفهان . وعلق القنصل البريطاني على الوضع في اصفهان قائلا انه يمثل نموذجا تقليديا للصراع بين « الراسمال والعمل » واضاف أن حزب « توده » استقطب تدريجيا كثيرا من عمال المصانع البالغ عددهم ١٠٫٥٠٠ عامل (٩) :

« في ظل حكم رضا شاه ، وبمساعدة الحكومة المركزية ، ساد حكم أصحاب الاراضي والمزارع ، وهم في اغلبيتهم جهلة ممن يعتبرون ان المال يفعل كل شيء . ولكن مع تبدل النظام عام ١٩٤١ ، وازالة الحظر عن الترويج للشيوعية ، بدأ « توده » المدعوم من الاتحاد السوفياتي ينمو مستفيدا من الصراع القائم بين العمال ورأس المال. والمركز الاساسي لهذا الصراع الان هو أصفهان » .

شعر مسؤولو القطاع العمالي في حزب توده بمركز قوتهم بعد ان كسبوا الى جانبهم مجموعة من الاتحادات الفعالة . فاعلنوا في أيار ١٩٤٤ عن نشوء « المجلس المركزي » ، الذي دعا جميع العمال دون اعتبار لاتجاههم السياسي الى الانضمام اليه . واختار من بين المثقفين فقط أولئك الذين لعبوا دورا هاما في الحركة العمالية ، وكان أهم ما عني به المجلس المركزي هو الوضع الاقتصادي . فاعد برنامجا احتوى على الامور التالية: المطالبة بالعمل ثماني ساعات فقط يوميا ودفع الاجور عن ايام الجمعة ، وبدل مضاعف لساعات العمل الاضافية ، وعطلة سنوية مدفوعة مدتها أسبوعين ، وتقاعد للموظفين المسنين ، وضمان صحي ، وتأمين ضد البطالة ، والمساواة في الاجور بين نساء ورجال يقومون بنفس الوظيفة ، وعدم السماح

بتشغيل الاولاد ، والتأمين ضد الحوادث في المصانع ، وضمانات تحمي العامل من الصرف الكيفي ، والحرية في انشاء نقابات ، وحق المساومة الجماعية ، والمظاهرات اذا احتاج الامر . وبقيت هذه مطالب العمال طيلة العقد .

كان معظم المشرفين على « المجلس المركزي » ، اما من المنظمين والمهتمين بشؤون العمال،أو من اعضاء الـ «ثلاثة والخمسين»(١٠) . فكان رضا رستا وهو السكرتير الاول في المجلس واهم شخصية في تاريخ الحركة العمالية ، ابن فلاح من جيلان ، تخرج من كلية الزراعة في راشت وساعد من خلال عمله كمدرس لمحو الامية في مدرسة محلية انشأها الحزب الاشتراكي ، على تنظيم اول اتحاد للمعلمين . ثم انضم الى الحزب الشيوعي ، وانتقل الى جنوبي البلاد لينظم خلايا ويعقد اجتماعات سرية بين عمال المصانع في طهران واصفهان ، وبندر عباس . ولكنه اعتقل عام ١٩٣١ وقضى السنوات العشرة التالية في السجن حيث التقى بـ « الثلاثة والخمسين » . وكان السكرتير الثاني في المجلس ، ابراهيم موهازاري عامل خراطة في مصنع الذخيرة التابع للجيش خارج طهران . وكان ابوه راديكاليا اذربيجانيا قتل في الثورة الدستورية. وقد هاجر موهازاري الى جيلان سعيا وراء عمل ، وتسببت نشاطاته النقابية في الثلاثينات في دخوله السجن عدة مرات . وقد رشحه « توده » عن طهران في الانتخابات البرلمانية التي جرت عام ١٩٤٣ ، لكنه لم ينجح فيها .

اما السكرتير الثالث في المجلس ، رضا ابراهيم زاده ، فكان عاملا في سكة الحديد . وقد اعتقل عام ١٩٣١ بسبب قيامه بتنظيم اول تظاهرة في سكة الحديد . وهو اذربيجاني المولد ، قاتل في ثورة ١٩٢١ ، وهاجر بعدها الى مزاندران طلبا للعمل .

وكان مهدي كايمرام ، وهو أكبر القادة العماليين سنا ، اسكافيا نظم أول اتحاد للاسكافيين في طهران . وخلال الثلاثينات سجن مرات عدة بسبب نشاطاته العمالية .

وولد حسين جاهاني ، وهو مرشح فاشل اخر في الانتخابات، في طهران ونشأ فيها يعمل نجارا كأبيه . دخل أول اتحاد للنجارين وكان من بين الاوائل الذين انضموا الى الحزب الاشتراكي . وكان تقي فداكار رئيس اتحادات اصفهان ، من الذين لقوا نجاحا ملحوظا

في الانتخابات البرلمانية . نشأ في عائلة وضيعة ، وعمل كمحام في اصفهان . وكاد أن يعتقل خلال حكم رضا شاه بسبب تعاونه مع « الثلاثة والخمسين » ، ولانه كان يعطي الاستشارات القانونية لمنظمي حركات العمال المعتقلين . اما علي شاندارميني ، وهو من اهم الكتاب في صحيفة المجلس المركزي ، « الظفر » (النصر) ، فكان يعمل خياطا ، وقد سجن عام ١٩٣٧ بتهمة انتسابه الى « الثلاثة والخمسين » . وكان الدكتور حسين جودات من أهم المثقفين في المجلس المركزي ، وقد تخلى عن منصبه الجامعي كأستاذ للفيزياء عام ١٩٤٢ ليتفرغ للعمل في النقابات المؤيدة « لتوده » في كرمنشاه. وكان قد نشأ في طهران وتلقى علومه في فرنسا بمنحة من الحكومة، بالرغم من انتمائه الى عائلة أزيرية من الطبقة المتوسطة . اما علي كوباري ، المساعد الايمن لرضا رستا وصديقه الحميم من جيلان فقد كان يعمل موظفا بسيطا في وزارة المواصلات . نشأ في راشت وتخرج من مدرستها ، ثم انضم الى ثورة جانجالي بين عامي ١٩١٧ـ ١٩٢١ ، وساعد في تنظيم اتحادات محلية للمعلمين ومنظفي الارز وعمال التبغ . وكان تازار سيمونيان ، أحد أصدقاء رضا رستا ، من عائلة ارمنية في اراك وابرز قادة العمال المكتبيين . وكان واسع النشاط في احد اول الاتحادات التي نشأت في جيلان في العشرينات. وقضى عدة من اعوام الثلاثينات في السجن حيث ترجم قصة تولستوي «آنا كرنينا » .

وكان صمد حكيمي رئيس اتحاد عمال سكة الحديد ، يعمل سائقا وله من العمر خمسون عاما . اشترك في تنظيم عدة اتحادات، واعتقل عام ١٩٣٧ عندما ساعد في تنظيم اضراب في مزانداران . وهناك ، أخيرا ، غلام علي بابا زاده ، الذي كان أيضا عضوا قياديا في نقابة عمال سكة الحديد . ولد في اذربيجان ، وقضى معظم حياته في طهران والمقاطعات القزوينية .

من كل هذا ، نستخلص ان قيادة المجلس المركزي تثبت عكس ما يشاع عن العمال الايرانيين بأنهم غير قادرين على ادارة تنظيماتهم وان الحركة العمالية التي نشأت في الاربعينات لم تكن سوى بدعة مصطنعة من قبل المثقفين اليساريين .

وكان هناك بين الشخصيات البارزة الاثني عشر ، ستة عمال، واثنان من العمال المكتبيين ، وثلاثة من المثقفين الذين تحولوا الى

منظمين عماليين ، وخياط واحد اصبح من المثقفين ، وكان بينهم ثمانية يتحدرون من طبقة دنيا واربعة من طبقة متوسطة دنيا. وضمت القيادة ارمنيا ، وستة من الازيريين ، مما يعكس ارتفاع عدد الاذربيجانيين العاملين في طهران وجيلان ومزندران . وبالرغم من انضمام اخرين الى قيادة المجلس المركزي وهو في طور نموه ، غير أن هؤلاء الاثني عشر ظلوا يشكلون نواة الحركة العمالية .

بعد ان انشأ المجلس المركزي مكتبا مركزيا عام ١٩٤٤ ، حول اهتمامه في السنتين التاليتين الى تقوية فروعه في المقاطعات . ففي سنة ١٩٤٦ ، كان عدد الاتحادات المرتبطة به ١٨٦ اتحادا . وبلغ عدد اعضائه ٣٣٥ر٠٠٠ موزعين كما يلي : ٩٠ الفا في خوزستان، ٥٠ الفا في اذربيجان، ٥٠ الفا في طهران، ٤٥ الفا في جيلان ومزانداران، ٤٠ الفا في اصفهان ، ٢٥ الفا في فارس ، ٢٠ الفا في خراسان، و ١٥ الفا في كرمان (١١) . وكان له فروع في معظم المدن ، وفي كثير من المراكز الصناعية ، حتى تلك التي لا يتعدى سكانها العشرة الاف نسمة . وكانت له خلايا في معظم المصانع الحديثة ، وفي كثير من المشاغل والمعامل الصغيرة . وكانت هذه الاتحادات الـ ١٨٦ تشمل معظم قطاعات الاقتصاد المدني . فقد كانت تضم اجراء صناعيين مثل عمال صناعة النفط وعمال النسيج وعمال سكة الحديد وعمال التبغ وعمال مناجم الفحم كما كانت تضم أيضا اجراء مهرة كعمال نقابة المطابع وعمال ميكانيك الكاراجات ، وسائقي الشاحنات ، وحرفيين ماهرين ، وبالاخص نقابة حائكي السجاد ، اجراء غير مهرة ، مثل نقابة عمال البناء ، وعمال المرافىء وعمال التنظيفات وعمال طلاء المنازل ، وموظفي الخدمات ، وخاصة نقابة عمال المطاعم ومنظفي الثياب وموظفي دور السينما ، وتجمعات الموظفين الاخصائيين، كنقابة المهندسين والتقنيين ، ونقابة المحامين ونقابة المعلمين واجراء المشاغل ، مثل نقابة الخياطين ، والنجارين والاسكافيين ، وحتى بعض اصحاب المخازن مثل نقابة الصيادلة ، وصانعي الحلوى ، وبائعي الصحف .

في صيف ١٩٤٦ وصلت الحركة العمالية الى اوجها عندما اصبح احد قادة حزب « توده » وزيرا للتجارة والصناعة . وسيطر العمال في المقاطعات القزوينية على المعامل الرئيسية ، ونظم المجلس المركزي عدة اضرابات ناجحة ليس فقط في حقول النفط بل في عدة

مدن كبيرة . واعترف « الاتحاد العالمي للنقابات » الذي يسيطر عليه الشيوعيون ، بالمجلس المركزي ، باعتباره التنظيم العمالي الحقيقي الوحيد في ايران (١٢) . اما « المكتب العمالي العالمي » المناهض للشيوعية ، فقد وصف المجلس المركزي بأنه التنظيم الوحيد الذي يملك شبكة فروع على المستوى الوطني (١٣) . واقر بعد عدة سنوات بأن الفضل في وجود النقابات في ايران يعود الى حزب « توده » (١٤) . كما أن الكونغرس الامريكي ، حذر في تقرير صادر عنه ، من أن «توده» « يتمتع ، بشكل عام ، بالسيطرة الفعلية على القوى العاملة » (١٥) . واصدرت الشرطة الايرانية كتابا عام ١٩٥٦ تقول فيه ان الشيوعيين خربوا الطبقة العاملة ، وخصوصا « العمال البسطاء وغير المجربين » ، وذلك بواسطة بث بعض المفاهيم الغريبة مثل : « الشعب » و « الطبقة الرجعية الحاكمة » ، و « النضال ضد الامبريالية » ، و « الحاجة لمنع عودة ديكتاتورية اخرى » (١٦) . واخيرا ، قام السفير البريطاني ، والذي لا يمكن اعتباره ، بأي حال ، صديقا للمجلس المركزي ، بوصف الوضع العمالي العام بالكلمات التالية (١٧) :

« نشهد في بلاد فارس اليوم بداية مرحلة جديدة وصعود حركة اجتماعية جديدة . ولا شك أن المنافع التي جناها العمال من هذه الحركة جديرة بالاعتبار . وسيشعر العمال أرباب العمل ، بالتأكيد، بقوتهم التي اكتشفوا حديثا . فقبل بضع سنوات (قبل تنازل رضا شاه عن عرشه) ، كان استغلال العمال شبه كامل ، فكانوا يعملون عشر ساعات في اليوم مقابل اجر لا يتعدى العشر ريالات. ولم يكن هناك من ضمانات صحية أو تعويضات للاصابات أو ما شابه ذلك ، بينما استمر اصحاب العمل في تكديس الاموال والثروات. وعندما بدات أولى اشارات المقاومة والتمرد ، لم تدرك الحكومة ولا اصحاب الاموال اهميتها . فقد كان خوفهم الوحيد هو من الاتحاد السوفياتي ومن انتشار الافكار الشيوعية المزعومة المنتشرة بين العمال ، فتصبح ممتلكاتهم ومصانعهم بيد الشيوعيين . ومما كان يقض مضاجعهم هو تخيلهم لسوء المعاملة التي سيلقونها من شغيلتهم، وهم سادة القوم المحترمون . بالاضافة الى هذه المخاوف ، كان الجشع مسيطرا على نفوسهم . فقد كان المهم عندهم هو تجميع الاموال، لذلك لم يستطيعوا تحمل اي نقص في أرباحهم الطائلة من اجل رفع مستوى معيشة العمال . ولم يكن كل موضوع العمل ليروق لهم ،

كما انهم كانوا مقتنعين بأن العمال هم من الجهل بمكانة لا تسمح لهم بتسلم المسؤولية » .

غير أن الحركة العمالية عانت من نكسة كبيرة في خريف ١٩٤٦، عندما انحرفت الحكومة فجأة نحو اليمين. وأسقطت الحكومة فجأة وزراء حزب « توده » وكونت نقابات خاصة بها ، واعتقلت ما يزيد عن ٣٦٠ نقابيا نشيطا في اصفهان وخزستان وجيلان ومزندازان . فما كان من المجلس المركزي الا ان رد بالدعوة الى اضراب شامل ليوم واحد ، في ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) في طهران . واعتبر توده ان الاضراب كان ناجحا مئة بالمئة ، فقد توقف أعضاء المجلس المركزي الخمسون الفا في طهران يومها عن العمل (١٨) . ولكن بالنسبة للسفارة البريطانية ، كان الاضراب ناجحا فقط بنسبة ٥٠ بالمئة . لان الحكومة اعتقلت ١٥٠ نقابيا ، واحتلت مقر المجلس المركزي ، واقفلت صحيفته، وقامت باختراق المسيرات ومراكز الاعتصام بشاحنات الجيش . كما استأجرت عمالا عاطلين عن العمل ، ليعملوا كبديل عن المضربين ، وعرضت صرف بدل عمل يوم اضافي للذين عملوا في ذاك اليوم (١٩) . وتابعت الحكومة حملاتها الموجهة ضد الحركة العمالية طيلة عامي ١٩٤٧ و ١٩٤٨ . وبلغت هذه الحملات ذروتها في عام ١٩٤٩ عندما حظرت الحكومة « المجلس المركزي » وحزب « توده » على السواء، بحجة أن قادته كانوا يخططون لاغتيال الشاه .

وبالرغم من أن المجلس المركزي خسر كثيرا من فعاليته ، الا انه حافظ على معظم شعبيته في صفوف الطبقة العاملة . وقد حذر القنصل البريطاني في طهران من أن « نواة حزب توده لا زالت سليمة في المصانع » ، وانه « صحيح أن السلطات تخلصت من سيربيروس * توده ، ولكنها لا تجرؤ على ان تستبدله حتى بأكثر كلاب الحراسة طواعية » (٢٠) .

واكد أن حزب توده سيحافظ على « جاذبيته » ، طالما « ان اصحاب العمل منصرفون عن الاهتمام بالعمال وظروف عملهم » ، وان القادة العماليين المناهضين للشيوعية يتصرفون كدمى في يد

---

* سيربيروس ، كلب ذو ثلاثة رؤوس زعمت الميثولوجيا الكلاسيكية انه يحرس باب الجحيم . المترجم .

الحكومة (٢١) . واعترفت السفارة البريطانية في تقرير لها عن اوضاع العمل في شركة النفط الانكلو ـ ايرانية ، بأن الاغلبية الساحقة من عمال النفط أيدت توده ، وان ممثلي العمال في المصانع ايدوا المجلس المركزي (٢٢) .

واكدت ان العمال ما زالوا « ينتظرون عودة ممثلي توده لاتمام ما كانوا قد بداوه ، ولانجاز ما كانوا قد وعدوا به » . وفي شكل مماثل ، قال تقرير للكونغرس الامريكي عام ١٩٤٩ ، « قدر الرسميون في شركة النفط الانكلو ـ ايرانية بأن ٩٥ بالمئة من العمال الايرانيين في عبدان ، هم أعضاء في نقابات توده . فان لم يعط العمال زيادة في الاجور ، ولم يتحسن مستوى معيشتهم وتنقلاتهم واوضاع عملهم، فامكانية رجوع «توده» يجب أن يحسب لها حساب » (٢٣) .

ومع حلول عام ١٩٥٠ ، سمح التدني في رقابة الشرطة للعودة المرتقبة ان تحدث فعلا . فقد قام المجلس المركزي متسترا باسم « ائتلاف نقابات العمال » ، بعدة نشاطات ، كان منها تقوية فروعه في المقاطعات ، وقيادة مظاهرات لعمال مخازن العلف وعمال سكك الحديد في شباط (فبراير) ١٩٥١ . وفي الشهر التالي ، انخرط في ميدان الصراعات السياسية عندما نظم اضرابات عنيفة في مراكز النفط . وقد تجددت الازمة في ٢٠ اذار (مارس) ليلة راس السنة الايرانية ، عندما اعلنت شركة النفط الانكلو ـ ايرانية عن خفض الاجور وبدلات السفر والاعانات السكنية متذرعة بالانخفاض الذي حدث في اسعار المواد الغذائية . فما كان من عمال بندر مشهور الا ان اعلنوا الاضراب في اليوم التالي احتجاجا على ذلك . وما لبث ان انضم اليهم ، بعد ثلاثة ايام ، عمال انابيب النفط في مخازن تصليح الالات في مسجد سليمان ، وفي حقول نفط اغاجاري .

وفي اول نيسان (ابريل) كان معظم موظفي الشركة ، وعددهم ٤٥ الفا، مضربين ، وكانت الحكومة قد اعلنت الاحكام العرفية والبريطانيون قد قووا اسطولهم في الخليج . وبضغط من الحكومة المركزية ،اضطرت الى الغاء الخفض الذي اقرته ودعت العمال الى العودة الى عملهم. الا ان هذه التسوية لم تعمر طويلا . فبعد ثلاثة ايام ، اعلنت الشركة انها لن تدفع الاجور عن الاسابيع الثلاثة التي غاب فيها العمال. عند ذلك ، بادرت النقابات بسرعة الى اعلان اضراب شامل في خوزستان ، وطالبت بالاضافة الى دفع اجور الاسابيع الثلاثة ، بتأميم صناعة النفط . واتحدت مطاليب المجلس المركزي الاقتصادية

بالمطاليب السياسية لتوده والجبهة الوطنية التي كان يقودها الدكتور مصدق .

لبى الدعوة الى الاضراب العام ما يزيد عن ٦٥ الف شخص ، بمن فيهم سائقو الشاحنات وعمال سكك الحديد وعمال التنظيفات واصحاب المخازن وحرفيو البازار وطلاب المدارس الثانوية ، بالاضافة الى ٤٥ الفا من موظفي شركة النفط.واتسم الاضراب في بادىء الامر بالهدوء ، ولكن سرعان ما تخللته اعمال العنف عندما حاولت الشرطة ان تعتقل قادة الاضراب ، واطلقت النار على المتظاهرين ، فذهب ضحية ذلك اربعة رجال وامراتان . وامتد الاضراب لمدة اسبوعين اخرين ، حتى قبلت الشركة بدفع الاجور المتأخرة ، وامم المجلس (البرلمان) صناعة النفط ، وعين مصدق رئيسا للوزراء . وقد حذرت « الجبهة الوطنية » من ان التصلب يمكن ان يؤدي الى غزو بريطاني . وقد ادعى مراسل « الاخبار الاسبوعية » (اطلاعات هافتجي) ، وهي صحيفة محافظة ، بأن العمال « جهلة » الى درجة انهم لا يستطيعون فهم « القضايا الحقيقية » ، ولكنه اقر بأن هناك « شعورا عميقا بالاتحاد والتضامن بينهم » (٢٤) .

ولم تقتصر ازمة ربيع ١٩٥١ على خوزستان فقط ، بل ما ان اندلعت اعمال الشغب حتى نظمت النقابات المؤيدة لتوده اضرابا في اصفهان تعبيرا عن تضامنها ، وامتد الاضراب من مصانع النسيج الى المصانع الصغيرة وحتى المشاغل . وحسب ما افادت « الاخبار الاسبوعية »، فان مجموع المضربين زاد عن الـ ٣٠ الفا ، وكان هذا الاضراب من اكبر الاضرابات واشدها تأثيرا في تاريخ المدينة (٢٥) . ولاحتواء هذه الاضرابات ، لم يسع السلطات سوى أن تحاصر المصانع واحياء العمال بالدبابات والرشاشات والسيارات المسلحة . وبرغم اتخاذ هذه التدابير الاحترازية فان عاملا وجنديا قتلا عندما حاول ١٠ الاف متظاهر التوجه من المصانع نحو الساحة المركزية في المدينة (٢٦) .

بعد هذه السلسلة من الاضرابات العامة ، دعا المجلس المركزي الى عقد مؤتمر لفروعه في طهران . وقد حضر هذا المؤتمر ٣٥٠ مبعوثا من مختلف المصانع الكبيرة في العاصمة ، و ٢٠ مراقبا من الفروع في المقاطعات ، وانتخب قيادة جديدة لتحل مكان اولئك الذين ابعدوا الى المنفى ، ولتمثل كل القطاعات الصناعية الكبرى . وفي السنتين التاليتين للمؤتمر ، شنت النقابات المؤيدة لتوده ، حملة عنيفة ، طالبت فيها بزيادة الاجور ، وبعقود عمل خطية ، وبالحصول على اعتراف

بها من قبل الحكومة ، وعقدت اجتماعات كبيرة في تموز (يوليـــو) ١٩٥٢ لتخليد ذكرى اولئك الذين سقطوا في الاضراب العام في صناعة النفط سنة ١٩٤٦ . ونظمت تظاهرات اكبر في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥١ مطالبة بالحق في المساومة الحرة الجماعية وبازاحة العسكريين من المصانع . وفي سنتي ١٩٥٢ و ١٩٥٣ ، بلغت المسيرات ذروتهـا بمناسبة عيد العمال . وفي صيف ١٩٥٣ ، كانت الحركة العمالية قـد تجاوزت القمة التي وصلت اليها عام ١٩٤٦ .

لا عجب ان يكون انبعاث الحركة العمالية قد صدم النظـــام. وعبرت عن ذلك صحيفة « الاخبار الاسبوعية » بقولها أن « النار » التي كانت تهدد ايران عام ١٩٤٦ ، عادت لتندلع من جديد في المصانع مهددة باحراق البلاد كلها (٢٧) . وحذرت الصحيفة الاسبوعيـــة الرئيسية الاخرى ، وهي « طهـران المصور » ، من أن ممثلـــي العمال المخربين عادوا الى المصانع ، مظهرين « عدم احتـــرام للسلطات » بشكل كامل (٢٨) . وصرح احد الشيوخ قائلا : « ان العمال المحرضين المأجورين من الخارج ، يضللون عمالنا ، فمقابـل كل تنازل يحصلون عليه يطالبون بالمزيد . وتكون النتيجة مظاهـرات، ومعارك في الشوارع ومزيداً من الاضرابات (٢٩) . وهم لن يرضوا الا حين يتوقف الانتاج تماما ويجرون البلاد في ثورة ملحدة (٢٩) » .

وقال أحد أعضاء « المجلس » (البرلمان) بأن توده يكسب تأييدا متزايدا في المصانع لانه الوحيد الذي يقاتل بشراسة من أجل رفـــع الاجور وتحسين ظروف العمل ، في حين أن الاطراف الاخرى ينقصها الاهتمام بالحركة العمالية ولان نقابات الحكومة برهنت عن «فساد » و « عجز » (٣٠) .

في هذه الاثناء كانت ادارة مصدق تحاول أن تحد من نمـــو المجلس المركزي . وحذر خليل مالكي وهو أحد قادة الجناح الاشتراكي في الجبهة الوطنية ، بأن في حالات الطوارىء الوطنية تكون الاضرابات الاقتصادية مخربة مثل التخريب السياسي (٣١) .

وناشد اية الله كاشاني قائد الجناح الديني في الجبهة الوطنية، العواطف الاسلامية من أجل تحويل العمال بعيدا عن « توده » . كما حاول صديقه مظفر بقاعي ، تشكيل اتحادات لتنافس اتحادات المجلس المركزي . ولكن هذه المحاولات لم تلق نجاحا ، وذلك لان مصدق سن، اثناء محاولته محاربة التضخم وخفض المصاريف الحكومية ، قانونـا من أجل **الاستقرار الاجتماعي** . وقد حد هذا القانون من زيـــادات

الاجور ، وأعاد التدقيق في التنظيمات النقابية ، وهدد المحرضين على الاضرابات بالسجن (٣٢) . وهكذا فان هذا القانون ادى الى تقوية حزب « توده » ، بينما هو في الاصل معد لاضعافه . وفي أواخر سنة ١٩٥٢ ، اعترف احد اعضاء الجبهة الوطنية البارزين بأن تنظيمه خسر معركة الفوز على الطبقة العاملة (٣٣) :

« مزمت بلدنا الاضرابات والمظاهرات والازمات العمالية . فماذا يسعنا ان نفعل ؟ للاجابة على ذلك ، علينا ان نتوجه الى المصانع ونفحص الوضع فيها . ففي معظم المصانع هناك ثلاث فئات مميزة : أولا ، الشيوعيون الذين يروجون دوما بأن الاغنياء في بلادنا فاسدون ويملكون كل شيء بينما لا يملك العمال شيئا . وثانيا، الوطنيون الذين يساندون الجبهة الوطنية ، اما الفئة الثالثة فهي فئة المحايدين الذين يتبعون اي تنظيم يمثل مطاليبهم ومصالحهم امام المدراء واصحاب العمل . ويجب الاعتراف بأن المبادرة في يد الفئة الاولى ، لان الشيوعيين يقودون المحايدين ، وبذلك يسيطرون وجانبهم الاكثرية الساحقة من الطبقة العاملة في المدن » .

نقاط القوة والضعف

استمد المجلس المركزي قوته من مصدرين اساسيين : الحالة الاقتصادية المتردية للاجراء والعمال في البلاد ، واستعداد « توده » لتمثيل هذا البؤس الاقتصادي من خلال الاحتجاجات والاضرابات والاشكال النضالية الاخرى .

كانت المظالم الاقتصادية قوية قبل العام ١٩٤١ ، الا انها اشتدت اكثر بعد عام ١٩٤١ بسبب ازدياد غلاء المعيشة بشكل فاحش . فحسب تقديرات البنك الوطني ، فان اسعار الغذاء والثياب والايجارات ارتفعت من مؤشر ١٠٠ في عام ١٩٣٦ — ١٩٣٧ الى ١٦٣ في عام ١٩٤٠ — ١٩٤١ . ثم ارتفعت بشكل حلزوني اثناء الحرب ووصلت الى ١٠٣٠ في ١٩٤٤ — ١٩٤٥ . وبعدها هبطت قليلا بعد الحرب الى ٩٤٦ ، وذلك في سنتي ١٩٤٩ — ١٩٥٠ . وتقفزت ثانية اثناء ازمة تأميم النفط لتصل الى ذروة جديدة هي ١٠٤٧ في عام ١٩٥٣ (٣٤) . وبما ان ارباب العمل نادرا ما كانوا يزيدون الاجور لتجاري هذا التضخم فان العمال لم يجدوا امامهم سوى الانضمام الى النقابات والمشاركة في الاجتماعات للاحتجاج وتنظيم الاضرابات ، والحقيقة ان عدد الاضرابات الكبرى (تلك التي كان يشارك فيها اكثر من ٥٠ عاملا) ماثلت تقريبا التقلبات

في كلفة المعيشة . فقد كان هناك ثلاثة اضرابات صناعية كبيرة عام ١٩٤١ ، و ٣٧ اضرابا عام ١٩٤٢ ، و ٢٨ اضرابا في عام ١٩٤٣ ، و ٥٧ في عام ١٩٤٤ ، و٤٤ في عام ١٩٥٤ ، و ١٨٣ في عام ١٩٤٦ ، و ٨ في عام ١٩٤٧ ، و٥ في عام ١٩٤٨ ، و٤ في عام ١٩٤٩ و٥ في عام ١٩٥٠ ، و ١٦٢ في عام ١٩٥١ ، و ١٩٧ في عام ١٩٥٢ ، و ٢١٣ في بداية عام ١٩٥٣ (٣٥) .

لم يشعل التضخم المنازعات الصناعية فحسب ، ولكنه ايضا ضرب وتدا بين ارباب العمل والموظفين في البازارات وشطر بالتالي النقابات التقليدية للحرف والتجارة .

وكما ظهر في استطلاع انتخابي قدم الى رئيس الوزراء عام ١٩٥٠ فان الخطوط الطبقية كانت تقسم تقريبا جميع الفئات المهنية في بازار طهران (٣٦) . ان صانعي الاحذية ، مثلا دعموا سياسيا مؤيدا لبريطانيا ، بينما تعاطف عمالهم، وعددهم ٥ آلاف مع حزب توده.وساند اصحاب محلات الحلاقة مصدق وكاشاني ، بينما مال موظفوهم الى توده وأيد ٤٠٠ من اصحاب الحمامات ، الامام جمعة ، بينما انضم كثير من عمالهم ، والبالغ عددهم حوالي ٤ الاف الى المجلس المركزي . وساعد ٢٥٠ صانع ملابس مرشحين محافظين ، غير أن ٨ آلاف خياط عندهم ساندوا توده . وايد ١٩١٤ من أصحاب المقاهي مصدق وكاشاني امام الجمعة في حين فضل ٤٥٠٠ مساعد ونادل المجلس المركزي .
وساعد الدعم التنظيمي الذي قدمه توده الحركة العمالية . فقد كانت فروع الحزب تجمع التبرعات المالية من اجل العمال المضربين . كما ان المثقفين في الحزب كانوا يعطون دروسا في القراءة والكتابة ويساعدون في تحرير صحيفة « الظفر » ، وينشرون المظالم العمالية في شبكة مدهشة من الصحف اليسارية . وكون محامو الحزب جمعية للمساعدات القانونية للدفاع عن منظمي العمال . وتجنب قادة الحزب الدعوة لاضرابات سياسية خوفا من توتير ولاء قواعد اعضاء النقابات. وباستثناء اضراب عام واحد في تشرين الثاني « نوفمبر » عام ١٩٤٦ ، واضرابين آخرين على مستوى كل البلاد لدعم مصدق في عامي ١٩٥٢ و ١٩٥٣ ، فان جميع اضرابات العمل الاخرى كانت تركز على قضايا اقتصادية . زد على ذلك أن المهندسين والقضاة ، وحتى رجال الشرطة من أنصار توده ، كانوا يستخدمون نفوذهم لحماية المضربين

ومنظمي العمال ، ومن الامثلة على ذلك، ان المهندسين في مصنع السكر ، هددوا باقفال المصنع عندما حاول المدير طرد ثمانية من العمال المناضلين (٣٧) . وصرح القنصل البريطاني في يزد ، ان السلطات المحلية لم تكلف نفسها حتى عناء اعتقال المتظاهرين لانها كانت تعلم ان المحاكم المحلية كانت خاضعة لنفوذ توده (٣٨) .

أما القنصل في بندر عباس فقد كتب عام ١٩٤٦ ،ان نجاح اضراب في مصنع النسيج في المدينة يرجع أساسا الى ان مديره كان من المتعاطفين مع توده (٣٩) .

ووصف قنصل شيراز كيف ان الشرطة كسرت اضرابا في مصنع الكهرباء في المدينة حين اعتقل كل قادة العمال ، ولكن المحاكم المحلية تسببت فورا في عودته حين أفرجت عنهم (٤٠) .

وكتب القنصل في زاهدان في تقرير له أن توده كان يحمي النقابات المحلية من خلال استقطاب القضاة ورجال الشرطة وحتى الدرك ، ضد كبار أصحاب الارض في المنطقة (٤١) .

اذا كانت الحركة العمالية قد قويت في فترات التضخم والحرية الا أنها ضعفت في سنوات البطالة والاضطهاد السياسي . وقد وصلت البطالة الى مستوى مؤذ بشكل خاص في فترة الانكماش الاقتصادي التي تلت الحرب ، عندما فكك الحلفاء قواعدهم وعدلت شركة النفط انتاجها حسب احتياجات فترة السلم ولجأ الكثيرون من المنتجين المحليين الى تخفيض انتاجهم الصناعي لعجزهم عن مزاحمة البضائع الاجنبية .

وكان من الصعب على العمال داخل المصانع التهديد بالاضراب في حين كان الوف العمال العاطلين خارج الابواب يفتشون عن عمل . ولم تتغير هذه الحال الا عندما حدثت أزمة النفط عام ١٩٥١ — ١٩٥٣، التي أدت الى هبوط معدل الواردات مما شجع الصناعيين على زيادة الانتاج المحلي من الانتاج الصناعي .

كانت أعمال العنف والضغوط التي مارستها الشرطة مؤذية للحركة العمالية . هذا ما نراه في سنتي ١٩٤٧ و ١٩٤٩ عندما فرضت الاحكام العرفية على جميع المراكز الصناعية الرئيسية،في السنواتالتي تلت عام ١٩٥٣عندما اعتقل ونفي كثير من قادة توده والمجلس المركزي. وهكذا ، فانه تعذر على النقابات أن تنظم العمال دون حرية عمل ودون حماية من قبل المحاكم المحلية . وبدون القدرة على التنظيم كانت الحركة

العمالية عاجزة . فقد انخفض عدد الاضرابات الصناعية من ١٨٣ اضرابا عام ١٩٤٦ الى ثمانية اضرابات عام ١٩٤٧ ، والى خمسة اضرابات عام ١٩٤٨ ، وذلك بسبب فرض الاحكام العرفية في سنتي ١٩٤٧ و ١٩٤٩ وحلول البطالة الواسعة . وقد فسر المؤرخون السابقون فترات الصعود والهبوط في مسيرة حزب توده على انها نتيجة النشاط السوفياتي في ايران . ولكن هذه التغيرات لم تكن في الواقع ناجمة عن النشاط السوفياتي بل عن التغيرات في الاوضاع السياسية والاقتصادية في ايران نفسها .

الى جانب هذا كله ، كانت الحركة العمالية تعاني من ضعفين اساسيين . اولا : أن النقابات العمالية لم تكن تستطيع أن تقف في وجه القوات المسلحة التي كانت تضم اكثر من مئة الف رجل ، ظلوا مخلصين للشاه . وكانت هذه القوات قد استعادت نشاطها بعد هزيمة آب (اغسطس) ١٩٤١ بفضل المساعدات الاميركية . لذا كان من الطبيعي ان تهزم الحركة العمالية في صدامات المواجهة مع الجيش كما حدث عام ١٩٤٦ وعام ١٩٥٣ . وثانيا ، أن الطبقة العاملة في المدن كانت تشكل اقل من ١٠ ٪ من مجموع البالغين من السكان . فلم تكن بذلك اكثر من واحة معزولة من الراديكالية تحيط بها صحراء المحافظة الاجتماعية . فالفلاحون بقوا ، لاسباب مختلفة ومتشابكة ، سلبيين خارج الصراع السياسي (٤٢). اما القبائل البدوية ، وكان الكثيرون منها يحمل السلاح ، فقد ظلت تتبع شيوخها التقليديين، ونتيجة لذلك تدخلت بفعالية في عام ١٩٤٦ لتساعد الجيش ضد حزب « توده » . وكانت البورجوازية الصغيرة في البازار — وخاصة صغار الراسماليين ، والتجار واصحاب المخازن ، تعارض النقابات العمالية التي كان يقودها الشيوعيون ، لاسباب دينية من جهة ، وخوفا من الروح النضالية عند عمالهم من جهة أخرى .

وهكذا فان الحركة العمالية وجدت حلفاءها الوحيدين في الشرائح الراديكالية من الانتلجنتسيا .

اضراب النفط في تموز ١٩٤٦

يظهر تطور النقابات فيصناعة النفط مكامن الضعف والقوة فيالحركة العمالية . فقد ظهر المنظمون الاوائل لحزب توده في بداية عام ١٩٤٣ في قطاعات النفط . ولكن سرعان ما انسحبوا منها عندما شددت السلطات قبضتها على جميع نشاطات النقابات . فقررت قيادة الحزب البقاء بعيدا عن هذه الصناعة الحيوية الى ان ربح الحلفاء الحرب ضد

القوى الفاشية ،وشكل المنظمون ، بدلا عن ذلك ، نقابات خارج صناعة النفط ، خاصة بين عمال التنظيفات ، ومنظفي قنوات الري وسائقي السيارات ، وعمال غزل القطن وعمال الافران . وجاء قرار التخلي عن العمل النقابي في صناعة النفط مخيبا لآمال العديد من عمال شركة النفط الانكلو — ايرانية في عبدان . فشكل مئتا موظف « نقابة العمال الايرانيين » ، وفي أيار ١٩٤٥ نظموا اضرابا غير مشروع ضم ٢٠٠ر١ا عامل في مصفاة كرمنشاه وبالرغم من ان المجلس المركزي أدان هذا الاضراب ، غير أن السفير البريطاني اتهم النقابات المؤيدة لتوده بأنها هي التي « هندست » هذا الحدث . (٤٣) ونصح شركة النفط بتحسين تسهيلات السكن ، والمساعدات الطبية للعمال ، « لحرمان توده من المظالم المشروعة » (٤٤) . وكان رد شركة النفط أن هذا النقد غير مبرر ، وقالت بضرورة تسليح القبائل العربية المؤيدة لبريطانيا في خوزستان ، لتساعدها في « قمع الشيوعيين » . (٤٥) .

لم تكد تنتهي الحرب ، حتى انتقل منظمو العمال المؤيدون لتوده الى مركز صناعة النفط ، واسسوا فرعا محليا للمجلس المركزي ، واستطاعوا ان يتفوقوا على « نقابة العمال الايرانيين » . وفي عيد العمال عام ١٩٤٦ ، قاموا بمسيرة حاشدة في عبدان ضمت اكثر من ٨٠ الفا ، طالب فيها الخطباء برفع الاجور ، وتحسين أوضاع السكن ودفع الرواتب عن أيام الجمعة وبثماني ساعات عمل في اليوم وبوضع قانون عمل شامل . ووصفت امرأة من بين الخطباء ، النفط بأنه « جوهرة ايران » ، واتهمت البريطانيين بأنهم يصرفون على طعام كلابهم اكثر مما يصرفون على معاشات للعمال ، وحثت على تأميم شركة النفط الانكلو — ايرانية . (٤٦) وربما كانت هذه اول مرة تطلق فيها الصرخة من اجل التأميم في عبدان .

كان يقود نقابات النفط ثلاثة من اعضاء توده : حسين تربيات، علي أومد ، وعبد الله وفائي زاده . وكان تربيات ، وهو عضو في « الثلاثة والخمسين » ، موظفا في البنك البريطاني — الامبريالي . نشأ في طبقة متوسطة وكان مدير مدرسة محلية في عبدان وقت اعتقل سنة ١٩٣٧ . ...

وكان أومد ، وهو خطيب مؤثر ، عامل نفط سجن بعد اضراب النفط عام ١٩٢٩ . أما وفائي زاده ، فهو أيضا عامل نفط اشترك في اضراب ١٩٢٩ . وتقول السجلات البريطانية أن بقية المنظمين هم من

العمال المهرة كالسائقين ، والبرادين وملاحظي الانتاج (٤٧) .

بعد ان شكل المجلس المركزي « نقابة عمال النفط » نظم عدة اضرابات ناجحة ضد شركة النفط الانكلو ـــ ايرانية . ففي ٢ أيار (مايو) توقف ٢٥٠ فنيا وعاملا عن العمل في مصفاة عبدان مطالبين برفع الاجور وتخفيض عدد ساعات العمل . ولبت الشركة هذه المطالب بعد اسبوع من المفاوضات عندما بدأ موظفو معمل الاسفلت المحلي ومشغل القاطرات يدعون الى اضرابات تأييدية . وفي ١٠ أيار (مايو) توقف جميع العمال في حقول نفط آغا جاري ، والبالغ عددهم ٢٥٠٠ ، عن العمل ، وذلك من أجل المطالبة بحقوق مشابهة لتلك التي كان قد حصل عليها العمال مؤخرا في مصنع النسيج في أصفهان ، وهي زيادة الاجور ودفع الرواتب عن أيام الجمعة وزيادة معدل أجور العمل الاضافي . وفي البدء اعتبرت الشركة أن هذه المطالب « غير معقولة » وصرفت النظر عنها . واوقفت تزويد آغا جاري بالمياه . ولكنها جلست بتردد الى مائدة المفاوضات بعد ثلاثة أسابيع ، عندما هدد المجلس المركزي باضراب شامل في عبدان ، وجمع التبرعات لآغا جاري ، واقتنع رئيس الوزراء بارسال لجنة وساطة الى خوزستان . وفي التسوية النهائية وجدت الشركة نفسها مضطرة ليس لتلبية جميع المطالب فحسب ، بل الى دفع رواتب الاسابيع الثلاثة التي نفذ خلالها الاضراب ، ووعدت بتطبيق أي قانون عمل تعده الحكومة المركزية .

وعلقت جريدة « التايمز » اللندنية ، والتي لم تكن على اطلاع على اوضاع العمال في أصفهان ، على انه « لم يسبق في تاريخ ايران أن دفعت أجور سبعة أيام لاجل ستة أيام عمل فقط » (٤٨). وقال السفير البريطاني أن شركة النفط لم تجد سوى التفاوض وسيلة للتسوية ، لان توده « كان في مركز قوة هائلة » ، وكان قد ضم في اتحاداته حوالي ٧٥ بالمئة من مجموع عمال النفط (٤٩) . وكتب القنصل البريطاني في خرامشاهر ، أن الشركة قبلت بالشروط غير المرضية ، وعاملت منظمي الاتحادات كممثلين حقيقيين عن العمال ، لانها كانت تخشى من التأثير الشيوعي ، ومن امتداد الاضراب الى مصفاة عبدان (٥٠) .

وفي منتصف حزيران (يونيو) ، اصبح « توده » في خوزاستان يوازي وينافس واحيانا يطغى على الادارة المحلية القائمة . وعبر القنصل البريطاني في الاهواز عن ذلك قائلا ، « ان الحكومة الفعلية في المنطقة انتقلت الى أيدي « توده » (٥١). فقد كانت اتحاداته تمثل

مظالم العمال امام الادارة وتجمع التبرعات والاموال من اجل الحالات الطارئة في المستقبل وتنشيء نظاما واسعا لممثلي النقابات داخل المصانع. وقد اقامت ٤٥ ناديا في عبدان وحدها . وكانت فروع الحزب تحدد اسعار المواد الغذائية وتنعم بمساندة فرق الاطفاء المحلية وتسيطر على النقل وخاصة النقل بالشاحنات . وكانت دوريات الميليشيا التي نظمتها الاتحادات تجوب الشوارع وتحمي منشآت النفط ، كما انها ادهشت المراقبين الاجانب عندما اسرعت في نقل ٢٥٠٠ متطوع من عبدان الى خورامشاهر لبناء جدار طوارىء امام الفيضان . وجاء في تقرير للسلطات البريطانية « ان الشركة اعترفت انه لم يكن بمقدورها ولا بمقدور السلطات الايرانية نفسها ، اصدار الاوامر لمثل هذا العدد الضخم من العمال من عبدان ، كما فعل « توده » . وهذه الحادثة هي دليل على مدى سيطرة توده على العمال» (٥١)واضاف السفير البريطاني : « انه يجب الاعتراف في الوقت الحاضر ، ان امن حقول ومصفاة النفط وامن الموظفين البريطانيين يعتمد على النوايا الطيبة لحزب «توده» (٥٢)وفي منتصف حزيران (يونيو) صرح الملحق العسكري البريطاني بالآتي : (٥٣) .

« ان الوضع الحالي في عبدان وآغاجاري غير مستقر ، بالرغم من الهدوء الظاهر الذي يسوده . فتوده يتمتع بالسيطرة الكاملة على عمال المصفاة ، ويزداد تجاوب عمال الحقول معه . فادارة شركة النفط الانكلو – ايرانية موجودة على السطح فقط . ففي اي وقت ولاي سبب يمكن ان يدعى الى اضراب يشل حركة الانتاج . وزاد في ذلك ان ممثلي توده يستعملون قوتهم ونفوذهم من اجل المحافظة على النظام . فبالرغم من انهم يحثون على العنف نظريا ، ولكنهم لا يشجعون على ممارسته . وقد نصب توده نفسه ممثلا فعليا للعمال في ايران، والادارة تبحث معه على هذا الاساس ، تنظيم النقابات العمالية التي يعتزم قانون العمل الجديد انشاءها . وبهذا العمل تستطيع الشركة ان تحافظ على نوع من العلاقة بينها وبين ممثلي العمل والانتاج في الحقول . ولكن قليلون هم الذين يعتقدون ان مثل هذا الخط في التصرف يمكن ان يؤدي الى نتيجة لاكثر من مهلة قصيرة .

اما المجابهة المنتظرة فقد حدثت في ١٠ تموز (يوليو) ، ولم تكن الاتحادات هي المحرك لها بل السلطات. ففي العاشر من تموز (يوليو) ، الغت الشركة وعدها باعطاء العمال رواتب عن ايام الجمعة ، واعلن الحاكم العام للمنطقة الاحكام العرفية ، واوقف القائد

العسكري لمنطقة آغاجاري منظمي العمل الذي كان قد دعاهم للمفاوضات . ورد توده والمجلس المركزي بسرعة بتنظيم اضراب عام في آغاجاري ، ودعوة جميع الموظفين في خوزستان للاضراب يوم ١٣ تموز (يوليو) ، وابقاء هذا الاضراب مفتوحا حتى ينحى الحاكم العام وتلغي الاحكام العرفية ، ويفرج عن منظمي العمل ويضمن دفع الرواتب ايام الجمعة .

لبى اكثر من ٦٥ الف عامل دعوة الاضراب العام ، فكان بذلك اكبر اضراب صناعي في ايران ، وواحدا من اكبر الاضرابات في الشرق الاوسط . وقد ضم بالاضافة الى ٥٠ الف عامل وكاتب في الشركة ، مئتين من الفنيين الهنود في مصفاة عبدان ، وعدة آلاف من رجال الاطفاء وسائقي السيارات ، وعمال التنظيفات وعمال سكك الحديد ومصانع النسيج وطلاب المدارس الثانوية في خوزستان ومئات من اصحاب الدكاكين والحرفيين والتجار الصغار في بازار عبدان ، حتى انه شمل الطباخين والسائقين والخدم في منازل الاوروبيين . وكتب القنصل البريطاني في الاهواز « ان الاضراب نفذ بكفاءة كبيرة » (٥٤).وذكر القنصل في خرامشاهر أن « الاضراب في عبدان ابتدأ بموكب منظم واتجه نحو مقر السلطات العسكرية » (٥٥).وقال الملحق العسكري البريطاني ان الاضراب العام بدأ سلميا واعطى توده السيطرة التامة على القطاعات الصناعية في خوزستان (٥٦) .

وبالرغم من الهدوء الذي اتسم به الاضراب في باديء الامر ، فانه سرعان ما تحول الى مجابهات عنف بين عمال النفط والسلطات العسكرية والسكان العرب المحليين . فعندما دخل المجلس المركزي الى صناعات النفط المتنوعة عرقيا ، بذل جهدا خاصا لضم عمال من مختلف الخلفيات الدينية والمحلية واللغوية والقبلية . ولاقى نجاحا هائلا بين العمال المهاجرين من قبائل بختياري وقشقاعي واللوريين وخامسة،وبين العمال غير المهرة من أصفهان وشنيراز وكرمان ، وبين العمال المهرة ، وخاصة عمال اللحام والحرفيين وسائقي الشاحنات من الازيريين والفرس ، والارمن، والاشوريين . ولكنه فشل بين السكان العرب . ويمكن أن نعزو هذا الفشل الى ثلاثة عوامل :

أولا : أن العرب ، على عكس قبائل قشقاعي وخامسة وبختياري ظلوا يعيشون ضمن مناطق تواجدهم . فبينما خرج الآخرون عن نطاق سلطة «قاضي القضاة » و« القالنتار » و «والخان» عندهم،ظل العرب

يعيشون تحت مراقبة زعماء القبائل ، فحافظوا بالتالي على صلات القربى بينما هرب الآخرون ولو مؤقتا من هذه الروابط المحافظة والهرمية .

ثانيا : لم يكن التعاقد مع العرب العاملين في مراكز النفط يتم بشكل افرادي ، بل بشكل فرق انشاء يقودها مقاولون يعملون لحسابهم الخاص ، وكان الكثير من هؤلاء من زعماء العرب . وهكذا فقد ظلوا معتمدين على شيوخ القبائل ، يتقاضون اجرا « بالقطعة » بدلا من المياومة . ولذلك لم يشاطروا الغالبية العظمى من عمال النفط الاخرين الاهتمام بزيادة الاجور وخفض ساعات العمل ، والتعويض عن ايام الجمعة .

ثالثا : كان هناك دوافع سياسية واقتصادية واجتماعية عند الزعماء العرب تجعلهم يناهضون الاتحادات المؤيدة « لتوده » . فقد قال القنصل البريطاني أن الزعماء العرب كانوا ينظرون الى بريطانيا باعتبارها حاميتهم التقليدية (٥٧) . كما ان الاقطاعيين العرب كانوا يخافون من الافكار الراديكالية التي بدأت تؤثر على فلاحيهم . (٥٨) . وأن رجال الاعمال العرب في عبدان هزهم رؤية « رجال الشرطة وحراس الشوارع » التابعين لتوده « يأمرون الناس في الشوارع ويديرون حركة الباصات ويعطون الاوامر للافران بخصوص أسعار الخبز » (٥٩) .

ظهرت المعارضة العربية الاولى لتوده الى العلن في اوائل تموز (يوليو) ، عندما شكل زعماء القبائل « اتحاد المزارعين » بدفع من الحاكم العام ، ولكن الاسم ما لبث ان غير الى « الاتحاد العربي » لان أعضاءه « كانوا عرقا مقاتلا وليس مجموعة مزارعين » (٦٠) .

واتهمت المنظمات المؤيدة لتوده بان ما يسمى «الاتحاد العربي» كان يتلقى السلاح من شركة النفط الانكلو- ايرانية ، وانه كان يخطط لفصل خوزستان عن ايران (٦١) . وكتب القنصل البريطاني أن قيام «الاتحاد العربي» في عبدان اقلق جماهير حزب «توده»، لان سكان المدن كانوا تقليديا يخافون الهجمات القبلية (٦٢) .

غير أن هذه المخاوف تحولت الى رعب في اليوم الثاني للاضراب العام ، عندما وصلت أنباء الى عبدان تفيد أن عربا مسلحين من رجال القبائل حاصروا اغاجاري وأنهم كان يحضرون لغزو عبدان . وقال القنصل البريطاني في تقرير له ، انه نصح زعماء العرب بابقاء رجالهم

خارج عبدان ، ولكن كانت هناك « شائعات قوية بأن الحاكم أمر الشيوخ العرب باحضار رجالهم لاحراق مكاتب توده » (٦٣) . واضاف القنصل بأن الحاكم العام ربما لجأ الى العرب لانهم لميكن فيثكنة عبدان سوى ٢٥٠ جنديا (٦٤) . ولما انتشرت الشائعات ، تجمعت حشود غاضبة خارج مكاتب « الاتحاد العربي » ، وعندما أصيب رجال الشرطة بالذعر واطلقوا النار ، هجمت الحشود الغاضبة على المكاتب وبدأ شغب استمر طيلة الليل وانتهى بمقتل ١٩ شخصا وجرح ٣٣٨ اخرين . وكان من بين الذين قتلوا ١٢ عربيا من بينهم المقاول الرئيسي واغنى تاجر . وقد ناقضت السفارة البريطانية في طهران اقوال القناصل عندما ابلغت الصحافة الغربية ان الذي نظم الازمة كلها كان « مجرمو توده » (٦٥) .

دامت أعمال الشغب حتى الصباح التالي عندما وصلت بعثة طوارىء الى مطار عبدان . وقد ضمت ممثلين عن كل من رئيس الوزراء وحزب توده ، والمجلس المركزي . وبعد مفاوضات مكثفة لمدة ست ساعات مع زعماء النقابات وشركة النفط والحاكم العام ، فرضت البعثة تسوية ، فوافقت الاتحادات على انهاء الاضراب العام ، والتخلي عن المطالبة بتنحية الحاكم العام ، والتوقف عن اطلاق الادانات الملهبة ضد شركة النفط « والاتحاد العربي » . ومقابل ذلك افرجت السلطات العسكرية عن زعماء النقابات ، ووافقت الشركة على أن تدفع عن أيام الجمعة وترفع الحد الادنى للاجور . وبهذا حققت نقابة عمال النفط مطالبها الاقتصادية الاساسية .

بعد عودة العمال الى عملهم ، اسر مستر نول بايكر ، العضو في مجلس الوزراء البريطاني ، الى زملائه ان ما حرك الازمة بكاملها هو « تصلب الشركة تجاه عدم الدفع عن أيام الجمعة » (٦٦) . وكتب موظف بريطاني مجهول يعمل في شركة النفط الانكلو — ايرانية الى وزارة الخارجية ان اللوم في اضراب الايام الاربعة يقع على « مدراء الشركة بسبب عنادهم » ، ولانهم فشلوا في تقدير الصعوبات التي يواجهها العمال ، ولان « معلوماتهم عن العمل النقابي لا تتعدى تكرار نكات مهترئة عفا عليها الزمن » (٦٧) .

وجاء في تقرير وفد بريطاني أرسل للتحقيق في الازمة بكاملها : « ان الحركة العمالية النقابية حركة أصيلة ونحن نوصي بكسب النقابيين الموالين لتوده الى الافكار البريطانية » (٦٨) .

وقد علق احد اعضاء الحكومة البريطانية لدى قراءته هذا التقرير قائلا : « لا استطيع أن اتخلص من فكرة في راسي وهي أن توده وان كان حزبا ثوريا قد يكون الحزب الوحيد الذي سيرعى مصالح العمال في ايران المستقبل » (٦٩) . وحذر القنصل البريطاني في الاهواز في خاتمة تقريره عن الاضراب العام ، من أن المكاسب الاقتصادية قد قوت من التاثير الشيوعي على العمال ، فاصبح العمال يصرون على أن « يمثلهم توده في مفاوضاتهم مع شركة النفط » (٧٠) .

بالرغم من انتصار تموز (يوليو) ١٩٤٦ ، فان مظاهر الضعف الاساسية بانت في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٦ ، عندما اجتاحت المقاطعات الجنوبية حركة رد فعل محافظة يقودها زعماء القبائل. بدات هذه الحركة عندما رفع خانات قبائل قشقاعي يدعمهم زعماء قبائل بختياري وخامسه وبوير أحمدي لواء الثورة واتهموا الحكومة المركزية بحمايتها لحزب توده الملحد . ووقف الحاكم العسكري في فارس الجنرال زاهدي الى جانب المتمردين بدل ان يقف الى جانت الحكومة المركزية ، فساعد بذلك على انتشار الثورة . وزاد في اتساعها انضمام العرب في خوزستان ، والمساميون في فارس ، والتنجستانيون في بوشير ، والافشار في امردلان ، واكراد كالهور في كرمان شاه . ولما رات الحكومة أن عليها الاختيار بين النقابات غير المسلحة وبين القبائل المسلحة قررت القضاء على توده . فطهرت مجلس الوزراء من اعضاء حزب توده ، واقفلت منظمات الحزب في المقاطعات الوسطى والجنوبية . واعادت فرض الاحكام العرفية على مناطق النفط ، وابعدت من خوزستان ما يزيد عن ١٢٠ قائدا عماليا . وفي هذه الاثناء طردت شركة النفط الانكلو ــ ايرانية ما يزيد عن ٨١٣ عاملا من منظمي الاضرابات ، وصرفت اكثر من الف عامل بحجة « غيابهم دون اذن » ، وكانوا من بين الذين كانت السلطات العسكرية قد اعتقلتهم قبل ذلك . ولما فقدت الحركة العمالية في صناعة النفط التنظيمات النقابية والحماية القضائية ، دخلت في مرحلة ركود دامت حتى حصلت الانتفاضات السياسية في عام ١٩٥١ ــ ١٩٥٣ . ومع أن الاضراب العام في تموز (يوليو) ١٩٤٦ ، زعزع النظام ، غير انه لم يضع البلاد لا من قريب ولا من بعيد على اعتاب ثورة اجتماعية على نطاق البلاد كلها .

هزمت الحركة العمالية في الانقلاب الذي حدث عام ١٩٥٣ ، بسهولة ، لعدة اسباب : فالقوات المسلحة ظلت مخلصة للملكية والعلماء الذين يمثلون الطبقة الوسطى التقليدية شنوا حملة واسعة ضد الشيوعية . اما حزب توده ، ولاسباب مختلفة ، فلم يستطع التحالف مع الجبهة الوطنية التي كانت تمثل الطبقة الوسطى الحديثة . وحافظ معظم الريف ، وخصوصا الفلاحون والقبائل الرحل ، على سلبيتهم أو انهم تصرفوا لصالح الملكية . وحال صغر حجم الطبقة العاملة وعزلتها دون اشعالها الثورة . وهكذا ضمن الشاه الفوز في صراع عام ١٩٥٣ .

بعد الانقلاب ، تحمل توده والحركة العمالية وطأة القمع البوليسي . فقد نفذ حكم الاعدام بأربعين من المناضلين في توده ، بينهم منظمون عماليون . وسجن قادة اخرون أو اجبروا على الذهاب الى المنفى . وبقي أكثر من ثلاثة الاف من منظمي النقابات قيد الاعتقال حتى ارتدوا علنا وادانوا زملاءهم السابقين .

وجرى حل المجلس المركزي مجددا واجتزت جميع فروعه . ووضعت المصانع التي تملكها الدولة تحت ادارة ضباط متقاعدين من الجيش . وحصلت الشرطة السرية ــ السافاك ــ التي انشئت حديثا ــ على حضور فعال في المصانع وبدأت تشرف مباشرة على النقابات التي تديرها الحكومة . واستخدمت السافاك اسلوب العصا والجزرة لمعالجة الاضرابات غير النقابية . وكانت سياستها الثابتة تقوم على اطلاق النار على العمال المحتجين وسجن زعماء المجموعات ، والضغط ، في الوقت نفسه على مدراء المصانع لتلبية المطالب الاقتصادية للمضربين .

وكما قال احد دارسي الحركة العمالية : « ان كفاءة الحكم البهلوي وقسوته أشد من تلك التي كان يتميز بها حكم القياصرة في تسعينات القرن التاسع عشر والعقد الاول من هذا القرن » (٧١) . وبهذا لم تعد الحركة العمالية قوة سياسية .

لكن الحركة العمالية عادت لتظهر كقوة حاسمة خلال ثورة ١٩٧٧ــ ١٩٧٩ . فقد بدأت الثورة في منتصف عام ١٩٧٧ كانتفاضة احتجاج قامت بها الطبقة الوسطى الحديثة . وبينما كان طلاب الجامعات

ينظمون الاضرابات ، كان المحامون والقضاة والكتاب والصحافيون يشكلون جمعيات مستقلة ويدينون الحكم لنشاطاته غير الدستورية (٧٢) . وتطورت هذه الانتفاضة بسرعة في مطلع عام ١٩٧٨ عندما نظم العلماء والطبقة الوسطى التقليدية اضرابات في البازار ، وقادوا تظاهرات في الشوارع واتهموا الحكم بتقويض الاسلام وفي منتصف حزيران (يونيو) كان الحكم والمعارضة من الطبقة الوسطى قد وصلا الى نقطة اللاعودة . فجهاز الحكم قادر على استعمال القوى المسلحة في الشوارع ولكنه عاجز عن ارغام البازار والجامعات على اعادة فتحها ،وكانت المعارضة من جهة اخرى قادرة على احراج الحكم ولكنها لم تكن تملك القوة الكافية لتدميره . ولكن هذا الوضع تغير في النصف الثاني من عام ١٩٧٨ بسبب تدخل الطبقة العاملة . فقد عاد تذمر الطبقة العاملة للظهور عندما بدأت قوة الدولة تضعف وعندما بدات السافاك تحول اهتمامها من المصانع الى الاسواق والجامعات . وعندما بدأت الحكومة تضع حدا للاجور في محاولة لحل مشكلة التضخم ، وتوقف مساعداتها السنوية وتحضر هبوطا صناعيا . بدأت الاضرابات في البداية في مصانع النسيج في بهشاهر ، وفي مصانع الادوات الميكانيكية في تبريز وفي دائرة الصحة في عبدان . ثم ظهرت لجان الاضراب في معظم المصانع الكبرى ومكاتب الحكومة . واخيرا وفي تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٧٨ أضرب عمال النفط مطالبين بزيادة الاجور وتحسين السكن ، ونقابات عمالية حرة ، وانهاء الاحكام العرفية ، وتطبيق القوانين الدستورية . وشكلت معظم المكاتب والاجهزة العاملة في النفط لجان اضراب لتنسيق هذا التوقف عن العمل .

وانتخبت هذه اللجان بدورها لجنة اضراب مركزية ، كان ٣٥ بالمئة من اعضائها في حزب « توده » ومن منظمي العمال اليساريين الاخرين (٧٣) .

وعاد الى الظهور تراث الاضرابات العامة في عامي ١٩٤٦ و١٩٥٣ ، ولكن في هذه المرة ، طالب عمال النفط ليس فقط بتنازلات اقتصادية بل بتدمير وازالة جميع مظاهر الحكم الملكي ، مستندين الى ان الطبقة الوسطى تشجعهم ، والى ادراكهم أنهم ينتجون كل المدخول الاجنبي تقريبا . واخبر احد قادة الاضرابات الصحافة قائلا : أن العمال لن « يصدروا النفط قبل تصدير الشاه » (٧٤) .

لقد كانت الحركة العمالية في حد ذاتها ، في عام ١٩٥٣ ، أضعف من ان تحول دون وقوع الانقلاب العسكري ، ولكنها في العام ١٩٧٩ اصبحت قوية ومؤثرة الى حد تحويل ثورة الطبقة الوسطى الى ثورة مشتركة بين الطبقة الوسطى والطبقة العاملة .

هوامش

١ — من اجل تفاصيل حول الاحصاءات الواردة في هذه الدراسة يمكن مراجعة كتابي الذي سيصدر فيما بعد : **Class and Communal Conflicts in Modern Iran**

2- British Ambassador to the Foreign Office, 13 June 1946, **F.O. 371/ Persia** 1946/34-52664. Crown copyright records by kind permission of the Controller, Her Majesty's Stationery Office.

3- **Time,** 13 July 1953.

٤ — من أجل مناقشة تفصيلية لتاريخ وسياسة حزب توده ، انظر كتاب :

S. Zabih, **The Communist Movement in Iran** (Berkeley, 1966).

5- For the early labor movement see M. Mani, **Tarikhcheh-i Nahsat-i Kargar-i dar Iran** (A Short History of the Labor Movement in Iran) (Tehran, 1946); M. Nasehi, «Workers' Organization in Iran,» **Rahbar,** 10 April 1946; R. Rusta, «The C.C.F.T.U.,» **Razm Mahaneh,** Vol. I, No. I (June 1948), pp. 62-4; M. Ivanov, **The Working Class in Contemporary Iran** (in Russian) (Moscow, 1968), pp. 200-10, A. Ovanessian, «Reminiscences on the Iranian Communist Party,» **Donya,** Vol. Vol. III, No. 1 (Spring 1962), pp. 33-9; A. Sultanzadeh, **Asnad-i Tarikh** (Historical Documents) (Paris, 1973).

6- Iranian Government, Ministry of Labor, **Amar-i Sanay-ye Iran** (Industrial Statistics of Iran) (Tehran, 1948).

7- British Minister to the Foreign Office, «Annual Report for 1934,» **F.O. 371/Persia** 1953/34-18995.

8- British Consul in Tabriz, «The Economic Situation in Azerbayjan,» **F.O. 371/Persia** 1937/34-20830.

9- British Consul in Isfahan, «Report on Isfahan,» **F.O. 371/Persia** 1945/ 34-45446.

١٠ — استقصيت المعلومات عن تراجم الاشخاص من المقابلات ، والصحف ، والمذكرات ، ومن سجلات المحاكمات السياسية .

11- R. Rusta, «Speech to the First Conference of the Union of Railwaymen,» **Zafar,** 15 August 1946.

12- The World Federation of Trade Unions, **Report on Iran, October**

1945- April 1949 (Milan, 1949), p. 167.

13- International Labour Office, **Provisional Records of the Twenty-Seventh Session** (Paris, 1945).

14- D. Jamalzadeh, «Social and Economic Structure of Iran,» **International** Labour Review, Vol. XLIII, No. 2 (February 1951), pp. 178-91.

15- U.S. Congress, Committee on Foreign Relations, **The Strategy and Tactics of World Communism** (Washington, D.C., 1949), p. 7.

16- The Military Governor of Tehran, **The Evolution of Communism in Iran** (Tehran, 1956), pp. 8-9.

17- British Ambassador to the Foreign Office, «Report on Labour» Conditions in Persia,» **F.O. 371**/Persia 1944/34-40222.

18- **Rahbar,** 13 November

19- British Military Attache to the Foreign Office, 18 November 1946, **India Office**/ L/P & S/12-3505.

20- British Consul in Isfahan, 1 January 1947, **India Office**/ I./P & S/12-3529.

21- British Consul in Isfahan, 30 December 1946, **India Office**/ L/P & S/12-3529.

22- British Labour Attache to the Foreign Office, «Labour Conditions in the A.I.O.C.,» **India Office**/ L/P & S/12-3490A.

23- U.S. Congress, **op. cit.,** p. 9.

24- Anonymous, «The Crisis in Khuzestan,» **Ittila'at-e Haftegi,** 19-30 April 1952.

25- Anonymous, «The Situation in Isfahan,» **Ittila'at-e Haftegi,** 19 April 1951.

26- M. Malekzadeh, **Muzakerat-e Majlis** (Parliamentary Proceedings), 1st Senate, 20 April 1951.

27- **Ittila'at-e Haftegi,** 20 April 1951.

28- **Tehran Mosavar,** 6 September 1951.

29- R. Shafaq, **Parliamentary Proceedings,** 1st Senate, 26 June 1951.

30- 'A. Raji, **Parliamentary Proceedings,** 16th Majlis, 23 May 1951.

31- Kh. Maleki, «Strikes,» **Niru-ye Sevum,** 29 June 1952.

32. **Ittila'at,** 23 October 1952.

33. Sh. Qonatabadi, **Parliamentary Proceedings,** 17th Majlis, 28 October 1952.

34. Banki Melli Iran, «The Cost of Living Index,» **Bulletin,** No. 142 (January 1954), pp. 19-20.

35- Data compiled from **Rahbar, Mardom, Zafar, Besu-ye Ayandeh, Bakh-**

tar-e Emruz, Ittila'at, and **Mard-e Emruz.**

36- **Kh.** 'Iraqi, «Secrets from Razmara's Administration: A Survey of the Bazaar,» **Khvandaniha,** 23 January 1956.

37. M. 'Azizi, «Speech to the First Conference of the C.C.F.T.U.,» **Rahbar,** 1 August 1946.

38- British Consul in Kerman, 30 December 1946, **F.O. 371**/Persia 1946/34-52749.

39- British Consul in Bandar 'Abbas, 30 June 1946, **F.O. 371**/Persia 1946/34-52699.

40- British Consul in Shiraz, 30 April 1944, **F.O. 371**/Persia 1944/34-40162.

41- British Consul in Zahedan, 30 June 1946, **F.O. 371**/Persia 1944/34-52756.

42- For an explanation of rural conservatism, see F. Kazemi and E. Abrahamian, «The Non-Revolutionary Peasantry in Iran,» **Iranian Studies,** Vol. XI (1978).

43- British Ambassador to the Foreign Office, 31 May 1945, **F.O. 371**/Persia 1945/34-45448.

44- British Ambassador to the Foreign Office, «Discussions with the A.I.O.C.,» **F.O. 371**/Persia 1945/34-45461.

45- The Anglo-Iranian Oil Company, «Memorandum on Security,» **F.O. 371**/Persia 1944/34-40197.

46- British Consul in Khorramshahr, «Report on Tudeh Activities in the Oil Industry,» **F.O. 371**/Persia 1946/43-52714.

47- British Ambassador to the Foreign Office, «Memorandum on Tudeh Activities in the A.I.O.C.,» **F.O. 371**/Persia 1946/34-52713.

48- **The Times,** 30 July 1946.

49- British Ambassador to the Foreign Office, 20 May 1946, **F.O. 371**/Persia 1946/34-52713.

50- British Consul in Khorramshar, «Report on the General Strike,» **India** Office/ L/P & S/12-3490A.

51- M. Audsley, «Report on the Oilfields,» **F.O. 371**/Persia 1946/34-52723.

52- British Ambassador to the Foreign Office, «The Tudeh Party in the Oil Industry,» **F.O. 371**/Persia 1946/34-52714.

53- British Military Attache to the Foreign Office, 10 June 1946, **F.O. 371**/Persia 1946/34-52710.

54- British Consul in Ahwaz, 1 August 1946, **F.O. 371**/Persia 1946/34-52700.

55- British Consul in Khorramshahr, «Report on the General Strike,» **India Office**/ L/P & S/12-3490A.

56- British Military Attache to the Foreign Office, 23 July 1946, **F.O. 371**/ Persia 1946/34-52711.

57- British Military Attache to the Foreign Office, 10 July 1946, **F.O. 371**/ Persia 1946/34-52742.

58- British Consul in Khorramshahr, 1 June 1946, **F.O. 371**/Persia 1946/ 34-52742.

59- British Consul in Khorramshahr, «Report on the General Strike,» **India Office**/ L/P & S/12-3490A.

60. **Ibid.**

61- **Zafar**, 5 July 1946.

62- British Consul in Khorramshahr, «Report on the General Strike,» **India Office**/ L/P & S/12-3490A.

63- **Ibid.**

64- **Ibid.**

65- British Military Attache to the Foreign Office, 31 July 1946, **F.O. 371**/ Persia 1946/34-52711.

66- Noel Baker, 17 July 1946, **F.O. 371**/Persia 1946/34-52719.

67- Anonymous Letter to the Foreign Office, 18 July 1946, **F.O. 371**/ 34-52720.

68- British Foreign Office, «Report on the Parliamentary Delegation's Visit to Persia,» **F.O. 371**/Persia 1946/34-52718.

69- British Cabinet, «Notes on the Parliamentary Delegation's Visit,» **F.O. 371**/Persia 1946/34-52616.

70- British Consul in Ahwaz, 1 September 1946, **F.O. 371**/Persia 1946/ 34-52700.

71- F. Halliday, «Iran: Trade Unions and the Working Class Opposition,» **Middle East Research and Information Project**, No. 71 (October 1978), pp. 7-13.

72- For the role of the labor movement in the 1977-79 revolution see **Middle East Research and Information Project**, Nos. 69 (July 1978), 71 (October 1978), and 76 (March-April 1979).

73- **Iran Times**, 2 March 1979.

74- **Iran Times**, 12 January 1979.

اسباب ثورة ١٩٧٨

يرفند أبرهميان

« ان ايران تحت قيادة الشاه العظيمة هي جزيرة استقرار في واحدة من اكثر المناطق اضطرابا في العالم ، وهذا فضل كبير لك يا صاحب الجلالة ، ولقيادتكم وللاحترام والاعجاب والحب الذي يمنحكم اياه شعبكم » .

الرئيس كارتر
وهو يشرب نخب الشاه
لمناسبة العام الجديد ١٩٧٨

مقدمة

سيدخل سقوط الشاه التاريخ باعتباره — ربما — أكثر الثورات دراميّة في الازمنة الحديثة . ففي معظم الثورات الاخرى تساعد قوى خارجية — وخاصة الجيوش الغازية — في تحطيم النظام القديم . أما في حالة ايران فقد كانت القوى الداخلية ، دون اي مساعدة من جيوش خارجية ، فضلا عن أية قوات غازية ، هي التي هدمت أسس النظام القديم . في معظم الثورات الاخرى لجأت المعارضة في النهاية الى الكفاح المسلح ، أما في حالة ايران فكانت السبل السلمية في الاغلب — وخاصة تظاهرات الشوارع والاضرابات العامة — هي التي حطمت الجيش المؤلف من ٤٠٠ الف رجل ، خامس أضخم جيش في العالم ، والمجهز بأحدث الاسلحة التي استطاعت الدولارات النفطية شراءها . وكانت المناسبة الوحيدة التي لجأت فيها المعارضة في ايران الى استخدام القوة على نطاق واسع في الايام الثلاثة الاخيرة من الملكية ، حين وجهت حركة حرب العصابات ضربتها القاضية الى النخبة من الحرس الامبراطوري. في معظم الثورات الاخرى كان النظام القديم يحتفظ بقدر كاف من

● قدم هذا البحث أمام المؤتمر الثاني عشر لجمعية الخريجين الامريكيين ـ العرب في تشرين الثاني ، نوفمبر ، ١٩٧٩ ، والذي عقد في واشنطن العاصمة .

التأييد لشن هجوم مضاد ، وبالتالي المباشرة بحرب أهلية ، ولكن في حالة ايران كان الشاه ــ مع احترامنا الواجب لعبارة الرئيس كارتر في نخب الشاه بمناسبة العام الجديد ــ في حالة من الضعف وانعدام الشعبية وفقدان المصداقية الى حد انه لم يكن له خيار الا الفرار دون حتى أن يحاول ــ مجرد محاولة ــ شن هجوم مضاد . فاذا ما وقعت حرب أهلية في ايران في المستقبل القريب فمن المرجح ان تكون بين الاجنحة المختلفة من الحركة الثورية ، لا بين الملكيين والثوريين . في معظم الثورات الاخرى كان انهيار النظام القديم يمهد السبيل لانتصار طبقات جديدة مسلحة بتنظيمات حديثة ، وخاصة بأحزاب سياسية ، تستلهم ايديولوجيات علمانية مثل القومية والاشتراكية والشيوعية ، أما في حالة ايران فان الثورة قد دفعت الى المقدمة برجال الدين التقليديين ، مسلحين بالمسجد ، مستلهمين فلسفة سياسية ترجع الى القرن السابع وتذهب الى ان للزعماء الدينيين حقا الهيا في حماية الجماعة من الاجانب ، وارشاد البلد نحو الصواب ، وممارسة السلطة فوق الممثلين المنتخبين ، وفحص نشاطات الجماعات الاجتماعية كافة .

وهدف هذا المقال هو تحليل الاسباب البنيوية للثورة ، مع التركيز على الضغوط الاقتصادية ــ الاجتماعية التي حطمت المؤسسة السياسية تدريجيا ، ومهدت السبيل بذلك امام انهيار شباط (فبراير) ١٩٧٩ . وقد أدى هذا الاخفاق الى الاضرار بالروابط بين البنية الاجتماعية والبنية السياسية ، واعاق توجيه المظالم الاجتماعية في قنوات موصلة الى نظام السياسي ، ووسع الفجوة بين القوى الاجتماعية الجديدة والدوائر الحاكمة ، والاخطر من هذا كله قطع الجسور القليلة التي كانت تربط في الماضي بين القوى الاجتماعية التقليدية ، وخاصة أصحاب المحال (البازار) ،والمؤسسة السياسية .

التنمية الاقتصادية ــ الاجتماعية

خلال ربع القرن الذي تلا انقلاب العام ١٩٥٣ ، حققت ايران قدرا كبيرا من التنمية الاقتصادية ــ الاجتماعية . وقد امكن ذلك الى حد كبير بفضل الايرادات النفطية المتزايدة . وكانت الايرادات النفطية في العام ١٩٥٣ تبلغ اقل من ٣٤ مليون دولار ، لكنها وصلت بحلول العام ١٩٧٣ الى نحو ٥ مليارات من الدولارات . وبحلول

العام ۱۹۷۷ ـ بعد أن تضاعفت أسعار النفط الى اربعة أمثال ـ ارتفعت هذه الايرادات الى ۲۰ مليار دولار . وهكذا فان القيمة الاجمالية للدخل النفطي لايران في الفترة من ۱۹٥۳ الى ۱۹۷۸ بلغت ٥٤ مليار دولار . وبطبيعة الحال فان بعض هذه الاموال قد بدد على بناء القصور للامراء والرحلات الملكية الطويلة ، والمهرجانات الضخمة ، واحواض الاستحمام المصنوعة من الذهب الخالص، والمشروعات النووية ، والاسلحة البالغة التطور التي تعد باهظة التكاليف حتى بالنسبة لبلدان كثيرة من اعضاء حلف الاطلسي ـ اسلحة مثل سفن « سبروانس » ، وطائرات بوينغ اي ـ ۳ أ و ف ـ ١٤ الاحدث . ولكن على الرغم من هذا التبديد فان نحو ۳۰ مليار دولار قد أنفقت على مشاريع اقتصادية واجتماعية في خلال خطط التنمية الثانية (٥٥ ـ ١٩٦٢) والثالثة (٦٢ ـ ١٩٦٨) والرابعة (٦٨ـ١٩٧٣) والخامسة (١٩٧٣ ـ) . ونتيجة لهذه الخطط وارتفاع الايرادات النفطية فان اجمالي الانتاج القومي ارتفع بالاسعار الجارية من ۳ مليارات دولار الى اكثر من ٥٣ مليار دولار ، وزادت قيمة المستوردات غير العسكرية من ٤٠ مليون دولار الى نحو ۱۲ مليار دولار ، وقفز دخل الفرد من أقل من ١٦٠ دولارا الى اكثر من ١٦٠٠ دولار على الرغم من أن تعداد السكان زاد من ١٨ مليون الى نحو ٣٥ مليون نسمة .

ويمكن أن نشهد الاثار الاقتصادية ـ الاجتماعية لهذا النمو في أفضل أشكالها في مجالات التعليم والتصنيع . ففي العام ١٩٥٣ كانت في ايران ٤ جامعات ومؤسسات حديثة للتعليم العالي ، وكان عدد الطلاب المسجلين فيها ١٤٫٥٠٠ طالب . لكن بحلول العام ۱۹۷۷ كان قد أصبح فيها ١٦ جامعة ومؤسسة حديثة للتعليم العالي ، وعدد الطلاب المسجلين فيها يبلغ في مجموعه ١٥٤٫٣١٥ طالبا . وفي العام ١٩٥٣ كان في ايران ٢٥٣٨ طالبا مسجلا في ٣٦ من المدارس التقنية والمهنية ومدارس تدريب المعلمين . وبحلول العام ۱۹۷۷ أصبح لديها ٢٢٧٫٥٠٧ طلاب مسجلين في ٨٠٠ مدرسة من هذه الانواع . في العام ١٩٥٣ كان في ايران ٥٢٧ مدرسة ثانوية تعلم ۱۲۱٫۷۷۲ طالبا ، وبحلول العام ۱۹۷۷ كان فيها ١٧١٤ مدرسة ثانوية تعلم ٧٤١٫٠٠٠ طالب . في العام ١٩٥٣ كان في

ايران ٥٩٥٦ مدرسة ابتدائية تضم (٧٤٦ر٤٧٣) تلميذا ، وبحلول العام ١٩٧٧ كان فيها ٢٣ر٤٧٦ مدرسة ابتدائية تضم ٠٠٠ر٠٧٨ر٤ تلميذ . وبالاضافة الى هذا كان ٠٠٠ر٦٩١ شخص يحضرون مدارس القرية التي تديرها فرق محو الامية . وهكذا فانه خلال هذه السنوات الخمس والعشرين نما النظام التعليمي بمعدل يفوق ١٠ أمثال .

كذلك كان نمو الصناعة الحديثة ملفتا بالقدر نفسه خلال السنوات الخمس والعشرين . فقد زاد عدد المصانع الصغيرة — التي تستخدم عددا من العمال يتراوح بين ١٠ و ٤٩ — من اقل من الف الى اكثر من ٧٠٠٠ مصنع ، وزاد عدد المصانع ذات الحجم المتوسط — التي يستخدم الواحد منها بين ٥٠ و ٥٠٠ عامل — من ٣٠٠ الى ٨٣٠ مصنعا ، والمصانع الكبيرة الحجم التي يستخدم الواحد منها اكثر من ٥٠٠ عامل زادت من ١٩ مصنعا الى ١٥٩ مصنعا . بالاضافة الى هذا فان انتاج الفحم ارتفع من نحو ٢٠٠ الف طن الى ٩٠٠ الف ، وارتفع انتاج الحديد الخام من ٥٠٠٠ طن الى ٠٠٠ر٩٣٠ ، والصلب والالومنيوم من لا شيء الى ٠٠٠ر٢٧٥ طن ، والاسمنت من ٠٠٠ر٥٣ الى ٠٠٠ر٣٠٠ر٤ طن ، والكهرباء من ٢ر٥ مليار كيلوات ساعة الى ١٤ مليار ك.و.س. ، والسكر من ٠٠٠ر٧٠ طن الى ٠٠٠ر٥٢٧ طن ، والقطن والمنسوجات الصناعية من ١١٠ مليون متر الى ٥٣٣ مليون متر ، والجرارات الزراعية (التراكتورات) من لا شيء الى ٧٧٠٠ وحدة ، والسيارات — بما فيها سيارات الركوب العامة (الباصات) والشاحنات — من لا شيء الى ٠٠٠ر١٠٩ وحدة .

هذا التوسع في الصناعة والتعليم — الى جانب نمو بيروقراطية الدولة — زاد بصورة جذرية من صفوف طبقتين حديثتين ، طبقة بروليتاريا المدن ، والطبقة الوسطى التي تتقاضى مرتبات . ففي العام ١٩٥٣ كانت الطبقة الوسطى الحديثة — التي تضم كل الموظفين الذين يتقاضون مرتبات ، والموظفين المدنيين ، والمهنيين ، والمهندسين ، والمديرين ، والمعلمين ، وغيرهم من اعضاء فئة المثقفين (الانتليجنسيا) — لا تتجاوز في عددها ٠٠٠ر٣٢٤ شخص ، اي مجرد ٤ر٥٪ من القوى العاملة في البلد التي كانت تبلغ نحو ٠٠٠ر٨٠٠ر٥ شخص . لكن بحلول العام ١٩٧٧ بلغ تعداد الطبقة

الوسطى الحديثة اكثر من ٦٣٠ر٠٠٠ شخص ، واصبحت تشكل نسبة ٦ر٧ ٪ من القوى العاملة التي ارتفعت الى ٩ر٣٧٨ر٠٠٠ شخص . ويضم هذا العدد الاجمالي ٦٧٢٦ استاذا جامعيا و ٢٠ر٣٠٠ مهندسا ، ٢١ر٥٠٠ من العاملين في الجهاز الطبي ، ٢٠٨ر٢٤١ معلما ، و ٣٠٤ر٤٠٤ موظفا مدنيا . ولا يشمل هذا الرقم الاجمالي الجيش الضخم من الطلاب الذين يعتزمون الانخراط في صفوف الطبقة الوسطى التي تتقاضى مرتبات ، وهم ١٥٤ر٣١٥ طالبا مسجلين في التعليم العالي ، واكثر من ٩٠ الفا مسجلين في الجامعات الاجنبية ، و ٧٤١ الفا مسجلين في المدارس الثانوية . فاذا أضاف المرء الطلاب المسلجين في التعليم العالي والمدارس الثانوية الى العاملين بمرتبات في جميع أنحاء البلد فان صفوف الطبقة الوسطى الحديثة تتضخم لتضم ١ر٧ مليون شخص .

كذلك نمت الطبقة العاملة في المدن بمعدل أسرع . ففي العام ١٩٥٣ كان عدد العمال المأجورين في الصناعة الحديثة ، النفط ، النقل ، التعدين ، البناء ، والخدمات ، الموجودين في المراكز السكانية الرئيسية لا يتجاوز ٣٠٠ الف — أي ٥٪ فقط من مجموع القوى العاملة في البلد . الا انه بحلول العام ١٩٧٧ كانت القطاعات ذاتها تستخدم اكثر من ١ر٣ مليون عامل ، يشكلون نسبة ١٤٪ من القوى العاملة في البلد . وكان بين هؤلاء ٣٠٠ الفا يعملون في مصانع حديثة ، ٣٠ر٠٠٠ في قطاع النفط ٤٩ر٠٠٠ في التعدين ، ٧٥ر٠٠٠ في النقل ، ١٥٢ر٠٠٠ في الخدمات ، واكثر من ٥٠٠ الف في أعمال البناء في المدن . وبالاضافة الى هذه البروليتاريا الحديثة كان هناك نحو ٧٠٠ الف عامل زراعي واكثر من ٥٠٠ الف من المستخدمين المأجورين في أعمال البناء في الريف . والصناعات اليدوية ، والمحال الصغيرة في الاسواق . وهكذا فان مجموع العاملين باجور في جميع انحاء البلد بلغ ٢ر٥ مليون شكلوا نسبة ٢٥٪ من القوى العاملة .

وعلى الرغم من أن النظام قد مول هذا النمو الاقتصادي الملفت ، فانه لم يكسب تأييدا كبيرا لا من الطبقة الوسطى التي تتقاضى مرتبات، ولا من الطبقة العاملة في المدن . وهناك سببان رئيسيان يفسران هذا، أولهما ان انقلاب العام ١٩٥٣ — باطاحته بالزعيم الشعبي الدكتور

مصدق،وبتدميره نقابات العمال والاتحادات المهنية،وكل الاحزاب السياسية المستقلة ــ قد احدث هوة سحيقة ــ يمكن للمرء أن يصفها بانها لا يمكن اقامة جسر عليها ــ بين النظام وهاتين الطبقتين الحديثتين . وثانيهما ان هذه الهوة ازدادت اتساعا بفعل حقيقة ان النظام كان ينفذ سياسات تفيد الطبقة العليا وليس الطبقات المتوسطة والدنيا، وأن هذه الطبقات الاخيرة لم تكن لها جماعات ضاغطة تستطيع من خلالها ان تغير قرارات الحكومة أو تعارضها سلميا . صحيح ، كما يدلل غالبا مؤيدو النظام ــ انه خلال ربع القرن هذا ، وخاصة بعد الثورة البيضاء في العام ١٩٦٣ ، تحققت قفزات كبيرة في مجالات الصحة والتعليم والرفاهية العامة ــ فقد زاد عدد الاطباء من ٤٥٠٠ الى ١٣ الفا، وارتفعت نسبة معرفة القراءة والكتابة من ٢٦٪ الى ٤٢٪ ، وهبط معدل وفيات الاطفال من ٢٠٪ الى اقل ١٢٪ . ولكنه صحيح بالمثل كما يوضح غالبا خصوم النظام ــ انه بعد اربعة عشر عاما من الثورة المسماة بالثورة البيضاء ظل ٦٨ ٪ من البالغين أميين ، وارتفع عدد الاميين فعلا من ١٣ مليونا الى (١٥) مليون نسمة ، واكمل اقل من ٤٠٪ من الاطفال تعليمهم الابتدائي وبلغ عدد الاماكن المتوفرة في الجامعات ٦٠ الفا فقط متاحة لطالبي الالتحاق الذين بلغ عددهم ٢٩٠ الفا ، ونسبة السكان الذين يحملون شهادات عليا هي واحدة من أدنى النسب في الشرق الاوسط ، وبقى معدل عدد الاطباء الى عدد المرضى واحدا من أسوأ المعدلات في غرب أسيا كلها .

صحيح أن مستوى المعيشة قد تحسن بالنسبة لكثير من الاسر ، نظرا لامكانية حصولها على شقق سكنية حديثة وسلع استهلاكية ، وخاصة البرادات الكهربائية واجهزة التلفزيون والدراجات البخارية ،ومكيفات الهواء والسيارات الخاصة . لكنه صحيح ايضا أن نوعية الحياة بالنسبة لاسر كثيرة في المدن قد تدهورت مع انتشار مدن التنك وتلوث الهواء وتحول الشوارع الى كوابيس بسبب ازدحام حركة المرور . فبين العام ١٩٦٧ والعام ١٩٧٧ ازدادت نسبة اسر المدن التي تعيش في غرفة واحدة من ٣٦٪ الى ٤٣٪ . وعشية الثورة كان ٤٢ ٪ من سكان طهران يعانون من عدم كفاية الاسكان . وعلى الرغم من ايرادات النفط الهائلة فان طهران ــ وهي مدينة يعيش فيها اكثر من ٤ ملايين نسمة ــ لا تزال بدون شبكة لتصريف المجاري ، ولا شبكة للقطارات تحت الارض ، ولا شبكة سليمة للنقل العام . وقد تساءل

شقيق الشاه الاصفر يوما ــ في عبارة تذكر بما قالته ماري انطوانيت ــ وكان يملك مصنعا لتجميع طائرات الهليكوبتر : « اذا كان الناس لا يحبون زحمة المرور فلماذا لا يشترون طائرات الهيلكوبتر ؟ » (٤)

صحيح أن الثورة البيضاء وعدت بمساعدة القرويين ، ومولت تكوين التعاونيات الزراعية ، وزادت جذريا استخدام الجرارات الزراعية والات الحصد والاسمدة ، والاهم من هذا كله انها حولت ملكية الارض الى مليون و٦٣٨ الف اسرة فلاحية . الا انه صحيح بالقدر نفسه أنه ٩٦٪ من القرويين تركوا دون كهرباء ، وان التعاونيات الزراعية كانت تتضور جوعا الى القروض ، وأن الانتاج الزراعي اصابه الجمود أساسا بسبب فرض الرقابة على الاسعار بالنسبة للسلع الاساسية وانه مقابل كل اسرتين استلمتا أرضا كانت هناك واحدة لم تتسلم شيئا ، ومقابل كل واحدة حصلت على أرض كافية (٧ هكتارات) حصلت ثلاث على اقل مما يكفيها لتصبح من المزارعين المستقلين تجاريا . وهكذا فانه على الرغم من الثورة البيضاء ظلت ملكية الارض متفاوتة بدرجة عالية : ١٣٠٠ أسرة ــ كثير منها ينتمي للارستقراطية القديمة ــ كانت تملك مزارع ضخمة (أكثر من ٢٠٠ هكتار) ، ٤٤ الف اسرة ــ معظمها من ملاكي الارض الغائبين عن أراضيهم ــ تملك مزارع كبيرة ٥١ ــ ٢٠٠ هكتار ، ٦٠٠ الف اسرة ــ بعضها أيضا من الملاكين الغائبين ــ تملك مزارع ذات حجم متوسط (١١ ــ ٥٠ هكتارا) ، مليون و ٢٠٠ الف اسرة تملك مزارع صغيرة (٣ــ١٠ هكتارات) ، مليون أسرة تملك مزارع ضئيلة (أقل من ٣ هكتارات) . و (٧٠٠) الف أسرة ــ كلها من العمال الزراعيين ــ لا تملك أرضا على الاطلاق .

بالمثل كان التفاوت في الدخول في المدن على القدر نفسه من السوء ، وذلك اساسا بسبب سياسات النظام الموالية للراسماليين ــ وخاصة استراتيجيته في تنمية الاقتصاد عن طريق مساعدة مقاولي القطاع الخاص . وعلى الرغم من أن احدا لم يجمع احصاءات عن توزيع الدخل فان البنك المركزي اجرى عددا من الاستقصاءات عن نفقات الاسرة في المدن . وتبين هذه الاستقصاءات انه في السنة ٥٩ ــ ١٩٦٠ كانت أغنى ١٠٪ من العائلات الحضرية مسؤولة عن ٣٥ر٥ ٪ من النفقات الاجمالية ، واغنى ٢٠٪ مسؤولة عن ٥١ر٧٪ من النفقات . وعند الطرف الاخر من الهرم الاجتماعي فان افقر ١٠٪ من الاسر كانت مسؤولة عن ١ر٧ ٪ من النفقات الاجمالية وأفقر ٢٠٪ مسؤولة عن

٧ر٤٪ من النفقات . وفي الوقت نفسه كان نسبة ٤٠٪ المتوسطة من الاسر كانت مسؤولة عن ٥ر٢٧ من النفقات .وطبقا لتقرير غير منشور لمكتب العمل الدولي فان هذه الارقام جعلت ايران واحدا من اكثر المجتمعات تفاوتا في المستويات في العالم كله (٥) . الاكثر من هذا أن ذلك التفاوت ازداد سوءا في اثناء فترة الستينات . وبحلول السنة ١٩٧٣ — ١٩٧٤ كان ٢٠٪ من الاسر الحضرية الاكثر ثراء مسؤولة عن نسبة كبيرة تصل الى ٥ر٥٥٪ من النفقات الاجمالية ، وأفقر ٢٠٪ من الاسر مسؤولة عن نسبة ضئيلة تهبط الى ٧ر٣٪ منها ، بينما الـ ٤٠٪ المتوسطة لا تتجاوز نفقاتها نسبة ٢٦٪ .

التوزيع العشري لنفقات العائلات الحضرية
(في المائة)

العشرات من ادناها الى اعلاها	٥٩ — ١٩٦٠	٧٣ — ١٩٧٤
الاولى	٧ر١	٣ر١
الثانية	٩ر٢	٤ر٢
الثالثة	٤	٤ر٣
الرابعة	٥	٧ر٤
الخامسة	١ر٦	٥
السادسة	٣ر٧	٨ر٦
السابعة	٩ر٨	٣ر٩
الثامنة	٨ر١١	١ر١١
التاسعة	٤ر١٦	٥ر١٧
العاشرة	٣ر٣٥	٩ر٣٧

من المؤكد ان الراي العام لم يكن مدركا لهذه الاحصاءات ، ولكنه كان يذكر باستمرار بالتفاوتات الضخمة ، بفعل حقيقة أن الاثرياء كانوا يتبرجون بثروتهم من خلال استهلاك باذخ ، وأن الفضائح المالية كانت تهز السلطة على فترات منتظمة . وعلى سبيل المثال ، في السنة ٧٤ — ١٩٧٥ وحدها أدين القائد العام للبحرية باختلاس (٧ر٣)مليون دولار ، بينما تورط القائد العام للسلاح الجوي — وكان في الوقت نفسه شقيقا للشاه — في مخطط ابتزاز بقيمة ٥ ملايين دولار .وحسب

تعبير الصحيفة الدولية للقوات المسلحة الاميركية : « بحلول العام ١٩٧٧ كان مجرد معدل الفساد قد بلغ نقطة الغليان ، لقد أصبحت مؤسسة بهلوي وسيلة سافرة لنهب الثروة لحساب الاسرة المالكة . وحصل كبار الضباط على ثروات ضخمة من العمولات . ولم يكن كبار الموظفين الذين يديرون شركات مثل شركة الطيران الايرانية وشركة النفط الوطنية يكلفون أنفسهم عناء اخفاء اختلاساتهم. . .حتى التقديرات المتحفظة تشير الى أن هذا الفساد قد شمل عمليات بقيمة مليار دولار على الاقل فيما بين العام ١٩٧٣ والعام ١٩٧٦» (٦) . وهكذا فان التوترات البنيوية زادت خطورة ، لا بسبب التحديث في ذاته ، انما بسبب الطريقة التي كان ينفذ بها التحديث ، وبسبب حقيقة أن الطريقة الراسمالية في التحديث تنحو دائما الى افادة الاغنياء أكثر من باقي قطاعات المجتمع .

التخلف السياسي

بينما ساعد الشاه على تحديث البنية الاجتماعية ، فانه لم يفعل شيئا يذكر لتطوير البنية الفوقية السياسية أي لاتاحة تكوين جماعات ضاغطة ، ولفتح المضمار السياسي للقوى الاجتماعية ، لاقامة روابط بين النظام والطبقات الجديدة ، ولتوسيع قاعدة ملكية استطاعت رغم كل شيء — أن تبقى فقط بسبب انقلاب وكالة الاستخبارات المركزية (الاميركية) العسكري في العام ١٩٥٣ . على النقيض من ذلك تحرك الشاه في الاتجاه العكسي ، فضيق قاعدة النظام السياسية . والاخطر من هذا كله أنه قطع الصلات التي كانت تربط في الماضي بين الملكية والطبقة الوسطى التقليدية ، وان لم تكن تلك سوى صلات طفيفة .

ظلت الطبقة الوسطى التقليدية مهمة لعدد من الاسباب (٧) . اولا ، أن عدد (البازارات) الاسواق التجارية — وهي المعقل الرئيسي لهذه الطبقة — كانت تضم نحو ٢٥٠ الف صاحب محل وتسيطر على نحو ثلثي تجارة المفرق (التجزئة) في البلد . وكان سوق طهران وحده يغطي مساحة ثلاث أميال مربعة ويضم اكثر من ١٠ الاف مخزن وورشة . ثانيا ، ان تجار الاسواق — خلافا للطبقات الحديثة — استطاعوا أن يحتفظوا بتنظيماتهم ، وخاصة اتحادات الطوائف التجارية والحرفية * . ثالثا ، ان مقاولي الاسواق كانوا

* Craft and Trade Guilds

يمارسون نفوذا قويا، ليس فقط على مساعديهم في المحال ومستخدميهم في الورش ، انما أيضا على آلاف من الباعة المتجولين وتجار المفرق وصغار السماسرة . رابعا ، أن نفوذ تجار الاسواق وصل أيضا الى الريف،من ناحية لان كثيرا من المزارع التجارية كانت مملوكة لمتاولين غائبين ، ومن ناحية لان بعض المصانع الصغيرة التي يبلغ عددها ٤٣٠ الفا والقائمة في القرى كان يمولها رجال الاعمال من المدن . وكانت هذه المصانع ــ التي يستخدم كل منها أقل من ١٠ عمال معظمهم من النساء ــ تتخصص في نسج السجاد وصنع الاحذية ، وصنع الاثاث . وأخيرا فانه كانت لتجار الاسواق روابط اجتماعية ومالية وسياسية وعقائدية وتاريخية مع المؤسسة الدينية . وقد مارست هذه المؤسسة قدرا كبيرا من النفوذ السياسي من ناحية لان لها هيمنة عقائدية (ايديولوجية) على فقراء مدن الاكواخ . ومن ناحية لانها تسيطر على التنظيم الوحيد المنتشر عبر الامة الذي بقي مستقلا عن الدولة ، ومن ناحية ثالثة لانها استطاعت ان تعبىء أكثر من ٩٠ الفا من رجال الدين ــ نحو ١٠٠ من ايات الله و ٥٠٠٠ من حجج الاسلام و ١١ الفا من طلاب العلوم الدينية ، وعددا غير معروف من الوعاظ ذوي المراتب الدنيا والمعلمين وائمة المساجد ومنظمي الجنازات والاحتفالات الدينية .

وخلال الفترة من ١٩٥٣ الى ١٩٧٥ كانت سياسة النظام تجاه تجار الاسواق هي سياسة تطبق شعار « دع الكلاب النائمة تغط في نومها » . لقد كان النظام يرقب باهتمام معارضة الاسواق ، لكنه كان حريصا على عدم اثارتها . كان يتجسس على اتحادات طوائف التجارة والحرف ، ولكن لم يحاول تحطيمها أو استبدالها كما فعل مع نقابات عمال المصانع ومع الاتحادات المهنية . كان النظام يؤيد كبار المقاولين على حساب أصحاب المحال الصغيرة ، ولكنه لم يحاول أن يهدم اقتصاد الاسواق . كان يمول رجال الدين الذين يؤيدون الحكومة ــ مثل آية الله بهبهاني ــ وينفي اولئك الذين ينتقدونها علنا ، وابرزهم آية الله الخميني ، ولكنه في الوقت نفسه تجاهل المعارضة الصامتة واتخذ احتياطاته كي لا يستعدي عليه المؤسسة الدينية برمتها . وقد اخفقت هذه السياسة مرتين فقط . الاولى في العام ١٩٥٤ حينما نظم تجار الاسواق اضرابا عاما لمدة يومين احتجاجا على توقيع اتفاقية نفطية جديدة مع الغرب . والثانية في حزيران (يونيو) ١٩٦٣ حينما

ندد الخميني ــ وكان في بداية ظهوره السياسي ــ بالحكم لتزويره الانتخابات البرلمانية ،وتحالفه مع اسرائيل ضد العالم العربي ، ومنحه « تنازلات » للمستشارين العسكريين الاميركيين . وقد التقط آلاف من اصحاب المحال والباعة المتجولين والطلاب الدعوة وتدفقوا على الشوارع لمواجهة الجيش . وطبقا لتقديرات متحفظة فان نحو الف متظاهر قتلوا (٨) . وعلى الرغم من الدم الذي اريق فان الاحكام العرفية لم تدم لاكثر من اسبوع واحد وعاد السوق الى احواله العادية .

مع ذلك فان الشاه تخلى في العام ١٩٧٥ عن سياسته الناجحة سياسة « دع الكلاب النائمة تغط في نومها » . وقد استوجب هذا التغيير قرار الشاه بتشكيل « حزب راستاخيز » (حزب النهضة) وبالتالي تحويل ملكيته العسكرية الى نظام كلياني *.من نمط فاشي(٩) . وقد منح المواطنون حق الاختيار الكبير بين الانضمام الى الحزب أو «مغادرة البلد» (١٠) . وكان هدف الحزب مزدوجا : تشديد قبضته للسيطرة على المثقفين والطبقة العاملة في المدن ، ومد سلطة الدولة ــ لاول مرة في التاريخ الايراني ــ الى الاسواق والى المؤسسة الدينية. والحقيقة أن حزب النهضة اندفع حيث كانت الاحزاب الملكية السابقة تخشى أن تخطو .

فتح حزب النهضة خلال اشهر قليلة من تكوينه ــ فروعا له في الاسواق ، وحل اتحادات الحرف التقليدية ، وخلق بدلا منها اتحادات تخضع للاشراف المباشر لبيروقراطيي الدولة . كما اقام غرفا للحرف في المدن الكبرى واعطى رئاسة كثير من هذه الغرف لرجال اعمال اثرياء من خارج الاسواق.وقد اعتبرت البورجوازية الصغيرة هؤلاء الخارجين أعضاء في « البورجوازية النفطية الكومبرادورية » . بالاضافة الى هذا تحدث الحزب عن اقتلاع الاسواق،وازالة حوانيتها التي أكلتهاالديدان، وعن تسوية بعض أحيائها بواسطة الجرافات (البولدوزر) للتمهيد لشق طرق رئيسية وبناء سوق تديرها الدولة على غرار « الكوفنت غاردن » في لندن . علاوة على ذلك ، تحدث الحزب عن الحاجة الى رفع الحد الادنى لاجور عمال الاسواق ، واجبار اصحاب المحال وأصحاب الورش على الالتزام بالتأمين الطبي لمستخدميهم ، وامد

---

* Totalitarian

المقاولين الموسرين بمزيد من القروض ،ففتحوا مطاعم ضخمة ومجمعات سلعية (سوبر ماركت) ومخازن تجارية ضخمة . وبحلول العام ١٩٧٦ اصبح باستطاعة كبار رجال الاعمال ان يذهبوا الى البنوك التي تشارك الدولة في راسمالها وان يقترضوا منها بسعر حسم يبلغ ٦ ٪. اما صغار رجال الاعمال فلم يكن أمامهم خيار الا التوجه الى شركات التسليف من القطاع الخاص ليقترضوا بسعر حسم يبلغ ٢٠ — ٣٠ ٪. ولا عجب انه في اثناء الثورة كانت هذه البنوك هدفا رئيسياللتظاهرات.

ازداد هجوم النظام على الاسواق حدة في اثناء فترة التضخم الصاروخي من ١٩٧٥ الى ١٩٧٧ . ونظرا لفشل النظام في السيطرة على التضخم فانه استخدم صغار أصحاب المحال كبش محرقة رئيسي واعلن الحرب على الاسواق . وواصلت اجهزة الاعلام الطرق على الموضوعة القائلة بأن « الجشعين من تجار الاسواق » يمتصون دم المستهلكين . وتفحص حزب النهضة حسابات المحال مستخدما نحو عشرة آلاف ممن اسماهم بالمفتشين . وفي الوقت نفسه اقام « محاكم نقابية » لمعاقبة « الجشعين »، واودع السجن نحو ٨٠٠٠ من رجال الاعمال ، ونفى ٢٣ الفا آخرين من مواطنهم في المدن ، وغرم ٢٠٠ الف من أصحاب المحال والباعة المتجولين (١١) . وقد شكا احد أصحاب المحال لمراسل صحيفة **لوموند** من ان الثورة البيضاء تحولت الى ثورة حمراء وان « قبضايات الحزب » لديهم تفويض رسمي بارهاب تجار الاسواق (١٢) . وبالمثل قال صاحب محل آخر لمراسل صحيفة **نيويورك تايمز** : « لو اننا تركنا الشاه فسيدمرنا . ان البنوك تقوم بعمليات استيلاء . والمحال الضخمة تدمر حياتنا . والحكومة سوف تزيل الاسواق لتجد مكانا لاقامة مكاتب للدولة » . (١٣)

شن النظام حربا في الوقت ذاته على المؤسسة الدينية . فاعلن حزب النهضة أن الشاه ليس فقط « الزعيم السياسي » للدولة ، انما هو ايضا « المرشد الروحي » للمجتمع (١٤) . وأعلن الشاه نفسه مجيء حضارة عظيمة جديدة ، ومن أجل التعجيل بمقدمها استعاض عن التقويم الاسلامي (الهجري) بتقويم ملكي جديد ، وبالتالي تقفز بين يوم وليلة من العام ١٣٩٥ الى العام ٢٥٣٥ .ورفع البرلمان — متجاهلا قوانين الشريعة — سن الزواج للفتيات من خمس عشرة سنة الى ثماني عشرة ، وللفتيان من ثماني عشرة الى عشرين . وأصدرت وزارة العدل تعليمات الى القضاة بأن يتشددوا اكثر في تطبيق قانون حماية الاسرة الصادر في العام ١٩٦٧ ، الذى كان يهدف الى الحد

من تعدد الزوجات ومن حق الرجال في الحصول على الطلاق بسهولة . واصدرت وزارة التعليم اوامرها الى الجامعات بعدم تسجيل النساء اللاتي يضعن«الشادور» (الحجاب) . وعلاوة على هذا فان الفرق الدينية الحديثة التكوين — التي شكلت على غرار فرق محو الامية — كثفت نشاطاتها بهدف تعليم الفلاحين أن « الاسلام الحق » يختلف عن ذلك الذي يبشر به « الملات(★) الرجعيون السود » . وحسب تعبير احدى صحف المنفى التي كانت ترتبط بالمعارضة الدينية ، كان هدف هذه الفرق هو « تأميم الدين » وتحطيم « الزعماء الروحيين » (١٥).

وعندما احتج الزعماء الدينيون على اعمال تلك الفرق ، اتخذ النظام اجراءات صارمة . فاغلقت « فازية » وهي الحلقة الدراسية الدينية الرئيسية في قم ، واغتيل آية الله شمسآبادي وهو واعظ بارز في أصفهان بعد أيام قليلة من اعلانه معارضته للتقويم الجديد ،واعتقل الشيخ حسين الغفاري — وهو من آيات الله ويبلغ الستين من عمره للاشتباه في مساعدته حركة حرب العصابات ، وقد عذب حتى الموت . بالاضافة الى هذا اعتقلت مجموعة من رجال الدين البارزين لاستنكارهم حزب النهضة بوصفه بأنه حزب « لا اسلامي » و «لا دستوري» .وقد ضمت المجموعة ليس فقط عددا من رفقاء السجن السابقين ، مثل آيات الله طالقاني وزانجاني،انما ضمت أيضا كثيرا من النزلاء الجدد، مثل آية الله بهشتي وآية الله منتظري واية الله حسين قومي ، وحجة الاسلام قاني ، وحجة الاسلام لاهوتي . ولم يسبق ابدا أن كان مثل هذاالعدد الكبير من رجال الدين البارزين معا في سجن واحد .

تعززت المعارضة الدينية اكثر بفعل مشكلة اخرى — هي «المشكلة الاخلاقية» التي خلقها التحضير غير المخطط .فقد ادى التدفق الهائل لايرادات النفط الى ازدهار كبير لحركة البناء . واجتذب هذا — الى جانب الجمود الزراعي — ملايين من القرويين العاطلين الى المدن. وقفز عدد النازحين ، الذي بلغ ثلاثة ملايين شخص في الفترة من ١٩٥٦ الى ١٩٧١ ، الى اكثر من ٣٨٠ الف نازح سنويا بعد العام ١٩٧١ . ولما كان كثيرون من النازحين من الشبان غير المتزوجين وغير المهرة فان مدن التنك أفرخت مشكلات كان يمكن التنبؤ بها : جريمة ، ادمان على الخمور ، دعارة ، انحراف ، ومعدلات مرتفعة للانتحار . وقد صدمت هذه المشكلات زعماء الدين فردوا بالطريقة نفسها التي

★ الملات : جمع الملا اي رجل الدين .

يمكن ان يرد بها كثير من رجال الدين في مناطق اخرى من العالم . لقد اعلنوا ان الانحلال الخلقي يهدد المجتمع بالاخطار . وان العلاج الوحيد هو فرض القيم التقليدية واحكام الشريعة الدينية . في انكلترا القرن التاسع عشر افرخ التحضير العشوائي الحركة المشيخية *
Methodist . وفي ايران المعاصرة ساعدت المشكلة نفسها على خلق الظاهرة الخمينية .

في خطاب يحوي الكثير من المعلومات القاه بعد الثورة احمد الخميني ، نجل آية الله الخميني الذي يتمتع بنفوذ كبير ، قسم زملاءه من رجال الدين الى ثلاث مجموعات (١٦). الاولى — حسب اعتقاده — ايدت الشاه حتى النهاية لانها كانت تتلقى مساعدات سخية من الدولة. وفي تقديره ان هذه المجموعة لا تشكل الا اقلية ضئيلة . اما المجموعة الثانية فهي على النقيض من الاولى عارضت الشاه بشدة لانها كانت لديها انتقادات اساسية لسياساته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وحتى الدولية .وفي تقديره ان هذه المجموعة ايضا تشكل اقلية صغيرة. مع ذلك فان المجموعة الثالثة ، التي تشكل الاغلبية الساحقة ، ظلت صامتة حتى العام ٧٦ — ١٩٧٧ لانها لم تكن تحب الشاه ولا تبغضه بالقدر الذي يدفعها للكلام . وطبقا لرواية احمد الخميني فان الذي دفع رجال الدين الى كسر صمتهم لم يكن ادراكهم ان الشاه يدمر البلد ويبيع ايران للامبريالية الغربية ، انما هو صدمة رؤية « التحلل الخلقي » وقد طفح في الشوارع والصدمة المضاعفة التي احدثها اكتشافهم ان السلطات غير مستعدة — ان لم تكن غير قادرة — لتطهير « النجس الاجتماعي » . ولما لم تكن لديهم قنوات يستطيعون من خلالها توصيل تظلماتهم الى النظام السياسي ، فانهم انضموا — مكرهين — الى رجال الدين المعادين للحكم لشن الهجوم الاخير على الشاه .

(*) حركة دينية سائدة في البلدان التي تتحدث بالانكليزية . أسسها جون ويسلي في القرن الثامن عشر (خلافاً لما يذكره كاتب هذا المقال) وظلت في حياته (١٧٠٧ — ١٧٩١) بمثابة كنيسة بروتستانتية مستقلة . وكانت اهم سماتها التركيز على الاخلاقية والاهتمام بالمشكلات الاجتماعية . وهي تتميز من الناحية اللاهوتية بنظرة تفاؤلية تقوم على ايمان بامكان تحقيق الخلاص لكل انسان ، وتحقيق الكمال الاخلاقي .

« المترجم »

نتيجـــة

تحتاج اي دولة لكي تعيش متجاوزة أزمة اقتصادية ـــ ولا بـــد ان تواجه كل الدول عاجلا ام آجلا مثل هذه الازمة ـــ لان تكون لهـــا قاعدة اجتماعية وان تتمتع بتأييد طبقة كبيرة الى حد له مغزاه . وقـــد اخفق الشـاه ـــ على الرغممن الايراداتالنفطية الهائلة ـــ في ان يحصل على القاعدة الاجتماعية الضرورية . وهو لم يخفق فقط في كســـــب المثقفين والبروليتاريا ، انما نفذ أيضا سياسات اقتصادية ـــ اجتماعية وسعت صفوفهم بصورة جذرية دون أن تزيل معارضتهم السابقـــة . وعلاوة على هذا فانهفيالعام١٩٧٥بدأ مسارا قدر له ان يضعه فيصدام مباشر مع تجار الاسواق والمؤسسة الدينية القوية . وهكذا عندمـــــا ضربت البلد أزمة اقتصادية حادة في الفترة ٧٥ ـــ ١٩٧٧ وجد النظام نفسه معزولا ومحاصرا من جميع النواحي . وقد لخص الشاه نفسه ـــ في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٨ ـــ المأساة المضحكة لتفكك الحكم . فعندما سأله مراسل اجنبي أين هم مؤيدوه ، هز كتفيه واجـــــــاب « فتشني » (١٧) .

هوامش

(١) للاطلاع على بيان بالاحداث التي أدت مباشرة الى الثورة انظر اعداد لوموند، واشنطن بوست . وفاينانيشال تايمز من حزيران (يونيو) ١٩٧٧ الى كانون الثانـــي (ينايـــــر) ١٩٧٨ .

(٢) حول الاسباب القصيرة المدى للثورة انظر

Merip Reports, No. 69 (July - August 1978, and No .71 (October 1978).

(٣) الاحصاءات المستخدمة في هذا البحث حصلنا عليها من المصادر التالية :

F. Fesharaki, **Development of the Iranian Oil Industry**, New York, 1976; Plan and Budget Organization, **Salnameh-i Amar-i Keshvar** (Annual Statistics for the Country), Tehran, 1977; Interior Ministry, **Amar-i Omumi** (National Census), Tehran, 1957, Vol. II; A. Ashraf (Editor), **Shaksha-yi Ijtima'-i Iran** (Social Indicators of Iran), Tehran, 1976; M. Shin, «A Look at Educational Facilities in Contemporary Iran,» **Nameh-i Parsi**, Vol. VI, No. 4 (December 1957), pp. 1-50; G. Lenczowski (Editor), **Iran Under the Phalavis**, Stanford, 1978; Industrial and Minning Development Bank of Iran, **Fifteenth Annual Report**, Tehran, 1975.

4- Quoted by M. Tehranian, Iran: Communication, Alienation, Revolution,» **Intermedia,** Vol. VIII, No. 2 (March 1979), pp. 6-12.

5- International Labor Office, «Employment and Income Policies for Iran. : Appendix C,» (Unpublished report, Geneva, 1972).

6- A. Mansur (Pseudonym), «The Crisis in Iran,» **Armed Forcer Journal International,** January 1979, pp. 26-33.

7- For the role of the bazaars in contemporary Iran, see M. 'Atiqpour, **Naqsh-i Bazaar va Bazaariha dar Inqilab-i Iran** (The Role of the Bazaar and Bazaaris in the Iranian Revolution), Tehran, 1979.

8- **Washington Post,** 15 November 1978.

(٩) دفعت الى فكرة خلق حزب النهضة مجموعة من الشبان حملة درجات الدكتوراه من جامعات أميركا ، الذين كانوا ملمين للغاية بمؤلفات صمويل هنتنغتون، وخاصة نظريته القائلة بأن الوسيلة الوحيدة للحصول على الاستقرار السياسي في المجتمعات النامية هي خلق حزب حكومي منضبط يستطيع في الوقت الملائم أن يعبىء العامة . وقد اظهرت الاحداث اللاحقة أن مثل هذا الحزب — اذا كان يفتقر الى التأييد الاجتماعي — يؤدي تماما الى ما كان يفترض انه يحول دونه ، اي الى مقررة سياسية .

10- The Shah, «Speech to the Nation,» **Keyhan International,** 8 March 1975.

11- J. Kendell. «The Tehran Bazaar,» **New York Times,** 29 June 1970.

12- E. Rouleau, «Iran: Myth and Reality,» **The Guardian,** 31 October 1976.

13- J. Kendell, «Iran's Students and Merchants form an Unlikely Alliance,» **New York Times,** 7 November 1979.

14- Anonymous, «Reflections on the Revolution,» **Keyhan International,** 17 November 1976.

15- Anonymous, «Nationalization of Religion,» **Mujahed,** Vol. III, No. 29 (March 1975), pp. 6-10.

16- A. Khomeini, «Don't Treat the Clergy as if it was One Group,» **Ittila'at,** 23 September 1979.

17- N. Gage, Iran: «Making of a Revolution,» **New York Times,** 17 December 1978.

القوى السياسية في الثورة الايرانية

يرفند آبرهميان

ان الثورة الايرانية الاخيرة هي حركة عفوية لجماهير المدن اكثر منها انتفاضة مخططة يقودها حزب سياسي منظم . فقد ابتدأت في أواخر عام ١٩٧٧ باحتجاج عدد من اعضاء الانتلجنتسيا الايرانية — خاصة المحامين والقضاة والكتاب وأساتذة الجامعات ، والناشرين والصحفيين ،والطلبة الجامعيين — ضد فقدان الحرية السياسية وانتهاك حقوق الانسان . وطالب هؤلاء الشاه باحترام قوانين دستور عام ١٩٠٥ — ١٩٠٩ . وتصاعدت الاحداث بشكل درامي في اوائل عام ١٩٧٨ ، عندما نزل رجال الدين والبورجوازية التجارية الصغيرة — خاصة أصحاب الحوانيت وصغار التجار، والحرفيين التقليديين — الى الشارع ، ونظموا اضرابات شاملة في البازار مطالبين بالغاء تحكم الحكومة بالاسعار ، والنقابات والمعاهد الدينية . كما طالبوا بالعودة الفورية لآية الله الخميني ، أحد رجال الدين البارزين المنفي منذ عام ١٩٦٣ بسبب ادانته العلنية للنظام .

وتصاعدت الثورة اكثر فأكثر في أواخر عام ١٩٧٨ عندما أضرب الموظفون الحكوميون ، وموظفو البنوك ، والمدرسون ، وموظفو الجمارك ، بالاضافة الى قطاعات هامة جدا من البروليتاريا الصناعية، خاصة عمال النفط والغزل والنسيج والبناء ، فأوقفوا بذلك حركة الاقتصاد كلية . وقد احتج هؤلاء المضربون ليس على التضخم اللولبي، والبطالة المتصاعدة ، والالغاء الاخير للاعانات السنوية فحسب ، وبل على رفض النظام السماح بعودة الخميني . كما رفضوا قانون الاحكام العرفية ، وطالبوا بتطبيق القوانين الدستورية والسماح للمستخدمين والاجراء بالمشاركة في تشغيل المصانع والمكاتب الحكومية، ومعاقبة المسؤولين عن المجازر الوحشية التي اقترفت بحق المتظاهرين المسالمين خلال الاشهر السابقة . ومع الوقت انهار نظام الشاه في شهر شباط من عام ١٩٧٩ ، في الوقت الذي خسرت وافتقدت الحكومة فيه كل مصادر الدخل قاطبة ، وقتل أكثر من ١٠ الاف متظاهر، وهزت الاضرابات العامة كل مدينة في البلد . وكانت الاجتماعات

● نشر هذا البحث في احد التقارير الصادرة عن نشرة MERIP ، ١٩٧٩ .

الجماهيرية المطالبة بالغاء الملكية تستقطب حوالي مليوني متظاهر ومحتج في مدينة طهران بمفردها .

بالرغم من أن القوى الاجتماعية لا القوى السياسية هي التي صنعت الثورة الايرانية ، الا أن الاشهر الثلاثة التي أعقبت سقوط الشاه قد شهدت الظهور السريع للعديد من التنظيمات السياسية. وبالنتيجة ، لم تعد الانقسامات في ايران ، مجرد مواجهة بين الشاه والشعب ، بل واصبحت ساحة معقدة مؤلفة من الكثير من القوى السياسية المنفصلة والمتنافسة غالبا ، لكل منها ايديولوجيته وقاعدته الاجتماعية ورؤيته الخاصة للمستقبل . ان هدف هذه المقالة هو تقييم ومعاينة هذه القوى السياسية ، وتتبع أصولها التاريخية ، ووصف قواعدها الاجتماعية ، وتحديد قواها النسبية في مراكز القوة الثلاثة التي ظهرت في ايران منذ الثورة : الوزارة التي تقود بيروقراطية الدولة ، اللجان التي تسيطر على الميليشيا الدينية ، ومجالس العمال التي أنشئت في المصانع والمكاتب الحكومية في العام الماضي .

خلفية تاريخية (١٩٤٩ — ١٩٥٣)

تعود جذور ثورة ١٩٧٧ — ١٩٧٨ الى عام ١٩٤٩ حيث بدأ الشاه ، آنذاك ، العملية الطويلة الهادفة الى انشاء دولة أوتوقراطية تخمد كل أنواع المعارضة بما فيها المعارضة الارستقراطية والبورجوازية الليبرالية ، وتسعى لاعادة تكوين المجتمع على صورته — أو بالاحرى ، على صورة والده الدكتاتور الراحل .

وفي الفترة التي أعقبت غزو الحلفاء لايران عام ١٩٤١ ، وتخلي رضا شاه عن العرش ، أظهر الشاه الجديد لينا سياسيا . فقد احتفظ بسيطرته على الجيش ولكنه سمح للبرلمان بانتخاب وزراء الحكومة ، وللاحزاب السياسية ، بمن فيها حزب توده الماركسي ، بتنظيم نقابات البازار ، والجمعيات الحرفية ، والاتحادات النقابية . الا انه بحدود أوائل عام ١٩٤٩ ، كان الشاه ، حسب معلومات وزارة الخارجية الاميركية ، يسعى لانتهاز فرصة ما لتحرير نفسه من القيود الدستورية وفرض نفسه ، بالتالي ، كحاكم ايران غير المنازع (١) . وسنحت له الفرصة تلقائيا عام ١٩٤٩ عندما حاول احد المهاجمين المنفردين اغتياله انذاك . وبالرغم من عدم وجود اي دليل يربط بين المهاجم واي تنظيم سياسي ، استغل الشاه الحادثة لقمع المعارضة الداخلية . فقد أعلن الاحكام العرفية ، ومنع

صدور كل الجرائد التي تنتقد عائلته ، وسجن العديد من المعارضين السياسيين ، بمن فيهم مصدق ، وحرم حزب توده قانونيا ، واعتقل عددا من مؤسسيه ، وحكم بالموت غيابيا على الكثيرين من قادته الذين اختفوا عن الانظار وبداوا العمل السري . وعقد جمعية تأسيسية صوتت بالاجماع لصالح حق الشاه بحل البرلمان عندما يشاء . كما انشأ مجلسا للشيوخ يحق للامبراطور تعيين نصف أعضائه . وصوتت هذه الجمعية لصالح عودة اراضي العائلة المالكة التي كان رضا شاه قد استولى عليها وصادرتها الحكومة عام ١٩٤١ . وشكت المعارضة معتبرة أن الشاه قد حول محاولة الاغتيال الى انقلاب ملكي .

كان لا بد لانتكاسة عام ١٩٤٩ أن تولد رد فعل عام . ففي الاشهر التالية تحالفت مجموعة من السياسيين الليبراليين بزعامة مصدق، ومجموعة من القادة الدينيين ، آية الله كشاني خاصة ، يمثلون غالبا طبقة البازار الوسطى ومجموعة من الاحزاب العلمانية ، والقومية ، والاشتراكية الديموقراطية ، المعبرة بشكل اساسي عن مصالح أفراد الطبقة الوسطى ذوي الرواتب المحددة ، تحالف هؤلاء وكونوا الجبهة الوطنية ، وطالبوا بانتخابات نزيهة وبصحافة حرة وانهاء قانون الاحكام العرفية وتأميم الصناعة النفطية التي يملكها الانجليز . ويعتبر المطلب الاخير اهم هذه المطالب قاطبة . وبحدود عام ١٩٥٠ ، كانت الجبهة الوطنية تقيم مهرجانات جماهيرية وتستقطب جماهير واسعة . وجاء الكثير من الانصار من أفراد الطبقة الوسطى ذوي الرواتب ، ومن الطلبة الجامعيين بشكل خاص ، والمدرسين ، واساتذة الجامعات ، والعمال ذوي الياقات البيض ، وقطاعات اخرى من الانتلجنتسيا الحديثة . وجاء المصدر الاخر من مصادر الدعم الجماهيري من طبقة البازار الوسطى ، خاصة أصحاب المشاغل، والحوانيت ، وصغار التجار ، ورجال الدين ، وقطاعات اخرى من البورجوازية الصغيرة التقليدية . وهكذا ، جمعت الجبهة الوطنية قوتين مختلفتين : الانتلجنتسيا العلمانية والبورجوازية الصغيرة الدينية الاتجاه .

قام الشاه ، الذي خاف من المظاهرات الجماهيرية ، والاضراب العام الشامل في الصناعة النفطية لاحقا ، والذي نظمه حزب توده الذي عاد للظهور مجددا ، بتعيين مصدق في شهر أيار (مايو) من عام ١٩٥١ ، رئيسا للوزراء « وكصمام أمان » في وجه النقمة الجماهيرية.

يقول احد الشيوخ الملكيين : « لقد وصلت التوترات الطبقية الى درجة تهدد البنية الكلية للمجتمع ... ان الحل الوحيد لخلاص ايران انما يكمن في توحيد كل الطبقات ضد العدو الخارجي » (٢) . وصرح الشاه نفسه في الاذاعة الوطنية قائلا : « ان العداوات الطبقية هي احدى مآسي ايران الكبرى . ان هذه الصراعات تسمم عقولنا وحياتنا السياسية . ان الطريقة الوحيدة للتخفيف منها هي في تطبيق القوانين الحقيقية للاسلام . واذا ما عشنا كمسلمين حقيقيين فان الصراع الطبقي سيفسح المجال امام انسجام طبقي ووحدة قومية » (٣) .اما مجلة التايمز اللندنية فقد قيمت الموقف بالكلمات التالية : « ان التوتر الداخلي في المجتمع الفارسي — النابعة من غباء وجشع وفقدان القدرة على التقدير لدى الطبقة الحاكمة — قد وصلت الى درجة لا يمكن مواجهتها الا بتصعيد الهجوم على كبش المحرقة الخارجي ، الذي هو بريطانيا بالتحديد » (٤) .

ولم يكن مصدق ليلعب دور صمام الامان فقط . فبعد ان امم الصناعة النفطية ، ركز انتباهه على الشاه ، واتهم البلاط بالتدخل بالسياسة . وفي شهر تموز (يوليو) من عام ١٩٥٢ ، طالب بالسيطرة المدنية على القوات المسلحة . ولما رفض الشاه الاذعان لذلك ، توجه مصدق للشعب مباشرة . واستجاب عشرات الالوف من المواطنين بقيادة الجبهة الوطنية وحزب توده للنداء ، واندفعوا الى الشارع ليتخلى بعدها الشاه عن سيطرته على الجيش بعد ثلاثة ايام من سفك الدماء . ولاول مرة في التاريخ الايراني يستطيع مدني كسر الخطوط المباشرة بين سلالة بهلوي وهيئة الضباط .

وبعد تكلله بالنصر في شهر تموز (يوليو) من عام ١٩٥٢ ،تابع مصدق مهاجمة المركب الملكي العسكري بمجمله . فأعاد الاراضي المسروقة الى الدولة ، وحول جزءا كبيرا من ميزانية البلاط الى وزارة الصحة ، ومنع الشاه من الاتصال بالدبلوماسيين الاجانب ، واجبر ، في النهاية ، اعضاء العائلة المالكة على الهرب من البلاد. واعلن مصدق بأن البلد لن يشتري مستقبلا سوى الاسلحة الدفاعية. لذا ، خفض الميزانية العسكرية ١٥ بالمئة ، وخفض القوات بنسبة ٥٠ بالمئة ، وحول ١٥ الفا من المشاة الى الشرطة الملكية الادنى مرتبة، وطهر الجيش من ١٣٠ من كبار الضباط ، وانشأ اللجان النيابية للتحقيق في الفساد بين قادة الجيش ، وللتدقيق في مؤهلات كبار الضباط ، وليبرهن على ان قوانين الدستور انما قصدت اعتبار

الامبراطور القائد العام للجيش اسميا فقط . ولما اقتنع كبار الضباط انه لا وجود للجيش بدون الشاه ، شكلوا لجنة سرية لتخليص الامة من « الجمهوريتانية » ، واقاموا الاتصالات ، لا مع الاستخبارات الاميركية فحسب ، بل مع القادة الدينيين المحافظين ايضا الذين خافوا من أن يكون مصدق يمهد الطريق أمام ثورة اشتراكية .

الا أن انتصارات مصدق كانت مضللة ، اذ انه حالما اخرج الشاه من الحلبة السياسية وطرد البريطانيين خارج ايران ، تخلى عن الهدفين الاساسيين اللذين وحدا انصاره ، وبذا كشف بغباء عن الفروقات الايديولوجية بين الاجنحة العلمانية والدينية داخل الجبهة الوطنية . وتمحورت هذه الخلافات والفروقات حول ست مسائل جوهرية : تأميم الشركات الكبيرة (شركات النقل والهاتف خاصة)، وتوسيع حق الانتخاب ليشمل المراة ، ومسودة مشروع قانون الاصلاح الزراعي ، وتخفيف المراقبة على بيع المشروبات الكحولية ، وتعيين مثقفين معادين للدين كوزراء للعدل والتربية ، واقامة تحالف ، ولو ضمني ، مع حزب توده . وهكذا انسحب الجناح الديني ، بقيادة كشاني ، من الجبهة الوطنية متهما مصدق « بخيانة الاسلام » (٥) وفرض « ديكتاتورية اشتراكية » (٦) على ايران ، مما اضعف بالضرورة دعم البورجوازية الصغيرة لمصدق . وقد بدا ذلك واضحا في شهر تموز (يوليو) من عام ١٩٥٣ ، في الاحتفال بالذكرى السنوية لانتفاضة عام ١٩٥٢ ، عندما ضم مهرجان الجبهة الوطنية ١٠ الاف عنصر فقط ، بينما جذبت مظاهرة حزب توده بمفرده أكثر من ١٠٠ الف عنصر (٧) . هذان الاجتماعان ، اقنعا وكالة الاستخبارات الاميركية بأنه يجب اسقاط مصدق لمنع حزب توده من الاستيلاء على السلطة تدريجيا .

وبتشجيع من انشقاق الجبهة الوطنية ، وبتمويل من وكالة الاستخبارات الاميركية ، بدأ ضباط الجيش بالهجوم . وفي الوقت الذي احتلت فيه القوات مكاتب الحكومة وهاجمت ٣٧ دبابة مقر رئيس الوزراء ، قامت مجموعة من قطاع الطرق ، تمولها الاستخبارات الاميركية وتنتسب الى القادة الدينيين الرجعيين ، بحشد الجماهير في منطقة « حي الضوء الاحمر » * وسارت عبر شوارع طهران هادفة تقديم دعم اعلامي ملموس للانقلاب العسكري . وبالطبع ،

* منطقة تكثر فيها المواخير .

استعملت الجرائد الاجنبية صور هذا الجمهور لخلق الانطباع بأن الشاه قد عاد « بثورة شعبية » ضد رئيس وزراء « يساري وغير شعبي » .

القمع (١٩٥٣ — ١٩٧٧)

عاد الشاه الى ايران منتصرا ، وتابع خطاه لبناء الديكتاتورية التي خطط دائما لها . وبدعم من الولايات المتحدة واسرائيل ، بنى جهاز شرطة سرية ، سماه السافاك . وبمساعدة من العائدات النفطية المتزايدة بسرعة ، استطاع ان يبني لنفسه احدى اكبر المؤسسات العسكرية في العالم . وارتفع عدد القوات المسلحة من ١٢٠ الفا عام ١٩٥٣ ، الى اكثر من ٤٠٠ الف عام ١٩٧٦ ، لتصبح خامس آلية عسكرية عالمية من حيث الكبر ، كما زادت الميزانية العسكرية السنوية من ٦٠ مليون دولار الى اكثر من بليوني دولار عام ١٩٧٦، متكيفة مع الاسعار الثابتة .

وارتفعت قيمة الاسلحة المشتراة من الخارج والتي لم تدخل في ارقام الميزانية ، من مجرد ١٠ مليون دولار بين عامي ١٩٤١ و ١٩٥٣ الى ٧٠٠ مليون دولار بين عامي ١٩٥٣ و ١٩٦٦ ، ومن ٢ بليون دولار بين عامي ١٩٦٥ و ١٩٧٢ الى حوالي ١٧ بليون دولار بين عامي ١٩٧٢ و ١٩٧٦ . وبحدود عام ١٩٧٦ ، لم تصبح ايران الزبون الاول لصناع الاسلحة الاميركيين والبريطانيين فحسب ، وبل المشتري لاحدث انواع الاسلحة التي تنتجها التكنولوجيا الغربية .

لم يكن اهتمام الشاه بالمؤسسة العسكرية من زاوية الميزانية فحسب ، فقد أبدى اهتماما شخصيا بمصالح الضباط ، خاصة تدريبهم ومعاشاتهم وسفرهم للخارج وترقياتهم وفوائدهم الاضافية ومنازلهم وتعاونياتهم ، واوسمتهم . وقد حصل بعض كبار الضباط على الكثير من الميداليات بحيث أصبحوا يشبهون شجرة ميلاد بالغة التزيين . لقد بجل ومجد ضباط الجيش واعتبرهم بمثابة النخبة الحقيقية للبلد والمخلص الحقيقي للامة عام ١٩٥٣ . كما انه وسع دائرة اهتمامه لتضم المراتب الادنى أيضا . وبحدود عام ١٩٧٧ ، كان باستطاعة النفر العسكري ان يكسب حوالي ٦٠٠ دولار شهريا ، بينما لم يكن بمقدور عامل غير ماهر ان يكسب اكثر من ٣٤٠ دولارا . وهكذا حكم الشاه أولا واساسا كقائد عام للقوات المسلحة ، وكرئيس للدولة بالدرجة الثانية . وعبر بكلماته الخاصة انه ، بسبب

« اخلاصه » العميق للمؤسسة العسكرية ، لا يعتبر نفسه لويس الرابع عشر ، اي الدولة ، بل الجيش ، في تقليد رضا شاه (٨) .

وهكذا ، مسلحا بالمؤسسة العسكرية والبوليس السري ، استطاع الشاه ان يفكك المعارضة . وبعد انقلاب عام ١٩٥٣ مباشرة، حرم الشاه الجبهة الوطنية واعتقل معظم قادتها ، بمن فيهم مصدق، واعدم وزير خارجيته لانه دعا الى اقامة جمهورية . وبعد أن تقضى ثلاث سنوات في السجن ، وضع مصدق قيد الاقامة الجبرية حيث توفي عام ١٩٦٧ .

الا أن حزب توده ، في النهاية ، تحمل الوطأة العظمى من القمع. فاعتقل اكثر من ٥٠٠٠ عضو من الحزب ، واعدم اربعون عضوا ومات اربعة عشر غيرهم تحت التعذيب ، وحكم على اكثر من مائتي عضو بالسجن المؤبد . وبحدود أواخر الخمسينات فقد كل من حزب توده والجبهة الوطنية تنظيماتهما القاعدية ، وبخاصة فروع الريف، والاتحادات النقابية ، والجمعيات المهنية ، وبقيا يعملان ضمن خلايا سرية مبعثرة وضمن فروع قليلة في أوروبا ، يصدران الجرائد ، ويشكلان المؤتمرات داخل اتحاد طلبة ايران . لقد خلق تحطيم هذه التنظيمات الجماهيرية فراغا هائلا ملأه رجال الدين بين عامي ١٩٧٧ـ ١٩٧٩ .

وزاد في اضعاف كل من حزب توده والجبهة الوطنية الانشقاقات التي حصلت في أوائل الستينات . فبانفجار النزاع السوفياتي الصيني عام ١٩٦٣ ، انشق ثلاثة من قادة حزب توده واسسوا تنظيما اخر يسمى منظمة الماركسيين ـ اللينينيين . وفي الوقت ذاته أسس بعض الشبان في الحزب التنظيم الثوري لحزب توده . وتحالف التنظيم الاول مع البانيا بعد وفاة ماوتسي تونغ بينما استمر التنظيم الثاني في دعم الصين .

الا أن اهم انشقاق حصل في الجبهة الوطنية . ففي عام ١٩٦١ ، شعرت مجموعة من التكنوقراطيين ذوي الاتجاه الديني بانزعاج من نقد زملائهم العلمانيين للدين ورفض رجال الدين القبول بالاصلاح الاجتماعي . فقرروا ترك الجبهة الوطنية وانشأوا تنظيما سمي حركة تحرير ايران بقيادة المهندس مهدي بازرجان ، احد المساندين المخلصين لمصدق . وكان هذا التنظيم الجديد يأمل بأن يجمع

بين الشيعية الايرانية والاشتراكية الاوروبية وبان يخلق ايديولوجية تجذب أصحاب الاتجاه الديني والانتلجنتسيا القومية المنحى .

وباختصار ، كان هدف هؤلاء انشاء دين علماني يقبله رجال الدين ، ذوي المراتب الدنيا خاصة ، والطبقة الوسطى ذات الثقافة العصرية ، والانتلجنتسيا الساخطة منها بشكل خاص .

توصل هؤلاء الى هدفهم هذا في منتصف الستينات بظهور مثقف ديناميكي شاب يدعى علي شريعتي . انتمى شريعتي الى عائلة دينية ، وشارك في الحملة الهادفة الى تاميم شركة النفط، وانضم الى حركة تحرير ايران بعد انشائها مباشرة . واطلع بشكل واسع على النظريات الثورية المعاصرة وهو يدرس علم الاجتماع في جامعة السوربون الفرنسية . وتأثر بفرانز فانون خاصة . وعندما عاد الى ايران ، افتتح مدرسة دينية والقى مواعظ غاية في التأثير حول اعادة تفسير التشيع كي يصبح ايديولوجية ثورية غير مساومة للتحرر القومي من الامبريالية ، وللتغيير الاجتماعي الجذري ضد الطبقة الحاكمة ، وللانتفاضة العنيفة ضد الملكية . وبالرغم من استعارات شريعتي الواسعة من الماركسية ، الا انه اختلف عن اليسار الايراني بأمور جوهرية اربعة : **اولا** ، اعتبر شريعتي التشيع بمثابة جوهر الثقافة الايرانية . **ثانيا** ، اعتبر الماركسية التهديد الايديولوجي الاول لنظرته الخاصة للعالم . واعتبر ، **ثالثا** ، ان التاريخ لا تصنعه الطبقات بل « الابطال العظام » كالرسول ، والامام علي والقائد المستقبلي للثورة الايرانية . **رابعا** ، لم يدع الى الديموقراطية الاجتماعية ولا الى دكتاتورية البروليتاريا ، بل الى ديكتاتورية الانتلجنتسيا الدينية الاتجاه (٩) .

« لا يمكن للديموقراطية ان تكون مثمرة في مجتمع بحاجة الى تغيير ثوري سريع . ان مبدأ الديموقراطية مناقض ومغاير لمبدا التغير والتقدم الثوريين ... ان القيادة السياسية المعتمدة على ايديولوجيا جديدة مناقضة لفكر ولتقليد ذاك المجتمع ، لا يمكن ان تختار وتدعم من قبل ذلك المجتمع . ان القيادة الثورية لا تتوافق والديمقراطية » .

سجن علي شريعتي وعذب بوحشية ، ثم أطلق سراحه عام ١٩٧٦ بطلب من الحكومة الجزائرية وغادر الى أوروبا حيث توفي بنوبة قلبية عام ١٩٧٧ . وبالرغم من انه مات على اعتاب الازمة الايرانية الحالية ، الا انه يعتبر احد المنظرين الايديولوجيين للثورة.

فقد وجدت افكاره ارضا خصبة بين الفئات الدنيا الساخطة جدا من الطبقة الوسطى ، خاصة بين المتخرجين الجامعيين الشبان وبين المراتب الدنيا من رجال الدين .

من عام ١٩٥٣ حتى عام ١٩٦٣ ، ركز جهاز القمع التابع للدولة اهتمامه على الانتلجنتسيا الجذرية والطبقة العاملة المدينية. وبعد عام ١٩٦٣ وسع هذا الجهاز عمله ليشمل البورجوازية الصغيرة ، خاصة رجال الدين ونقابات البازار . حصل هذا التوسع القمعي لان الشاه ، باعلانه ما يسمى بثورته البيضاء هدد بمصادرة الملكيات الخاصة ، بما فيها الاوقاف الدينية . كما هدد بمنح النسوة حق الانتخاب .

ومن دون ان يشير على الاطلاق الى هذين الامرين ، رفع آية الله الخميني ، احد السلطات القيادية الشيعية الستة ، راية الثورة عام ١٩٦٣ باعلانه ان الشاه قد باع البلد للامبريالية الغربية ومنح المستشارين العسكريين الاميركيين الحصانة القانونية . ولما اغلقت اسواق البازار ابوابها في طول البلد وعرضها دعما للخميني ، هاجمت القوات المسلحة المتظاهرين المسالمين وقتلت الالاف منهم في طهران وحدها . لقد أعلن الشاه الحرب على البورجوازية الصغيرة ، الطبقة التي ساعدته على البقاء عام ١٩٥٣ . وفي السنوات التي تلت ، نفت الحكومة آية الله الخميني خارج ايران ، وأمرت دوريا، بهجمات وحشية على طلاب المعهد الديني في قم ، ووسعت مراقبة السافاك على البازارات ، وقوضت الاستقلال التقليدي للنقابات الحرفية والتجارية ، وشجعت الشركات الواسعة ، كالمخازن الكبرى، على حساب أصحاب الحوانيت الصغيرة ، ومولت البنوك الحديثة التي اعطت قروضا مالية لاصحاب المشاريع الاغنياء ، وليس لرجال الاعمال الصغار ، وفرضت مراقبة الاسعار على أسواق البازار. والانكى من ذلك كله انها جعلت صغار التجار وأصحاب الحوانيت الخاضعين لضغوط شديدة الغنمة السوداء وحملتهم مسؤولية التضخم المتفشي والذي ضرب ايران من عام ١٩٧٣ حتى عام ١٩٧٧ .

اقتنع القمع البربري في الستينات ، مترافقا مع الانتفاضات المسلحة الناجحة في كوبا والجزائر وفيتنام ، بعض افراد الانتلجنتسيا الجذريين بأن الطريق الوحيد لتحطيم الدولة البوليسية هو بتبني اسلوب حرب العصابات . من اهم المجموعات المسلحة التي ظهرت

في ايران نذكر « فدائيي خلق » وتنظيم « مجاهدي خلق » . تألف التنظيم الاول عام ١٩٧١ من مجموعة من الشبان المنشقين عن حزب توده وعن الجبهة الوطنية ، والذين اعتبروا ان هزائم عامي ١٩٥٣ و ١٩٦٣ قد اظهرت انه لا يمكن للنضال السياسي أن يهزم الدولة البورجوازية الكومبرادورية من دون الكفاح المسلح . ولما كان هذا التنظيم ماركسيا نضاليا ، فقد بشر بالصراع الطبقي ضد الامبريالية وضد « الدولة الفاشية » للشاه . ومنذ بداية حملته المسلحة ، فقد تنظيم فدائيي خلق ، اضافة الى فدائيين ماركسيين اخرين ، اكثر من ١٥٠ رجلا اما رميا بالرصاص ، أو تحت التعذيب أو خلال الاشتباكات المسلحة مع رجال الشرطة . أما التنظيم الفدائي الاخر ، « المجاهدين » ، فقد تألف عام ١٩٧٢ من منشقين عن حركة تحرير ايران . وهم ايضا ، اعتبروا ، بان مجازر ١٩٦٣ قد استلزمت قيام الكفاح المسلح . ولما كانوا مسلمين اوفياء ، يحلل المجاهدون السياسة لا من المنظور الطبقي بل من منظور النضال القومي ـــ الديني ضد كل أشكال النفوذ الاجنبي ، بما في ذلك النفوذ الماركسي . الا أنه في عام ١٩٧٥ ، انشق المجاهدون بعنف الى جناحين متنافسين . بقي الجناح الاول وفيا للاسلام ، خاصة لتفسير شريعتي للتشيع ، أما الجناح الآخر ، الذي انتهى في النهاية ، فقد رفض الاسلام وتبنى المفهوم الماوي للماركسية . لقد قتل النظام أكثر من ٢٠٠ عضو ينتمون الى جناحي «المجاهدين» . وفي الحقيقة ، ولاسباب يجهلها المراقبون الاجانب ، كان لايران بين عام ١٩٧١ و ١٩٧٧ احد اسوأ السجلات حول عدد الاعدامات السرية ، وعدد الوفيات تحت التعذيب والقتل في الشوارع . وانتمى أكثر من ٩٠ بالمئة من الضحايا الى الانتلجنتسيا الايرانية ، من المدرسين ، و المهندسين وموظفي المكاتب ، وبالطبع ، من طلبة الجامعات والمدارس الثانوية .

عودة ظهور المعارضة (١٩٧٧ ـــ ١٩٧٩)

هزت الانتفاضات الجماهيرية (١٩٧٧ ـــ ١٩٧٩) الدكتاتورية وسمحت ، بالتالي ، للتنظيمات المعارضة بالعودة مجددا للنضال العلني. وبالرغم من أن الانتفاضات هذه كانت التعبير العفوي الكاسح للجماهير الساخطة ، وبالرغم من ان آية الله الخميني ، الرمز القيادي للثورة، قد تحدث قصدا بتعابير غامضة عن «العدالة الاجتماعية» في محاولة لعدم ابعاد اي من القوى الاجتماعية المختلفة الناشطة في الثورة ، وبالرغم

من ان الموقف يبقى غاية في الميوعة ولا يمكن التنبؤ به فانه بامكاننا أن نحدد ست نزعات متمايزة :

١ ـ **الرجعيات الدينية** : جاءت هذه بشكل ساحق من المجموعة الدينية الدنيا التي نظمت مظاهرات البازار عام ١٩٧٨ ، وتسيطر على كثير من اللجان التي ظهرت في كل انحاء البلاد . ولدى هذه اللجان المسلحة بالميليشيات المحلية ، التي يتألف معظم افرادها من شبان البازار والعمال العاطلين عن العمل ، القدرة على فرض ارادتها على السكان . فقد كانت قادرة على تحديد أسعار المواد الغذائية ، وتفتيش المنازل ، واعتقال مسؤولي العهد البائد ، وفرض العقوبات الجسدية على كل من ينتهك القوانين والنظم القرآنية ، واعدام كل من ينتهك القوانين الجنسية بالاضافة الى اعدام افراد المراتب العليا من سلالة بهلوي . ولدى هذه الرجعيات الدينية قناعة بأن معظم شرور المجتمع المعاصر ، خاصة تعاطي المسكرات وانفراط العلاقات العائلية، والبطالة ، وفقدان الانضباط عند الشباب ، انما تعود لفشل الحكومة في تطبيق القوانين القرآنية . لذا ، تأمل هذه الرجعيات باستبدال المحاكم العلمانية « المتساهلة » بمحاكمها الاسلامية « الحقيقية » ، وباعداد دستور جديد يعتمد على المفاهيم والتقاليد الاسلامية «الحقة». وتعارض هذه الرجعيات التعددية الديموقراطية ، والمساواة بين الجنسين . وتعتبر حق الاستئناف القضائي مفهوما غربيا «منحطا» . كما انها لا تثق برجال التكنوقراط ذوي الثقافة المعاصرة وتعتبر هؤلاء « واسعي العلم » ذوي تأثير غربي .

بالرغم من أن الخميني حرص في منفاه في باريس على عدم استبعاد اي من المجموعات الاخرى من خلال عدم ربط نفسه بهذه الرجعيات الدينية تماما ، الا انه تقرب منها أكثر فأكثر منذ سقوط الشاه . فقد عين معظم هذه العناصر الرجعية في المجلس الثوري وفي اللجنة الثورية الإسلامية في طهران والتي تراقب اللجان المحلية . كما انه شجب علنا المجموعات الاخرى التي حاولت تنظيم العمال والمستخدمين العاطلين عن العمل واتهمها بانها من « عملاء للشاه » . اضف الى ذلك مساندته المطلقة للجان المحلية الساعية الى فرض القوانين القرآنية . هذا علاوة عن أنه ، في الاستفتاء على الغاء الملكية ، انكر حق الناخبين في الاختيار بين الجمهورية الاسلامية والجمهورية الديموقراطية الاسلامية على اساس ان الديموقراطية تعبير

غربي .

٢ ــ **المحافظون الدينيون** : بالرغم من المشاركة الكلية لهذه المجموعة في الثورة السياسية ضد الشاه ، الا انه لم يكن لديها اية رغبة في قيام ثورة جذرية ضد البنى الاجتماعية او المؤسسات القائمة. ويعتبر آية الله شريعتمداري الناطق الرسمي لهذه المجموعة ، وهو الوجه القيادي في مدينة قم قبل رجوع الخميني ، وما زال البعض يعتبره المنظر القيادي في ايران ، خاصة مواطنوه في مقاطعة اذربيجان. وبالرغم من ان شريعتمداري يشجع فرض بعض القوانين القرآنية ، الا انه يعارض قيام ثيوقراطية ، ويعتبر انه يجب ان يكون لكل المجموعات، بما فيها اليسار ، الحق في المشاركة بديموقراطية دستورية . وقد دخل في نزاع علني مع الخميني بشأن الاستفتاء وصرح بأن للجمهور الحق في الاختيار بين جمهورية اسلامية او جمهورية اسلامية ديموقراطية . وهدد بترك قم والذهاب الى اذربيجان اذا ما استمرت الرجعيات الدينية بانتهاك حقوق الانسان . ويجد شريعتمداري معظم انصاره بين صفوف الفئات الدينية العليا . وبما انه قد تم استبعادهم من اللجان الهامة، الف انصار شريعتمداري حزب الشعب الجمهوري الاسلامي .

٣ ــ **المصلحون الدينيون** : ينتظم هؤلاء في حركة تحرير ايران ، ويطالبون بالتحولات الاجتماعية التدريجية وتحطيم نظام بهلوي . وتسيطر هذه المجموعة على ستوزارات بزعامةمهديبازرجان ،وتتمتع بتأييد ملحوظ بين التكنوقراطيين ذوي الثقافة الغربية . وبعكس الرجعيات الدينية ، تسعى هذه المجموعة الى لجم اللجان . وتميل نحو دستور على النسق الغربي ، ووضع الجهاز القضائي بيد القضاة والمحامين ذوي الثقافة المعاصرة واعادة بناء آلية الدولة ، وخاصة الجيش ذي المعنويات المنهارة . وتتمتع حركة تحرير ايران ، بالاضافة الى الوزراء الستة ، بدعم آية الله طالقاني العنصر القيادي الديني في طهران . كان طالقاني معارضا عنيدا للشاه منذ أوائل الخمسينات. وقضى عدة سنوات في السجن حيث عذب ،وقاد المظاهرات الجماهيرية في طهران عام ١٩٧٨ . وبالرغم من كونه زعيما دينيا ، يجد طالقاني انصاره لا بين رجال الدين وتجار البازار ، بل بين الموظفين المدنيين والمثقفين وطلبة الجامعات . ومنذ شهر شباط اختلف غالبا مع الخميني مصرحا بأن اللجان تنتهك « حقوق الانسان » بما فيها حق النسوة في

عدم ارتداء الشادور الطويل ، ومحذرا بأن هناك خطرا حقيقيا من أن يتم استبدال استبداد الشاه باستبداد جديد (١٠) . ويعتبر طالقاني طائرا يغرد خارج سربه بين رجال الدين ، اذ انه تحدث ، منذ اوائل الخمسينات ، عن الحاجة الى الجمع بين الشيعية والاشتراكية .

٤ — **الراديكاليون الدينيون** : يتودهم فدائيو « المجاهدين »، ويطالبون بثورة اجتماعية راديكالية . ان هذه المجموعة المعادية للراسمالية والامبريالية ، والتقليدية ، ورجال الدين أحيانا ، تطمح الى خلق أمة مستقلة جديدة يمكن أن تستعير تكنولوجيا من الغرب، وتبقى، بالمقابل،مخلصة لروح التشيع الثورية الاولى . وحصل المجاهدون على كثير من الدعم من طلبة الجامعات ، خاصة من ابناء العائلات المتدينة الناطقة بالفارسية . وفي حومة الثورة ، ساند المجاهدون بقوة آية الله الخميني حتى انهم نادوا به امامهم الخاص . الا انه منذ شباط (فبراير) غالبا ما وجدوا انفسهم في نزاع مع اللجان وبالتالي فان دعمهم للخميني قد فتر جدا . هذا بالاضافة الى انهم انتقدوا بازرجان في الاسابيع الاولى التي تلت الثورة ، لانه لم يحل الجيش بأكمله ويخلق جيشا شعبيا جديدا . الا انهم قرروا في شهر نيسان (ابريل) مساندة بازرجان في جهوده الرامية الى الحد من سلطة اللجان .

٥ — **المصلحون العلمانيون** : يشجع هؤلاء ، بقيادة الجبهة الوطنية ، قيام دستور ديموقراطي حديث ، ويخافون جدا من قيام ثيوقراطية دوغمائية . كما وأن ذكرياتهم عن تجارب عام ١٩٥٢ — ١٩٥٣ ، تجعلهم لا يثقون بمعظم رجال الدين . (١١) وبالرغم من ان غالبية أنصار الجبهة الوطنية يتألفون من المصلحين الليبراليين ، الا أن بعضهم يدافع عن الاشتراكية وحتى عن الماركسية . وبعد ثورة شباط (فبراير) حصلت الجبهة الوطنية على وزيرين . الا ان فشل الحكومة في السيطرة على اللجان فجر خلافا مع الجبهة الوطنية . فقد اشتكى متين دفتري حفيد مصدق ، المحامي البارز عن حقوق الانسان ، من ان قيادة الجبهة الوطنية قد ربطت نفسها اكثر من اللازم بحاشية الخميني .وهكذا،ترك دفتري الجبهةواسس الجبهةالوطنيةالديمقراطية، وصمم برنامجه لجمع كل المجموعات المعادية للرجعيات ، بدءا من المحافظين الدينيين يمينا الى العلمانيين الراديكاليين يسارا . ويدعو برنامجه الى تكوين المجالس المنتخبة من قبل العمال والموظفين والنقابات والطلاب ، والى المحاكمات العلنية للمتهمين باقتراف الجرائم

ضد الشعب ، والى انتخاب جمعية تأسيسية مهمتها الاعداد عبر الحوار العلني ، للدستور الجديد ، والى المساواة بين الرجال والنساء، وانهاء الرقابة ، ومنح الحكم الذاتي لكل الاقليات اللغوية الايرانية .

وتتلقى هاتان الجبهتان الوطنيتان الكثير من الدعم من بين صفوف المهنيين واصحاب الرواتب من الطبقة المتوسطة ، ومن المنظمات الحديثة التكوين كجمعية الكتاب وجمعية المحامين وجمعية المهندسين وجمعية اساتذة الجامعات واتحاد المعلمين واتحاد موظفي الدولة .

٦ ــ **الراديكاليون العلمانيون** : يتألفون من « فدائيي الشعب» ، وحزب توده ، وحزب توده الثوري ، والتنظيم الماركسي ــ اللينيني ، بالاضافة الى مجموعات أصغر . ويتمتع اليسار على العموم بقليل من الدعم الجماهيري . وهو منحصر في صفوف طلبة الجامعة وجمعيات ذوي الياقات البيض ، وفي بعض الاتحادات النقابية ، خاصة بين عمال النفط ، وعمال مطابع الصحف وعمال المطابع الحديثة الموجودة في طهران . وبالرغم من مساندة اليسار الكلية للثورة ضد الشاه ، يدرك كثير من الماركسيين بأن اقامة دولة دينية دوغمائية ستهدد وجودهم الذاتي . وفي الحقيقة ، واجه اليسار خلال المهرجانات الجماهيرية في طهران (والتي ضمت من مليون الى مليوني شخص) ، الصعوبات في الحصول على اذن من المنظمين الدينيين لحمل راياتهم واعلامهم وشعاراتهم الخاصة . وبحدود شهر كانون الثاني (يناير) سار اكثر من ثلاثين الف عامل غاضب في شوارع طهران وهم يحملون صور الخميني ، ولكنهم طالبوا « بالمساواة » و « الديموقراطية » و « حكومة العمال » . كما أصدر الفدائيون تصريحا حذروا فيه من انه لا يحق لمجموعة واحدة احتكار ثورة الشعب (١٢) . وفي شهري اذار ونيسان (مارس وابريل) استقطب اليسار بعض الانصار من المقاطعات، وبخاصة من الاكراد والتركمان والاذربيجانيين ، كونه ناصر قضية الاستقلال الثقافي للاقليات اللغوية .

من بين هذه المجموعات الست ، حققت المجموعات الدينيةالنجاح الاكبر في حشد الجماهير ــ خاصةبينسكان البازار وفقراء مدنالتنك ــ وحتى بين البروليتاريا الصناعية . ويمكن تفسير ذلك بعوامل عدة . **أولها** ، ان النظام ، في الوقت الذي حطم فيه كل المنظمات الجماهيرية للمعارضة العلمانية ، سمح بالعمل لنقابات البازار ولرجال الدين والمعاهد الدينية والجوامع المحلية .وفي الحقيقة ، فان الازدهار النفطي

السريع في أوائل السبعينات قد جلب ازدهارا الى المعاهد الدينية وزاد بالتالي صفوف واعداد المراتب الدنيا من رجال الدين . ويدعي احد المصادر بأن هناك ١٥٠ الف رجل دين و ٨٠ الف جامع في ايران (١٣) . لذا ، ليس من المستغرب تحول المعارضة الجماهيرية للنظام نحو الجوامع .

ثانيهما : اجتاحت ايران في السنوات الحالية حركة انبعاث دينية خاصة بين الصفوف الدنيا من الطبقة الوسطى وسكان احزمة البؤس ومدن التنك الفقيرة . فالنسبة لافراد الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى ، خاصة متخرجي الجامعات الجدد ، يقدم الدين — تفسير شريعتي للتشييع على الاخص — التحدي الديناميكي للنظام من جهة وللشرائح العليا من الطبقة الوسطى ذات التوجه الغربي ، من جهة اخرى أما بالنسبة لفقراء مدن التنك ، وكلهم من المهاجرين الجدد ، فالدين تعويض ثمين للاحساس بالجماعة الذي افتقدوه منذ ان تركوا قراهم . وكالميثودية * في انجلترا في القرن التاسع عشر ، يعطي التشيع فقراء المدن في ايران المعاصرة شعورا بالتماسك الاجتماعي .

وفي وضع كهذا ، من السهل لرجل واحد ، بغض النظر عما اذا كان جون ويزلي او آية الله الخميني ، الظهور كمخلص لعامة الناس .

ثالثها : في السنوات العشر الاخيره ، اصاب اليسار الكثير من الاذى نتيجة الدعم العلني الذي قدمه كل من الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية للشاه . وبالطبع ، يمكن ازالة هذا الاذى بسهولة اذا ما حاولت احدى الحكومتين معارضة العسكريين الملكيين .

واخيرا شجعت المراتب الدنيا من رجال الدين وانصار شريعتي العمال على الاضراب في سبيل المطالبة بزيادة الاجور لدفع الدولة نحو الافلاس ، وذلك اثناء هجومهم على الشاه . ولكن لا شك في ان شغفهم وحسهم «بالعدالة الاجتماعية» سيبهتان حالما يعززون من قبضتهم على الدولة . وليس مستغربا أنه كان لدى قادة الثورة القليل ليضمنوه تصريحاتهم الكثيرة عن دور الاتحادات العمالية الحرة في جمهوريتهم الاسلامية المستقبلية .

وتوضح الاحداث الحالية في الصناعة النفطية القوة الحالية — والضعف المستقبلي المحتمل — للجماعات الدينية بين الطبقة العاملة العصرية . فعندما بدأت الموجة الاولى من الاضرابات في الصناعة

---

* الميثودية : Methodism

النفطية ، سعى المناضلون اليساريون ، من حزب توده خاصة ، الى القيام باختراقات هامة في لجان الاضراب . الا انه عندما بدات الموجة الثانية ، تدخل مهدي بازرجان ورجال الدين وساعدوا انصارهم للحصول على الاكثرية داخل لجان الاضراب . تتلقى هذه اللجان في مدينة عبدان وحقول النفط التعليمات هاتفيا ومباشرة من المدارس الدينية في مدينة قم . ومن المحتمل ان تفقد الرجعيات الدينية قبضتها على الحركة العمالية . وسيتمكن اليسار ، ساعتئذ من ان يدخل بسهولة اكبر الحلبة التي تشمل اكثر من مليونين ونصف اجير يشكلون اكبر طبقة مدينية منفردة في ايران المعاصرة .

٢٠ نيسان (ابريل) ١٩٧٩

هوامش

1- State Department to the U.S. Embassy in Iran, February 1, 1949, **Foreign Relations of United States** (Washington, D.C., 1978), 1949, Vol. VI, p. 476.

2- R. Shafaq, **Parliamentary Proceedings (Muzakerat-i Majlis)**, 1st Senate, April 13, 1951.

3- The Shah, «Message to the Nation,» **Tehran Mosavar**, May 10, 1951.

4- **The Times**, March 22, 1951.

5- **Ittila'at**, October 12, 1952.

6- H. Makki, **Parliamentary Proceedings**, 17th Majlis, February 1, 1953.

7- **New York Times**, July 23, 1953.

8- E. Bayne, **Persian Kingship in Transition** (New York, 1968), pp. 186-87.

9- A. Shari'ati, **Ummat va Imamat** (Tehran, 1968). Cited by G. Bayat Philipp, «Shi'ism in Contemporary Iranian Politics: The Case of Ali Shari'ati,» in **Iran: Towards Modernity** (Edited by E. Kedourie and S. Haim) (London, 1979).

10- Taleqani, «Proclamation,» **Ittila'at**, February 19, 1979.

11- Document, «An Open Letter,» **Iranshahr**, December 1, 1978.

12- **Iranshahr**, January 20, 1979.

13. **Iran Times**, December 15, 1978.

حركة حرب العصابات ١٩٧١-١٩٧٧

يرفند ابرهميان

« انتم أيها الغربيون لا تفهمون يسارنا . ان من يسمـــون باليســـار عندناهم أخطر اعداء الثورة . فهم لم يفعلوا شيئا في الصراع ضد الشـــاه وهم الان يحرضون العمال على أن يضربـــوا ، ويسوقون المواطنين السـذج للتظاهر، والجماعات الاقليمية للتمرد . انهم عملاء السافاك » .

المهدي بازرجان

ايلول (سبتمبر) ١٩٧٩

ان ما يسمى « بالمجاهدين » (رجال حرب العصابـــات اليساريـــين) ، هم من المحتالين وقطاع الطرق وعملاء الاجنبي . انهم أعداء الثورة » .

النائب العام في المحكمة الثورية الاسلامية في طهران

ايلول (سبتمبر) ١٩٧٩ .

مقدمة

صباح يوم بارد من أيام شتاء العام ١٩٧١ ، هاجم ثلاثة عشـــر شابا ايرانيا مسلحين بالبنادق والمدافع الرشاشة والقنابل اليدويـــة مركزا للدرك في قرية « سياكال » عند مشارف غابات قزوين ، فقتلوا ثلاثة من الدركيين . كانوا يحاولون اطلاق سراح اثنين من زملائهـــم كانا قد اعتقلا قبل أيام قليلة ، ولكنهم لم يجدوا السجينين في مركـــز الدرك ، وفروا الى جبال « جيلان » الوعرة . « حـــادث سياكال » الشهير هذا ــ الذي يجهله المشاركون فيه والعالم الخارجـــي عـــلى السواء، أشعل شرارة نشاط كثيف من حرب العصابات دام ثمانـــي سنوات ، والهم كثيرين آخرين من الراديكاليين ، مسلمين وماركسيين على السواء لكي يحملوا السلاح ضد حكم اسرة بهلوي . ولكن اهمية حركة حرب العصابات ــ التي يجري سريعا تحريف تاريخها واساءة استخدامه وتفسيره ، من ناحية لان معظم قادتها الاصليين قد قتلوا ،

* كان بازرجان رئيسا للوزراء عندما أدلى بهذا التصريح .

« المحـــرر »

● انجز هذا البحث في اوائل كانون الثاني ، يناير ، ١٩٨٠ وسينشر في MERIP.

ومن ناحية لان أتباعهم أكثر اهتماما بصنع التاريخ من كتابة التاريخ ، ومن ناحية ثالثة لان الحكم الجديد ــ شأنه شأن سابقه ــ يعني بأن يزيـــح الثوريـــين ويشجبهم باعتبارهم « ارهابيين » و «ملحدين» و « عملاء للاجانب » .

جدول ١
قتلى حركة حرب العصابات

	فدائيون	المجاهدون الاسلاميون	المجاهدون الماركسيون	ماركسيون اخرون	اسلاميون اخرون
قتلوا اثناء معارك	١٠٦	٣٦	١٦	١١	٨
اعدمـــوا	٣٨	١٥	١٠	١٢	١٦
عذبوا حتى الموت	١٠	١٨	١	٩	٤
مفقـــودون	٦	١	٢	٦	
انتحـــروا	٥	١	١		
قتلوا في السجن	٧	٢			
المجمـــوع	١٧٢	٧٣	٣٠	٢٨	٢٨

وخلال الفترة بين شباط (فبراير) ١٩٧١ ــ عندما وقع حـــادث سياكال ــ وتشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٧ ــ عندما بدأت الثـــورة الاسلامية تنبسط في شوارع طهران ــ قتل الحكم ، وخاصة بوليســه السري « سافاك » ، ٣٤ عضوا من تنظيمات حـــرب العصابات والاحزاب السياسية التي تنادي بالكفاح المسلح (١) . وقد لقـــي ١٧٧ من هؤلاء مصرعهم في معارك بالبنادق ، و ٩١ نفذ فيهم حكم الاعدام ــ بعضهم دون محاكمة ، وآخرون بعد محاكمات عسكريـــة سرية ، وعذب ٤٢ حتى الموت ، و « اختفى » ١٥ ، وانتحـــر سبعة تجنبا للوقوع في الاسر . وأطلق الرصاص على تسعة فقتلـــوا وهم « يحاولون الهرب » ــ وقد اعترف السجانون بعد الثورة بأنهـــم قتلوا هؤلاء التسعة عمدا وعن سابق اصرار . وفي خلال تلك السنوات قتل الحكم أيضا سبعة من السجناء السياسيين الذين لم تكن لهم علاقة بالتنظيمات المسلحة : اثنان من المثقفين اليساريـــين البارزين أعدموا بتهمة « التآمر لاختطاف العائلة المالكة » ، اثنان من الزعماء الدينيين ،

اثنان من أعضاء حزب « توده » الشيوعى ، واحد مناضلي اتحاد الطلاب الايرانيين في أوروبا ، وكلهم عذبوا حتى الموت . وقد شمل القمع سجن وتعذيب عدد آخر لا يحصى من المشتبه في أنهم من النشطين « ضد الدولة » .

جدول ٢
وظائف قتلى حركة حرب العصابات

	فدائيون	المجاهدون الاسلاميون	المجاهدون الماركسيون	ماركسيون اخرون	اسلاميون اخرون
طلاب جامعيون	٧٣	٣٠	١٥	١٤	٧
طلاب ثانويون	١				٧
معلمون	١٧	٥	٢	١	١
مهندسون	١٩	١٤	٢	١	
موظفو مكاتب	٧			١	٨
اطباء	٣			٣	
مثقفون	٤			١	
مهن اخرى	١١	٦	٢	١	
ربات بيوت	٨	٣	٢	١	
مجندون	٥				
اصحاب دكاكين		٢			١
رجال دين		١			
عمال	١٢	٢	١	٧	
غير معروف	١٢	٦	٥	٨	٤
المجموع	١٧٢	٧٣	٣٠	٣٨	٢٨
(منهم نساء)	(٢٢)	(٧)	(٨)	(٢)	(٠)

ولقد ذكر مارتن اينالز الامين العام لمنظمة العفو الدولية في التقرير السنوي للمنظمة عن العام ٧٤ ــ١٩٧٥ «ان شاه ايران يحتفظ بصورته كمحسن على الرغم من أعلى معدل لاحكام الاعدام في العالم ، وانعدام نظام للمحاكم المدنية ، وتاريخ للتعذيب لا يصدق » (٢) .

اما من حيث الخلفية الطبقية فان جميع رجال حرب العصابات تقريبا ينحدرون من صفوف فئة المثقفين (الانتلجنتسيا) الشبان .

وقد قدمت حرب العصابات والتنظيمات الوثيقة الصلة بها معلومات عن وظائف ٣٠٦ من المغدورين الـ ٣٤١ . ويمكن وصف ٢٨٠ من الـ ٣٠٦ (أي ٩١٫٥ ٪) بأنهم اعضاء في فئة المثقفين (الانتلجنتسيا) . وكان بينهم ١٣٩ طالبا جامعيا ، و ٣٦ مهندسا ، و ٢٧ معلما ، و ٢٠ موظفا مكتبيا ، و٢٠ مهنيا (كالمهندسين المعماريين والاساتذة والمحاسبين والمحامين وأمناء المكتبات) و١٤ ربة بيت (كلهن متزوجات من خريجي جامعات) و٨ طلاب معاهد عليا ، و٦ أطباء ، و٥ مفكرين (شعراء ، روائيين ، ومترجمين) و٥ خريجي جامعات مجندين في الجيش . أما الباقون وعددهم ٢٦ (٨٫٥ ٪) فكانوا يتألفون من ٢٢ من عمال المصانع ، ٣ من أصحاب المحال ، ورجل دين واحد من مرتبة دنيا . وفي وقت وفاتهم كان عشرة فقط من الـ ٣٠٦ ممن تتجاوز أعمارهم الخامسة والثلاثين . ومن بين مجموع المغدورين الاجمالي وهو ٣٤١ كانت هناك ٣٩ امرأة — بينهن ١٤ ربة بيت ، ١٣ طالبة جامعية ، ٩ معلمات مدرسة ، طبيبتان ، وموظفة مكتب .

ولم يرتبط نمو حركة حرب العصابات — بأي حال — باي انحدار في الاقتصاد.بل ان الحركة — على النقيض من ذلك — تطورت في وقت رخاء للطبقة الوسطى ، وارتفاع في المرتبات ، وزيادة في فرص العمل لخريجي الجامعات ، وتوسع بمعدل ستة أضعاف في عدد الطلاب المسجلين في الجامعات . والحقيقة أن كل رجال حرب العصابات القتلى — تقريبا — كان بامكانهم ان يلتحقوا بالجامعة ، اما لانهم فازوا بمنح دراسية من الدولة ، أو لان عائلاتهم من الطبقة المتوسطة الصاعدة كانت تستطيع دفع رسوم التحاقهم . لكنهم حملوا السلاح نتيجة غضبة اجتماعية وأخلاقية وسياسية ، وليس نتيجة كساد اقتصادي .

أما من حيث الخلفية السياسية فيمكن تقسيم رجال حرب العصابات الى خمس فئات :

١— **فدائيي خلق ايران** ، ويعرف هذا التنظيم باسم الفدائيين الماركسيين .

٢ — **مجاهدين خلق ايران** ، ويشار اليه عادة باسم **المجاهدين الاسلاميين** .

٣ — تنظيم ماركسي انبثق عن **مجاهدين خلق ايران** . وكان هذا التنظيم يعرف قبل ثورة ١٩٧٩ باسم **المجاهدين الماركسيين** ،وبعد

الثورة حمل اسم **التنظيم المقاتل على طريق تحرير الطبقة العاملة** ، ويعرف باسم **بايكار** (المعركة) .

٤ — تنظيمات اسلامية صغيرة يقتصر نشاطها غالبا على مدينة واحدة — مثل **مجموعة ابو زهر** في نهاوند ، **مجموعة الشيعيين الحقيقيين** في همدان ، **مجموعة فالاسار** في مشهد ، **مجموعة « الله اكبر »** في اصفهان **ومجموعة الفجر** في زهيدان .

٥ — تنظيمات ماركسية صغيرة ، وهذه تضم مجموعات صغيرة مستقلة مثل **منظمة تحرير الشعوب الايرانية** ، **مجموعة لورستان** ، **منظمة المثل الاعلى الشعبي** ، **والمقاتلون من اجل تحرير الطبقة العاملة** ، بالاضافة الى خلايات ترتبط بأحزاب سياسية **مثل حزب ايران الديمقراطي الكردستاني** ، **التنظيم الثوري لحزب توده** الموالي للصين ، **ومجموعة الشيوعيين المتحدين** ذات الطراز اليساري الجديد. وبالاضافة الى هذا فانه تفرع عن **حزب توده** في خلال الفترة ١٩٧٦ — ١٩٧٩ بعض الفدائيين .

وبين هذه الفئات الخمس كان **الفدائيون** الماركسيون **والمجاهدون** الاسلاميون هم الاكبر عددا بدرجة كبيرة ، ومن بين القتلى الـ ٣٤١ كان ١٧٢ (٥٠ر٤ ٪) ينتمون للفدائيين الماركسيين ٧٣ (٢١ر٤ ٪) ينتمون للمجاهدين الاسلاميين ، ٣٠ (٨ر٧٪) ينتمون للمجاهدين الماركسيين ، ٣٨ (١١ر٣ ٪) ينتمون للجماعات الماركسية الصغيرة ، و٢٨ (٨ر٢ ٪) للجماعات الاسلامية الصغيرة .

الاصول (١٩٦٣ — ١٩٧١)

ترجع أصول حركة حرب العصابات الى صيف العام ١٩٦٣ حينما استخدم النظام الحاكم العنف الجماعي لسحق مظاهرات سلمية نظمتها المعارضة . فقد أدى تصميم الشاه على استخدام القوة على نطاق شامل ، واستعداد الجيش لاطلاق الرصاص لقتل الاف المتظاهرين العزل من السلاح ، وشغف « السافاك » بأجتثاث جذور الشبكات السرية لحزب توده والجبهة الوطنية — كل هذه تضافرت لدفع المعارضة — وخاصة أعضاءها الشبان — للشك في جدوى سبل المعارضة التقليدية ، مقاطعة الانتخابات ، الاضرابات العامة ، وتظاهرت الشوارع . فلم يكن مفاجئا أن شكل طلاب الجامعات المناضلون في خلال السنوات القليلة التي تلت ذلك مجموعات مناقشة

صغيرة سرية لاستكشاف سبل جديدة للمقاومة ولترجمة مؤلفات ماوتسي تونغ وتشي غيفارا وفرانز فانون ، وللتعلم من الخبرات الحديثة لكل من الصين وفيتنام وكوبا والجزائر . وبتعبير احدى هذه المجموعات : « كان القمع الدموي الذي جرى في العام ١٩٦٣ حدا فاصلا رئيسيا في التاريخ الايراني . فحتى ذلك الحين كانت المعارضة تحاول أن تحارب النظام باحتجاجات الشوارع ، واضرابات العمال ، والاحزاب السرية . ومع ذلك فان حمام الدم الذي جرى في العام ١٩٦٣ قد فضح افلاس هذه الوسائل السلمية . وبعد العام ١٩٦٣ كان على المناضلين — بصرف النظر عن ايديولوجيتهم — أن يتساءلوا : ما العمل ؟ . وكانت الاجابة واضحة : حرب العصابات » (٣) .

أفرخت فترة الدراسة هذه عددا من المجموعات الصغيرة الماركسية والاسلامية الداعية الى الكفاح المسلح . ولكن « السافاك » فتتت معظمها قبل أن تستطيع البدء بأية أعمال مسلحة . وعلى سبيل المثال فان ٥٥ شابا — كثيرون منهم من طلبة المدارس العليا — اعتقلوا في طهران في العام ١٩٦٥ بتهمة شراء أسلحة وتشكيل حزب سري باسم **حزب الامة الاسلامية** . وفي العام ١٩٦٦ القي القبض على افراد مجموعة اخرى من الطلاب المتدينين لجمعهم المال لشراء أسلحة ولتشكيلهم **جبهة تحرير ايران** . وفي العام ١٩٦٩ شكل نحو مائتين من اعضاء حزب **توده** — الذين استاؤوا من قرار حزبهم بتحاشي العنف السياسي — **التنظيم الثوري للشيوعيين الايرانيين** ، وقاموا بسرقة احد البنوك في أصفهان لتمويل عمليات فدائية مستقبلا . الا أن المجموعة كلها اعتقلت قبل أن تتاح لها الفرصة لشن أي عملية من هذا القبيل . وبالمثل — في العام ١٩٦٩ — القي القبض على ١٨ شابا من أساتذة وطلاب الجامعات وبعضهم كان عضوا في حزب **توده** أو في **جمعية الاشتراكيين** ، وهي الجناح الماركسي من الجبهة الوطنية بينما كانوا يحاولون عبور الحدود الى العراق للانضمام الى منظمة التحرير الفلسطينية . وقد صدرت على هؤلاء المناضلين أحكام معتدلة نسبيا نظرا لان أيا منهم لم يهاجم السلطات ماديا . فقد تلقى الاعضاء العاديون أحكاما بالسجن تراوحت بين سنة وعشر سنوات ، اما قادتهم فقد تلقوا أحكاما بالسجن تراوحت بين ١٠ سنوات والسجن المؤبد . أما طوفان أحكام الاعدام فكان من المقدر ان يتلو ذلك سريعا مع ظهور « **الفدائيين** » و « **المجاهدين** » .

تشكل تنظيم **الفدائيين** ــ الذي لم يتخذ هذا الاسم قبل آذار (مارس) ١٩٧١ ــ من ثلاث مجموعات منفصلة ترجع أصولها الى منتصف الستينات (٤) . المجموعة الاولى منها تأسست في العام ١٩٦٤ على يد خمسة من طلاب جامعة طهران : بزهان جازاني ، عباس سوركي ، علي أكبر صفائي فرحاني ، محمد اشتياني ، وحامد أشرف . وكان جازاني ــ وهو الشخصية الرئيسية في المجموعة ــ طالب علوم سياسية تردد عدة مرات على السجن منذ منتصف الخمسينات . ولد في العام ١٩٣٧ ، وأكمل مدرسته الثانوية في مسقط رأسه طهران ، ومارس نشاطا في منظمة الشبيبة بحزب **توده** قبل ان يترك الحزب ويشكل مجموعته السرية الخاصة . وفي خلال السنوات اللاحقة كتب تنظيم **الفدائيين** سلسلة من الكتيبات بينها **الكفاح ضد دكتاتورية الشاه** ، **ثلاثون عاما من تاريخ ايران** ، و **كيف تحول الصراع المسلح الى صراع جماهيري** . وكان سوروكي ايضا طالب علوم سياسية وعضوا سابقا في حزب توده ، وقد نشأ في مازانداران قبل ان ينتقل الى طهران ليلتحق بالجامعة . أما صفائي فرحاني ــ وكان طالب هندسة ــ فكان من مواليد جيلان ولكنه التقى بالآخرين في جامعة طهران . وفي السنوات اللاحقة كتب للفدائيين كتابا للجيب بعنوان **ما ينبغي أن يعرفه الثوري** . وكان اشتياني طالب حقوق ولد في طهران في العام ١٩٣٤ وأدى الخدمة العسكرية ، ولهذا كان باستطاعته أن يدرب زملاءه على استخدام وصيانة الاسلحة الخفيفة . وأخيرا كان أشرف،الاصغر سنا بينهم ، قد التحق وهو في المدرسة الثانوية بجمعية الاشتراكيين ، والتحق في العام ١٩٦٤ بالجامعة حيث التقى بالآخرين . ولكن الخمسة جميعا ــ شأنهم شأن كثيرين من الطلاب الذين انضموا اليهم ــ ينتمون الى عائلات من الطبقة الوسطى.

بعد ثلاث سنوات من تكوين هذه المجموعة تمكنت السافاك من التسلل اليها وألقت القبض على اربعة عشر عضوا بينهم جازاني وسوروكي . لكن اشرف تمكن من الهرب ونجح في تجنيد عدد آخر بصورة تدريجية مما أبقى على المجموعة حية . في هذا الوقت فر فرحاني واشتياني الى لبنان ، واقاما اتصالا مع حزب توده ، وبعد ان أمضيا سنتين مع حركة **فتح** (الفلسطينية) عادا الى الوطن

والتحقا مجددا بأشرف (٥) . بقي جازاني وسوروكي وخمسة آخرون في السجن حتى نيسان (ابريل) ١٩٧٥ حيث اردوا قتلى بالرصاص «في اثناء محاولتهم الهرب» . وعلى الرغم من أن جازاني لم يكن هو الذي نظم **الفدائيين** فعلا الا انه يمكن ان يعد « المؤسس الفكري » لهم .

أما المجموعة الثانية التي شكلت **الفدائيين** فكانت بقيادة اثنين من الطلاب الجامعيين جاءا الى طهران من مشهد . مسعود أحمد زاده ، الشخصية الرئيسية وكان ينتمي لاسرة مثقفة معروفة في مشهد بتأييدها لمصدق ومعارضتها لاسرة بهلوي منذ منتصف العشرينات . وعندما كان احمد زاده في المدرسة الثانوية في مشهد اسس **نادي الطلاب الاسلامي** وشارك في مظاهرات دينية ضد الحكم . لكنه تحول الى الماركسية بينما كان يدرس الرياضيات في جامعة آريامهر (الصناعية) في طهران . وشكل في العام ١٩٦٧ حلقة سرية لمناقشة مؤلفات تشي غيفارا ، دوبريه وكارلوس ماريغيللا الشيوعي البرازيلي الذي طور نظرية حرب عصابات المدن . وفي العام ١٩٧٠ كتب احمد زاده الكتاب الذي اصبح يعرف بأنه المؤلف النظري الاساسي للفدائيين وهو بعنوان **الكفاح المسلح : استراتيجية وتكتيك** . وكانت لرفيقه المقرب بارفيز بويان خلفية مماثلة كثيرا . ولد في مشهد في العام ١٩٤٦ودرس في المدرسة الثانوية المحلية وشارك في تنظيمات دينية ، ولكنه ، بينما كان يدرس الادب في الجامعة الوطنية في طهران في منتصف الستينات، اجتذبته الماركسية ، وخاصة تجربة كاسترو . وكتب مؤلفا بعنوان **الحاجة الى الكفاح المسلح ورفض نظرية البقاء** .

تشكلت المجموعة الثالثة في تبريز في العام ١٩٦٥ على يد جماعة من المثقفين بزعامة بهروز دهقاني ، اشرف دهقاني ، وعلي رضا نابديل . وكان بهروز دهقاني معلما في احدى القرى . ولد في العام ١٩٣٨ في اسرة فقيرة في تبريز . وكان والده عامل البناء عضوا نشطا في حركة توده العمالية في خلال الاربعينات . وعندما فاز بهروز دهقاني بمنحة دراسية من الدولة تعلم الانكليزية في جامعة تبريز حيث التقى مع صمد بهرانجي وهو كاتب راديكالي شهير في كل انحاء ايران وكذلك اذربيجان . وقد نشرا معا مؤلفا من خمس مجلدات عن الحكايات الشعبية الاذربيجانية .كذلك وضع دهقاني مؤلفا عن العلاقة بين الادب والمجتمع ، وترجم مؤلفات مكسيم غوركي وسين اوكيزي . والتقى دهقاني — من خلال بهرانجي ودائرته الادبية — مع بويان ومن

ثم شكل الروابط الاولى بين تبريز ومجموعة أحمد زاده في طهران . الا ان بهرانجي لم يعش ليرى تشكيل **الفدائيين** ، حيث وجد غريقا في العام ١٩٦٨ في شهر آراس . أما أشرف دهقاني وهي شقيقة بهروز دهقاني الصغرى ــ فكانتلها خلفية مماثلة كثيرا لخلفيةشقيقها. ولدت في تبريز وتلقت علومها فيها وعلمت في احدى المدارس القروية بالقرب من مسقط راسها . كذلك فقد ولد نابديل وتربى في تبريز ، وكان بدوره معلما شابا ، ولكنه ذهب الى طهران لدراسة الادب. وبعد ان تخرج من جامعة طهران عاد الى موطنه ليعلم ويكتب الشعر . وعلى الرغم من أنه كان يكتب باللغتين الفارسية والازرية ــ وهي لغة اذربيجانية ذات ملامح من اللغة التركية ــ الا أن أشعاره الفارسية هي وحدها التي طبعت لان الازرية كانت محظورة على دور النشر . وقد كتب نابديل **للفدائيين** كتيبا بعنوان **اذربيجان ومشكلة القومية** ، لكي يشرح مأساة اللغة الازرية في ظل حكم اسرة بهلوي . وكشأن الدهقانيين كان والد نابديل نشطا خلال الاربعينات في حزب **توده** في التنظيم المحلي الحليف له ، **الحزب الديموقراطي الاذربيجاني** .

بدات المجموعات الثلاث تندمج في العام ١٩٧٠ . ففي ربيع تلك السنة اندمجت جماعتا تبريز وأحمد زاده ونفذتا أول هجوم مسلحلهما، وهو سرقة احد بنوك طهران لتمويل عمليات مستقبلية . وفي خريف العام نفسه اندمجت هاتان المجموعتان مع مجموعة طهران الاخرى لخلق تنظيم موحد من ثلاث خلايا : « فريق المدن » ، وقد تشكل في معظمه من اتباع أحمد زاده ، و « فريق النشر » وقد تشكل في معظمه من مثقفي تبريز ، و « فريق الريف » وتزعمه في الغالب الباقون على قيد الحياة من حلقة جازاني .

وخلال التفاوض على الدمج وضعت المجموعات استراتيجية مشتركة لخصتها أشرف على النحو التالي :

بعد مداولات كثيرة توصلنا الى نتيجة مفادها ان من المستحيل العمل وسط الجماهير وخلق تنظيمات كبيرة ما دامت الشرطة قد تغلغلت في جميع قطاعات المجتمع . وقررنا أن مهمتنا الفورية هي تشكيل خلايا صغيرة وشن هجمات مادية على العدو بهدف تحطيم « الجو » القمعي ولكي نبين للشعب ان « الكفاح المسلح » هو السبيل الوحيد الى التحرر (٦) .

وبالمثل أعلن بويان :

ان هزيمة الحركة المعادية للامبريالية في ايران قد مكنت الرجعيين من أن يقيموا دولة فاشية ، وان يدمروا تنظيمات المعارضـــة ، وأن ينسقوا بين العناصر الانتهازية . وفي وضع لا توجد فيه روابط متينــة بين المثقفين الثوريين والجماهير فاننا لا نشبه مدرسة من السمك في الماء ، انما نشبه أسماكا منعزلة تحيط بها تماسيح خطرة . لقد جعل الارهاب والقمع وغياب الديمقراطية من المستحيل علينا ان نخلـــق تنظيمات للطبقة العاملة . ولكي نكسر دورة ضعفنا ونلهم الشعـــب يتعين علينا أن نلجأ الى **كفاح ثوري مسلح ... ولكي نحرر البروليتاريا من الثقافة الخانقة ، ولكي نطهر عقلها من افكار البورجوازية الصغيرة ولكي نمدها بذخيرة ايديولوجية من الضروري تبديد وهم الاعتقاد بان الشعب لا حول له ولا قوة (٧) .**

وزاد أحمد زاده استراتيجية **الفدائيين** ايضاحا :

كيف يمكن أن تصبح الجماهير واعية بذاتها ، بمصالحهـــا ، وبقوتها المنيعة ؟ لقد تضافر القمع المستمر ، والافتقار الى قيـــادة، والدعايات الحكومية المتواصلة، والوجود الكلي القوي للحراب،لاقامة حاجز هائل بين الشعب والجماهير وبين قطاعات من الجماهير . فكيف يمكن تحطيم هذا الحاجز لاطلاق أعصار الجماهير الكاسح ؟ ان الطريق الوحيد هو الكفاح المسلح . فلالحاق الهزيمة بالعدو لا بد من جـــر الجماهير الى المشاركة في النضال . وللقضاء على جيش العــدو ، لا بد من وجود جيش الشعب . ولانشاء جيش الشعب لا بد من حـــرب عصابات طويلة المدى . وليست حرب العصابات ضرورية فقـــط لتحقيق انتصار عسكري ، انما هي ضرورية ايضا لتعبئة الجماهير . وتعبئة الجماهير ، من ناحية ، هي شرط الانتصـــار العسكـــري والسياسي . ومن ناحية اخرى فان تعبئة الجماهير ليست ممكنـــة بدون الكفاح المسلح . لقد تعلمنا هذا ليس فقط من تجربة كوبا ، وانما ايضا من تجارب الصين وفيتنام .. وكما اكد دوبريه ، فانه « في ظل الظروف الراهنة ، فان اهم اشكال الدعاية هو عمل عسكري ناجح » (٨) .

طور الفدائيون ــ اثناء صياغتهم استراتيجية خاصة بهم ــ نقدا للتنظيمات السياسية الاخرى . فقـــد استبعدوا **الجبهـــة الوطنية** باعتبارها منظمة ورقية « بورجوازية صغيرة » و « خارج السيـــاق التاريخي » لا تزال تبشر بأمل زائف في انتخابات حرة (٩) . واتهمـــوا

الجماعات الموالية للصين ــ خاصة **التنظيم الثوري** ــ بأنها تطبق ماو تطبيقا « ميكانيكيا » على ايران ، وترفض بطريقة تنطوي على الجمود المذهبي قبول حقيقة أن ايران قد تحولت خلال العقد السابق من مجتمع اقطاعي الى مجتمع راسمالي تابع،وبانها سمحت للسافاك بالتسلل الى صفوفها العليا ، وبأنها تقبل دون نقد الفكرة القائلة بأن الاتحاد السوفياتي ــ وليس الامبريالية الامريكية ــ هو الخطر الرئيسي على آسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية ، وبأنها تتحدث كثيرا عن « كفاح مسلح » ولكنها دائما ما تؤجل مثل هذا الكفاح بحجة انه من الضروري أولا تكوين حزب سياسي قادر على الحياة (١٠) .

بل أن نقد **الفدائيين لحزب توده** كان أكثر اتساعا . ففي حين امتدحوا **توده** لتنظيمه الطبقة العاملة في اثناء الاربعينات وقدم كثيرا من الشهداء الوطنيين في أثناء الخمسينات ، اتهموا الحزب بأنه يتبع الاتحاد السوفياتي « مغمض العينين » ، وبأنه تسرع في ادانة ستالين ، وبأنه قلل من شأن « المسألة القومية » ، وخاصة في ازربيجان وكردستان ، وكبح الحركة الفلاحية في الاربعينات ، وبالغ في تقدير اهمية البورجوازية الايرانية ، وبالتالي توقع أن تكون الثورة القادمة « ديمقراطية وطنية » وليس «ديمقراطية شعبية ». وفوق كل ذلك اتهم الحزب بأنه يفضل النضال السياسي على الكفاح المسلح ، والبقاء التنظيمي على العمل البطولي ، و « الاصلاحية البرلمانية » على الاشتراكية الثورية (١١) . وقد رد حزب **توده** بأنه من «واجب» جميع الاشتراكيين ان يؤيدوا الاتحاد السوفياتي ، وان الحديث عن تحويل « ديمقراطية بورجوازية » سريعا الى « ديمقراطية شعبية » هو حديث مشبع بفكرة تروتسكي عن « الثورة الدائمة » ، وأن **الفدائيين** قللوا من شأن البورجوازية الايرانية ، ومن ثم اساؤوا فهم الطبيعة الحقيقية للثورة القادمة ، وانهم قللوا أيضا من شأن الوعي الطبقي للبروليتاريا الصناعية ومن ثم أغفلوا امكانيات شن نضال سياسي ، والاهم من ذلك كله ان **الفدائيين** يحملون سمات مشتركة أكثر مع باكونين و « الشعبية » « النارودنيين » في القرن التاسع عشر الذين كانوا يطلقون شعار « عاش الموت » وشعار « الدعاية بالانفعال» مما مع ماركس ولينين والبلاشفة الذين اكدوا دائما ان من شأن كفاح مسلح أن يخفق ما لم يشنه حزب سياسي منضبط وما لم تكن الشروط الموضوعية قد نضجت لذلك (١٢) .

ما أن صاغ **الفدائيون** استراتيجيتهم حتى اتموا الاستعـــدادات للكفاح المسلح . وكان اول قرار رئيسي لهم ارسال « فريق الريـــف » الى مناطق الغابات الجبلية في جيلان للعيش مع الرعاة المحليـــين، واقامة اتصال مع القرويين ، دعامة لوضع الاساس لعمليـــات المستقبل . وقد أختاروا هذه المنطقة من ناحية لان الجبال الوعرة ليست سهلة البلوغ من جانب المصفحات الثقيلة ، ومن ناحيـــة لان الغابات ــ ويسمونها « الجانغال » ــ توفر غطاء كثيفا ضـــد الغارات الجوية ، ومن ناحية ثالثة لان لفلاحـــي جيلان تاريخا في الراديكالية يرجع ليس فقط الى اوائل العشرينات حين أقام الثـــوار المحليون ــ الذين كانوا يعرفون باسم « الجانغالي » (أي رجـــال الغابات) ــ جمهورية اشتراكية سوفياتية ، انما يرجع أيضا الـــى خمسينات القرن الماضي حينما اجتاحت انتفاضات جماهيرية أقاليـــم قزوين (١٣) . وكان الفدائيون ــ في خططهم الاصلية ــ يعتزمـــون ان يمضوا سنة بأكملها في تحضير الاستعدادات ، ولكنهم اضطـــروا لتمزيق هذه الخطط عندما اعتقل الدركيون في قرية « سياكال » اثنين من المتعاطفين معهم في اوائل شباط (فبراير) ١٩٧١ . وقد خشي **الفدائيون** أن يؤدي تعذيب هذين الشخصين الى انتزاع معلومـــات حيوية منهما ، فاتخذوا قرارهم المصيري بمهاجمة مركـــز الدرك . وبمجرد أن وصلت الى طهران أنباء الهجوم ونجاح الفدائيين في الفرار رد الشاه بكامل قوته ، وأوفد شقيقه على رأس جيش من الكوماندوز وطائرات الهيليكوبتر وعملاء السافاك . وبعد مطاردة واسعـــة النطاق استغرقت ثلاثة أسابيع كاملة ,وخلفت ثلاثين جنديا قتيـــلا وقتيلين من بين الفدائيين ، أعلنت السلطات العسكرية أنها القـــت القبض على أحد عشر من الفدائيين . ومن بين الاحد عشر فدائيـــا هؤلاء أعدم عشرة رميا بالرصاص ، ومات واحد ــ هو فرحانـــي ــ تحت التعذيب دون أن يكشف أية معلومات عـــن الفريقين الاخرين . وبالنسبة للفدائيين كانت هذه المسألة برمتها بمثابة فشل عسكري، ولكنها شكلت نجاحا دعائيا كبيرا لانها برهنت على أن مجموعـــة صغيرة من الثوريين ذوي التصميم استطاعت أن تهز أركان حكـــم أسرة بهلوي . ولا غرابة أن دخل يوم ١٩ بهمان (٨ شبـــاط ــ فبراير) ــ وهو يوم حادث « سياكال » ــ التاريخ باعتباره يـــوم ميلاد حركة حرب العصابات الايرانية .

وكما لو كان الحكم قد أراد ان يؤكد أهمية حادث «سياكال» ،

فانه أتبع الاعدامات بسلسلة من الاجراءات الدراماتيكية . فشن حرب دعاية واسعة ضد رجال حرب العصابات ، متهما اياهم بأنهم « ملحدون » و « عملاء توده » و « أدوات منظمة التحرير الفلسطينية وبغداد والامبريالية العربية » . والقى القبض على واحد وخمسين من المنشقين اليساريين — لم يكن لاي منهم اية صلة بالفدائيين — ومنح عطلة غير مقررة لجامعات طهران ، و « حل » إتحاد الطلاب الايرانيين في أوروبا وأميركا ، باعتباره « مؤامرة شيوعية دولية » . كذلك زاد الحكم مرتبات موظفي الحكومة ، وأصدر مرسوما باعتبار السنة الجارية « سنة الموظفين المدنيين » ، ورفع الحد الادنى للاجور ، وأعلن انه سيتم الاحتفال مستقبلا في جميع انحاء ايران بأول أيار (مايو) باعتباره « عيد العمال » .

وخلال الاشهر التسعة التي تلت حادث « سياكال » استطاعت السافاك — في سلسلة من المصادمات المسلحة — ان تعتقل وان تقتل كل الاعضاء المؤسسين للفدائيين تقريبا . ومع ذلك فان الذين بقوا على قيد الحياة — وخاصة أشرف دهقاني — تمكنوا من مواصلة الصراع وتكثيفه . وقد وجدوا اشخاصا شغوفين بالالتحاق بهم ، واسسوا خلايا جديدة (*) ، وبداوا في اصدار صحيفتين سريتين ، **باهمان** ١٩ (٨ شباط) و **نضال الشعب** ، وساعدوا في تنظيم عدد من الاضرابات في الجامعات والمظاهرات العامة لكي تتوافق مع الذكرى الاولى لحادث « سياكال » . كذلك نفذوا سلسلة عمليات مسلحة : اقتحام خمسة بنوك ، اغتيال مخبرين للشرطة ومليونير صناعي ، والمدعي العام العسكري ، والقاء قنابل على سفارات بريطانيا وعمان والولايات المتحدة ، ومكاتب شركات أي.تي. تي . (شركة التلغراف والتليفون الدولية) والخطوط الجوية الاميركية (تي. دبليو. آي) ، والجمعية الايرانية — الاميركية ومقار قيادة شرطة طهران وتبريز وراشت وغورغان ومشهد وعبدان .

بحلول اواخر العام ١٩٧٥ كان واضحا أن الصراع بين الحكم والفدائيين قد دخل في حالة جمود . فقد نجح الحكم في اصطياد رجال حرب العصابات ، وشن حرب دعاية عدوانية ضد «الارهابيين الملحدين » . والاهم من هذا كله انه احتوى الحركة بحيث اقتصرت على

(*) خاصة في طهران ، تبريز ، راشت ، غورغان ، قزوين ، وانزيلي (بهلوي).

المتثقفين الجامعيين . أما الفدائيون ــ من جانبهم ــ فقد نجحوا في تعويض خسائرهم الجسيمة وفي التحرش بالسلطات ، وتنفيذ اعمال بطولية ، ولكنهم أخفقوا رغم خمس سنوات من النضال في اشعال شرارة ثورة شعبية . وعندما ناقشوا كيفية انهاء حالة الجمود انقسم **الفدائيون** الى قسمين . قسم الاغلبية ــ وقد تزعمته أشرف دهقاني واحمد اشرف حتى وفاته في منتصف العام ١٩٧٦ ــ وقد اصر على مواصلة المواجهات المسلحة الى ان تشعل انتفاضة جماهيرية . الا أن قسم الاقلية حبذ تحاشي المواجهات المسلحة ، وزيادة النشاط السياسي ، وخاصة بين عمال المصانع، واقامة روابط أوثق مع حزب **توده** . وفي منتصف العام ١٩٧٦ التحقت هذه المجموعة بحزب **توده** ، واستنكرت نظرية « الدعاية بالافعال » باعتبارها انحرافا عن الماركسية ــ اللينينية (١٤) ، وشكلت **« المجموعة المنفصلة عن تنظيم فدائيي حرب العصابات والمرتبطة بحزب توده ايران »** ، والتي تعرف باختصار باسم **فدائي منشعب** (١٥) . وبطبيعة الحال فان كلا القسمين احتفظا بأسلحتهما ، ولهذا فانه ما أن بدات الثورة حتى طفيا على السطح كتنظيمين مجربين معنيين بتحدي القوة المسلحة لدولة بهلوي مباشرة .

المجاهدون

ترجع أصول تنظيم **المجاهدين** ــ شأنه شأن الفدائيين ــ الى اوائل الستينات ، ولكن في حين ان **الفدائيين** نشأوا في معظمهم عن حزب **توده** والجناح الماركسي من **الجبهة الوطنية** فان المجاهدين نشأوا في معظمهم عن الجناح الديني في **الجبهة الوطنية** ، وخاصة من **حركة تحرير ايران** . وكان هذا التنظيم قد شكله في العام ١٩٦١ اثنان من اخلص مؤيدي مصدق : مهدي بازركان واية الله طالقاني . والاول مهندس ذو ثقافة فرنسية ومسلم شديد التدين سبق أن كان عضو في حكومة مصدق واستمر في مساعدة جبهته الوطنية حتى على الرغم من ان نظرة الجبهة العلمانية زادت في اغتراب المؤسسة الدينية باطراد . اما الثاني ــ آية الله طالقاني ــ فكان فريدا بين الزعماء الدينيين ، فهو ــ خلافا لمعظم ايات الله ــ ينتمي لاسرة فقيرة وكان داعيا للاشتراكية ، ينتقد زملاءه علنا لخوفهم من العالم الحديث ، وظل مواليا لمصدق حتى النهاية .

وقد رمى بازركان وطالقاني وجماعتهما من التكنوقراطيين ذوي الثقافة الفرنسية ــ من وراء تأسيس حركة التحرير ــ الى مدجسر بين

الجبهة الوطنية والطبقة الوسطى الحديثة من ذوي المرتبات من ناحية ، والمؤسسة الدينية والطبقة الوسطى من الملاكين من ناحية أخرى . فكانوا يقصدون الى كسر احتكار رجال الدين للامور الدينية ، وتطوير اسلام جديد يمزج بين الملامح المعتدلة للاشتراكية الاوروبية والمثل العليا التقدمية للمذهب الشيعي الايراني المبكر ، ومزايا التكنولوجيا الصناعية مع القيم الثقافية لمجتمعهم التقليدي. وبايجاز فانهم كانوا يهدفون الى صياغة وضع ديني يسيطر عليه العلمانيون ويكون مقبولا لرجال الدين المعادين للشاه ، وخاصة للزعماء الدينيين ، وكذلك للطبقة الوسطى ذات الثقافة الحديثة، وخاصة المثقفين الساخطين . وعلى الرغم من أن حركة التحرير صاغت أهدافا جديدة تماما ، الا أنها واصلت الاعتماد على الوسائل التقليدية السلمية من أجل اضفاء «الليبرالية» على النظام .

وفيما كانت **حركة التحرير** تبدأ في الظهور اندلعت ازمة العام ١٩٦٣ ، فدفعت مجموعة من الشبان والمناضلين الاكثر صلابة لترك هذا التنظيم ليشكلوا حلقة نقاشية خاصة بهم . وكان يتزعم هذه المجموعة تسعة من خريجي جامعة طهران هم : محمد حنيف نزهاد ، سعيد محسن ، محمد بازرجاني ، محمد اصغري زاده ، رسول موشكنفام ، علي أصغر باديزادجان ، أحمد رضائي ، نصير صادق ، وعلي ميهاندوست . وكان حنيفنزهاد — الاكبر سنا بينهم — مهندسا زراعيا تخرج من جامعة طهران . ولد في العام ١٩٣٨ لاسرة من رجال الدين في تبريز وأكمل تعليمه الثانوي في مسقط راسه ثم انتقل الى طهران ليلتحق بالكلية الزراعية ، وهناك شكل ناديا اسلاميا وانخرط في حركة التحرير ، ونتيجة لمظاهرات العام ١٩٦٣ أمضى فترة قصيرة في السجن حيث التقى بأية الله طالقاني . وتخرج حنيفنزهاد من الجامعة بعد اطلاق سراحه ، فتطوع للخدمة العسكرية ، وامضى سنة في حامية اصفهان حيث كان يقرأ كل ما تقع عليه يده عن الثورات المعاصرة في الجزائر وكوبا وفيتنام. وعندما انهى الخدمة العسكرية في العام ١٩٦٥ عاد الى طهران وجمع بعض رفاق دراسته السابقين ، وبهذا وضع الاسس لقيام تنظيم المجاهدين .

كذلك كان بازرجاني — وهو شقيق زوجة حنيفنزهاد — من مواطني ازربيجان وجاء الى طهران للالتحاق بالجامعة . وأثناء

وجوده في كلية ادارة الاعمال انخرط في البداية في **حركة التحرير** ثم في حلقة حنيفنزهاد . اما محسن — وكان مهندسا مدنيا — فكان ازربيجانيا اخر تلقى علومه في جامعة طهران . وكان ينحدر من أسرة فقيرة من رجال الدين في زانجان ، وفاز بمنحة دراسية في كلية الهندسة ، حيث انضم الى نواد دينية والى **حركة التحرير**. وقد أمضى ثمانية اشهر في السجن بعد مظاهرات العام ١٩٦٣ ، ولما حصل على اجازته الدراسية التحق بالجيش لاداء الخدمة العسكرية. وكان اصغري زاده من خريجي كلية ادارة الاعمال ، وكان واحدا من **المجاهدين** القليلين المنحدرين من اسر في الطبقة العاملة . ولد في آراك في وسط ايران ، وتربى بعض الوقت في موطن راسه ، وبعض الوقت في طهران ، وعندما اكمل دراسته الجامعية عمل في طهران وتبزيز لحساب شركة تصنع الالات .. وكان موشكنفام مهندسا تلقى تدريبه في الكلية الزراعية ، وكان ينحدر من أسرةمن الطبقة الوسطى في شيراز . تخرج من جامعة طهران وجند في الجيش وارسل الى كردستان حيث تعلم التركية ووضع — سرا — تقريرا مفصلا عن اثر الراسمالية على طبقة الفلاحين المحلية (*) . اما باديزاديجان فكان استاذا ثانويا للكيمياء ، جاء من أسرة من الطبقة الوسطى في أصفهان . تخرج من جامعة طهران وجند في الجيش وكان موقعه في مصنع رئيسي للاسلحة في طهران . وكان رضائي — وهو المفكر الرئيسي في هذه المجموعة — واحدا من زعماء **المجاهدين** التلائل الذين ولدوا في طهران ، وكان ينتمي لاسرة تاجر صغير يعيش في شمال طهران ، وقد انضم لحركة التحرير بينما كان في الخدمة العسكرية ، ودخل مجموعته السرية بينما كان يعمل معلما في احدى مدارس طهران الثانوية . وقد قتلته السافاك بعد سنوات لاحقة هو وشقيقه الاصغر وشقيقته التي كانت في الثامنة عشرة ، وكانوا جميعا من اعضاء تنظيم **المجاهدين** . اما صادق — وكان مهندسا كهربائيا — فكان ينحدر من أسرة من الطبقة الوسطى الدنيا في شيراز ، وقد كسب شهرة وطنية واسعة،وهو طالب جامعي،بالفوز في عدد من المسابقات الرياضية . واخيرا كان ميهاندوست مهندسا كهربائيا أيضا ، ولد في قزوين ولكنه تلقى علومه في جامعة طهران. وبعد تخرجه من الجامعة انتقل الى اصفهان ، الا انه بقي على اتصال

(*) نشر **المجاهدون** هذا التقرير فيما بعد تحت عنوان **الريف والثورة البيضاء** .

برناته في الدراسة في طهران .

توسعت هذه المجموعة — التي كانت نواتها من هؤلاء التسعة — توسعا تدريجيا ليس فقط في طهران ، انما ايضا في الاقاليم . فشكل ميهاندوست خلية في اصفهان ، وشكل صادق خلية في شيراز ، واصغر زاده في تبريز . وفي الوقت نفسه ذهب بازارجاني وباديزايجان وموشكنفام وثلاثة اعضاء جدد الى الاردن لتلقي تدريب على حرب العصابات من منظمة التحرير الفلسطينية . الاكثر من هذا أن مجموعة المناقشة ، وخاصة حنيفنزهاد ورضائي حذت حذو حركة التحرير في تفسير الاسلام من جديد ، والتوصل في النهاية الى استنتاج بأن الشيعية الحقة لا تقف ضد الطغيان فحسب ، بل هي أيضا تقف ضد الرأسمالية والامبريالية والكهنوتية المحافظة . وفي كتاب بعنوان **حركة الحسين** ذهب رضائي الى أن نظام التوحيد الذي كان النبي يسعى الى تحقيقه كان بمثابة «كومنولث» موحد تماما بفضل « اللاطبقية » ويسعى للخير العام ، كما توحده حقيقة انه يعبد الها واحدا . وذهب رضائي أبعد من هذا قائلا بأن راية الثورة التي رفعها ائمة الشيعة ، وخاصة علي والحسن والحسين ، كانت موجهة ضد ملاكي الارض الاقطاعيين وضد التجار الراسماليين المستغلين ، وأيضا ضد الخلفاء المغتصبين الذين خانوا القضية الحقة لنظام التوحيد . وكان واجب المسلمين كافة — طبقا لرضائي **والمجاهدين** — أن يواصلوا النضال لخلق « مجتمع بلا طبقات » ولتدمير كل اشكال الراسمالية والطغيان والامبريالية . وقد لخص **المجاهدون** موقفهم تجاه الدين بهذه الكلمات : « بعد سنوات من الدراسة المستفيضة في التاريخ الاسلامي والعقيدة الشيعية ، وصل تنظيمنا الى استنتاج راسخ بأن الاسلام — وخاصة المذهب الشيعي — سيلعب دورا رئيسيا في حض الجماهير على الانخراط في الثورة . وسيفعل ذلك لان المذهب الشيعي — وخاصة فعل المقاومة البطولي الذي قام به الحسين — له رسالة ثورية ومكانة اجتماعية في ثقافتنا الشعبية » (١٧) .

واكتسبت الموضوعة القائلة بأن المذهب الشيعي يبشر بثورة اجتماعية مزيدا من التشذيب في خلال اواخر الستينات حينما ساعد **المجاهدون** في تأسيس قاعة للمحاضرات اطلقوا عليها اسم **حسينية الارشاد** ودعوا الدكتور علي شريعتي — الذي صار يعرف فيما

بعد بانه قانون ايران ــ لالقاء سلسلة محاضرات عن الاسلام . وقد ذهب شريعتي ــ كما ذهب **المجاهدون** ــ الى ان النبي كان يرمي الى اقامة « مجتمع بلا طبقات » . وان الامام الحسين ضرب المثل على حق الانسان الثابت في المقاومة ، وان على المسلمين الحقيقيين يقع واجب النضال ضد الحكام الطغاة والمستغلين الاجانب والراسماليين الجشعين ورجال الدين المزيفين الذين يستخدمون الاسلام افيونا لتخدير الجماهير لتستسلم في خنوع . وبتعبير شريعتي نفسه فان تاريخ البشرية منذ قابيل وهابيل هو تاريخ صراع طبقي. من ناحية يقف المقهورون ـــ الشعب . ومن ناحية أخرى يقف القاهرون « الحكام ، الاثرياء ، ورجال الدين (**الملاّت**) » (١٨) . ان من واجب المسلمين المعاصرين أن يكشفوا تعاليم رجال الدين الزائفة ، وأن يحضوا الجماهير للنهوض ضد « الامبريالية العالمية والصهيونية الدولية والاستعمار والاستغلال والقهر ، والتفاوت الطبقي والعبادة العمياء للغرب » (١٩) . والحقيقة أن افكار شريعتي والمجاهدين كانت أيضا وثيقة الصلة الى حد جعل كثيرين يستنتجون ان شريعتي الهم هؤلاء . ولكن في الواقع الفعلي كان المجاهدون قد صاغوا أفكارهم بحلول العام ١٩٦٥ ، اي قبل سنتين من اكتشافهم شريعتي ودعوتهم له لالقاء المحاضرات في **الحسينية** . وأيا كانت بالتحديد العلاقة بين الاثنين فمن الواضح أن شريعتي كان في السنوات اللاحقة يساعد **المجاهدين** بصورة غير مباشرة . فقد سجل على شرائط محاضرات وكتيبات عديدة ـــ بلغت في مجموعها اكثر من ستين عندما قضت عليه نوبة قلبية في ايار (مـــايو) ١٩٧٧ ـــ وزعت في جميع أنحاء ايران ، وخاصة بين طلاب الجامعات والمدارس الثانوية .

بدأ **المجاهدون** عملياتهم العسكرية في آب (اغسطس) ١٩٧١، اي بعد نحو ست سنوات من الوقت الذي كون فيه حنيفنزهاد مجموعة المناقشة السرية . وقد استهدفت عملياتهم الاولى اشاعة الاضطراب في الاحتفالات الايرانية الباذخة بذكرى مرور ٢٥٠٠ سنة على الملكية الايرانية . فبعد أن ضربوا بالقنابل شبكة الكهرباء في طهران وحاولوا اختطاف طائرة تابعة للطيران الايراني ، القت الشرطة القبض على تسعة من **المجاهدين** ، قدم احدهم تحت وطأة التعذيب معلومات أفضت الى اعتقال ستة وستين عضوا آخرين.

وخلال الاشهر التالية فقد تنظيم **المجاهدين** كل قيادته الاصلية خلال عمليات الاعدام او المطاردات بالرصاص . لكن على الرغم من هذه الخسائر بقي تنظيم **المجاهدين** ووجد اعضاء جددا . وقد نشروا صحيفة سرية باسم « جانغال » (الغابة) ، وارسلوا خمسة متطوعين لمساعدة ثوار ظفار في عمان ، وخلال السنوات الاربع التالية نفذوا سلسلة من أعمال العنف ، تضمنت سرقة ستة بنوك ، اغتيال مستشار عسكري امريكي وكذلك مدير شرطة طهران ، ومحاولة اغتيال جنرال اميركي ، والقاء قنابل على ضريح رضا شاه (والد الشاه المخلوع محمد رضا بهلوي) ، ومكاتب شركة طيران العال (الاسرائيلية) والخطوط الجوية البريطانية ، والشركة البريطانية للبترول ، وشل . وبحلول منتصف العام ١٩٧٥ كان خمسون من المجاهدين قد استشهدوا . وكان ٩٠ بالمئة منهم من المثقفين (الانتلجنتسيا) .

وعلى الرغم من أن عضوية **المجاهدين** و **الفدائيين** على السواء كانت في معظمها من جيل الشباب من المثقفين ، الا أنه كانت بينهم — مع ذلك — اختلافات دقيقة في التكوين . فمعظم **المجاهدين** — باستثناء واضح لمؤسسيهم جاءوا من الاقاليم الوسطى ، وخاصة أصفهان وفارس وهمدان . بينما معظم **الفدائيين** ، من ناحية اخرى — جاءوا من مدن الشمال ، وخاصة طهران وتبريز وراشت وغورغان وقزوين ومشهد . وبينما كان كثيرون من **المجاهدين** من أبناء رجال ذوي عقلية دينية من التجار واصحاب المحال ورجال الدين وغيرهم من أفراد الطبقة الوسطى التقليدية ، فان كثيرين من **الفدائيين** كانوا ابناء رجال ذوي عقلية علمانية ، من الموظفين المدنيين ، المعلمين، المهنيين ، وغيرهم من أفراد الطبقة الوسطى الحديثة . وفيما كان جميع **المجاهدين** من أسر شيعية ، فان قليلين من **الفدائيين** كانوا ينتمون لخلفيات غير شيعية — من السنة والارمن والزردشتيين. وبينما كان بين قتلى **المجاهدين** سبع نساء فقط ، فانه كان بين قتلى **الفدائيين** ٢٢ امرأة . وكان المجاهدون يجندون لصفوفهم بصورة واسعة من طلاب العلوم الطبيعية ، وخاصة من كلية التكنولوجيا (البوليتكنيك) في طهران وكلية الهندسة والكلية الزراعية وجامعة آريامهر (الصناعية) . اما **الفدائيون** — على النقيض من ذلك . فكان معظم اعضائهم من دارسي الاداب والعلوم الانسانية والعلوم

الاجتماعية ، وخاصة من كليات الاداب والفنون والاقتصاد والحقوق والعلوم السياسية ، ومعاهد المعلمين . بالاضافة الى هذا فانه بينما أخفق **المجاهدون** في تجنيد اعضاء من بين الطبقات الدنيا ، فان **الفدائيين** وجدوا عددا قليلا من الاعضاء من بين البروليتاريا الصناعية . وقد كان بين قتلى **المجاهدين** اثنان فقط من العمال، اما بين قتلى **الفدائيين** فكان ١٢ عاملا .

وعلى الرغم من ان تنظيم **المجاهدين** كان اسلاميا ، فان تفسيره الثوري للاسلام قد خلق ايديولوجيا لا تختلف كثيرا عن ايديولوجيا **الفدائيين** الماركسية . وكانت تذهب الى أن ايران تخضع لهيمنة الامبريالية ، خاصة الامبريالية الاميركية ، وان الثورة البيضاء قد حولت ايران من مجتمع اقطاعي الى مجتمع بورجوازي يعتمد بشدة على الرأسمالية الغربية ، وأن الامبريالية الثقافية — وكذلك الامبريالية الاقتصادية والسياسية والعسكرية — تهدد وجود البلد ، وان حكم اسرة بهلوي لا يتمتع بتأييد كبير خارج اطار البورجوازية الكومبرادورية ، وان النظام يحكم أساسا بواسطة الارهاب ، والترويع ، والدعاية ، وان السبيل لتبديد « جو الارهاب » هو من خلال أعمال العنف . وذهبت ايديولوجيا التنظيم ايضا الى انه ما ان ينهار نظام الحكم حتى تنفذ الثورة اصلاحات جذرية تنهي التبعية للغرب ، وتبني مجتمعا مستقلا ، وتعطي حرية التعبير للجماهير ، وتعيد توزيع الثروة ، وتخلق — بوجه عام — نظام التوحيد « اللاطبقي » . والحقيقة أن هذه الافكار كانت أيضا قريبة للغاية من أفكار **الفدائيين** حتى أن الحكم وصف **المجاهدين بأنهم** « ماركسيون اسلاميون » وزعم ان الاسلام ليس أكثر من غطاء لاخفاء ماركسيتهم. ورد **المجاهدون** على ذلك بأنهم وان كانوا « يحترمون الماركسية كفلسفة اجتماعية تقدمية » ، فان ثقافتهم الحقة والهامهم وتعلقهم ، وعقيدتهم هي الاسلام (٢٠) . وفي كتيب بعنوان **رد على افتراءات الحكم** لخص المجاهدون موقفهم من الماركسية والاسلام على السواء بقولهم :

ان الشاه مذعور من الاسلام الثوري . وهذا هو السبب في انه يظل يصيح بان المسلم لا يمكن ان يكون ثوريا . ففي ذهنه ان الانسان اما ان يكون مسلما أو يكون ثوريا ، ولا يمكن ان يكونهما معا . ولكن العكس هو الصحيح تماما في عالم الواقع . فالانسان يكون مسلما

حقا فقط اذا كان ثوريا . والمسلم اما ان يكون ثوريا او لا يكـــون مسلما حقا . وفي القرآن كله لا يوجد مسلم واحد لم يكن ثوريـــا ... ان الحكم يحاول ان يخلق هوة بين المسلمين والماركسيين . ومـــع ذلك ففي اعتقادنا انه لا وجود الا لعدو رئيسي واحد ــ هـــو الامبريالية والمتواطئون المحليون معها . ان السافاك حين تطلـــق النار تقتل مسلمين وماركسيين على السواء . وهي حينما تعـذب، فانما تعذب مسلمين وماركسيين . وبالتالي ، ففي الوضع الراهـــن هناك وحدة عضوية بين الثوريين المسلمين والثوريين الماركسيين . وفي الحقيقة لماذا نحترم الماركسية ؟ بالطبع ان الاسلام والماركسية ليسا متطابقين . ومع ذلك فان الاسلام هو بالتاكيد اقرب للماركسية منه الى البهلوية . فالاسلام والماركسية يعلمان الدروس ذاتهـــا ، لانهما يحاربان ضد الظلم . والاسلام والماركسية يحتويان عـــلى الرسالة نفسها ، لانهما يلهمان الشهادة والنضال والتضحية بالذات. من اقرب الى الاسلام : الفيتنامي الذي يقاتل ضد الامبريالية الامريكية، او الشاه الذي يساعد الصهيونية ؟ لان الاسلام يحارب القهر فانـــه سيعمل جنبا الى جنب مع الماركسية التي تحارب القهر ايضا . ان لهما عدوا واحدا : الامبريالية الرجعية (٢١) .

بل ان المجاهدين أصبحوا اكثر اهتماما بالماركسية في السنوات التي تلت العام ١٩٧٢ . وبحلول نهاية العام ١٩٧٣ كانوا يقراون على نطاق واسع عن الثورات الفيتنامية والكوبية والصينية والروسية. وبحلول منتصف العام ١٩٧٤ كانوا يرسلون منظمين الى المصانـــع للتحريض بين عمال الصناعة . وبحلول أوائل العام ١٩٧٥ كان بعض قادتهم يتحدث عن الحاجة الى المزج بين الاسلام والماركسية . وفـــي ايار (مايو) ١٩٧٥ اقترعت غالبية زعمائهم في طهران الى جانب قبول الماركسية واعلان التنظيم تنظيما ماركسيا ــ لينينيا . وفـــي كتيب بعنوان **بيان حول قضايا ايديولوجية** اعلنت القيادة المركزيـــة للتنظيم انها بعد عشر سنوات من الوجود السري واربع سنوات مـــن الكفاح المسلح ، وسنتين من المراجعة الايديولوجية المكثفة توصلت الى نتيجة مفادها أن الماركسية ــ لا الاسلام ــ هي الفلسفة الثورية الحقة (٢٢) . وطبقا لهذا البيان فانهم توصلوا الى هذه النتيجة لان الاسلام يجتذب اساسا « الطبقة الوسطى » في حين أن الماركسيـــة هي « خلاص الطبقة العاملة » .

وقد وصف هذا التحول وصفا حيويا مجتبى طالقاني ــ نجـــل

آية الله طالقاني — في رسالة الى والده :

لقد مرت الان سنتان كاملتان منذ ان غادرت الوطن ، وانخرطت في العمل السري وفقدت اتصالي بك . ونظرا لاحترامي العميق لـك وبسبب السنوات العديدة التي امضيناها معا نحارب الامبرياليـة والرجعية ، فانني احس بالحاجة لان اشرح لك السبب في انني والاسرة التي تتبنلني قد قررنا ان ندخل تغييرات رئيسية فيتنظيمنا... لقد تعلمت منذ ايامي الاولى بجوارك كيف ابغض هذا الحكم الطغياني المتعطش للدماء . ولقد عبرت دائما عن كراهيتي من خلال الديـن ، من خلال تعاليم محمد وعلي والحسين النضالية . واحترمت دائمـا الاسلام كتعبير عن الجماهير الكادحة التي تناضل ضد القهـر ... مع ذلك فانني بدات في السنتين الاخيرتين في دراسـة الماركسية . وكنت من قبل اعتقد ان باستطاعة المثقفين المناضلين ان يدمـروا النظام . اما الان فانني مقتنع بان علينا ان نتحول صوب الطبقـة العاملة . ولكن ، لتنظيم الطبقة العاملة ، يتعين علينا ان نرفضـ الإسلام ، لان الدين يرفض القوة الدينامية الرئيسية المحركة للتاريخ، قوة الصراع الطبقي . وبطبيعة الحال فان باستطاعة الاسـلام ان يلعب دورا تقدميا ، خاصة في تعبئة المثقفين (الانتلجنتسيا) ضـد الامبريالية،ولكن الماركسية وحدها هي التي تقدم تحليـلا علميـا للمجتمع وتتطلع قدما الى الطبقات المستغلة لكي تحقق التحرير . من قبل اعتدت ان اعتقد ان اولئك الذين يؤمنون بالمادية التاريخيـة لا يستطيعون ان يقدموا التضحية الاسمى لانهم لا يؤمنـون بالحياة الآخرة . اما الان فانني اعرف ان اسمى تضحية يمكن للمـرء ان يبذلها هي ان يموت من اجل تحرير الطبقة العاملة (٢٣) .

تسبب هذا التحول في انشقاق حاد داخل **المجاهدين** ، فبينمـا أيد نصف الاعضاء — ومعظمهم من طهران — التغيير ، فان النصـف الاخر بقي اسلاميا ، ورفض التخلي عن اسم **المجاهدين** ، واتهـم منافسيه بتدبير انقلاب واغتيال أحد قادته وفضح أمر اثنين للشرطة. وهكذا أصبح هناك بعد أيار (مايو) ١٩٧٥ تنظيمان **مجاهديـن** متنافسان كل منهما قائم بذاته ، له منشوراته ونشاطاته الخاصـة . وقد شملت نشاطات **المجاهدين الاسلاميين** سرقة بنك في اصفهان ، والقاء قنبلة على المركز الثقافي الاسرائيلي في طهران ، واضرابا فـي جامعة آريامهر (الصناعية) بمناسبة الذكرى السنوية الرابعـة لاعدام مؤسسيهم . اما نشاطات **المجاهدين الماركسيين** فشملـت

القاء القنابل على مكاتب شركة آي.تي.تي.، واغتيال اثنين من المستشارين العسكريين الامريكيين . وفي خلال الاشهر الاربعة عشر التالية استشهد ثلاثون عضوا من **المجاهدين الماركسيين** ، وكانت بينهم امرأة من جامعة طهران ، وكانت أول امرأة في التاريخ الايراني كله تعدم رميا بالرصاص .

بحلول بداية العام ١٩٧٦ كان تنظيما **المجاهدين** ، شأنهم في ذلك شأن **الفدائيين** ، قد تكبدوا خسائر جسيمة جعلتهم يبدأون في اعادة النظر في تكتيكاتهم . فكثف **المجاهدون الاسلاميون** نشاطهم في حرم الجامعة ، ووزعوا منشوراتهم ومنشورات شريعتي ، واقاموا اتصالا مع **رابطة الطلبة الاسلاميين** في اميركا الشمالية واوروبا الغربية . وفي الوقت نفسه كثف **المجاهدون الماركسيون** نشاطهم وسط العمال ، ودعوا لاقامة « حزب طبقة عاملة » جديد ، وشرعوا في اصدار صحيفة باسم « ثورة العمال » ، وأقاموا روابط مع الماويين الذين كانوا يتزعمون الاتحاد العام للطلبة الايرانيين في أوروبا الغربية . كما دخلوا في مفاوضات مع **الفدائيين** لدمج التنظيمين ، ولكن محادثاتهم سريعا ما انهارت على أساس أن هؤلاء الاخيرين (الفدائيين) ظلوا متمسكين بأفكارهم الغيفارية ورفضوا استنكار « الامبريالية الاشتراكية » السوفياتية وتوددوا سرا مع « كيانات مريبة » مثل الجبهة الوطنية وحزب توده (٢٤) . واتهم تنظيم **الفدائيين** من جانبه **المجاهدين الماركسيين** « بالقبول الاعمى بالماوية » (٢٥) وأعلن انه يتراجع عن الاندماج مع تنظيم أهرق دم المجاهدين الاسلاميين واستنكر الاسلام بطريقة سافرة باعتباره « ايديولوجيا بورجوازية صغيرة » .

وهكذا عندما بدأت الانتفاضة الثورية في أواخر العام ١٩٧٧ كانت هناك أربع مجموعات منفصلة من رجال حرب العصابات — **الفدائيون** ، **فدائي منشب** ، **المجاهدون الاسلاميون** ، **المجاهدون الماركسيون** — ، لا تزال تؤدي مهاما في ايران ، وان كانت المجموعات الثلاث الاخيرة قد قررت أن تتحاشى المواجهات العسكرية . واحتفظت المجموعات الاربع بتنظيماتها في حالة سليمة كما احتفظت كلها بما لديها من أسلحة . واستمرت المجموعات الاربع في نشر صحفها وتجنيد أعضاء من الجامعات وارسال منظمين الى المصانع . وكانت المجموعات الاربع قد اكتسبت خبرة ليس في العمل المسلح فحسب، بل اكتسبت ايضا نوعا من صوفية البطولة الثورية . وبايجاز فان

المجموعات الاربع جميعا كانت مجهزة جيدا للتحرك نحو العمل والاستفادة من الوضع الثوري .

الثورة وما بعدها

ازدادت قوة تنظيمات حرب العصابات في أواخر العام ١٩٧٧ وأوائل العام ١٩٧٨ حينما اضطر الشاه تحت ضغط المظاهرات الجماهيرية والاضرابات العامة ومجموعات حقوق الانسان الدولية ، الى العفو عن ٦١٨ سجينا سياسيا . وعلى الرغم من أن العفو لم يشمل زعماء حركة حرب العصابات الذين كانوا يقضون أحكاما بالسجن المؤبد ، فانه ادى لاطلاق سراح اكثر من ١٠٠ من الاعضاء العاديين المحكومين بمدد أقصر . وازدادت قوة فدائي منشعب اكثر في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩ حينما انتخبت اللجنة المركزية لحزب توده زعيم الجناح اليساري للحزب امينا أول لها واعلنت انه ما دام الوضع الموضوعي مهيأ للثورة ، وما دامت الاحتجاجات السلمية بحد ذاتها لم تستطع أن تفجر الثورة ، فان الحزب بحاجة لان يوزع السلاح وأن « يستعد لصراع مسلح » (٢٦).

وهكذا في الايام الاخيرة للملكية ، حينما كان مهدي بازرجان يتفاوض سرا ــ نيابة عن آية الله الخميني ــ مع الولايات المتحدة وقادة « السافاك » ورؤساء أركان القوات المسلحة من أجل نقل منظم للسلطة ، شنت تنظيمات حرب العصابات الاربعة هجوما واسعا على بقايا الجيش . وطبقا لروايات شهود عيان فان الانهيار النهائي جاء في الايام ١٠ــ١٣ شباط (فبراير) حينما هاجم الحرس الامبراطوري ــ المنتقى ــ القاعدة العسكرية الرئيسية في طهران لاخماد تمرد بين طلاب كلية سلاح الجو والتقنيين في هذا السلاح. فبمجرد أن بلغت انباء الهجوم رجال حرب العصابات حتى عبأوا اعضاءهم ووزعوا البنادق على المتعاطفين معهم واندفعوا بكل قوتهم لمساعدة طلاب الطيران وتقنييه المحاصرين . وعندما نجح رجال حرب العصابات في صد الحرس الامبراطوري أمضوا الايام الثلاثة التالية يفتحون أبواب السجون ومراكز الشرطة ، ومخازن الاسلحة، والقواعد العسكرية الرئيسية في طهران . وقد وقعت أحداث مماثلة في الاقاليم ، وخاصة في تبريز وعبدان وهمدان وكرمنشاه ويزد وأصفهان ومشهد وبابول . وذكرت صحيفة ايرانية ــ نقلا عن وكالة الانباء الايرانية ــ انه في طهران وحدها سقط ٦٥٤ قتيلا، واصيب ٢٨٠٤ اشخاص بجروح خطيرة اثناء هذه « الايام الثلاثة

الاخيرة التي هزت أسس الملكية التي دامت ٢٥٠٠ عام » (٢٧) . وكتبت صحيفة **نيويورك تايمز** انه خلال ٤٨ ساعة تمكن المدنيون، المزودون بأسلحة خفيفة فقط من أن يجتثوا جذور الحرس الامبراطوري (٢٨) . وذكرت صحيفة **لوموند** ان رجال حرب العصابات وحدهم نجحوا في ان ينحوا باحتقار الجيش الذي كان يوما جيشا منيعا (٢٩) . وكتبت صحيفة **كايهان** (الايرانية) انه خلال هذه الايام الختامية لعب الدور الحاسم « **المجاهدون والفدائيون وفدائي — منشب** وحزب **توده** » (٣٠) . واخيرا قال بازرجان — على اثر تشكيل حكومته — في مقابلة مع التليفزيون الفرنسي « ان الثورة لن تنسى الدور الذي لعبه رجال حرب العصابات وحزب توده » (٣١) .

منذ انتصار الثورة اتخذت تنظيمات حرب العصابات الاربعة دروبا متفرقة . من ناحية اخرى اندمج تنظيم **فدائي — منشب** مع **توده** ، واعطى تأييدا مشروطا للحكومة المركزية برئاسة بازرجان وللمجلس الثوري الذي شكله آية الله الخميني . وقد ايد هذا التنظيم الادارة الجديدة ، والمجلس الثوري بصفة خاصة ، على أساس أن ايران لا تزال مهددة بثورة مضادة ملكية ، وان من الممكن تشجيع الحكم الجديد على أن يصبح اكثر تقدمية واكثر ديمقراطية، واكثر عداء للامبريالية (٣٢) . ولكنه في الوقت نفسه انتقد الادارة الجديدة لاستخدامها القوة لحل المشكلة الكردية ، ولاخفاقها في خلق عمل لثلاثة ملايين عاطل ، ولعدم قطعها الروابط العسكرية مع الغرب ، ولعرقلتها نشاطات مجالس العمال والفلاحين والجنود . كما انتقدت « عناصر » لم تسمها لخلقها زمرة من الافاقين باسم « حزب الله » ، واستئجار قطاع الطرق لتحطيم مكاتب الصحف واقتحام الاجتماعات السياسية واحراق المكتبات وحتى لقتل اليساريين .

من ناحية اخرى تحاشت تنظيمات **الفدائيين** و **المجاهدين الاسلاميين** والمجاهدين الماركسيين . الذي اصبح يطلق عليه اسم **بايكار** — انتقاد الخميني في بياناتها المطبوعة باعتبار انه رمز الثورة ، ولكنها استنكرت علنا الحكومة باعتبارها « محافظة » ، « دينية » ، « دكتاتورية » وحتى « فاشية » وهاجمت هذه التنظيمات بازرجان لرفضه انشاء جيش شعبي جديد ، ومحاولته جمع الاسلحة التي كانت قد وزعت على الشعب في خلال شهر شباط (فبراير)

١٩٧٩ ، ولعدم اصداره اي مرسوم يعلن أي نوع من الاصـــلاح الزراعي .وبالاضافة الى هذا فانهم اتهموا المجلس الثوري ــ الذي يسيطر على المدعين العامين الثوريين ، والمحاكم الثورية وعلى كثير من اللجان المحلية ــ بفرض الرقابة على الاذاعة الوطنية وشبكة التليفزيون الايرانية ، واغلاق اثنتين وعشرين صحيفة ، بينهـــا صحف هذه التنظيمات ، واعتقال المناضلين المعادين للشاه مجــددا ــ حيث اعتقل أحد زعماء **المجاهدين الاسلاميين** لمدة تسعة اشهـــر بتهمة انه « جاسوس روسي »، واثارة نعرات التعصب الدينـــي لتشويه واغتيال ثوار كانوا قد خاطروا بحياتهم لمحاربـــة الشاه ، واستخدام الميليشيات المسلحة لاحتلال ونهب واغلاق مكاتب تنظيمات حرب العصابات . وعلاوة على هذا انتقدت التنظيمات المجلـــس الثـــوري لرفضه ترك الخيار للناخبيـــن بين جمهورية اسلاميـــة وجمهورية اسلامية ديمقراطية ــ وهو اختيار كان بازرجان قد وعـــد به في ذروة الثورة ، ولتزويره انتخابات جمعية الخبراء التي دعيـــت لدراسة مسودة دستور الجمهورية الاسلامية ، ولتحويله الجمهوريـــة الاسلامية الى جمهورية رجال الدين المحافظين حيث سيمارس الخبراء الدينيون غير المنتخبين سلطة على المسؤولين والنواب المنتخبـــين، وحيث ستشجع النساء على حصر أنفسهن في نطاق « حيـــاة الاسرة » ، وحيث لن يندمج هدف خلق « مجتمع بلا طبقات » فـــي الفكرة الكلية ، فكرة نظام التوحيد . بالاضافة الى هذا،وقـــف **الفدائيون وبايكار** في صف الاقليات العرقية ضد الحكومة المركزيـــة، وطالبوا بحكم ذاتي للاقاليم ، وارسلوا متطوعين لمساعدة الثائريـــن الاكراد والتركمان والعرب والبلوش . وبايجاز فان **فدائـــي ــ منشب وتوده** يدعولن لتعزيز المكاسب التي تحققت بواسطة « الثورة الوطنية البورجوازية » ، و **الفدائيين والمجاهدين الاسلاميين** وتنظيم **بايكار** يأملون في توجيه انتفاضة شباط (فبراير) الى تحويل اجتماعي راديكالي ودفع « الثورة الوطنية البورجوازية » الى « ثورة اشتراكية للعمال والفلاحين » . والتاريخ وحده ــ وما يرافقه مـــن ادراك للاحداث بعد وقوعها ــ سيكون قادرا على الحكم على الفضائـــل النسبية لكل من هاتين الاستراتيجيتين .

هوامش

(١) جمعت المعلومات عن قتلى حرب العصابات من مقابلات وتقارير قدمتها الى اللجنة الدولية للمحلفين في الفترة ١٩٧٤ — ١٩٧٥ ، ومن الصحف التالية :

— **بختاري ايمروز** (الغرب اليوم) وهي لسان حال الجبهة الوطنية في الشرق الاوسط ، اب (أغسطس) — كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٦ . وكانت هذه الصحيفة تتعاطف مع الفدائيين .

— **المجاهد** ، لسان حال حركة التحرير في المنفى ، حزيران (يونيو) ١٩٧٢ — كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٨ . وكانت هذه الصحيفة تتعاطف مع المجاهدين الاسلاميين .

— **خبر نامه** (النشرة الاخبارية) لسان حال الجبهة الوطنية في المنفى ، آذار (مارس) ١٩٦٩ — كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩ . وكانت هذه الصحيفة تتيح تغطية واسعة للفدائيين و المجاهدين الاسلاميين على السواء .

— **ماردوم** (الشعب) الصحيفة المركزية لحزب توده ، كانون الثاني (يناير) ١٩٧١ — شباط (فبراير) ١٩٧٩ .

— **دنيا** (العالم) الصحيفة النظرية لحزب توده ، كانون الثاني (يناير) ١٩٧١ — شباط (فبراير) ١٩٧٩ .

— **ستاره سرخ** (النجمة الحمراء) لسان حال التنظيم الثوري لحزب توده ، ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ — شباط (فبراير) ١٩٧٩ .

— **اطلاعات** (المعلومات) الصحيفة الرئيسية في طهران . كانون الثاني (يناير) ١٩٧١ — كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٩ .

— **كايهان** (العالم) الصحيفة الرئيسية الثانية في طهران ، كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩ — ايلول (سبتمبر) ١٩٧٩ .

— **ايا نديجان** (المستقبل) الصحيفة الرئيسية الثالثة في طهران ، كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩ — نيسان (ابريل) ١٩٧٩ .

— **كار** (العمل) لسان حال الفدائيين بعد ثورة ١٩٧٩ .

— **نابادري خلق** (نضال الشعب) الصحيفة النظرية للفدائيين بعد ثورة ١٩٧٩ .

— **جانفال** (الغابة) لسان حال المجاهدين الاسلاميين ، حزيران (يونيو) ١٩٧٢ — كانون الثاني (يناير) ١٩٧٥ .

— **المجاهد** ، الصحيفة الرئيسية للمجاهدين الاسلاميين بعد ثورة ١٩٧٩ .

— **قيامي كارجار** (انتفاضة العمال) لسان حال المجاهدين الماركسيين ، حزيران (يونيو) ١٩٧٦ — تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٨ .

— **بايكار** (المعركة) ، لسان حال المجاهدين الماركسيين بعد ثورة ١٩٧٩ .

— **ازادي** (الحرية) لسان حال الجبهة الوطنية الديمقراطية ، آذار (مارس) ١٩٧٩ — آب (أغسطس) ١٩٧٩ .

— **بوليتين** (النشرة) لسان حال لجنة الدفاع عن حقوق المسجونين السياسيين ، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨ — شباط (فبراير) ١٩٧٩ .

— **هامباستيجي** (الاتحاد) الصحيفة المشتركة لجمعية الكتاب ومنظمة الكليات الجامعية ، ولجنة الدفاع عن حقوق المسجونين السياسيين ، كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٨ — شباط (فبراير) ١٩٧٩ .

— **جونبيش** (الحركة) صحيفة مستقلة تكشف حوادث انتهاك حقوق الانسان ، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨ — آذار (مارس) ١٩٧٩ .

— **ايران شهر** (ارض ايران) صحيفة مستقلة كانت تنشر في لندن ، ايلول (سبتمبر) ١٩٧٨ — تموز (يوليو) ١٩٧٩ .

2- Amnesty International, **Annual Report, 1974-75** (London, 1975).

3- Anonymous, «Armed Struggle,» **Mujahed**, Vol. I, No. 4 (November 1974), pp. 5-6.

4- The history of the **Feda'-i** has been obtained from the following sources: The **Feda'-i** Organization, **Hasht Sal Mobarezeh-i Maslehaneh** (Eight Years of Armed Struggle) (Tehran, 1979), pp. 1-29; The **Feda'-i** Organization, **Tarikhcheh-i Sazman-i Cherik-ha-yi Feda'-i** (A Short History of the **Feda'-i** Guerrillas) (Tehran, 1979), pp. 1-29; The **Feda'-i** Organization, **Tahlil-i Yek Sal-i Mobarez** (Study on One Year of (Struggle) (n.p., 1974), pp. 1-28; Anonymous, «Life o f Poyan,» **Iranshahr**, No. 11 (5 January 1979), p. 5; H. Ashraf, **Jam'iband-i Seh Saleh** (An Evaluation of Three Years) (Tehran, 1979), pp. 1-107; Y. Zarkar, **Khaterat-i Yek Cherik dar Zendan** (The Memoirs of One Guerrilla in Prison) (Tehran, 1973), pp. 1-241; A. Dehqani, **Hamaseh-i Moqavemant** (Epic of Resistence) (n.p., 1974), pp. 1-248.

(٥) تبقى الروابط المبكرة بين **توده والفدائيين** غامضة . فعلى الرغم من أن **توده** عارض نظرية حرب العصابات ، كان رضا رادمانيش ، الامين الاول ومدير عمليات الحزب في الشرق الاوسط ، قد ساعد فرماني واشتياني — ويفترض ان ذلك تم دون تخويل من اللجنة المركزية . وحينما نشرت « السافاك » وثائق للبرهنة على هذه الصلة استدعت اللجنة المركزية رادمانيش الى اوروبا وعينت أمينا أول اخر .

6- Ashraf, **op. cit.**, p. 92.

7- P. Poyan, **Zarurat-i Mobarezeh-i Maslehaneh va Rad-i Teor-yi Baqa** (The Need for Armed Struggle and the Rejection of the Theory of Survival) (n.p., 1972), pp. 7-9.

8- M. Ahmadzadeh, **Mobarezeh-i, Aslehaneh: Ham Estrategi Ham Taktik**

(Armed Struggle: Both A Strategy And A Tactic) (Tehran, 1979), pp. 27-30.

9- B. Jazani, **Tarikh-i Siy Saleh-i Iran** (Thirty Year History of Iran) (Tehran, 1979), pp. 69-89.

10- Ahmadzadeh, **op. cit.**, pp. 11-13; Anonymous, «The Thoughts of Mao and Our Revolution,» **Nabard-i Khalq**, No. 2 (March 1974), pp. 38-48.

11- Jazani, **op. cit.**, pp. 8-67; Ahmadzadeh, **op. cit.**, pp. 12-13; The **Feda'-i** Organization, **I'dam-i Inqelab-i 'Abbas Shahriyar** (The Revolutionary Execution of 'Abbas Shahriyar) (n. p., 1974), pp. 71-142. 'A. Nabdel, **Azerbayjan va Masaleh-i Melli** (Azerbayjan and the Nationality Problem) (n.p., 1973), pp. 18-32.

12- F. Javan, **Cherik-ha-yiKhalq Cheh Meguyand** (What Are the Guerrillas Saying (n.p., 1972), pp. 1-33; E. Tabari, «This Is Not Marxist-Leninism,» **Donya**, Vol. XII, No. 4 (Autumn 1971), pp. 31-41; N. Kianouri, «On Methods of Struggle,» **Donya**, Vol. I, No. 2 (July 1974), pp. 1-10; Anonymous, «Message to the **Feda'-i**,» **Donya**, Vol. I, No. 5 (November 1974), pp. 1-7; N. Kianouri, «Again A Message to the **Feda'-i**,» **Donya**, Vol. II, No. 3 (June 1975), pp. 7-16; N. Kianouri, «The **Feda'-i** and the Tudeh Party,» **Donya**, Vol. II, No. 4 (July 1975), pp. 2-10. M. Akhgar, «Views on the Writings of the **Feda'-i**,» **Donya**, Vol. III, No. 2 (April 1976), pp. 11-18.

13- For a history of radicalism among the Gilan peasantry, see: F. Kazemi and E. Abrahamian, «The Nonrevolutionary Peasantry of Modern Iran,» **Iranian Studies**, Vol. XI, Nos. 1-3 (1978), pp. 259-304.

14- T. Haydari-Begund, **Teor-yi 'Tabligh-i Maslehaneh' Enheraf Az Marksism-Leninism** (The Theory of 'Armed Propaganda' Deviats from Marxism-Leninism) (n. p., 1978), pp. 1-81.

15- The **Feda'-i Munsh'eb**, **Zindehbad Hizb-i Tudeh** (Long Live the Tudeh Party) (Tehran, 1978), pp. 1-15.

(١٦) حصلنا، على تاريخ المجاهدين من المصادر التالية :

The **Mujahedin** Organization, **Sharh-i Tasis va Tarikhcheh-i va Vaqa'eh-i Sazman-i Mujahedin** (An Account of the Formation, Short History, and the Major Events of the **Mujahedin**) (Tehran, 1979), pp. 1-87; The **Mujahedin** Organization, **As Zindeg-yi Inqelabiyun Dars Begirim** (Let Us Learn Lessons from the Lives of Revolutionaries) (n. p. 1974), pp. 1-32; The **Mujahedin** Organization, **'Ali Mehandoust va Mehdi Reza'i** ('Ali Mehandoust and Mehdi Reza'i) (n.p., 1973), pp. 1-135; The

Mujahedin) (n.p., 1972), pp. 1-101; The **Mujahedin** Organization, **Akharin Dafa'** (Last Defence) (n.p., 1971), pp. 1-22; The **Mujahedin** Organization, **Matn-i Dafa'at-i Shahid Sa'ed Mohsen** (Text of the Defence Speech of Martyr Sa'ed Mohsen) (n.p., 1972), pp. 1-45; The **Mujahedin** Organization, **Sazmandi va Taktikha** (Tactics and Organizational Matters) (n.p., 1974), pp. 1-131; The **Mujahedin** Organization, **Qesmati Az Dafa'at-i Mujahedin** (Extracts from the **Mujahedin** Defence Speeches) n.p., 1972), pp. 1-29.

17- The **Mujahedin** Organization, **Shahr-i Tasis...,** p. 44.

18- 'A. Shari'ati, **Islam Shenasi** (Islamology) n.p., 1972), Lessons 1-2, pp. 88-93.

19- 'A. Shari'ati, **Shi'i: Yek Hèzb-i Tamam** (The Shi'i: A Total Party) (n. p., 1976), p. 55.

20- The Mujahedin Organization, **Dafa'at-i Naser Sadeq** (The Defence Speech of Naser Sadeq) (n.p., 1972), p. 24.

21- The **Mujahedin** Organization, **Pasokh Beh Etemat-i Akher-i Rezhim** (An Answer to the Regime's Latest Slanders) n.p., 1973), pp. 10-13.

22- The **Mujahedin** Organization, **Buyanyeh-i E'lam-i Movaz'-i Iedoluzhek** (Manifesto on Ideological Issues) (n. p., 1975), pp. 1-246.

23- M. Taleqani, «Letter to My Father,» **Mujahed,** No. 6 (July 1976), pp. 131-44.

24- The **Mujahedin** Organization, **Masa'il-i Had-i Janbesh-i Ma** (The Critical Problems of Our Movement) (n.p., 1977), pp. 1-392.

25- The **Feda'-i** Organization, **Nashrieh-i Vazheh-i Bahas Darun-i Dow Sazman** (Special Documents on the Debate Between the Two Organizations) (n.p., 1977), pp. 1-76.

مشاركة الريف في الثورة

ايريك هوغلوند

مقدمة

كان الانغماس الواسع النطاق للطبقة الدنيا في المظاهرات العديدة التي ادت الى ازالة الملكية واقامة جمهورية اسلامية واحدا من أكثر الخصائص اثارة في الثورة الايرانية . وكان مما اثار الاهتمام بشكل خاص مشاركة الشباب من أصل قروي . فقد كانت نشاطاتهم — على النقيض من المشهد المعتاد لطبقة الفلاحين الايرانية السلبية — ذات نطاق واسع نسبيا (١) . واذا اخذنا بعين الاعتبار الافتقار الى دليل على نشاط سياسي منظم للفلاحين قبل العام ١٩٧٨ ، فأن تسيسهم يبدو ملحوظا للغاية . وهكذا يصبح من الطبيعي أن نتساءل لماذا كانوا منغمسين — خاصة الشباب الريفي — بمثل هذه الدرجة من النشاط .

يمكن أن يعزى جزء من تفسير مشاركتهم الى التغيرات الاقتصادية — الاجتماعية في الريف الايراني منذ العام ١٩٦٢ . ذلك أن برنامج الاصلاح الزراعي الذي استكمل على مراحل استغرقت فترة عشرة سنوات ابتداء من العام ١٩٦٢ ، أفاد كحافز مباشر لتغييرات اقتصادية ريفية (٢) . وبينما افادت عملية اعادة توزيع الاراضي نسبة أكبر من سكان الريف من البرامج المماثلة في بلدان الشرق الاوسط ، فان اثارها الطويلة الامد لم تكن ايجابية بالنسبة للاغلبية الساحقة من الفلاحين . اولا ، استبعد نحو نصف الاسر القروية من استلام الاراضي لان أرباب هذه الاسر الذكور لم تكن تربطهم اتفاقات مشاركة على المحصول مع ملاكي الاراضي . ثانيا ، من بين النصف الاخر من الفلاحين الذين استلموا ارضا حصل نحو ٨٤ بالمئة على أقل من ١٠ هكتارات ، مبعثرة عادة في قطع صغيرة عديدة غير متجاورة . وقد ثبت أن هذا لا يكفي حتى لتأمين الكفاف للعيش في السبعينات .

● ايريك هوغلوند : Eric J. Hooglund انتروبولوجي ، شهد تطورات الثورة الايرانية ، ١٩٧٨ ، حين كان استاذا في شيراز . يعمل حاليا في كلية Bowdin College في الولايات المتحدة .

● اعد هذا البحث في كانون الاول ، ديسمبر ، ١٩٧٩ ، وسينشر في MERIP .

ثالثا ، أن حوالي نصف الارض ــ وخاصة أجود انواع التربة ــ لم يخضع لاعادة التوزيع ، انما بقي تحت سيطرة ملاكي الارض الغائبين. لقد وفرت هذه الحقول ــ مبدئيا ــ عملا للقرويين ، ولكن مع نمو مزارع تجارية تعتمد على المكننة لانتاج محاصيل لاغراض التصدير والصناعة ، فان الطلب على الايدي العاملة اخذ في التناقص ، مما ادى الى تشديد حدة المنافسة بين العمال المعدمين وصغار المزارعين على فرص العمل المحدودة المتاحة . وفي النهاية فان سياسات الحكومة الرامية الى تحقيق استقرار لاسعار السلع أبقت اسعار القمح والغلال الاخرى منخفضة بطريقة مصطنعة ، بينما كانت تكاليف كل السلع والخدمات ترتفع بمعدلات تضخمية عالية . وبحلول العام ١٩٧٧ كانت النفقات الفعلية للمزارع لانتاج طن واحد من القمح أو الارز تفوق ثمن هذه السلع في سوق المفرق داخل المدن ، حيث كانت الحكومة تقدم دعما ماليا كبيرا للمواد الغذائية الاساسية .

ادى الاثر المتشابك لهذه التغييرات الاقتصادية الى نزوح هائل من الريف الى المدن في خلال السبعينات . وبينما كانت هذه الحركة كبيرة بالفعل منذ منتصف الخمسينات على الاقل ، فان العملية تسارعت بشكل حاد ودرامتيكي حوالي الفترة ١٩٧٢ ــ ١٩٧٣ . وعلى الرغم من ان جذور النزوح كانت تكمن في الاحوال الاقتصادية الريفية ، فان الحافز اليه جاء من الانتعاش الاقتصادي العام الذي خلقته ايرادات النفط . وكانت الخاصية الاساسية التي ميزت هذا الانتعاش ــ من منظور الفلاحين ــ هي صناعة البناء . وهكذا فان الشبان القرويين شكلوا المصدر الرئيسي للعمل لهذا القطاع . وفي ذروة انتعاش صناعة البناء ــ خلال الفترة من منتصف العام ١٩٧٥ تقريبا الى نهاية العام ١٩٧٧ ــ جرى استخدام اكثر من مليون رجل في مواقع البناء في انحاء البلد .

وكان لحركة انتقال القرويين الى المناطق الحضرية اكبر الاثر في اكبر المدن : طهران ، أصفهان ، مشهد ، تبريز ، شيراز ، والاحواز . ومع ذلك فان كل مدينة يزيد عددسكانها على ٥٠ الف شخص قد شهدت بالفعل نزوحا الى داخلها خلال السبعينات ، وكان اغلبها ينمو تعداده بمعدلات سنوية تتراوح من ٤ الى ٦ بالمئة. وفي جميع المدن كان النازحون الريفيون ينحون نحو التوطن في أحياء الطبقة الدنيا ، وكان ذلك غالبا في أكواخ قذرة يبنونها بالطين والتنك ، أو حتى في خيام .

ومثل هذه المناطق تفتقر عادة الى كل الخدمات الاساسية لحياة المدن مثل الكهرباء والمياه الجارية في الانابيب ونظام تصريف المجاري كما أنها تتميز بكثافة سكانية عالية .

وفي حين ان النزوح من القرى قد شمل كل الاعمار والجنسين معا ، فان الاثر الرئيسي له وقع على الشبان الذين ولدوا منذ العام ١٩٥٣ . وقد نزح بعضهم وهو لا يزال في سن العاشرة بحثا عن عمل،وكلهم تقريبا نزحوا في عمر الخامسة عشرة او السادسة عشرة. وهم في العادة من غير المتزوجين ، يدخرون قسما من اجورهم للاعداد للزواج ، وعادة ما يكون ذلك من عروس من قريتهم ينوي الشاب احضارها من قريته الى المدينة . اما الرجال الاكبر سنا والمتزوجون بالفعل فانهم غالبا ما يتركون أسرهم في القرى ، ويعملون لعدة أشهر ،او سنوات قبل أن يحضروا زوجاتهم وابنائهم الى المدينة . وقد شكل عدد الشبان الذين نزحوا الى المدن الكبيرة والصغيرة حركة « خروج » حقيقية بحلول العام ١٩٧٧ . وقد كشف مسح قمت به بنفسي في خلال صيف ذلك العام انه في عشرات من القرى شرق ايران كان نسبة تتراوح بين ٦٥ بالمئة الى ٩٠ بالمئة من الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين ١٤ و٢٧ عاما قد نزحوا الى مدن قريبة (من ٥٠ — ١٠٠ كيلومتر) أو بعيدة (اكثر من ١٠٠ كيلومتر) بحثا عن عمل . وتماثل هذه النتائج تلك التي توصل اليها علماء علم الاجتماع الريفي الايرانيون بالنسبة لمناطق البلد الاخرى . والحقيقة أن الحكومة السابقة نفسها انزعجت بشدة من هذا النزوح ومن عواقبه البعيدة المدى بالنسبة للانتاج الزراعي والتنمية الزراعية الى حد انها دعت الى عقد مؤتمر للمختصين بالشؤون الريفية في العام ١٩٧٧ لدرس المسألة واسداء النصح بشأن السبل التي يمكن بها وقف النزوح الريفي . ويمكن الحكم على حجم قلق الحكومة من حقيقة ان المشاركين في هذا المؤتمر لم يسمح لهم فقط بالتحدث بصراحة، بل انهم وعدوا ايضا بأن أية انتقادات للسياسات الحكومية لن تخضع لرقابة ولا لمساءلة « السافاك » (٣) . ومع ذلك فانه بحلول هذا الوقت كانت الحكومة السابقة قد فقدت كل سيطرة فعالة لها على التطورات السياسية وهكذا لم تنفذ أية سياسات جديدة قبل الثورة .

لم يكن تأثير النزوح الريفي الذي ذكرناه على كل القرى بالدرجة نفسها . فالنمط الذي وجدته — ووجده غيري من الباحثين — في

العامين ١٩٧٧ و١٩٧٨ هو انه في تلك القرى التي تقع على مسافات بعيدة للغاية (اكثر من ١٠٠ كيلومتر) من المدن الكبيرة (اكثر من ١٠٠ الف نسمة) كانت معدلات النزوح هي الاعلى ، اما في تلك القرى الاقرب الى المدن الكبيرة فكانت المعدلات الادنى . وبصفة خاصة في تلك القرى التي تقع على بعد ٤٠ ــ ٥٠ كيلومترا من مدن كبرى كان معدل نزوح الشبان عادة أدنى من ٥٠ بالمئة من مجموعة الاعمار ، وكان في أحيان كثيرة بنسبة ٢٠٪ فقط . ومع ذلك فان شبان هذه القرى كانوا يذهبون الى المدن بانتظام كمسافرين للعمل في مواقع البناء او في المصانع ويعودون الى أسرهم في القرى في المساء . وقد راقبت ووثقت هذا النمط بالنسبة لمنطقتي طهران ــ قارامين وشيراز في خلال الفترة ١٩٧٧ ــ ١٩٧٩ . ويشبه هذا النمط انماط سفر القرويين التي لاحظها باحثون اخرون بالنسبة لمدن مثل اصفهان ، كرمنشاه ، تبريز ، وسيمنان (٤) . أعتقد أن غالبية من كل القرى ، التي تقع على مسافة يمكن السفر اليها يوميا (اي مسافة تقطع في حوالي ساعة) من مراكز حضرية كبيرة تبدي خصائص مماثلة : شبان يسافرون الى المدن للعمل الى جانب الطبقة الدنيا من عمال المدن ، الذين كان كثير منهم قد نزح الى تلك المدن قبل وقت قصير .

تحويل الفلاحين الشبان الى بروليتاريا

شكل الفلاحون الذين كانوا يسافرون يوميا الى أعمالهم في المدن اغلبية الفلاحين الشبان من الاعمار بين ١٤ و ٢٧ عاما في العام ١٩٧٨ ــ ١٩٧٩ . وعلى الرغم من انهم استمروا في الاقامة في القرى والمشاركة في العادات الريفية والعمل في نشاطات زراعية في أوقات فراغهم ، الا ان هؤلاء الشبان أظهروا كثيرا من القيم التي تميز الطبقة الدنيا من سكان الحضر اكثر مما تميز الفلاحين (٥) . اولا ، ينظر هؤلاء الشبان الى العمل غير الزراعي على انه مصدر عيشهم . وهذا لايعني القول بانهم يكرهون الزراعة (وان كان بعضهم يكرهها فعلا) ، فان أغلبية منهم تمجد فضائل الزراعة ولكنها تشكو من انها لا تستطيع أن تكسب عيشها منها . والحقيقة أن معظمهم لا يزال يعمل في قطع ارض تملكها أسرهم في الامسيات وفي أيام العطلات والاعياد . وقد اكتسب من كان فوق الثانية والعشرين منهم ــ ولهذا الامر مغزاه ــ سلطة اتخاذ القرار مع ابائهم في عمل الحقل، على الرغم من أن دورهم

النشط محدود بسبب عملهم في المدينة . وعلى الرغم من هذا كله،فان احدا من هؤلاء الشبان لا يرى مستقبله مستقلا عن الزراعة . فنوع الامن الاقتصادي الذي يطمحون اليه ليس متاحا ــ في ما يعتقدون ــ الا في سوق الوظائف في المدن . ولا يعني هذا القول بأنهم سعداء بأي وظيفة . انما هناك قدرة كبيرة على الحركة بين الوظائف سعيا وراء شروط افضل وساعات عمل اقل واجور افضل على وجه الخصوص . وهم عندما يوجه اليهم السؤال يجيبون واصفين انفسهم بأنهم عمال لا بأنهم فلاحون ، بل انه يبدو ان لديهم شعورا ما بالفخر في هذا الوصف ، وان كانوا يعترفون بأنهم « افضل » من عمال المدينة لانهم يعيشون في جو الريف النقي بعيدا عن كل ضوضاء المدينة وقذراتها .

وثمة توجه كان يمكن أن نطلق عليه وصف « المادية » . فهؤلاء الشبان يبدو في الغالب انهم يتمتعون بامتلاك ملابس ومنتجات استهلاكية ، مثل الساعات واجهزة الراديو (الترانزستور) ومسجلات (الكاسيت) . وهم جميعا يطمحون الى امتلاك سيارة ، او على اقل تقدير دراجة نارية (موتوسيكل) ، لكن الملكية الفعلية نادرة نظرا لارتفاع الاسعار وعدم توفر نظام البيع بالتقسيط لهذه الطبقة . كذلك فان هناك طلبا كثيرا على « المساكن الجديدة » التي يعني بها هؤلاء الرجال افنية ممهدة محاطة بجدران مبنية بالطوب الاحمر ومنازل مزودة بمطابخ من النوع السائد في المدن ، وحمامات خاصة ، وأنابيب للمياه وكهرباء ، والحقيقة انه في كثير من القرى القريبة من المدن توجد حركة بناء محمومة لتشييد مثل هذه المساكن ، ومعظمها تقليد لمنازل الطبقة الدنيا من سكان المدن .

القيمة الثالثة هي موقف ايجابي من التعليم . فالامية الكاملة لايكاد يكون لها وجود بين هؤلاء الشبان ، على الرغم من وجود تنوع في المستوى الفعلي لما اتموا من مراحل الدراسة . فان اقلية ضئيلة للغاية منهم أتمت المدرسة الثانوية ، بينما الذين أدوا أي نوع من الدراسة يتجاوز المدرسة الثانوية،اكثر ندرة . انما النمط السائد بين هؤلاء الشبان هو أولئك الذين اتموا التعليم الابتدائي (الصف السادس) ، بينما توجد نسبة ٢٠ بالمئة تقريبا ممن اتموا الصف التاسع . وقليلون في كافة القرى هم الذين سجلوا في مدارس ثانوية خلال السنة الدراسية ١٩٧٨ ــ ١٩٧٩ . وفي جميع الحالات ــ تقريبا ــ كان هذا يعني السفر يوميا الى المدينة . وبغض النظر عن

السنوات التي اتموها في التعليم فان هناك ادراكا واعيا بان التعليم مهارة ضرورية للحصول على وظائف افضل واجور اعلى ، وهو ما يطمحون اليه . والحقيقة انه من الشائع أن نسمع بين الرجال من سن العشرين فاكبر ، الذين لم يلتحقوا بالتعليم الثانوي ، حديثا عن فوائد الالتحاق بمدرسة ليلية . وبعضهم قد سجلوا بالفعل في فصول ليلية ، الامر الذي يتطلب الذهاب الى المدينة من ثلاث الى اربع امسيات اسبوعيا . وبين أولئك الشبان الذين أتموا — أو يعتزمون انهاء — دراستهم الثانوية ، يناقش الجميع تقريبا قيمة التعليم الجامعي . وتشعر هذه المجموعة باحساس خاص بالمرارة لان فرص التحاقهم بكليات جامعية قاتمة للغاية ، نظرا لـ « صعوبة » دخول الامتحانات التي تلائم بصفة خاصة أولئك الذين تلقوا علومهم في مدارس ثانوية ذات مستوى عال في أحياء الطبقة الوسطى والعليا .

وثمة قيمة رابعة هي الدين . فهؤلاء الشبان ينظرون الى الدين نظرة نضالية للغاية . فقد كان تسييس الدين — ويظل — أحد المكونات القوية للثورة ، وهو بهذه الصفة مقبول بصورة حماسية . ولا يعني هذا القول ان هؤلاء الرجال هم من ممارسي الواجبات والعبادات الدينية المتحمسين . فالحقيقة انه من الممكن ان تجد في القرى مواقف علمانية — وحتى لاادرية — راديكالية بين شبان لم ينالوا الا تعليما ابتدائيا . ومع ذلك فان هناك — على وجه الاجمال — اهتماما عميقا بالشخصيات وبالمناسبات الدينية . وحتى وقت متأخر يصل الى آب (اغسطس) ١٩٧٩ نجد أن الاغلبية الساحقة تعطي اية الله الخميني تأييدا وولاء دون أي تساؤل كامل لهم . ولا يعني هذا القول انهم يعتقدون أن الخميني ينبغي ان يطاع بصرامة في كل الامور ، خاصة الاجتماعية . ولكن في كل مرة تكلم الخميني عن أهداف الثورة أو نصح الايرانيين بان يحذروا من شرور النفوذ الاجنبي ، فان هؤلاء الشبان كانوا يصغون اليه بانتباه شديد . ان اشرطة الكاسيت ذات التسجيلات الدينية منتشرة في أوساط الشعب على أوسع نطاق . وكل البيوت التي يوجد فيها رجل شاب واحد على الاقل، تتباهى في الغالب بامتلاك مجموعة كبيرة من هذه الاشرطة . والاشرطة التي تحمل تسجيلات الدكتور علي شريعتي الراحل هي الاكثر انتشارا وافكاره تناقش حتى أدق التفصيلات .

ولا تعتقد غالبية الشبان الريفيين بوجود اي تناقض بين الدين والمتعة . اما أن بعض رجال الدين يصرون على أن هناك تناقضا كامنا

بينهما فهذا عامل رئيسي وراء وجود تيار تحتي معاد لسلطة رجال الدين . ان هيئة رجال الدين ككيان تحظى بالاحترام نظرا لما يعتقد من عطفها وروحانيتها وعلمها ، ولكن رجال الدين يقابلون بسخرية بسبب نزعتهم الاجتماعية المحافظة (المزعومة) . وهؤلاء الشبان يكرهون أن تلقى عليهم المحاضرات عن سوء « لهوهم » فهم يعتبرون « لهوهم » هذا لهواً لا ضرر منه ، خاصة في انشطة مثل الرقص في حفلات الزفاف او الاستماع الى الموسيقى الشعبية الايرانية ، أو تدخين الافيون ، او حضور العروض السينمائية بين وقت واخر . هذه الانشطة هي وسائل استمتاع بالحياة ، هي نوع من المكافاة يمنحونه لانفسهم بعد ساعات طويلة من عناء العمل الشاق . وهم في الوقت نفسه يعتبرون أنفسهم متدينين — ان لم يكن متعصبين — وسريعا ما يؤكدون أنه حتى الامام علي نفسه كان يستمتع بالغناء والرقص .

وثمة قيمة أخيرة هي احساس مرهف للغاية بالوعي القومي . فهم بالتأكيد مدركون جيدا للعالم فيما وراء قراهم . وهم يشعرون انفسهم كايرانيين ، ويوحدون بين انفسهم وايران كوطن (٦) . وكثيرون من هؤلاء الرجال الذين يتجاوزون الثامنة عشرة من عمرهم يسافرون الى اجزاء اخرى من ايران اما نتيجة لالتحاقهم بالخدمة العسكرية او على سبيل السياحة لزيارة اصدقاء او اقارب او أماكن دينية مقدسة . فلمعظمهم اقارب يعيشون في مدن وهم يألفون حياة المدن الى حد كبير شأنهم شأن اي مواطن . وهم يظهرون اهتماما كبيرا بالتطورات القوية التي غالبا ما تكون موضوعات للنقاش في لقاءات اجتماعية.وهم — بالتأكيد — يعتبرون انفسهم ، اكثر اطلاعا من ابائهم ولا يترددون في ابداء وجهات نظرهم على مسمع من أهل القرية الاكبر سنا . وهم يمضون وقتا في الاستماع الى نشرات الاخبار من الاذاعة . وفي اثناء الثورة بدأ كثيرون منهم يقراون الصحف بانتظام وواصل معظمهم هذه العادة على أساس غير منتظم . وطوال العام ١٩٧٨ كان هؤلاء الشبان على دراية بالتطورات السياسية ، وبحلول نهاية ذلك العام كانوا قد اصبحوا مسيسين كأية مجموعة اخرى .

تسييس شباب الريف

ما هي العوامل المحددة التي اثرت في السلوك السياسي لشباب الريف في خلال الفترة ١٩٧٨ — ١٩٧٩ ، وما هي الاهداف التي

يعلنونها للثورة ؟

يبدو أن درجة عالية من الاحباط الاقتصادي والإحباط في ما يتعلق بالمكانة الاجتماعية كانا عاملين حاسمين في تهيئة استعدادهم للنشاط السياسي . فقد كانت الغالبية العظمى من هؤلاء الشبان تشغل وظائف عمال غير مهرة وذات أجور منخفضة للغاية . وكان كثيرون منهم يعملون في مواقع البناء . ولكنهم كانوا في الحقيقة موجودين في كل انواع الاعمال ذات الدخل المنخفض والمكانة المتدنية في المدن ، فمعدل اجورهم كان ١٥ الف ريال (٢٠٠ دولار أمريكي) شهريا ، وهو مبلغ كانوا جميعهم يشكون من أنه غير مناسب ، وكان هذا الدخل ـ خاصة اذا كانوا متزوجين ، وغالبية رجال القرية فوق العشرين هم من المتزوجين ـ يعتبر غير كاف .

لكن لم يكن الدخل هو مصدر السخط الوحيد . فقليلون جدا هم الذين كانوا سعداء بوظائفهم . وكان عمال البناء بوجه خاص يشعرون بانعدام الامن ، نظرا لانه لم تكن لهم نقابات تبحث لهم عن وظائف جديدة حينما ينتهي المشروع الذي يعملون فيه ، وكانت هذه الوظائف قصيرة الامد وتتطلب من العامل يقظة دائمة في البحث عن مواقع جديدة . وكانت اجراءات « مكافحة التضخم » في الاقتصاد،التي اتخذتها حكومة اموزيغار في العام ١٩٧٧ ، قد بدأت تحدث أثرا عكسيا على صناعة البناء في اوائل العام ١٩٧٨ . فكان بين جميع الرجال من هذه المجموعة شعور حاد بالمرارة ـ وحق بالاحتقار ـ ازاء المرتبات الضخمة التي تدفعها الحكومة والقطاع الخاص للمهنيين.وكان الريفيون يعلنون أراءهم صراحة دون أي كوابح داخلية حول مدى الظلم الذي يتمثل في حصول بعض الناس على دخل شهري.يبلغ ١٠ امثال الى ٢٠ مثلا الدخل الذي يكسبونه هم . كذلك كان هذا الشعور العدائي موجها ضد المائة الف أجنبي في ايران في العام ١٩٧٨ ، الذين يعتقد ان الواحد منهم كان يحقق دخلا لا يقل عن ٢٠ الف تومان (٣٠٠٠ دولار اميركي) شهريا .

اقلية صغيرة فقط بين شباب الريف كانت غير مستاءة من وضعها الاقتصادي في حد ذاته ، ولكنها كانت تشعر باحباط بسبب عجزها عن الحصول على مراكز تتواءم مع اهدافها الشخصية . هؤلاء كانوا هم القرويين الذين تلقوا تعليما ثانويا او ـ في بعض الحالات ـ تدريبا بعد المدرسة الثانوية . وكانوا يعملون كمعلمين

ومستخدمين مهرة في المصانع ، وتقنيين وكتابا اداريين في مكاتب الحكومة والقطاع الخاص . وكان هؤلاء الرجال يؤلفون « نخبة مثقفة » بين الشباب الريفي . وكان المصدر الاساسي لاحباطهم الاجتماعي مصدرا تعليميا . فقد كانوا يطمحون كمجموعة في الالتحاق بالكليات الجامعية ، ولكنهم لم ينجحوا في اجتياز امتحانات القبول ، وربما يرجع ذلك الى سوء مستوى التعليم المتاح لهم في مدارس القرى . وكان يملأهم شعور شديد بالمرارة ازاء هذا الاستعباد من التعليم العالي ، وشعور بالازدراء تجاه الطلاب الجامعيين ، الذين كانوا يعتقدون ان معظمهم مدللون ولا يستحقون الفرص التعليمية التي منحت لهم . وكانت هذه المجموعة من الشبان على درجة أكيدة من الوعي الطبقي . فبينما كان بعضهم على الفة مع مصطلحات الماركسية ، فانهم ينظرون — بالاجماع تقريبا — الى الاسلام ، وخاصة الاسلام المستعادة حيويته كما كان يبشر به الدكتور على شريعتي ، على أنه يوفر حلولا للمظالم المختلفة السائدة في المجتمع .

وقد ادت الاحباطات التي عانى منها كل هؤلاء الشبان الى اعدادهم لتقبل النشاط السياسي الواعد بمجتمع جديد من نوع ما . وهذا بالتحديد ما تبين ان الحركة السياسية المعارضة للشاه كانت تفعله قرب نهاية العام ١٩٧٨ . فكان الامتزاج الحرفي لايديولوجيا وطنية مع أيديولوجيا دينية عاملا حاسما في تعبئة هؤلاء الشبان في نشاط سياسي ، لان مثل هذا الامتزاج كان يوفر شرعية لاعمالهم . وكان أول القرويين استجابة لنداء الحركة السياسية هم « النخبة المثقفة » ، الذين أصبحوا مراقبين متعاطفين ، واحيانا مشاركين نشطين ، في المظاهرات ذات الحوافز الدينية في اثناء ربيع واوائل صيف العام ١٩٧٨ . ونظرا لان هؤلاء الشبان كانوا افضل تعليما ويحتلون وظائف ذات مكانة أرفع من أي مستوى قروي ، فانهم كانوا يحظون باعجاب باقي الشباب القروي . ونظرا لانهم كانوا عادة فصحاء وحسني الاطلاع بصورة عامة بشأن المسائل السياسية الوطنية ، فقد أمكنهم أن يتمتعوا بقدرة اقتناع كبيرة ، واصبحوا يمارسون نفوذا مهما على اعيانهم . وفي خريف العام ١٩٧٨ وقفوا موقف تحد صريح لشيوخ القرى وتحدوا السلطات بشجاعة في الخطب والتظاهرات على السواء ، وبزغوا سريعا كقادة قرويين يستخدمون بوعي الرموز الدينية والوطنية لكسب اغلبية الشباب الريفي الى صف

الثورة . ونجح هؤلاء الشبان في تنظيم دعم سياسي للتظاهـــــرات المعادية للشاه التي بدأت تجري بصورة شبه يومية في جميع انحاء البلد ابتداء من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٨ .

شارك الشبان الريفيون ، الذين كانوا يسافرون الى المدن يوميا للاشتراك في التظاهرات ، المتظاهرين من سكان المدن هدف استبـــدال حكومة الشاه بحكومة اسلامية . وعلى الرغم من أن تصورهم لحكومة اسلامية لم يكن واضح المعالم ، فان المناقشات مع عشرات الشبـــان اظهرت تماثلا واسعا في التوقعات . فكان بين التوقعات التي ذكـــرت غالبا من جانب القرويين في مناقشات حول مستقبل الثورة في أوائـــل العام ١٩٧٩ ، تحقيق امن وظيفي ، نقابات عمالية يديرها العمـــــال ، اجور أعلى ، تأمين طبي وفوائد اجتماعية أخرى ، اعادة توزيع للارض اسعار أعلى للمحاصيل الزراعية ، توفر قروض بأسعار حسم متدنية ، تعليم مجاني ، كهربة للريف ، وعيادات صحية أكثر . وبعـــد نجـــاح الثورة في شباط (فبراير) أظهرت غالبية الشباب الريفي نضجـــــــا سياسيا مثيرا للدهشة في الاعتراف بأن الحكومة الجديدة ستستغرق وقتا طويلا قبل أن تتمكن من تنفيذ سياسات وبرامج تلبي أهدافهـــــم المختلفة . ومع ذلك فانه لاتوجد مؤشرات ــ والثورة تقترب من ذكراها السنوية الاولى ــ الى أن هؤلاء الشبان ــ الذين تسيسوا الان ــ قد فقدوا رؤيتهم لتوقعاتهم . ولا بد أن يكون سؤال المستقبل : أي قـــدر من الوقت سيكون مقبولا كوقت كاف لرؤية بعض التقدم نحو تحقيـــق هذه التوقعات ، وماذا ستكون ردود افعالهم اذا ما كان هناك ادراك عام بالافتقار الى تقدم مرض ؟

هوامـــش

(١) لاحظ كثير من الباحثين انعدام هبات فلاحية واسعة النطاق في ايران في القرن العشرين . وأكثر الدراسات شمولا لهذا الموضوع هي دراسة فرهاد كاظمي وبرفـــاند ابراهاميان « الطبقة الفلاحية اللاثورية في ايران الحديثة » ــ **دراسات ايرانية** .

Farhad Kazemi and Ervand Abrahamian , « The Non - Revolutionary Peasantry Of Modern Iran » IRANIAN STUDIES , VOL . XI . 1978 , PP . 259-304 .

(٢) المناقشة حول عواقب الاصلاح الزراعي مستمدة من رسالتي لنيل درجــــــة الدكتوراه . « آثار برنامج الاصلاح الزراعي على ايران الريفية » .

« The Effects Of the Land Reform Program on Rural

Iran , » [John Hopkins University , 1975] .

(٣) معلومات قدمها عديد من الباحثين الايرانيين الذين شاركوا في ذلك المؤتمر .

(٤) معلومات شفوية قدمها عديد من علماء علـــم الاجتماع الريفي الايرانيين .

(٥) تقوم المناقشة التالية على أساس مقابلات ومحاورات عديدة مع شباب ريفي في منطقة شيراز على مدى فترة ١٤ شهرا خلال ١٩٧٨ — ١٩٧٩ . وانني لممتن لعشرات الشبان الذين شاركوا معي بأفكارهم ومدوا الي يد الصداقة في هذا الوقت .

(٦) عند مناقشة الوعي الوطني فانني أشير على وجه التحديد الى الفرســـــ العرقيين ، واستبعد الاقليات العرقية مثل الاتراك الازربيجانيين والاكراد والعرب الخ. وأي تطبيق لهذه القيمة على الاقليات العرقية لا بد أن يفحص آثار التفاعل بين الوعي العرقي والشوفينية الفارسية على مفهومهم عن ايران وولائهم لها .

الجزء الثانى

- **دور العلماء المعارض**
  في السياسة الايرانية المعاصرة

حامد الغار

- **مقاومة الفراعنة**
  في كتابات علي شريعتي عن الاضطهاد

منصور فرهانق

- **المجتمع و الدين عند الامام الخميني**

مرتضى كتبي و جان ليون ڤاندورن

دور العلماء المعارض في السياسة الايرانية المعاصرة *

حامد الغار

كانت مشاركة عدد كبير متنفذ من العلماء الايرانيين في الثورة الدستورية (١٩٠٥ — ١٩١١) ، موضوع عدد من الكتابات التحليلية والتفسيرية في الفترة الاخيرة (١) . وركزت تلك النصوص الى حد كبير ، على الوضع التاريخي لايران القرن التاسع عشر ، واعتبرت ضمنا ، ان تأييد العلماء لقضية الحكم الدستوري الليبرالية ، كان نتيجة التقاء معين للظروف ، ويكاد ان يكون خروجا على القاعدة . وقد اعتبرت الدوافع الايديولوجية والمبدئية لمعارضة الطغيان دوافع ثانوية ، بل وان تأييد العلماء للدستور قد انطلق من الارتباك وقصر النظر . ولكن هناك اسبابا تدعو الى تمييز موقف معارضة الطغيان كأحد الخصائص الاساسية والاوسع انتشارا للاثني عشرية الشيعية ، ولا يعود استلهام هذا الموقف من العيوب في حكم القاجار فحسب . وهناك بالاضافة الى ذلك ، خط غير منقطع تقريبا ، يربط الدور المعارض للعلماء في ايران ، في عهد القاجار ، بالنضال الحالي الذي تخوضه مجموعة مهمة من العلماء الايرانيين ضد نظام الحكم البهلوي . وعلى الرغم من التغييرات البعيدة الاثر في ملامح ايران الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية ، لا يزال يسمع حتى الآن ، صوت العلماء المطالب بوضع حد لما ينعتونه بالحكم الطغياني الاستبدادي . والهدف المزدوج لهذه الدراسة هو تحديد الاعتبارات الدينية والمبدئية التي اوحت للعلماء بمعارضة

---

* هذا المقال هو خلاصة منقحة لدراسة قدمت للمرة الاولى ، في مؤتمر حول بنية القوى في ايران الاسلامية ، في جامعة كاليفورنيا ، لوس انجلوس ، في حزيران ١٩٦٩ ، ونشرت كاملة عام ١٩٧٢ .

● حامد الغار : Hamid Algar بريطاني تحول الى الاسلام · استاذ تاريخ الشرق الاوسط في جامعة كاليفورنيا في بيركلي ، الولايات المتحدة · متخصص بشؤون ايران ·

● نشر هذا البحث في كتاب :

Scholars, Saints and Sufis-Muslim Institutions Since 1500
Edited by Nikki R. Keddie, Univ. of Calif. Press, 1972

الاستبداد الملكي بحزم ، وفحص التعبير الذي اتخذتـه تلك المعارضة في القرن الحالي ، وفي العقد الاخير بصورة خاصة .

ان النظرية السياسية للشيعة الاثني عشرية ، هي في المقام الاول ، جزء من تعريفها الشامل للامامة : ان كامل الحكم الشرعي يعود الى الامام وحده ، الذي يتمتع بالحماية الالهية ضد الخطأ والخطيئة . ولكن المهمة السياسية للأئمة كانت تتعرض للاحباط المستمر ، وباختفاء الامام الثاني عشر محمد المهدي ، عن الانظار في سنة ٨٧٤ ، اختفت من العالم ، حتى امكانية ممارسة السلطة بشكل مشروع . واصبحت بالتالي ، كل الدول ، حتى تلك ذات الارتباط الرسمي الشيعي ، ذات طبيعة اغتصابية غير قابلة للتصرف . والى حد ما ، حجبت ادعاءات الصفويين بتحدرهم من الامامة هذه الطبيعة الاغتصابية للدولة ، التي عادت لتظهر بوضوح شديد في عهد القاجار ، ولتوحي بموقف ينطوي على كراهية عميقة تجاه الدولة وممثليها . واصبحت مسألة كبح هذه الاداة غير الشرعية التي يتضمنها المفهوم الدستوري ووضع حدود لها مسألة مغرية بالنسبة لعلماء نشأوا على النظرة التقليدية التي لا تثق بالسلطة الزمنية .

وهناك مواقف سياسية اخرى يمكن ان تعتبر مستمدة من اختفاء الامام عن الانظار . اذ يروى عن الامام الثاني عشر انه جهر بايمانه فور ولادته وسجد باتجاه القبلة ، فأمره والده الامام حسن العسكري ، بأن يتكلم ، فما كان منه الا ان تلا الآية القرآنية : «ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين» (سورة القصص) (٢) .

هذه الرواية تشير الى البعد الرسولي للامام الثاني عشر : ان عودته ستنهض بالمضطهدين وتحمل اليهم الغفران . ان التطلع الى عودة الامام الثاني عشر من مستوى الاختفاء عن الانظار الى مستوى الظهور ، هو جزء حيوي من حياة التقوى والحياة الروحية للشيعة الاثني عشرية ، وهو بالتالي ، طموح ايضا للعدالة الاجتماعية وخلاص المضطهدين . وعلى الرغم من ان توقع مثل هذه العدالة وهذا الخلاص بشكل وافر ، ينحصر فقط بعودة الامام الى الظهور ، فبالامكان تحقيقهما جزئيا بواسطة اولئك الذين يتلهفون الى عودته ويرغبون،بالتالي ، في تمهيد الطريق من خلال استشفاف خصائص ولايته (٣) .

ولا ترتبط الطموحات الى العدالة ونبذ الطغيان بالامام الثاني عشر فحسب . فاستشهاد الامام الحسين في كربلاء اثر انتفاضته الفاشلة ضد الخليفة يزيد ، هو من دون شك ، وعلى مستوى التعبير العاطفي الشعبي ، احد المواضيع الرئيسية في الشيعة الاثني عشرية. ومقتله على يد الامويين حاضر دائما في الوعي الشيعي كحقيقة حية ذات اهمية شمولية وليس فقط كواقعة تاريخية ، ولا حتى كدافع للاحياء الورع لذكراه . ففي شخصه يتجسد ذلك الطموح الى العدالة الذي جابه طغيان نظام حكم لا يعرف التقوى . وان اولئك الذين يبكون في ذكراه ، يتفجعون ايضا على هزيمة هذا الطموح الزمنية المتكررة . وهم من حيث كونهم لا يبكون استشهاده فحسب ، بل يسعون الى اثبات جدراتهم بتضحيته ، يسيرون على خطاه ويحاربون مظاهر الطغيان المعاصرة . وبذلك تحول نضال الامام الحسين ضد الامويين الى نموذج يحتذى للصراع بين العدالة والطغيان . وتعتبر كافة انظمة الحكم الاستبدادية مشابهة لعهد الامويين،تذكر به ، بل واحيانا تتحدر منه .

وقد لوحظ هذا الاتجاه في عهد القاجار ، وما زال بالامكان ملاحظته في ايران المعاصرة حيث اطلق على الشاه لقب « يزيد العصر » . فخلال ولاية محمد شاه (١٨٣٤ ــ ١٨٤٨) سجل أول ظهور لهذا الاتجاه عندما سرت شائعات تقول بأن القاجار كانوا منخرطين في الجيش الاموي في كربلاء (٤) . وقد اكتسبت تلك الشائعات قوة ورواجا شديدين خلال فترة الثورة الدستورية . وساد الاعتقاد بأن تحدر القاجار من الامويين قد ثبتت صحته من الافتراض بأن الخنجر الذي استخدم لقطع رأس الامام كان في حوزة حاكم طهران ، علاء الدولة . بل ان مجتهدي النجف اعلنوا ابان محاصرة القوات الملكية لمدينة تبريز في سنة ١٩٠٩ ، ان حصار المدينة « يوازي حرمان رفاق نبي الشهداء » (الامام الحسين) من مياه الفرات » (٦) كذلك اتجه العديدون من اوائل الدستوريين ، نحو مساواة انفسهم بالامام الشهيد : لذلك أطلق الادعاء القائل بأن لامام الحسين أسس أول « انجمان «Anjuman» » ، وهي جمعيات شبه سرية انشئت لدعم قضية الستوريين ، وذلك من اجل اثبات شرعية هذه الجمعيات (٧) . هذه الممارسات المعروفة « بالتعزية » و « الرودخاني «Raudakh'ani» » ، اي احياء

ذكرى استشهاد الامام بتمثيليات درامية وتلاوة الشعر ، غذت هـذا الوعي الحاد لمأساة كربلاء طوال القرن التاسع عشر ، كجزء حـي من التاريخ الغيبي (*) .

وقد بلغت تلك الممارسات ذروة تطورها خلال عهد القاجار ، رغم ان اصولها لا تعود الى تلك الفترة . وتستمر رعاية هـذه الممارسات في القرن الحالي وبالدرجة نفسها من الشغف والتفاني وان يكن على مستوى اجتماعي ربما محدود أكثر . ورغم وجـود بعض العناصر الاسطورية والغيبية في مادة التمثيل والشعر ، فـان الممارستين تشكلان في معظم الاحيان وسائل للتعبير عن عاطفة وولاء دينيين شديدين . وهذا ينطبق بصورة خاصة ، على «التعزية » حيث من الضروري النظر الى التجريح العنيف للذات الذي يمارسه بعض المشاركين ، على انه،بالدرجة الاولى ، نتيجة للرغبة في المشاركـة باستشهاد الامام . ويمكن اشباع هذه الرغبة بطريقة واقعية اكثر، من خلال الثورة ضد الطغيان القائم . وليس من باب المبالغة القول ان العواطف التي تظهر عادة في « التعزية » ، تستطيع في سيـاق التحريض السياسي ، ان تتخلى عن اطار تعبيرها التمثيلي لتجعـل من النضال المعاصر اعادة تمثيل لكربلاء .

دفعت القدرة الكامنة للتعزية على الايحاء بالثورة،عددا مـن الحكومات ورجال الدولة في ايران الى العمل من أجل الغائها، في حين احتل الاهتمام باحتمال لاشرعيتها سواء على صعيد القانـون الديني او على صعيد السوابق الدينية ، مكانا ثانويا (٨) .

ان المواقف العاطفية القوية المستمدة من اختفاء الامـام الثاني عشر عن الانظار ، ومن استشهاد الامام الحسين ، تعمـل اذن ، على الايحاء برغبة في العدالة الاجتماعية ، وبعداء تجـاه الطغيان . بالاضافة الى ذلك ، فان بنية السلطة الدينية في الشيعة الاثني عشرية تخلق لدى المجتمع ولدى العلماء الذين يقودون المجتمع، ميلا الى موقف من العداء العملي تجاه الدولة . وتعود السلطة فـي المسائل الدينية بشكل حاسم الى الامام الثاني عشر (المختفي عـن الانظار) ، والذي كان انسحابه من الشؤون الانسانية ظاهريـا فحسب ، ويسمى في أحيان عديدة « صاحب الزمان » . ولكن هناك

* Metahistory

حاجة الى بعض الاساليب العملية لارشاد المجتمع خلال اختفائه عن الانظار . وتفي بهذه الحاجة الممارسة التي تعرف باسم «التقليد»، اي الخضوع لعالم ديني مخول بالتوجيه في المسائل التي تتعلق بوضع قوانين دينية . والعالم الذي يعطي مثل هذه الارشادات هو المجتهد ، اي ذاك الذي يقدر على ممارسة الحكم الشخصي في المسائل التي تحتاج الى ارشاد . ويختار المؤمن واحدا من بين اولئك الذين استوفوا الشروط التكنيكية لمهمة المجتهد ، ليتبع من ثم ارشاداته. ويعرف هذا المجتهد الذي يتم اختياره ، « بمرجع التقليد » (صيغة الجمع : مراجع التقليد) ، مصدر التقليد . اما المعايير التي يجب ان تؤخذ في الاعتبار لدى اختيار المرجع ، فهي العلم والتقوى بالدرجة الاولى . وكان مجتهدون بارزون قد استطاعوا في بعض الاحيان، اثبات انفسهم كمرجع اوحد للمجتمع ككل ، ولكن المألوف اكثر هو ان يخدم عدد من المجتهدين كـ« مصادر تقليد » ، لكل واحد منهم اتباعه (٩) .

ولممارسة التقليد نتائج سياسية مهمة في ضوء خضوع المجال السياسي ، مثله مثل مجالات النشاط الانساني الاخرى ، لقانون السلوك الديني . فالمجتهد بحكم مكانته كمرجع ، معرض لان يعطي ارشادات حول مسائل سياسية متعارضة الى حد مع ارادة الدولة، ولان يصبح بحكم هذه الحقيقة ، قائدا للمعارضة . وقد كان تعريف مفهومي التقليد والاجتهاد (بمعانيهما الشيعية الخاصة) ، هو الانجاز الذي احرزه الآغا محمد باقر البهبهاني « Aga Muhammad Bagir Bihbihani » (١٧٠٥ ــ ١٨٠٣) ، الذي تربطه بعلماء العصر الحالي علاقة سلالة روحية وثقافية (١٠) .

وعشية انشاء حكم القاجار اعطي التوضيح النظري لمكانة المجتهد «كمرجع تقليد» . وقد اخذت المعاني السياسية لهذه المكانة تتضح تدريجيا خلال القرن التاسع عشر . وكان المفروض ان يخضع الملك تماما مثل رعيته ، لارشاد المجتهد المخول بالتوجيه ، وان يجعل الدولة الذراع التنفيذية لسلطة العلماء . ولكن هذا التعريف المثالي ظل بعيدا عن التحقيق طوال عهد القاجار . ولذلك كانت هناك درجة معينة من التوتر متأصلة في العلاقات بين العلماء وبين الملكية. ويمكن اعتبار مشاركة العلماء في الثورة الدستورية ، والى حد، اشارة على تحول هذا التوتر الى انشقاق علني .

وقد عززت دوافع العداء الدينية والمبدئية للدولة مسار الاحداث السياسية خلال القرن بقوة . فقد اصبح التاجار مرتبطين بقوة معادية غير مسلمة كانت تهدد ببسط سيطرة كاملة على ايران ، وتدمير طابعها كمجتمع اسلامي . لذلك فان الدعوات التي اطلقت من اجل مقاومة الاجانب الذين ينتهكون حرمة ايران ، كانت موجهة ايضا ضد الدولة التي كان ضعفها هو ما جعل تلك النكبات ممكنة . وكان من جراء محاولات معالجة عجز الدولة بواسطة بعض اجراءات الاصلاح واضفاء الطابع الغربي ، ان ازداد عداء العلماء تجاه الدولة ، لان تلك الاجراءات كانت تحد تدريجيا من حقوقهم المكتسبة — خصوصا في المجال القانوني . وكان الوزير الذي اشرف على الاصلاحات قد أعلن بصورة حاسمة وبشيء من العلمنة الضمنية ، معارضته «تدخل» العلماء في شؤون الدولة (١١) . وبذلك اصبح لمعارضة العلماء هدف مزدوج : السيطرة الاجنبية والطغيان المحلي . وقد اورث العلماء هذا الهدف المزدوج للدستوريين .

وجد العلماء انفسهم بعدائهم للدولة ، في حالة تحالف دائم تقريبا ، مع الطبقات المركنتلية المدينية . فقد كان العلماء والتجار يمثلون قوى مستقلة عن الدولة الى حد بعيد ، وكان كل من التوجيه الديني والنشاط الاقتصادي مكملا للاخر . وكانت قوانين الشريعة التي يصيغها ويفسرها المجتهدون ، تنظم السلوك التجاري ، وكانت المسائل التجارية تشكل جزءا كبيرا من نشاط المحاكم المسؤولة عن تطبيق القوانين الدينية . وقد شكلت التبرعات والضرائب المقررة دينيا (مثل الزكاة والخمس «Khums») التي يدفعها التجار ،ثاني اهم مصدر دخل للعلماء من بعد الاوقاف المرتبطة بالمساجد ومؤسسات التعليم الديني . ويبدو ان تلك المدفوعات كانت ضخمة خلال القرن التاسع عشر رغم ان اي نظام جباية منظم لم يكن يفرضها . وقد كان كل من العلماء والتجار ينزعون نحو معاداة الدولة : فالدولة القوية القادرة على فرض نفسها كانت تهدد امتيازات العلماء القضائية وغيرها ، وتميل الى فرض ضرائب باهظة على التجار . وكانت كل ولحدة من الطبقتين تخشى ، بدورها ، التغلغل الاوروبي في ايران كأمر معاد لصالحها . وازاء المخاطر التي تتمثل في دولة متواطئة مع قو ىاجنبية ، كان العلماء والتجار يقدمون المساعدة والملجا لبعضهما البعض : كانت حرمة المساجد

الملجأ الاخير للاحتماء من طغيان الدولة ، بينما كان اغلاق البـازار يعطي العلماء اداة قوية للضغط على الحكومة . وهكـــذا نرى ان التحالف بين المسجد والبازار ، والذي لا يزال فاعلا وقويا في ايران، كان قديما وقائما على اسس قوية .

تفسر الاعتبارات ــ الدينية والتاريخية والاجتماعية ــ التـي ذكرت حتى الآن ، السبب في وجود ميل لدى العلماء للاشتـراك في الحركة الدستورية من حيث كونها تمثل استمرارا لمعارضتهـم التقليدية للدولة .الا ان الدعوة الى الاستمرارية تجاوزت الانكـار التقليدي للشرعية الى طرح والمطالبة بنظام حكم افضـل مـن الطغيان القائم . لذلك فمن الضروري تحديد درجة التورط الواعـي والمتعمد للعلماء في هذه الدعوة الى التجديد ، وتمييزها عن الضغوط الظرفية المختلفة التي كانوا يتعرضون لها .

اهم هذه الضغوط كان رغبة الاصلاحيين من ذوي الميـل العلماني والغربي ، في عرض خططهم للتغيير الحكومي ، على انهـا خطط يقرها ، بل وحتى يامر بها الاسلام . وقد كانت مثل هـذه الاستراتيجية ضرورية بالرغم من انعدام الايمان الديني العميـق لدى هؤلاء الاصلاحيين بشكل عام ، وذلك بسبب ولاء جماهير الشعب العاطفي للاسلام ، وبسبب المكانة التوجيهية للعلماء . وكان أول من طرح التطابق التكتيكي والسلس للاصلاح على النمط الاوروبي (بما في ذلك انشاء الحكومة الدستورية) مع شروط الدين الاساسية ، المفكر المستقل الارمني الاصل ميرزا ملكوم خان (١٨٣٤ ــ ١٩٠٨) الذي كان تارة مسلما وتارة اخرى مسيحيا ، بحسب مقتضيـات الظروف . وقد حمل لواء سياسته بعض جمعيات Anjuman التي انشئت لدعم الدستور .

لقد تم اعلان تطابق القانون الاسلامي مع مفاهيم الحكـم الغربية ولكن عن طريق التاكيد ، لا عن طريق البرهان : «المشروعية» و « المشروطية » هما واحد : الحكم بموجب قانون الاسلام والعدالة والمساواة ، او بموجب العلم والمدنية » (١٢) . وربما توقع العلمـاء الذين قبلوا بهذه المعادلة عن حق بان تطبق الشريعة كقانون للدولة بصورة دائمة ، من بعد تحقيق الدستور . ولكن تلك التوقعـات احبطت ، وانتقل عدد من المجتهدين الى موقع المعارضة النشيطـة للدستور بزعامة الشيخ فضل الله نوري (١٣) .

ولكن بقيت هناك وحتى الانقلاب الثاني لمحمد علي شاه في سنة ١٩١١ ، مجموعة هامة في أوساط العلماء لم تتوقف عن تأييد القضية الدستورية ، وان لم يكن ذلك من دون بعض التحفظات . ويعتبر استمرار هؤلاء في تأييد الدستور اشارة مهمة الى ان مشاركة العلماء في الحركة لم تكن مجرد نتيجة الارتباك والضغط الظرفي الذي اثارته مناورات العلمانيين . وعلى ما يبدو ، ادرك مؤيدو الدستور ومعارضوه في اوساط العلماء بشكل عام ، الفارق الاساسي بين الدستور والشريعة ، وذلك منذ سنة ١٩٠٧ . ففي حين استنتج الشيخ فضل الله نوري واتباعه من هذا الفارق عدم توافق المبدأ الدستوري مع الاسلام ، توصل علماء آخرون لم يتأثروا بالعلمانية، الى الاستنتاج بأن الحكومة الدستورية ليست غير ضارة فحسب من وجهة نظر الدين ، بل ان الدين يقرها . ويمكن القول ان وجهة النظر هذه من المسألة قد ثبتت نفسها كوجهة النظر السائدة بين العلماء الايرانيين ، وما زالت تشكل مواقفهم السياسية في ايران المعاصرة .

لقد منح ثلاثة مجتهدين بصورة خاصة ، كانوا يسكنون النجف ، دعما قويا وحازما للقضية الدستورية من بعد انتقال الشيخ فضل الله نوري الى معارضتها . وكان هؤلاء : « الملا محمد كاظم خراساني ، والملا عبدالله مازانداراني والحاج ميرزا حسين خليلي طهراني . وبينما راح نوري واتباعه يطالبون « المجلس » بالعمل على جعل الشريعة قانونا للدولة بوضوح لا لبس فيه ، كان الراي السائد في النجف ان التطبيق السليم للشريعة مستحيل خلال اختفاء الامام عن الانظار ، علما بأن احد المؤشرات على قدومه سيكون في الواقع هو التطبيق الامثل للقانون . ولكن الراي استقر على انه من الافضل الحد من الاعمال القمعية التي تقوم بها السلطة ذات الطابع الاغتصابي بالضرورة ، بانتظار عودة الامام الى الظهور للعيان . وكان لا بد من اجل تحقيق هذا الامر بالشكل الملائم من وجود قوانين تنظم عمل الدولة ، ومجلس استشاري يراقب تطبيق هذه القوانين . لقد كان هناك سوء فهم لمسألة ما اذا كان الدستور مساويا للشريعة ، ولا صلة لها باهتمامات العلماء والمجتمع الحقيقية، في ظروف اختفاء الامام عن الانظار (١٤) .

وقد صدر عن هذه المجموعة من العلماء الدستوريين في النجف

التبرير الاكثر وضوحا وتماسكا حتى يومنا هذا ، لصالح الحكومة الدستورية من وجهة النظر الشيعية . ويعتبر كتاب الشيخ محمد حسين ناعيني « Shaykh Muhammad Husayn Naini » (١٨٦٠ـ ١٩٣٦) ، بعنوان « Tanbih al — Umma Va Tanzih al — Milla dar Asas va Usul — i Mashrutiyat »
(وهو تنبية للامة وعرض للشعب بخصوص اسس ومبادىء الحكومة الدستورية) وثيقة نادرة عن النظرية السياسية الشيعية التي تسعى الى تحقيق الوفاق بين استمرار وعي اختفاء الامام عن الانظار ، مع الاستحالة الناتجة للشرعية ، وبين الحاجة العملية لشكل من اشكال الحكم الذي لا يسيء كثيرا الى املاءات الدين . ولا تزال للكتاب صلة بمسألة العلاقات بين الدولة والعلماء في ايران ، وقد اعيدت طباعته مؤخرا ، مع مقدمة وملاحظات وضعها اكثر مناوئي نظام حكم الشاه نشاطا من بين العلماء ،آية الله السيد محمود الطالقاني (١٥) .

يستهل الناعيني بحثه بتعريف واجبات الدولة الاساسية ، الخارجية والداخلية ، ويعلن بان السلطة الوحيدة التي تحتاجها الدولة هي تلك اللازمة للوفاء بهذه الواجبات . وعندما ينحرف الحكام بالحكم لاغراض انانية ويقيمون سلطة استبدادية مطلقة ، فانهم يشذون عن قانون من القوانين المنزلة . ويميل رئيس حكومة منحرفة من هذا النوع الى اغتصاب **الخصائص** الآلهية ، واسباغ صفات الالوهية على الحاكم يمثل اكثر اشكال الطغيان تطرفا ، كما كان الحال مع الفراعنة . ومثل كافة رسل الله ، فقد كانت مهمة النبي موسى تحطيم « الشرك » الذي يخلقه الطغيان ، ورسم حدود الحكم البشري ، الذي يمارس كامانة آلهية .

ان افضل طريقة لتجنب انحراف السلطة عن الطغيان هي عصمة الحاكم ، اي تحرره من الخطيئة والخطأ ، والميل الذي لا يخطىء لتلبية ارادة الله . ومن الضروري ايجاد وسائل اخرى في اثناء غياب الامام . وهناك وسيلتان اساسيتان : دستور يحدد حقوق وواجبات الدولة واتباعها ، ومجلس يضم « الاذكياء والحكماء في البلاد الذين يضمرون الخير للشعب » ، من اجل الاشراف على تطبيق الدستور ومراقبة اعمال الدولة . ويجب ان لا يتضمن الدستور اي مواد تتعارض والاسلام ، كما يجب ان يضم المجلس من بين

اعضائه ، « عددا من المجتهدين أو المفوضين من قبلهم ، الذين يعدلون في القرارات التي يتخذها ، يقرونها ويوافقون عليها » ، وذلك من اجل ان يحصل المجلس على الترخيص الديني . وعلى المجلس كهيئة تشريعية ان يهتم بـ « « Urfiyat » » اي بالمسائل التي تتعلق بظروف محددة في الزمان والمكان ، والتي لم تتناولها الشريعة لانها لا تهمها . ومن شأن وجود المجتهدين في المجلس ضمان البراءة الدينية لكافة التشريعات التي يتم اقرارها وتتعلق بهذه المسائل .

ان منع الحكم المطلق من خلال وضع دستور وانشاء مجلس شعبي ، هو فريضة دينية على الرغم من اختفاء الامام عن الانظار ومن انسحاب الشرعية في الوقت نفسه ، من المستوى الدنيوي . ويبقى ان « فرض الحسن ومنع السوء » هو واجب المجتمع في كل وقت ، وان استحالة تنفيذ هذا الواجب بشكل كامل لا تحرر المؤمنين من الالتزام بالنضال لادائه على افضل وجه ممكن . ان ضرورة الدستور هي الاستنتاج السياسي الذي يستخلص من ضرورة محاربة مظاهر الشر في كل وقت . فالحكم الطغياني المنفلت يخلق شرا لا حد له ، والحد من سلطات الحاكم من خلال وضع القوانين وممارسة الرقابة بواسطة المجلس الشعبي ، يؤدي الى الحد من الشر النابع من حكمه . ان الطغيان المنفلت هو اغتصاب للخصائص الآلهية ، وادعاء مزيف بالحق في الحكم . بل انه يغتصب حرية الرعية المعطاة لهم من الله ، ولذلك فانه يستحق الادانة اضعافا مضاعفة بينما الحكم المقيد بالدستور لا يسيء الى الله بتمسكه بالسلطة المطلقة بشكل غير شرعي ، ولا يغتصب حرية الانسان ، وهو حكم اغتصابي فقط بالنسبة الى الامام ، ولذلك يجب ان يكون الحكم المفضل .

لقد شرح ناعيني فكرة تقليص لاشرعية الدولة الى الحد الادنى الذي لا مفر منه في ظروف غياب الامام عن الانظار ، من خلال عدد من التشبيهات ، وقد روى احدها في اطار حلم صادر عن الامام الغائب نفسه .

وقد أورد ناعيني من بعد ان استعرض الفكرة المركزية للمبدأ الدستوري واقراره دينيا ، واللاشرعية المطلقة للطغيان ، حججا اضافية مستقاة من الظروف آنذاك ، وخصوصا من تحالف الطاغية محمد علي شاه مع روسيا،القوة الملحدة ثم انطلق يدحض الاعتراضات المختلفة التي أثارها اعداء الدستور في أوساط العلماء.

وتبقى مناقشة ناعيني للمبدأ الدستوري بالرغم من بعض نقـــاط الضعف، وثيقة قيمة لم تعطها حقها الخلاصة التي قدمت اعلاه (١٨) .
فهي تفسح في المجال لفهم اكبر للدور الذي تلعبه شريحة هامة مــــن العلماء في الثورة الدستورية . وهي تؤشر الى الاسلوب الذي مكـن العلماء في وقت لاحق من القرن العشرين ، من اللجوء الى القـرآن والدستور كمصدرين توأمين للسلطة .

منيت محاولات محمد علي شاه اعادة فرض الحكـم المطلق على ايران ، بالهزيمة عسكريا ، ولكن السنوات التي تلت تخليه عـــن السلطة حملت الخيبة للحركة الدستورية . فقد تم حل المجلس فـي كانون الاول ١٩١١ ، ولم يعد الى الانعقاد الا في تشرين الثانـــي ، ١٩١٤ . وشهدت الحرب العالمية الاولى هجرة اعداد متزايدة مـــن مؤيدي الدستور الى اسطنبول وما وراء اسطنبول ، ونهاية كافـة مظاهر الحياة السياسية المستقلة . وعندما اطاح رضا شاه بحكـم القاجار وأعاد خلق الدولة الايرانية المستقلة لم يكن المبدأ الدستـوري هو المثال المرشد ، ولم يعد للمجلس سوى مهمة شكلية . ويجب ان نذكر هنا آية الله المدرس (Ayatultah Mudarris) الذي كان احد المناوئين القلائل لرضا شاه في المجلس ، قبل توليـــه السلطة المطلقة . (١٦)

وقد انحصر نشاط العلماء السياسي من بعد ابعاد آية اللـــه المدرس عن الساحة ، بالاحتجاجات المتقطعة ضد تسلط رضا شـاه في فرض اجراءات بغيضة ، واتخذ رد الفعل على مثل تلك الاحتجاجات شكل انتهاك حرمة الاماكن المقدسة في قم (سنة ١٩٢٨) ، وفـي مشهد (سنة ١٩٣٥) .

ونجد ان اهتمام العلماء بالنشاط السياسي عاد فاستيقظ مـن بعد تولي الشاه الحالي للعرش ، وبداية فترة ما بعد الحرب . واظهر « المجلس » بشائر حياة ، وظهر نوع معين من حرية التعبير والجدل استغلته شريحة من العلماء .

وقد ارتبط اسم آية الله ابو القاسم كاشاني وهو شخصيـة مثيرة للجدل ، بالنشاطات السياسية للعلماء في الفترة التي انتهـت بالانقلاب الموالي في ٢٨ « مرداد « Murdad » » ، ١٩/١٣٣٢ آب ١٩٥٣ . فلقد امضى كاشاني ، وهو من مواليد اواخر القرن التاسع عشر ، الجزء الاول من حياته في العراق . اذ كان والده قد اصطحبه

معه الى النجف وهو يافع السن ، وتلقى علومه على يد اثنين من ابرز المجتهدين في النجف ، وهما : محمد كاظم خراساني ، وميرزا حسين خليلي طهراني ، وقد أصبح سكرتيرا للاول فيما بعد . ولجأ كاشاني الى ايران من بعد ان اصدر البريطانيون عليه حكما غيابيا بالاعدام ، في سنة ١٩١٩ ، بسبب معارضته للانقلاب البريطاني في العراق . وامتنع كاشاني عن القيام بنشاط سياسي طوال فترة حكم رضا شاه ، ولكن البريطانيين تمكنوا من اعتقاله في حزيران ١٩٤٢ ، بعد الغزو الروسي ـ البريطاني لايران ، وذلك بحجة وجود اتصالات بينه وبين العملاء الالمان . وهكذا تضى كاشاني سنوات الحرب في المنفى (١٧) .

في سنة ١٩٤٨ بدأت حياة كاشاني السياسية لفترة ما بعد الحرب ، وذلك عندما قام بتنظيم مظاهرات ضد اقامة دولة يهودية في فلسطين ، وراح يجمع المساعدات المالية للقضية العربية . بل حاول ايضا ارسال متطوعين الى فلسطين . وقد ازدادت أهمية كاشاني مع بداية الحملة لتأميم صناعة النفط . فقد أصبح احد ابرز منظمي التأييد الجماهيري للجبهة الوطنية التي كان يتزعمها الدكتور محمد مصدق . وكان لديه ممثلون في المجلس يشكلون مجموعة عرفت باسم « مجاهدين اسلام » بقيادة شمس قناة آباضي (Shams Qantabadi بينما كان ينشط مؤقتا في الخارج مع منظمة نضالية معروفة باسم « فدائيين اسلام » .

وتعبر البيانات التي صدرت عن كاشاني في سنتي ١٩٥١ و ١٩٥٢ ، عن ازدواجية الاهتمام نفسها التي ورثتها الحركة الدستورية من علماء القرن التاسع عشر : معارضة الحكم المطلق (والتي يعتقد انها تظهر في بعض التعديلات المقترحة في الدستور) ، ومعارضة السيطرة الاجنبية (التي تتمثل في شركة النفط الانغلو ـ ايرانية) . وكان كاشاني في احتجاجاته ضد هذه الاهداف ، يلجأ الى كل من الشريعة والدستور كمصادر للسلطة (١٨) .

ولكن علاقات كاشاني بمصدق تدهورت في سنة ١٩٥٣ ، ربما بسبب محاولاته اختراق سلطة الحكومة بكتابة رسائل توصية لصالح اتباعه موجهة الى وزارات مختلفة ، رفض مصدق قبولها . لذلك ايد كاشاني الانقلاب الملكي العسكري الذي وقع في شهر آب سنة ١٩٥٣ ، منتقما لنفسه .

ولكن من الضروري ان نذكر بأن الدوافع الشخصية لم تكن وحدها التي حسمت في هذا التحول في الولاءات : **فاللادينية** النشيطة التي كشفت عن نفسها بصورة متزايدة خلال الايام الاخيرة من حكم مصدق ، اصابت عددا من العلماء بالذعر . وتراجع كاشاني خلف مسرح الحياة الايرانية ، بعد شهر آب ١٩٥٣ ، وبالكاد لوحظت وفاته في سنة ١٩٦٢ (١٩) .

كان كاشاني الاكثر نشاطا على الصعيد السياسي من بين علماء عصره ، ولكن آية الله الراحل « السيد بوروجردي » « Sayyid Aga Husayn Burujirdi » الذي كان قد أصبح عند مماته في سنة ١٩٦١ ، « مرجع التقليد » الوحيد في العالم الشيعي، كان تجاوز كاشاني في العلم وفي التقوى — وهما شرطان مسبقان للتسامي الديني .

وكان « بوروجردي » من سلالة « السيد محمد بحر العلوم » ، احد أبرز المجتهدين في أوائل القرن التاسع عشر ، والذي انحدر من عائلة اشتهرت تقليديا بالمعرفة الدينية . وقد ولد «بوروجردي » في سنة ١٢٩٢ هجرية / ١٨٧٥ ، في « في بوروجرد » « Burujird » وهي بلدة صغيرة قرب « آراك « Arak » » غربي ايران . وتلقى علومه اولا ، في اصفهان ، ثم في النجف تحت اشراف الشيخ « محمد كاظم خراساني » « وشيخ الشريعة اصفهاني » . وعاد الى مسقط راسه في سنة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ ، بعدما قضى سبع سنوات في النجف اصبح خلالها ضليعا في الفقه والحديث بدرجة لا مثيل لها . ومكث في مسقط راسه سبعا وثلاثين سنة ، ولم يغادر البلدة سوى لفترات وجيزة . وقد عكف على دراسة المزيد من الحديث . واشتغل بالتعليم في المدرسة المحلية خلال اقامته الطويلة في هذه البلدة غير المهمة نسبيا . وقد وجد انعدام الطموح في الامور الدنيوية الذي ميز حياته ، تعبيره السياسي في التصوف .

وعناما جاء « بوروجردي » الى طهران للمعالجة الطبية في سنة ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ ، اقتنع بالذهاب والاستقرار في قم عوضا عن العودة الى الى مسقط راسه . وكان الشيخ عبد الكريم يزدي « Abd al-Karim Hairi Yazdi » ، أبرز المعلمين من بين علماء المدينة ، قد توفي مؤخرا ، ولحق به بعد فترة قصيرة « مرجع التقليد » الرئيسي السيد ابو الحسن ، وكان من سكان قم ايضا . لذلك كان على « بوروجردي » ان يشغل الفراغ المزدوج الذي نشأ .

وقد برز خلال سنتين كمرجع وحيد وجمع من حوله عددا من المجتهدين يعيش معظمهم في النجف،من الذين يعملون ايضا كمصادر للارشاد (٢٠) .

وكان الشيخ مرتضى انصاري (٢١) اول من تبوا مكانة المرجع الاوحد في ستينات القرن التاسع عشر ، ويمكن ان نظهر خطا مشتركا في حياة الرجلين العملية . فكلاهما لم يكن يساوره الطموح في الامور الدنيوية كما كان كلاهما يشمئز من فكرة الاستغلال السياسي لطاعة اتباعه بحكم مكانته كمرجع اوحد . ومع ذلك فكلاهما مهد الطريق لمجتهدين آخرين اظهروا وبصورة مقنعة ، القوة السياسية المتأصلة في مؤسسة « التقليد » . فبعد فترة من الزمن ، خلف « ميرزا حسن شيرازي » « انصاري » كمرجع أوحد . وكانت فتوى شيرازي.هي العامل الرئيسي في نجاح حركة مقاطعة التبغ الشهيرة في ١٨٩١ — ١٨٩٢ (٢٢) . ولكن خلفا واحدا لم يبرز لبوروجردي الا ان الانجازات التي حققتها في المجالين الثقافي والديني في قم ، جعلت من تلك المدينة مركزا حيويا للارشاد الروحي ووضعت ، بالتالي ، الاسس لدورها السياسي في ستينات القرن العشرين . وقد ارتبطت ممارسة ذلك الدور بآية الله الخميني ، ابرز ممثلي المعارضة الدينية لنظام الحكم الحالي في ايران .

تستحق انجازات بوروجردي تنويها خاصا . فقد برز في مجال الحديث لكونه اعاد احياء ممارسة التحقيق المستقل ، وحرض على اجراء مراجعة نقدية لكتاب « وسائل الشيعة لتحقيق مسائل الشريعة » وهو عمل اساسي من أعمال « محمد ب. حسن الحر العاملي » (الذي توفي في سنة ١٦٨٨) . واظهر بوروجردي اهتماما حيويا بالتقارب السني — الشيعي (وهو اهتمام ابقاه الخميني حيا) . ومن اجل تحقيق هذا الهدف قام بمراسلة الذين توالوا على رئاسة الازهر ، وبالتعاون معهم . كما ارسل مبعوثين الى اوروبا للعمل في اوساط الايرانيين المستقرين في الخارج ، ولنشر المذهب الشيعي بين الاوروبيين الذين يبدون اهتماما به . وربما كان تنظيمه لشؤون المرجع على اسس اكثر فاعلية هو اهم ما قام به : فقد تم اعتماد نظام المحاسبة لتسجيل المداخيل والمبالغ التي توزع ك « سهم الامام Sahm-i imam » ، وكتابا لتسجيل اسماء العملاء المحليين المكلفين بجباية الاموال وارسالها الى قم . وقد استمرت شبكة الاتصالات هذه التي انشأها « بوروجردي » حتى

بعد مماته ، وهي تقوم بنشر الارشادات التي تتعلق بالمسائل السياسية وبمسائل دينية محدودة (٢٣) .

وقام الشاه الحالي بعد انقلابه العسكري في شهر آب ١٩٥٣، بمحاولات متقطعة لاضفاء مظهر اسلامي على شخصه وعلى نظام حكمه ، على الرغم من ان هذه الجهود تداعت بصورة ملحوظة في السنوات الاخيرة . وكانت هذه المحاولات تأخذ من جهة ، شكل زيارات للاماكن المقدسة داخل ايران — خاصة مشهد — ترافقها دعاية كبيرة ، او شكل رعاية مجموعة صغيرة من العلماء يتزعمها « آية الله بهبهاني » والدكتور « حسن امامي » ، امام الجمعة في طهران ، لم تنأى بنفسها عن الارتباط بالدولة . وعناصر هذه السياسة مالوفة منذ عهد القاجار ، حيث كانت تجري آنذاك محاولات مماثلة لانتحال مظاهر التقوى من اجل التخفيف من طابع اللاشرعية المتأصل في الدولة ، ولكنها كانت تحكم دائما بالفشل . وكان فشل تلك المحاولات ظاهرا ، بصورة خاصة ، في الحقبة الاخيرة في ايران، التي شهدت انبعاثا بارزا لدور العلماء كزعماء للمعارضة الشعبية لنظام الحكم القائم .

كنا قد توقفنا عند التأييد الذي منحه الكاشاني للانقلاب الملكي، وعند نهج التصوف الذي مارسه آية الله بوروجردي . ولم تشهد السنوات القليلة الاولى التي تلت ١٩٥٣ عداءا يستحق الذكر من جانب العلماء تجاه نظام الحكم . وكان هناك ثمة شعور على نطاق واسع ، بأن عودة الشاه قد ادت الى تلافي خطر شيوعي حقيقي نشأ في الايام الاخيرة من حكم مصدق .

وقد أوعز بوروجردي الى اتباعه الكثيرين ، بحكم مكانته كمرجع اوحد ، أن يتخذوا موقف « التصوف » ، بل وكان أحيانا احيانا يتجاوز مثل هذا الحياد الى بعض مظاهر الود تجاه نظام الحكم فهو لم يكن يصد الزيارات الملكية لمنزله (٢٤) .

اثر وفاة « بوروجردي » بعث الشاه ببرقية تعزية الى آية الله الشيخ محسن الحكيم » ، وهو مجتهد عربي يسكن في النجف، ملمحا له بذلك الى رغبته في ان يخلف « بوروجردي » كمرجع اوحد. لقد كان المامول من دون شك ، هو ان تؤدي هذه الخلافة الى تقليص اهمية قم ، ومنع نشوء مركز للسلطة الدينية في داخل ايران . وربما كان يعتقد بأن مجتهدا يسكن النجف — بالاضافة الى كونه عربي المولد — من غير المحتمل ان يكون مطلعا عن كثب على شؤون ايران

او مهتما بها .

ولكن على الرغم من أن العملية التي ترفع المجتهدين الى مكانة المرجع هي عملية غير رسمية ، فانها تستثني التعيين من قبل الدولة، ولم يتمكن آية الله الحكيم حتى وفاته في الاول من شهر حزيران ١٩٧٠ ، من أن يستقطب سوى عدد محدود من الاتباع داخل ايران. وقد برز في الواقع ثلاثة مجتهدين ليرثوا منصب « بوروجردي » بشكل مشترك : آية الله روح الله الخميني ، وهو الآن في منفاه في النجف ، وآية الله محمد هادي ميلاني ، وهو اذربيجاني يسكن مشهد ، وآية الله كاظم شريعة مداري من قم (٢٥) . والخميني هو الاهم والاكثر نفوذا بين الثلاثة . وقد ارتبطت باسمه ممارسة الدور السياسي التقليدي للعلماء مؤخرا ، اي معارضة الحكم المطلق والسيطرة الاجنبية . ولا يعرف سوى القليل عن المرحلة الاولى من حياته . فقد ولد في عائلة دينية تقليدية في سنة ١٣٢٠ هجرية/١٩٠٢ — ١٩٠٣ . درس العلوم الدينية في قم تحت اشراف « الشيخ عبد الكريم حايري يزدي » (« Abd al-Karim Hairi Yazdi ») بصورة رئيسية . وعلى الرغم من انه ليس كاتبا غزير الانتاج ، فقد وضع كتابا بالعربية بعنوان « سر الصلاة » (٢٦) . ولا تكمن شهرة الخميني وشعبيته في علمه بقدر ما تكمن في عدائه الصريح والمتصلب لنظام حكم الشاه — والمعروف ان « شريعة مداري » وغيره يتفوقون عليه في المجال العلمي .

لقد بدأ التعبير العلني عن هذا العداء ، في سنة ١٩٦٣ ، عندما وصل استبداد نظام الحكم الى درجة لم تعد محتملة بالنسبة لعدد من الطبقات الدينية وشرائح اخرى من المجتمع . وقد بدأ الخميني يعظ ضد حكم الشاه من على منبر « المدرسة الفيضية » في قم . ويذكر انه في احدى المرات رفع نسخة من القرآن بيد ، ونسخة من الدستور باليد الاخرى ، ليتهم الشاه من ثم بانتهاكه القسم بالدفاع عن الاسلام وعن الدستور . وفي ٢٥ شوال ، ١٣٨٢هـ/ ٢٢ آذار (مارس) ١٩٦٣ ، هاجمت قوة من المظليين ورجال الامن « المدرسة » فقتلت عددا من الطلاب واعتقلت الخميني .

وقد صادف اليوم الذي اختير للهجوم ، يوم ذكرى استشهاد الامام السادس جعفر الصديق ، وكان لا بد لمثل هذا التوقيت من ان يترك أثره في اظهار تماثل نظام الحكم القائم مع مضطهدي الائمة . وقد أصبح هذا التماثل أكثر وضوحا وقوة وبدرجة

لامتناهية ، بعد مرور شهرين ونصف الشهر ، وذلك عندما عرضت مسرحية « محرم » ليس فقط في « التعزية » بل وفي شوارع طهران وفي مدن ايرانية اخرى . وقد استأنف الخميني حملات تنديده بالحكومة وسياساتها اثر اطلاق سراحه بعد احتجاز مؤقت ما بين شوال ومحرم (آذار وحزيران) . وقد تأكد رسميا فيما بعد ، أن تحريضه كان موجها ضد برنامج الحكومة للاصلاح الزراعي ، وضد خطتها بمنح المراة حق الاقتراع . ولكن هذا التأكيد الذي حاز على تصديق عام في الصحافة العالمية (٢٧) ، لا يصمد امام اي تمحيص. فقد نفى الخميني بوضوح ان يكون لديه اي اعتراض على مبدأ الاصلاح الزراعي ، او ان تكون لديه اية ممتلكات في ايران يمكن أن تتعرض للخطر من جراء تطبيق الاصلاح الزراعي . كذلك نفى « شريعة مداري » و « ميلاني » ، وكلاهما مرتبط باحداث حزيران ١٩٦٣ ، اي معارضة من جانبهما للاصلاح الزراعي (٢٨) . لقد فشل نظام الحكم في الحصول على فتوى من اي من هؤلاء المجتهدين الثلاثة ، تدين الاصلاح الزراعي : وكل ما كان يمكن الاشارة اليه هو تصريح أدلى به « بوروجردي » في سنة ١٩٦٠ ، يدين فيه تحديد حجم ملكية الارض على اساس انه يتعارض والقانون الديني (٢٩). اما في ما يتعلق بمنح المراة حق الاقتراع ، فان المسألة ستبدو مصطنعة حتى يصبح للانتخابات الايرانية مضمون وتأثير اكثر جوهرية .

ويبدو ان اهداف الخميني الحقيقية في انتقاد نظام الحكم في سنة ١٩٦٣ ، كانت التالية : الحكم الاستبدادي ، انتهاك الدستور، منح حقوق ذات طابع استسلامي للمستشارين والموظفين العسكريين الاميركيين وعائلاتهم في ايران ، التعاقد مع الولايات المتحدة على قرض عسكري بقيمة ٢٠٠ مليون دولار من اجل شراء المعدات العسكرية ، المحافظة على علاقات ديبلوماسية وتجارية وغيرها مع اسرائيل ، وهي دولة معادية للاسلام وللمسلمين .

وردت هذه الانتقادات في عدد من البيانات صيغت بأسلوب صريح . ووصف احد هذه البيانات اتفاق منح حقوق استسلامية الطابع للموظفين الاميركيين ، بانه « وثيقة لاستعباد ايران » ، وانه من الان فصاعدا لن يكون احد في مأمن من سلوك الاميركيين الاعتباطي في البلاد . ان حكم الطغيان القائم هو المسؤول عن وصول الامور الى هذا الدرك.«اذا قال العلماء بأن على سلطة الحربة

ان تكف عن التدخل في مصائر البلاد ... وان تتوقف عملية سلب حرية هذه الامة الاسلامية ، فان ذلك من اجل ان لا نبتلى بمثل هذا العار بعد الآن » . وبما ان « المجلس » ليس منتخبا من الشعب ، فان تصويته « غير شرعي ويتعارض مع القرآن » (٣٠) .

وينطلق هذا البيان من ثم ، ليدين اميركا كقوة معادية للاسلام في كافة سياساتها ، وينعكس عداؤها هذا بصورة خاصة ، في دعمها اللامحدود لاسرائيل ، وفي طبيعة نفوذها في ايران وحجم هذا النفوذ . ويختتم الخميني بيانه بما هو عمليا ، دعوة الى انتفاضة شعبية تطيح بنظام الحكم القائم ، فيقول : « على الجيش الايراني الا يسمح بحدوث مثل هذه الامور المخجلة في ايران ... **عليه ان يعمل لاسقاط هذه الحكومة** [التشديد من الكاتب] ... وعلى الشعب ان يطالب العلماء بأن يكفوا عن الصمت ازاء هذه المسالة، وعلى العلماء بدورهم ، ان يطالبوا المراجع بألا يغضوا الطرف عنها ... وعلى الشعب المسلم ان يطالب واعظيه باعلام كل هؤلاء الذين لا علم لهم بهذه الكارثة الكبرى ، وعلى الواعظين الاحتجاج بحزم ، ومن دون وجل ، ضد هذا العار ، وايقاظ الشعب » .

وفي ١٣ « خرداد Khurdad » ١٣٤٢ / حزيران ١٩٦٣ ، احاط جمهور معاد باثنين من رجال الشرطة كانا يرتديان اللباس المدني عندما حاولا نزع نسخة من بيانات الخميني عن جدار قرب مدخل مسجد جوهارشاد في مشهد . ولدى اصرارهما على تنفيذ المهمة اندفع نحوهما أحد المتفرجين وطعن احدهما طعنة قاتلة (٣١) . وفي اليوم نفسه كان الخميني يشن على الشاه هجوما عنيفا ومميزا في خطاب القاه في قم . وقد استهله بالتأكيد على ان « اجدادنا قد حصلوا على الدستور بدفع دمائهم ثمنا له ، ولن نسمح بان ينتهك هذا الدستور . ان تنفيذ القانون هو مطلبنا الوحيد » . ثم رد على ما جاء في ادانة الشاه للعلماء الذين وصفهم بالطفيليين ، فقال ، « هل أنا طفيلي ، وهل ان رجالا مثلي ومثل « بوروجردي » الذي توفي وهو مدين بمبلغ ٦٠ الف تومان (Tomans) ، وهؤلاء الطلاب الذين يعيشون على مرتب لا يتجاوز ٣٠ تومانا في الشهر ، هل نحن طفيليون ؟ أم انت الطفيلي أيها الشاه ، يا من شيدت القصور الشاهقة وملأت المصارف الاجنبية بثروتك التي لا يمكن تقديرها ؟ » (٣٢) .

دفعت التطورات في مشهد وقم الاحداث الى الذروة . ففي اليوم التالي الذي صادف العاشر من شهر محرم ، اي ذكرى استشهاد الامام الحسين ، قامت مجموعة من ضباط الامن باعتقال آية الله الخميني قبل بزوغ الفجر ، وسارعت بنقله الى طهران من حيث ارسل فورا الى المنفى في تركيا . وكان من الطبيعي ومن المحتم، ان تتحول مواكب « التعزية » في ذلك اليوم ، الى تظاهرات مناهضة للحكومة ، بعدما انتشر نبأ اعتقاله في العاصمة ووقعت اشتباكات مع الشرطة وقوات الجيش في ساحة « توبخانة » وفي جوار البازار . واستمرت الاضطرابات في اليوم التالي بحدة متزايدة وامتدت حتى الجامعة . وذكرت التقارير ان الاضطرابات انفجرت في الوقت نفسه ، في شيراز ونارامين وكاشان ومشهد . وفي السابع من حزيران ، الذي صادف يوم الجمعة ، قامت الدبابات واعداد كبيرة من القوات المسلحة بتطويق المساجد التي يؤمها المصلون في العاصمة ، وخصوصا مسجد « شاه » الذي يقع بالقرب من البازار ، وذلك من اجل منع المصلين من التجمع خوفا من احتمال تجدد اعمال الشغب (٣٣) . ومع ذلك استمرت الانتفاضة وبالدرجة نفسها من الحدة . فقد صدر كتيب في طهران ، في اليوم نفسه ، يدعو الى الجهاد ضد نظام حكم الشاه ، وظهرت دعوة مماثلة في قم في ٨ حزيران (٣٤) . وقد لوحظ بأن عددا من المتظاهرين كانوا يرتدون الاكفان كرمز لاستجابتهم للدعوة . وكانت الاوامر باطلاق النار بهدف القتل (٣٥) ، قد اعطيت الى الشرطة وقوات الجيش وقوى الامن منذ ٥ حزيران ، ولكن عملية قمع الاضطرابات لم تتم الا من بعد مرور ستة أيام ، ومن بعد وقوع خسائر كبيرة في الارواح .

لقد كان دور العلماء خلال تلك الاحداث ملفتا للانتباه . فبالاضافة الى اعتقال الخميني الذي كان السبب الآني لنشوب الاضطرابات في طهران اعتقل ايضا علماء بارزون كانوا يقودون المظاهرات في الاقاليم — وفي قم وشيراز بصورة خاصة . وقد عبرت الشعارات التي كان يطلقها المتظاهرون ، عن الولاء للخميني ، وهاجمت الاهداف ذاتها التي كان قد شدد عليها في بياناته .

ازاء هذا الاتحاد بين القيادة الدينية والنقمة الشعبية ، اتهمت الحكومة العلماء بسوء استخدام نفوذهم الديني بشكل فادح وبالتواطؤ مع عناصر متعددة ومختلفة من اجل خدمة مصالحها : طبقات الملاكين وثوار العشائر في فارس وحكومة اجنبية لم تسمها ، ولكن التلميح

الى الجمهورية العربية المتحدة كان قويا (٣٦) . فقد زعم بأن هـذه الدولة الاجنبية قد مدت الخميني بمبالغ طائلة من المـال لاثـارة الانتفاضة ، وادعى الشاه في خطاب القاه في همدان في ٨ حزيران، بأن كل متظاهر تلقى مبلغ ٢٥ ريالا للثورة ضد الحكومة ــ وهو اجـر متواضع حتى يخاطر المرء بحياته من اجلـه في مواجهة تفـوق ساحق (٣٧) . ولكن التهمة لم تثبت ابدا .

وقد تحدث رئيس الوزراء « علم » (« Alam ») عن «مؤامرة مناهضة للتقدم » ، واصبحت فيما بعد ، عبارة « الرجعية السوداء» اللقب الذي يطلق على الخميني واتباعه ، بموافقة المراجع الرسمية. ولكن الادعاء الذي ينسب الى الخميني عداءه للاصلاح الزراعـي ولحق المراة في الاقتراع لم يكن مقنعا كما سبق ولاحظنا : ففـي البيانات التي اصدرها قبل احداث ٥ــ١١ حزيران ، يذكر الخمينـي امورا مختلفة كليا ، كاسباب وجيهة لمعارضة نظام الحكم . اكثر من ذلك ، فان الخميني ومنذ ارساله الى المنفى ، لم يبق صامتا ولم يوقف نشاطه بأي شكل من الاشكال ، وبالامكان توضيح دوافعه لمعارضة نظام حكم الشاه بصورة افضل ، من خلال التدقيق في البيانـات والتصريحات التي كانت تصدر عنه في منفاه .

كانت تركيا منفى الخميني الاول . فقد امضى حوالي السنة في انقرة ، ثم في « بورصه » وذلك تحت مراقبة مشددة ، برفقة احـد عملاء جهاز الامن الايراني . وفي شهر تشرين الاول ، ١٩٦٥ ، سمح للخميني بمغادرة تركيا والتوجه الى العراق . ومن الواضـح ان العراق كان المنفى المفضل لان المدن المقدسة توفر مجالا ملائمـا للنشاط الديني وفيها العديد من المقيمين الايرانيين .

فور وصوله قام الخميني بزيارة كل واحدة من تلك المدن ، متنقلا من « سامرا » الى « الكاظمية » وكربلاء . وقد استقر به المقام من ثم في النجف حيث يقيم في الوقت الحاضر . وبوصوله الى هنـاك استعادت النجف دور المركز المنيع لمعارضة الحكم الاستبدادي فـي ايران ، الذي كانت قد لعبته خلال فترة الثورة الدستورية .

كانت أول خطبة علنية للخميني منذ مغادرته ايران ، تلك التـي القاها في مسجد « الشيخ انصاري » في النجـف في ٢٠ رجـب ١٣٨٥ هـ / ١٤ تشرين الثاني ١٩٦٥ . وكانت تلك الخطبة ذات طابع عام ، ولم تشر تحديدا الى ايران . وقد استهلها بالتأكيد على صلـة الاسلام العليا بالحياة السياسية والاجتماعية . قال : « ان للاسلام

نظاما وبرنامجا لكافة شؤون المجتمع على اختلافها : شكل الحكومة والادارة وتنظيم التعامل بين الناس علاقات الدولة والشعب والعلاقات مع الدول الاجنبية وكافة المسائل السياسية والاقتصادية الاخرى .... ولطالما كان الجامع مركز زعامة وقيادة ، مركز درس وتحليل للمشاكل الاجتماعية » . ودعا من ثم الى الوحدة والتعاون الاسلاميين من اجل حل مشاكل مثل مشكلة فلسطين ومشكلة كشمير ، وحث في النهاية علماء العالم الاسلامي كافة على تركيز اهتمامهم على المسائل السياسية بصورة اكثر فاعلية (٣٨) .

وفي نيسان ، ١٩٦٧ ، تطرق الخميني ثانية الى شؤون ايران ، هذه المرة في رسالة مفتوحة الى رئيس الوزراء هويدا . وقد صيغت الرسالة بلهجة قوية وواثقة . جاء فيها : « لقد كنت ارقب المصائب التي تحل بشعبنا المضطهد والاعزل خلال هذه الفترة الطويلة التي قضيتها في المنفى لارتكابي جريمة معارضة الحصانة القانونية الممنوحة للاميركيين ــ هذه الحصانة التي تطعن استقلالنا في الصميم ــ وقد نفيت عن ايران بصورة تتعارض مع الشريعة والدستور » . وقد تلا ذلك نقد شامل لحالة البلاد ، تكررت فيه النقاط الاساسية التي تضمنتها تلك البيانات التي كان قد اصدرها الخميني قبل حزيران ١٩٦٣ . ولكن الرسالة لم تذكر الاصلاح الزراعي ولا حق المرأة في الاقتراع ، سوى في اشارة عابرة الى البرنامج الاصلاحي ككل الذي اعتبره خدعة .

بالطبع ، لا يمكن التأكد من مدى انتشار هذه الوثيقة ومثيلاتها في ايران منذ نفي الخميني ، كذلك لا يمكن تقدير درجة تأثيرها بصورة يمكن الاعتماد عليها . ومع ذلك ورغم ان احداث حزيران ١٩٦٣ لم تتكرر ، يبدو من المؤكد وجود تيار مستمر ، ديني الايحاء والقيادة، معارض لنظام الحكم القائم يغذيه الولاء المستمر لشخص آية الله الخميني . وقد عاد وظهر وجود هذه المعارضة في سلسلة الاحداث التي جرت في صيف ١٩٧٠ . وتواظب هذه المعارضة على تشويش صورة الاستقرار والرضى التي ثابر الشاه على زرعها .

وفي ايار ١٩٧٠ ، اجتمع في طهران ، اتحاد مالي يضم ٣٥ مستثمر اميركي للبحث في زيادة الاستثمارات في السوق الايرانية . وكانت المجالات موضوع البحث واسعة : الصناعة والزراعة ، والمناجم والسياحة وتوزيع السلع الاستهلاكية . وقد اثار الاجتماع ردود فعل معادية في بعض الاوساط ، وكان الاحتجاج الذي اطلقه

احد مجتهدي طهران ، آية الله سيد محمد رضا سعيدي (Sayyid Muhammad Rida Saidi) ، احد اهم الاحتجاجات التي اطلقت ضد اتساع التغلغل الاميركي في اقتصاد البلاد . فقد ادان في بيان وزعه على علماء العاصمة ، اتساع الاستثمارات الاميركية الذي اعتبره « كارثة وضربة مدمرة لشعب ايران » ، وان نظام الحكم الذي دعا المستثمرين الى طهران ، هو نظام حكم « طغياني وعميل للامبريالية » ، وان واجب العلماء تقليد اجدادهم من امثال ميرزا حسين شيرازي ، والنهوض للاحتجاج على اغتصاب موارد البلاد الاقتصادية (٣٩) .

وقامت قوات الامن فور صدور هذا البيان ، باعتقال سعيدي وذكر مصدر موثوق انت مات تحت التعذيب في سجن « Qizil Qaia » ، ودفن بسرعة في مقبرة مجهولة ، في قم (٤٠) . وقد انتشر نبأ وفاته بسرعة ، وسارت تظاهرة في قم ضمت حوالي الف طالب من طلاب مدارس المدينة . وقد فرض الحظر على احتفالات كان من المفروض ان تقام في عدد من مساجد طهران احياء لذكراه . ولكن بالرغم من ذلك ، فقد تجمع جمهور غفير في مسجد « Ghiyathi » ، حيث كان سعيدي يقوم بمهام الامام ، من اجل احياء ذكراه . وخطب في الجمهور مجتهد بارز هو آية الله سيد محمود طالقاني والدكتور عباس شيباني ، وكلاهما اعضاء في « حركة الحرية » التي نشير اليها أدناه . وقد قامت الشرطة ، باعتقال الرجلين . وبينما اطلق سراح الطالقاني بعد اسبوع حكمت محكمة عسكرية في محاكمة مغلقة ، في ١٨ تشرين أول ١٩٧٠ على الشيباني بالسجن لمدة خمسة عشر سنة (٤١) .

وفي رده على كتاب مؤاساة تلقاه من علماء وطلاب الدين في قم لمناسبة وفاة سعيدي ادان الخميني مؤتمر رجال المال بلهجة تذكر بتلك التي كانت تستخدم قبل قرن من الزمن عندما أدين «امتياز رويتر » (Reuter Concession) . فقد كان هناك خوف من انتقال ملكية كافة موارد البلاد الى أيد غريبة اذا ما استمرت الامور بالسير في هذا الاتجاه . « ان اي اتفاق يعقد مع الراسماليين الاميركيين وغيرهم من الامبرياليين ، يتعارض مع ارادة الشعب وقوانين الاسلام . وبما ان الشعب ليس هو الذي ينتخب اعضاء « المجلس » ، فان قراراتهم غير شرعية وتتعارض مع الدستور وارادة الشعب » (٤٢) .

وفي الوقت نفسه الذي عاد فيه العداء العلني بين العلماء والدولة الى الظهور ، توفي في النجف الشيخ «محسن الحكيم» المجتهد المفضل لدى الشاه لشغل منصب المرجع . وبذلك عادت مسألة « المرجعية » « Marjaiyat » لتحتل الصدارة وعاد معها نفوذ الخميني ومكانته في ايران ، ليظهرا من جديد . وكما كان يفعل في السابق ، راح الشاه من خلال رسائل المؤاساة ، يسعى للتاثير على عملية اختيار مرجع جديد يمكن ان يطغي على شخص الخميني فلا يخلف الشيخ « الحكيم » الراحل الذي كان يتمتع بعدد محدود من الاتباع فحسب ، بل ويطغى على الخميني ، ومن اجل هذه الغاية بعث الشاه برقيتين ، الاولى الى « شريعة مداري » في قم والاخرى الى اية الله خونساري في طهران . وقد رد «خونساري» بجواب مهذب ومتحفظ بينما استجاب « شريعة مداري » بلهجة مطبوعة بالولاء ومسرفة في التعبير عن العواطف ، مما اثار استياءا واسع النطاق (٤٣) . وسارت مظاهرات امام منزله في قم وكان المتظاهرون يعيرونه لانه تخلى عن موقف العداء من الحكم الذي كان قد اظهره في حزيران ١٩٦٣ ، ويؤكدون ولاءهم للخميني كمرجع. وأرسل ثمانية وأربعون عالما من علماء المدينة برقية تعزية الى الخميني بوفاة الحكيم ، يتعهدون فيها بولائهم المستمر له . وتم اعتقال عدد من الموقعين على تلك البرقية وبعض الذين تظاهروا ضد « شريعة مداري » ، وابعدوا الى « زابول » (Zabul) . وجرت حوادث مماثلة في طهران ، حيث تكلم آية الله « مرفريد Marvarid» في جامع حاج عزيز الله ، عن كفاءات الخميني كمرجع ، وفي شيراز، حيث فرق الجنود اجتماعا كان يعقد في جامع «وكيل» (Vakil) (٤٤)

بعد احداث حزيران ١٩٧٠ ، برزت في ايران مظاهر النقمة والمعارضة التي كانت بمثابة شواهد اضافية على نفوذ الخميني . وكان الهتاف بحياة الخميني من بين الشعارات التي رفعت خلال الاضراب في جامعة طهران في شهر كانون اول ١٩٧٠ (٤٥) .

ويبدو معقولا ان نربط بين المشكلة المستمرة التي يمثلها شخص الخميني بالنسبة لنظام الحكم وبين بعض ملاحظات الشاه حول امكان انشاء « Sipah-i Din » ، اي فيلق ديني . ففي مؤتمر صحافي طويل عقده في كانون ثاني ١٩٧١ ، تناول فيه أمورا عديدة، قال الشاه : « من غير المستبعد ان ننشىء فيلقا دينيا في المستقبل حتى يستطيع بعض طلاب العلوم الدينية اذا ارادوا ، اداء الخدمة

العسكرية (في اطار هذا الفيلق) . ونحن نفضل ان نلحقهم بهذا الفيلق اذا انشأناه لاننا بقدر ما نقول بضرورة ان يكون الدين منفصلا عن السياسة (وقد شهدنا نتيجة الخلط بين الاثنين قبل بضعة سنوات) وبقدر ما نؤكد على ذلك ... بقدر ما نشجع الشعب أيضا على التقوى والدين ، لان لا استقرار حقيقيا في اي مجتمع من دون الدين ... » (٤٦) .

ويمكننا ان نستخلص من هذه التصريحات المشوشة الى حد ما ، هدفا مزدوجا من وراء اقتراح الفيلق الديني . الاول ، ان التجنيد في الفيلق يمكن ان يستخدم كاجراء تأديبي ضد المعارضين الدينيين لنظام الحكم ، وكتغطية لابعادهم عن مناطق نشاطهم حيث يتمتعون بالتأييد . وكان قد تم الحاق عدد من الطلاب الدينيين بالجيش كعقوبة (٤٧) ،اثر اعتقالهم لاشتراكهم في المظاهرات . واشارة الشاه الى « طلاب العلوم الدينية » الذين « عليهم تأدية الخدمة العسكرية »، ترمز تحديدا الى ذلك .

اما الهدف الثاني فهو ان الفيلق ربما اعتبر وسيلة لتوسيع نفوذ الدولة الى قلب الريف — بموازاة فيلق محو الامية — ولنشر فهم للاسلام لا يضر بنظام الحكم . اذ من الضروري استئصال نفوذ رجال من أمثال الخميني ، وحصر الدين في نطاق ضيق من العبادة والطقوس والاخلاق الخاصة وجعل سلطة الدولة المطلقة في المجال السياسي غير قابلة للطعن (٤٨) .

وتضمن بيان لآية الله الخميني وزع بين الحجاج في مكة ، في ذي الحجة ١٣٩٠ / شباط ١٩٧١ ، ردا غير مباشر على ملاحظات الشاه تلك . فهو يشكو من « ثقافة الامبريالية السامة التي تتغلغل في اعماق المدن والقرى في أنحاء العالم الاسلامي ، لتحل محل ثقافة القرآن » . ان ايران خاضعة لسيطرة اميركا ، عدوة الاسلام . « انهم (نظام الحكم) بتوسل الاسلام وبالتظاهر بأنهم مسلمون ، يسعون الى القضاء على الاسلام ، ويلغون ويزيلون اوامر القرآن المقدسة ، الواحد تلو الآخر » . ويشن الخميني في ختام ادانته لنظام الحكم ، هجوما عنيفا على الاحتفالات القادمة بمناسبة مرور الفين وخمسمائة عام على قيام الملكية في ايران، ويعتبرها « وسيلة للنهب والابتزاز في ايدي عملاء الامبريالية ... وكل من ينظم هذه الاحتفالات او يشارك فيها ، هو خائن للاسلام وللامة الايرانية » . (٤٩)

وبغض النظر عن النتيجة التي يمكن التكهن بها لهذه المواجهة بين السلطتين الدينية والملكية ، فمن المؤكد ان المسألة لم تتم تسويتها بعد بأي شكل من الاشكال ، وان رغبة الشاه بوضع حد للنقد الديني لشؤون الدولة ، معرضة للاحباط المستمر . لقد قيل بأن النظام قد تمكن والى حد بعيد ، من ضرب معارضة العلماء لسياساته، منذ أحداث عام ١٩٦٣ (٥٠) . هذا التقدير يبدو صحيحا في ضوء عدم تكرر العنف الديني على نطاق شامل . ولكن من المستحيل الحكم بدقة على مدى شعبية الخميني ، والمعارضة الدينية المتواصلة لنظام الحكم ، في ضوء الطابع القمعي للمناخ السياسي في ايران .والشواهد التي ذكرت أعلاه ، تشير الى ان شعبية الاثنين لا تزال كبيرة . ويجب ان نسجل كذلك ، وجهة نظر عناصر معينة داخل المعارضة الدينية ، والتي تقول بأن زمن المظاهرات الشاملة قد ولى وبأن الاهتمام يجب ان يتحول عوضا عن ذلك ،الى الاعداد الهادىء لحرب العصابات ولانتفاضات متفرقة على نطاق محدود . فقد كانت هذه النظرة الى الامور هي الحافز لمجموعة عرفت باسم « Hizb-i Milal-i Islami » (حزب الامم الاسلامية) ، كان يقودها محمد كاظم بوجنوردي ، وتمكنت قوات الامن من القضاء عليها في سنة ١٩٦٥ . وقد كان والد بوجنوردي احد مجتهدي النجف ، ومن اتباع ومؤيدي الخميني (٥١) .

أكثر من ذلك ، فانه لمن المؤكد ان الخميني لا يحظى باحترام هؤلاء الذين يدينون له بالولاء كمرجع فحسب ، بل ايضا باحترام فئات علمانية ويسارية من المعارضة . فمن بعد غموض الكاشاني وصوفية بوروجيردي تمكن الموقف الواضح الذي ينتهجه الخميني واتباعه من كسب ثقة العديد من المثقفين في اوساط العلماء ، كتجسيد لقوة شعبية ، بل ولقوة ثورية .

وما قاله آية الله ميلاني في سنة ١٩٦٣ ، من ان «رجال الدين قد خرجوا من زاوية الصمت والركود ليلتحقوا بصفوف المجتمع المتحركة » ، هو قول يستشهد به مرارا (٥٢) . وهناك اعتراف واضح بقدرة العلماء على تنظيم الجماهير المدنية والريفية ، والاشارة الايجابية الى الخميني ، ظاهرة مألوفة في الصحافة اليسارية في المنفى .

وتوجد مجموعة ناشطة داخل ايران تعطي اهتماما خاصا لخلق روابط بين العلماء وغيرهم من العناصر المعارضة لنظام الحكم،

ولصيانة هذه الروابط . وهذه المجموعة هي « Nidhat-i Azadi » او « حركة الحرية » وهي احدى المجموعات الاساسية في الجبهة الوطنية التي تأسست في عام ١٩٦١ بمباركة الدكتور مصدق . ويتزعم الحركة شخصيات زمنية ذات نزوع ديني ، على راسها المهندس مهدي بازركان وهو كاتب قدير وغزير الانتاج في المواضيع الدينية ، والدكتور « يد الله صحابي » (Yadullah Sahabi) وهو مثل بازركان ، استاذ سابق في جامعة طهران ، واية الله سيد محمود طالقاني ، ممثلا للعلماء في الحركة . وقد تعرض ثلاثتهم للسجن مرارا ولفترات طويلة ـ وخصوصا طالقاني . ويبدو ان الحركة تستمد تأييدها والى حد كبير ، من اوساط الطلبة الجامعيين في الداخل وفي الخارج ، ومن اوساط العلماء الشبان خصوصا في قم (٥٣) .

هناك اذن ، استمرارية مميزة في الدور السياسي للعلماء في ايران ، تقليد بمعارضة السلطة الاستبدادية التي تربط القرن الثاني عشر بالحاضر . فقد ظهر في احداث حزيران ١٩٦٣ ، عدد من المواضيع والافكار الرئيسية التي نجدها في الثورة الدستورية ، بل وفي احداث سابقه تعود الى تاريخ القاجار : الدعوة الى الجهاد ، محاصرة الجوامع ، انفجار الغضب عند عزل قادة دينيين ، نفي العلماء الى العراق ـ ان كل هذه الامور مألوفة لدى الطالب الذي يدرس ايران القرن التاسع عشر .ومع ذلك لا يمكن اعتبار دور العلماء السياسي الاخير غرابة تنطوي على مفارقة تاريخية . ويجب ان ندرك ان الدولة في عصرنا الحاضر كما في سنوات الثورة الدستورية، تعتبر في اوساط معينة ، دولة استبدادية ، كافرة ، خاضعة لقوى اجنبية ملحدة . صحيح ان لدى الدولة اليوم جهاز قمع تحت تصرفها ، اكثر فاعلية مما كان لديها في القرن التاسع عشر ، وان هناك ايضا تيارات ايديولوجية معينة قوية في حركة معارضة النظام ، تتعارض الى حد ، مع نفوذ الخميني واتباعه ، ولكن ومع ذلك ، سيكون من باب التسرع ان نتكهن بالانحلال المضطرد لدور العلماء السياسي . فالوعي الوطني الايراني ما زال مقترنا بالشيعة بالرغم من كافة انتهاكات العصر الحديث ، وعندما تعتبر سيادة الامة مهددة من قبل حكم استبدادي داخلي وهيمنة اجنبية ، ستظل تطلق الاحتجاجات بصيغ دينية وستظل نداءات رجال من امثال آية الله الخميني تحظى باستجابة واسعة النطاق .

هوامش

1- Nikki R. Keddie, «The origions of the Religious-Radical Alliance in Iran», Past and Present, 34 (July, 1966), 7080, Hamid Algar, Religion and State in Iran, 1785-1906: The Role of the Ulama in the Qajar Period (Berkeley and Los Angeles, 1969); and A.K.S. Lambton, «The Persian Ulama and Constitutional Reform,» in Le Shi'isme Imamite: Colloque de Strasbourg, 6-9 mai 1968 (Paris, 1970), pp. 245-26g.

2- Quoted in Fakhr ad-Din 'Ali Safi Lata'if at-Tava'if, Ahmad Gulchin-i Ma'ani, ed. (Tehran, 1336 Sh/1957), p. 61.

(٣) هذه العبارة تلخص افكارا عبرت عنها امامي مجموعة من الاصدقاء الشيعيين في مشهد . صحيح بالطبع ، ان الاسراف في الطغيان ، من منظور مختلف وربما تقليدي اكثر ، هو مؤشر الى عودة الامام الثاني عشر الوشيكة ، وهو بالتالي « تحضير » لمجيئه .

4- A. Sepsis «Quelques mots sur l'etat religieux actual de la Perse» Revue de L'Orient, III (1844), 106.

5- Nizam al-Islam Kirmani, Tarikh-i Bidari-yi Iranian (new ed.; Tehran, 1332 Sh/1953), p. 415.

6- Ahmad Kasravi, Tarikh-i Mashrutayi Iran (5th imp.; Tehran, 1340 Sh/1961), p. 729.

7- Kirmani, op. cit., p. 206.

(٨) فيما يتعلق بمحاولات في هذا الشأن قام بها رئيس الوزراء ، امير كبير ، من ١٨٤٨ — ١٨٥١ ، انظر الغار ، المصدر نفسه ، ص — ١٢٥ — ١٣٦ . وقد حاول رضا شاه في وقت لاحق ، منع تمثيل التعزية ، ولكن من دون جدوى .

(٩) راجع الغار نفس المصدر ، ص . ٥—١١ ، للمزيد من التفاصيل حول مبادىء التقليد وممارسته .

(١٠) انظر المرجع السابق ص ٢٤٠ — ٣٦ ، والمصادر المذكورة هناك ، للمزيد عن البهبهاني .

(١١) المصدر نفسه ، ص — ١٧١ .

12- Quoted in Kirmani, op. cit., p. 214.

13- See Kasravi, op. cit., pp. 238, 287, 294; Mahdi Malikzada, Tarikh-i Inqilab-i Mashrutiyat-i Iran (Tehran, 1327 Sh/1948-1949), II, 29-31.

14- Kasravi, op. cit.. p. 286.

(١٥) نشرت طبعة الطالقاني في طهران في سنة ١٩٥٠ .

16- Husayn Makki, Tarikh-i Bistsala-yi Iran (Tehran, 1324-1326 Sh/1945 -

1947), II; 191; and Yahya Daulatabadi, Tarikh-i Mu'asir Ya Hayat-i Yahya (Tehran, n.d.), IV, 288.

17- Agha Buzurg at-Tihrani, Tabayat A'lam ash-Shia (Najaf, 1375 Q/1956), I:1, 75-76; L.P. Elwell-Sutton, Persian Oil: A Study in Power Politics (London, 1955), pp. 195-196.

18- See his letters to Dr. Musaddiq quoted in the collection of Musaddiq's speeches, Nutqha-yi Duktur Musaddiq dar Daura-yi Shanzdahum-i Majlis-i Shaura-yi Milli (New York (;) n.d.), pp. 35, 50, 91.

19- On Kashani's relations with Musaddiq see R.W. Cottam, Nationalism in Iran (Pittsburgh, 1964), pp. 152-156.

20- Biographical information drawn from at-Tihrani, op. cit., II:1, 605-609.

21- See concerning Shaykh Murtada Ansari, Algar, op. cit., pp. 162-165, and at-Tihrani, op. cit., III. 429.

22- See N. R. Keddie, Religion and Rebellion in Iran: The Tobacco Protest of 1891-1892 (London, 1966).

23- Concerning these achievements, see Murtada Mutahhari, «Mazaya va Khadamat-i Marhum Ayatullah Burujirdi,» printed at the end of the collective work entitled Bahthi dar barayi Marjatyat va Ruhaniyat (2d ed., Tehran, n.d.), pp. 233-249.

(٢٤) يعتقد بعض معارضي نظام الحكم بأن هذه الاتصالات بين « بوروجردي » وبين الشاه ، كانت تعطى من الاهمية اكثر مما تستحق ، خصوصا وان آية اللـه الراحل كان في الفترة الاخيرة من حياته يعاني من وهن في قواه ، ولم يكن يطلـع بصورة وافية على الحقائق السياسية من حوله .

(٢٥) هناك عدد آخر من المجتهدين لكل واحد منهم اتباع يعتمدون هدايتـه، مثل اية الله شهروردي واية الله خوئي من النجف ، واية الله خونساري من طهران. وربما كان « بوروجردي » اخر المجتهدين الذين يتولون منصب المرجع الاوحد . وقـد أعيد النظر بعد وفاته ، في مؤسسة « المرجع » ، وذلك من قبل عدد من المفكريـن الشيعة . وقد توصل بعضهم الى الاستنتاج بأن المرجع الجماعي هو الاكثر ملائمـة احاجات العصر من المرجع الاوحد .

See Bahthi dar bara-yi Ruhaniyat va Marjaiyat; and an analysis of its contents by A. K. S. Lambton, «A Reconsideration of the Position of the Marja' Al-Taqlid and the Religious Institution,» Studia Islamica, XX (1964), 115-135.

26- At-Tihrani, op. cit., I:2, 759.

27- Izvestiya (Moscow), June 6, 1963.

(٢٨) انظر تصريح شريعة مداري لصحيفة لوموند (باريس) ، ١٢ حزيران، ١٩٦٣ .

(٢٩) في كتابها « الاصلاح الزراعي الفارسي » ، ١٩٦٢ — ١٩٦٦ ، (اكسفورد ، ١٩٦٩) ، ص — ١١٢ ، تعترف بروفسور لامبتون ان الخميني لم يهاجم الشاه «بسبب الاصلاح الزراعي» ، ولكنها تدعي « ان تحفظات العديد من الطبقات الدينية (ضد الاصلاح الزراعي) قد استمرت » . ولكنها لم تقدم ادلة على ذلك .

(٣٠) المقتطفات من هذا التصريح وغيره من تصريحات الخميني ، مأخوذة مباشرة من نسخ عن بياناته .

31- Ittila'at (Tehran), Khurdad 14, 1342, June 4, 1963.

(٣٢) مأخوذ عن كتيب مجهول المؤلف صدر عام ١٩٧٠ عن كونفدرالية الطلبة الايرانيين المسلمين في الولايات المتحدة وكندا بعنوان : Ruhaniyat va 15 Khurdad ويحتوي في ٥٧ صفحة اشمل تقرير متوفر عن أحداث حزيران (يونيو) ١٩٦٣، والعديد من تصريحات الخميني .

(٣٣) الاهرام (القاهرة) ، ٨ حزيران ، ١٩٦٣ .

34- Ittila'at, Khurdad 19, 1342/June 9, 1963.

35- Kaiyhan International (Tehran), June 5, 1963.

36- Ittila'at, Khurdad 16, 1342/June 6, 1963.

(٣٧) من غير المستبعد ان تكون ظروف عوده الشاه الى السلطة في شهر آب، ١٩٥٥ ، هي التي أوحت له بأن يسوق هذه التهمة ذات الطابع المادي .

38- See the document entitled Jarayan-i Mashruh-i Tauqif va Tab'id-i Hadrat Ayatullah Khumayni az Zaban-i Farzand-i Ishan drawn up by his son, Sayyid Mustafa Khumayni.

39- The full text of Sa'idi's declaration is given in Khabarnama, organ of the National Front in American, Mihr.

(٤٠) اخضع سعيدي للتعذيب ، تحطمت جمجمته تدريجيا وادخلت مياه تغلي الى امعائه . وقتل تحت التعذيب في الوقت نفسه ، طالب من بوليتكنيك طهران ، هو نيكداودي Nikdaudi كان قد اعتقل بسبب احتجاجه ايضا على مؤتمر المستثمرين . انظر تقرير بتاريخ ، تشرين ثاني ١٩٧٠ ، وضعه الدكتور هانز هيلدمان ، استاذ علم الجريمة في جامعة فرانكفورت ، عن رحلة قام بها الى ايران مكلفا من لجنة العفو الدولية .

(٤١) بخصوص هذه الاحداث ، انظر Khabarnma, شهرور ١٣٤٩/ ايلول ، ١٩٧٠ ، وبيان حركة الحرية في المنفى — بتاريخ ١ تشرين ثاني ،

١٩٧٠ . يتضمن البيان ادانة الدكتور شيباني .

42- Khabarnma, Sharivar, 1349/Sept., 1970.

43- Report in the Times (London), June 24, 1970.

44- Khabarnama, Shahrivar, 1349/Sept., 1970.

45- Le Monde, Dec. 20, 1970.

47- Khabarnama, Mihr, 1349/Oct., 1970, p. 5.

(٤٨) يمكننا ان نلاحظ بصورة عابرة ، ان اصرار الشاه على الفصل الكامل بين الدين والدولة يتعارض مع تلك المادة من الدستور الايراني التي تقول بـــأن الشيعة الاثني عشرية هي دين الدولـــة .

(٤٩) طبع هذا البيان في النجف . وقيل بأن السلطات السعودية قد اعتقلـــت بعض الذين اشتركوا في توزيعه وسلمتهم الى السلطات الايرانية .

50- See Nikki R. Keddie, «The Iranian Power Structure and Social Change, 1800-1969. An Overview,» International Journal of Middle East Studdies, II (1971), 17.

(٥١) يجب ان لا نفهم من ذلك ان نشاط مجموعة بوجنوردي كان بتوجيه مـــن الخميني أو بتأييد منـــه .

52- Iran-i Azad, organ of the National Front in Europe, II:33 (Khurdad, 1344/June, 1966), 6.

53- On the aims and ideology of the movement, see the text of Bazargan's statements to the military review tribunal that tried him in 1963, Difa'az Tez-i Nihdat-i Azadi-yi Iran, pt. 1 (n.p., Khurdad, 1343/June, 1964).

مقاومة الفراعنة في كتابات علي شريعتي عن الاضطهاد

منصور فرهانق

اصبحت شخصية الدكتور علي شريعتي منذ بداية النضال الثوري العلني ضد نظام الشاه في اوائل ١٩٧٨ رمزا للبعد الايديولوجي للثورة الايرانية ، وصارت صوره تظهر على جدران الشوارع ، وفي اماكن الاجتماعات العامة ، وفي غرف الجلوس في البيوت الايرانية ، وفي اكشاك مقبرة « بهشت الزهراء » حيث يرقد شهداء الثورة ٠ واصبحت كتب علي شريعتي تشكل نسبة ثمانين بالمئة من الكتب المعروضة على ارصفة المدن الايرانية بينما تعرف كثيرون من الايرانيين الاميين على افكار شريعتي من خلال الاستماع الى تسجيلات لمحاضراته انتشرت كمثل انتشار كتبه ٠

وخلال سنوات القمع الذي كان يمارسه نظام الشاه اعتقل الالوف من الايرانيين وعذبوا لحيازتهم كتب شريعتي او اشرطة محاضراته ٠ واطلق على المستشفى الكبير كسر كسز اسم مستشفى الدكتور علي شريعتي الذي اصبح فولتير الثورة الايرانية ٠

وكان شريعتي قد بدأ مسيرته الفكرية غير الاعتيادية كمدرس في المدارس الثانوية وهو في الثامنة عشرة من عمره ٠ واثناء ممارسته التعليم كان يتابع دراسته في معهد تدريب المعلمين ٠ وفي عام ١٩٥٨ توجه الى فرنسا بمجرد تخرجه من المعهد حيث بدأ دراسة سوسيولوجية الدين في جامعة السوربون ٠ ولدى عودته عام ١٩٦٤ الى ايران ، اعتقل شريعتي بسبب نشاطاته السياسية اثناء اقامته في اوروبا وبقي عشرة اشهر في السجن دون محاكمة ٠ وبعد سنتين حصل على منصب للتدريس في جامعة مشهد ، ولكن شعبية تفسيره الراديكالي لافكار المدرسة الشيعية ادت به الى ان يطرد من الجامعة ٠ وانتقل شريعتي عام ١٩٦٨ الى طهران حيث القى سلسلة من المحاضرات عن تردي التقاليد الشيعية من مستوى الدين الثوري للمضطهدين الى الفساد الذي شهدته على ايدي سلالة الصفويين الحاكمة (١٥٠٠ ــ ١٧٢٢) التي تبنى مؤسسها المذهب الشيعي باعتباره

● منصور فرهانق : Mansur Farhang سفير ايران الحالي لدى الامم المتحدة ، وكان قبل ذلك استاذا مشاركا في جامعة ولاية كاليفورنيا في ساكرامنتو في الولايات المتحدة ٠

● نشر النص الاصلي لهذا البحث في مجلة Race & Class, xxl, 1 (1979)

الدين الرسمي للدولة ٠

ودعا شريعتي الشيعة الى احياء وتحديث المضمون الثوري الاصلي لدينهم ٠ وكان تحليله من الجدة والابداع ، ومن التجريد واللاسياسية في الظاهر ، الى درجة أخرت أجهزة السافاك ستة أشهر عن فهم ما كان شريعتي يفعل ٠ وحتى عندما شعر رجال السافاك بما كان عليه شريعتي ، فانهم فعلوا من خلال التحركات الواسعة لطلاب الجامعة في حسينية الارشاد حيث كانت تلقى هذه المحاضرات وليس من خلال فهم رسالة شريعتي ٠

ولم يذكر شريعتي اسماء الحكام ولا هاجم النظام القائم مباشرة في محاضراته وكتاباته ، اذ كان يعلن ادانة الهيكل الاجتماعي ـ السياسي القائم مداورة ٠ واستخدم الاستعارات والمماثلات التاريخية لايصال اهتماماته المعاصرة الى من يريد ٠ وباعتباره شيعيا ثوريا مثقفا ذا معرفة مكثفة بالفلسفة والتاريخ الغربيين ، كان شريعتي اكثر ما يكون اقتدارا على دمج الفكر الراديكالي الغربي بالتقائيد والمبادىء الشيعية ٠ وكان شريعتي يؤكد ان مجتمعا اسلاميا صحيحا لا بد له من وجود نظام عادل للانتاج والتوزيع كشرط مسبق لقيامه ٠ على العموم ، ان مفهومه للعدل لم يكن نيقتصر على الحدود المادية ٠ وقد جادل تكرارا في ان مجتمعا بلا بعد اخلاقي ، وهو بعد منفصل عن الهيكل المادي ويذهب الى ابعد منه ، لا بد له من التردي في الممارسات الدكتاتورية والاحتيالية ٠

وقد عالج شريعتي الفكر الشيعي باعتباره الايديولوجية التاريخية للمضطهدين ، كما انه رأى في الرموز الشيعية صورا ثورية وفي شهداء الشيعة ابطالا ثوريين ونماذج للنشاطات السياسية المعاصرة ، وقبل كل شيء ، اعتبر شريعتي العمل الاجتماعي ـ السياسي هو البرهان الاكبر على ايمان الانسان ، وعلى المرء ان يفهم التأثير العاطفي للرموز والابطال الشيعة على الشعب الايراني لكي يقدر تقديرا كاملا ذلك النداء المبدع الذي طرحه شريعتي من اجل التغيير في شخص الانسان والمجتمع ٠ وقد عمل شريعتي فعلا على مفصلة ذلك الايمان المتزايد لدى الانتلجنسيا الايرانية بأن ايديولوجية اي تغيير تقدمي ثابت في البنية الاجتماعية ـ السياسية المتردية للبلاد لا بد له من ان يكون متجذرا في التاريخ المحلي وفي القيم الاساسية للمجتمع ٠

وقد حيرت الشعبية التي تمتع بها شريعتي سلطات السافاك الى حد جعلها تكلف عددا من الباحثين الاسلاميين التقليديين بدراسة كتاباته لفهم الاسباب التي تؤدي الى انتشارها الواسع ٠ وفي عام ١٩٧٢ اعتقل

شريعتي مرة اخرى امضى خلالها ثمانية عشر شهرا في السجن دون توجيه اي اتهام رسمي له او محاكمته · ولكن الضغوط العالمية ، الى جانب ان احتجاز شريعتي زاد من اتساع الاهتمام بكتاباته ، اديا الى الافراج عنه · ودبر شريعتي في اواخر ايار (مايو) ١٩٧٧ امر مغادرته البلاد وفي نيته التوجه الى الولايات المتحدة · ولكنه توفي فيما بدا انه ازمة قلبية بعد وصوله الى بريطانيا بأيام ، وادت الظروف غير الطبيعية التي احاطت بوفاته الى سريان اشاعات حول لعبة قذرة قام بتنفيذها عملاء السافاك · واصبح علي شريعتي ، بالنسبة لملايين الايرانيين ، بطلا اسطوريا ، وشهيدا ثوريا وفيلسوفا ·

وكتابات شريعتي واسعة ومتنوعة ، واعماله المنشورة تقرب من مئتي كتاب وخمسين مقالا ، وقد تكرر وتكرر نشر اعماله بصورة علنية وسرية داخل البلاد وخارجها ، ووصل الانتشار السريع في توزيع هذه المؤلفات حدا لم يسبق له مثيل في تاريخ ايران · وكذلك كان التأثير العميق والعام لكتاباته خلال فترة قصيرة جدا من الزمن امرا مثيرا للدهشة ·

و « تأملات مسلم مهتم بمأزق الشعوب المضطهدة » ، الذي ترجمه الى اللغة الانكليزية محمد بلال ونشر للمرة الاولى في عام ١٩٧٧ لدى مؤسسة « الادب الاسلامي الحر » ، في مدينة هيوستون بولاية تكساس الاميركية ، هو من المقالات الفذة الملائمة لتعريف القراء بنوعية افكار شريعتي ومدى مساهمته في نجاح الثورة الايرانية ·

تاملات مسلم مهتم
بمازق الشعوب المضطهدة

بقلم : علي شريعتي

ان افضيت اليك بمكنون قلبي فلأني اريد ان اشركك بتجربتي الشخصية · وهذا يهمني لانه يتعلق بطبقتي وبمجتمعي وببلادي وبتاريخي ·

اني اعرف افكار الناس المثقفين · اسلافي ، في الماضي السحيق حيث اختفوا في دفق التاريخ ، كانوا اناسا ضربهم الفقر · اما انا شخصيا فاني من اقارب النبلاء ، ولكن اولاء النبلاء الذين لم يكن نبلهم من انتاج الذهب والفضة ·

اني مهتم بعمق بالارث الانساني والحضارة الانسانية · لقد كان

اهتمـــامي الاول ينصب دومـــا على التأمـــل بأعمـــال الناس الذين سكنوا الارض قبلنا ·

في اليونان رأيت معبد دلفي الذي هزني بجماله الفني والحرفي · وفي رومـــا زرت متحف الفنون ورأيت عمارة المعابـــد والقصور الكبرى · وفي الشرق الاقصى ، في الصين وفييتنام ، هنالك جبـــال حولتهـــا ايدي البشر وعقولهم الى معابد للآلهـــة وممثليهم في الارض (كهنـــة الدين) · وهـــذا التراث الانساني ثمين بالنسبة لي ·

وفي الصيف الماضي ، اثناء زيارتي لافريقيا ، قررت رؤية اهرامات مصر الثلاثة ، فقد شغل علي تفكيري هذا المعلم الحضاري نظرا لضخامة محيطه · وسارعت لرؤية احدى عجائب العالم السبع : الاهرامات ·

انصت بكل قلبي لشروحات الدليل حول البناء · علمنا انه كان على العبيـــد ان يحضروا ٨٠٠ مليون كتلـــة حجريـــة من اسوان الى القـــاهرة لانشاء ستة اهرامات كبيرة وثلاثة اخرى صغيرة · ثمانماية مليون كتلـــة حجرية احضرت الى القاهرة من موقع يبعد عنها مسافـــة ٩٨٠ كيلومترا لاقامة بناء تحفظ فيه جثث الفراعنة المحنطـــة · في الداخـــل ، بنيت القبور بخمس كتل من الرخام · اربعة منها استخدمت للجدران والكتلة الخامسة للسقف · ولتصور حجم ووزن الكتل الرخامية لسقف القبر تكفي معرفـــة ان ملايين الكتل الحجرية رفعت احداها فوق الاخرى ، وكلها فوق كتلـــة السقف الرخامية ، وصولا الى قمة الهرم ، وتحمل السقف كل هذا الحمل على مدى الخمسة آلاف سنة الاخيرة ·

لقد ادهشني هذا العمل الرائع · وعلى مسافة ثلاثماية او اربعماية متر رأيت كتلا حجرية مبعثرة · سألت الدليل : « ما هي ؟ » · اجـــاب : « لا شيء ، انها بعض الكتل الحجرية فحسب » · من الثـــلاثين الف عبد الذين احضروا الكتل الحجرية الثقيلة من مسافة تبعد مئات الاميال ، في عمل يومي ، سحق المئات تحت احمالهم الثقيلة · والمكان الذي سألت عنه هو المكان الذي فيه دفنوا · كان هؤلاء ، في نظام العبودية ، من اللاهمية بحيث دفن المئات منهم في حفرة جماعية · اما من بقي على قيـــد الحيـــاة فكان عليه متابعة نقل الاحمال الثقيلة · قلت للدليل ان بودي رؤية العبيد الذين سحقوا في التـــراب · ورد الدليـــل باستغراب : « ليس هنـــاك مـــا تراه ! » ·· مشيرا الى قبور العبيـــد الذين دفنوا قرب الاهرامـــات بأمر الفراعنة : لقد جرى دفنهم هنا لتستخدم ارواحهم كعبيد كمـــا استخدمت اجسادهم ·

سألت الدليـــل ان يتركني وحيـــدا ، ثم ذهبت الى القبور وجالستها

شاعرا بقرب شديد من الناس الذين دفنوا في هذه الحفر · كنا وكأننا من نفس العرق · صحيح ان كلا منا اتى من منطقة جغرافيــة مختلفة ، ولكن هذه الاختلافات تبقى بلا معنى عندما ينظر اليها كأساس لتقسيم الجنس البشري ، لان هــذه الظـاهرة هي التي انطلقت منهـا مفـاهيم الغربـاء والاقرباء · لم تكن لي علاقة بهذا التقسيم انتصنيفي والجذري ، وبالتالي، لم اشعر الا بمشـاعر الدفء والتعـاطف نحو هذه الارواح المضطهـدة · اعدت النظر الى الاهرامات فرأيتها ، على روعتها ، غريبة عني وبعيـدة مني ! بكلمات اخرى ، شعرت بكراهية كبيرة لمعالم الحضارة الكبرى التي بنيت عبر التاريخ على عظام اسلافي ! اسلافي بنوا ايضـا سور الصين · والذين لم يستطيعوا حمل الاثقال سحقوا تحت الحجارة الثقيلة ووضعوا داخل السور مع الاحجار · هكذا بنيت كل معـالم الحضـارة الكبرى ·· على حساب لحم اسلافي ودمهم !

رأيت في الحضـارة لعنـة · احسست بكراهيـة مستعرة نحو آلاف السنين من الاضطهاد لاسلافي · عرفت ان مشاعر كل اولئك المدفونين معا في الحفر كانت ذات يوم كمشـاعري · وعدت من زيارتي وكتبت لاحـدهم رسالة اشرح فيها ما رشح عبر السنوات الخمسة آلاف الماضية · انه لم يعش في هذد السنوات الخمسة آلاف ، ولكن العبودية كانت هنـاك بشكل او بآخر !

جلست وكتبت اليه :

صديقي ، لقد غادرت انت هذا العالم ، ولكننا نحمل اثقال الحضارة الكبرى ، والانتصارات المبينة ، والاعمال البطولية · لقد اتوا الى بيوتنـا في المـزارع واجبرونا ، كالحيوانات ، على بنـاء قبورهـم · لو لـم يكن باستطاعتنا ان نحمل الحجـارة ونكمل المهمـة ، لوضعنا نحن ايضـا في الجدران مع الحجارة ! آخرون نالوا مفخرة وشرف عمل قمنا نحن به ، ولم يرد اي ذكر لمساهمتنا ابدا ·

دفعوا بنا الى الامـام لقتـال اناس لم نعرفهم ابـدا ولم يعرفونا · فرض علينـا قتل اناس لم نكن نحتقرهم · بعض من قتلنـا كان من نفس طبقتنا وعرقنا ومصيرنا · لزمن طويل حاول اهلنا المسنون العجزة البحث عن وسيلة للاتصال بنا ، ولكن عيونهم المنقبة لم تعثر ابدا على الجواب · يقول احـد المفكرين ان تلك المعـارك كانت اشبه بالحروب بين طرفين لم يعرف احدهما الآخر ولكنهما تحاربا لحساب اولئـك الذين يعرف احدهم الآخر جيـدا ! لقـد اجبرونـا على القتـال وعلى ان نرتكب المجـازر وترتكب بنا · آباؤنا وامهاتنـا ، مثلهم مثـل مزارعنـا الخربـة ، قاسوا

الخسارة · فان تم الانتصار حصده الآخرون ، وليس نحن ·

صديقي ، بعد موتك حصل تغير كبير ، فقد غير الفراعنة وقوى التاريخ العظمى نظرتهم ، وهو ما جعلنا سعداء · قبلا ، كانوا يعتقدون بخلود ارواحهم ، ولذلك اعتقدوا انه بالحفاظ على الجسد يمكن للروح ان تتابع علاقتها بالجسد · وهذا ما جعلهم يجبروننا على بناء تلك المباني العظيمة بالرغم من وحشيتها ، ولكنهم اصبحوا اكثر حكمة ، فما عادوا يفكرون بالموت · لدينا نبأ عظيم : لقد تخلوا عن تلك الاعتقادات القديمة ، لقد وفروا علينا نقل ٨٠٠ مليون كتلة حجرية مسافة مئات الاميال لبناء قبورهم ·

صديقي ، هذا « النبأ العظيم » ظهر قصير العمر · بعد ان ذهبت ، عادوا فدخلوا بلادنا ليأخذونا عمالا · ومرة اخرى صار علينا ان نحمل الاثقال . ولكن ليس لقبورهم ، فما عادوا يأبهون للقبور · هذه المرة ، صار علينا ان نحمل الاثقال لبناء قصورهم ، قصورهم الكبيرة التي دفن جيلنا قربها !

لقد عشنا اليأس ، ولكن بريق امل جديد في البقاء ظهر امامنا · انبياء عظماء اتوا ، فكان زرادشت ، وكان بوذا العظيم ، وكان كونفوشيوس الفيلسوف · بوابة فتحت للانقاذ · « الآلهة » ارسلت رسلها لانقاذنا من بلوى العبودية ، وحلت الصلاة محل الوحشية · للاسف ، كان حظنا سيئا · فالانبياء الذين هجروا بيوت النبوة ونسونا ، ساروا الى القصور ·

ايماننا عظيم بكونفوشيوس الفيلسوف لانه توجه الى مسألة الانسان والمجتمع · ولكنه ، هو ايضا ، اصبح صديقا للامراء · بوذا ، الذي كان اميرا ، هجرنا ايضا ، وعاد الى نفسه للبحث عن حالة « النيرفانا » ، ولكننا لا نعرف اين هي هذه الحالة · جاء بوذا بالعديد من القواعد العظيمة والتنسكية · اما زرادشت فقد بدأ دعوته من اذربيجان في ايران·

وبغض النظر عن حدادنا ، وعن الجراح التي خلفتها سياط الاسياد على اجسادنا ، فقد تابع سيره الى بلخ ثم الى بلاط قشطصيب الذي كان ملكا في تلك الايام ·

صديقي ، لقد ضحي بنا من اجل القبور يوم ضحي بنا من اجل القصور ! وفجأة ، والى جانب الفراعنة والآخرين الذين استخدمونا كعبيد لهم ، ظهر اولئك الذين ادعوا كونهم خلفاء الانبياء والمعلمون الروحيون المتهنون ·

من فلسطين الى ايران ، ومن مصر الى الصين ، وفي كل ارجاء الارض التي عرفت الحضارة ، كان علينا ان نحمل اثقال الحجارة لبناء المعابد والقصور والقبور • ثم ثانية ، وباسم المحبة ، بدأ ممثلو « الآلهة » وخلفاء الانبياء يغنموننا • وثانية ، باسم الحرب المقدسة ، دفعنا الى ميادين القتال • وكان علينا ان نضحي أبناءنا الابرياء من اجل « الآلهة » والمعابد والرموز !

صديقي ، عبر آلاف السنوات اصبح مصيرنا اسوأ من مصيركم • ثلاثة اخماس ثروة ايران تذهب الى جيوب الموبدانيين (كهنة فارس القدامى) باسم الآلهة • ونحن اصبحنا خدمهم وعبيدهم • اربعة اخماس ثروة فرنسا سلبنا اياها كهنة الرب • وكهنة فرعون ومعلمو الدين الروحيون نجحوا دوما !

صديقي ، اني اعيش بعدك بآلاف السنين ، واشهد كل المعاناة التي يقاسي منها اصدقائي ، وقد بدأت اشعر ان « الآلهة » تكره العبيد • يبدو لي وكأن الدين يقوي نظام العبودية • حتى الناس الاكثر منا ذكاء ، مثل اريسطو ، وضعوا نظريات تقول بأن بعض الناس ولدوا ، بالطبيعة ، ليكونوا عبيدا والبعض الآخر ولد ليصبح حاكما • بدأت اعتقد اني ولدت لاكون عبدا •

وسط هذا اليأس ، عرفت ان انسانا نزل من الجبال يقول ان الله ارسله • وارتجفت وانا افكر باحتمال ان يكون في الامر خدعة جديدة او وسيلة جديدة للقسوة • وقال انه رسول الله الذي وعد برحمته العبيد والمستضعفين في الارض • اية مفاجأة ما زلت غير قادر على تصديقها ! كيف يمكن ان يكون هذا صحيحا ؟ كان الله يكلم العبيد منبئا اياهم بجديد، واعدا اياهم بالانقاذ والازدهار وبأن يصبحوا ورثة الارض •

ساورتني الشكوك وانا افكر بأنه قد يكون هو ايضا واحدا من انبياء الصين والهند اولئك • كان اسمه محمد ، وقيل لي انه كان يتيما وراعيا خلف تلك الجبال • كنت في غاية المفاجأة • لماذا اختار الله نبيه من بين الرعاة ؟ وقيل لي ايضا ان اسلافه كانوا انبياء اختيروا جميعهم من بين الرعاة ، وكان هو آخرهم • بفرح ودهشة فقدت القدرة على النطق واصبت بالارتعاش • هل اختار الله رسوله من طبقتنا ؟

بدأت اتبعه لاني رأيت اصدقائي حوله • وبين من اصبح من قادة اتباعه بلال : عبد ابن عبد كان ابواه من الحبشة ، وسلمان : رجل من فارس لا بيت له امتلك كعبد ، وابو ذر : الفقير والصديق المجهول من الصحراء ، واخيرا سالم : عبد زوجة حذيفة وزنجي غريب بلا اهمية •

آمنت بالنبي محمد لان قصره لم يكن اكثر من غرف قليلة بنيت بالطين · كان هو نفسه بين العمال الذين حملوا الاثقال وبنوا الغرف · كان بلاطه من الاخشاب وسعف النخل · وكان هذا كل ما يملك · كان هذا قصره ·

هربت من فارس ومن نظام حكم الموبدانيين الذين دفعوا بنا كعبيد الى الحرب لحماية سلطانهم وحكمهم من الاعداء · هربت وجئت الى بلد الرسول لاعيش مع العبيد الذين لا بيوت لهم ولا من يساعدهم ، ولاعيش معه · ولكنه عندما مات حجب جفناه اللذان اثقلهما الموت الشمس عنا »·

ومرة اخرى ، بدأت الحالة بالتردي ·

صديقي ، مرة اخرى ، وباسمه ، رفعت معابد ضخمة تجاه السماء· والسيوف التي نقشت عليها آيات قرآنية تتحدث عن الجهاد وجهت باتجاهنا · ممثلوه دخلوا بيوتنا واخذوا شبابنا عبيدا لشيوخ قبائلهم ، وباعوا امهاتنا في اسواق بعيدة ، وقتلوا رجالنا باسم الجهاد في سبيل الله ، وسلبوا ممتلكاتنا باسم الاحسان ·

وبقنوطي ، لم يكن باستطاعتي عمل شيء ! وجاءت الى الوجود قوة اخفت ، بظهور التوحيد ، الاصنام في قصور عبادة الله ! وتوهجت نيران مخادعة (كانت النار مقدسة في فارس قبل الاسلام) · وباسم الوصاية بالنيابة عن الله ، وباسم خلافة الانبياء ، تصافحت وجوه الفراعنة ووجوه الاولياء المزيفين · بدأوا يضربوننا باسم القانون · ومرة اخرى احاط نير العبودية برقابنا التي انطلقت لبناء جامع دمشق الكبير · التنافس على بناء المساجد الرائعة والقصور المنيفة والمساكن الجميلة للخلفاء في دمشق ، واحداث الف ليلة وليلة في بغداد ، دفع ثمنه كله من دمائنا وارواحنا · ولكن هذا جرى ، هذه المرة ، باسم الله ! واعتقدنا ان لا سبيل للخلاص ، وان العبودية والتضحية هما مصيرنا الذي لا يتبدل !·

من كان ذاك الرجل المسمى محمد ؟ هل كانت رسالته مضللة ؟ أم كنا ، هو ونحن ، ضحايا النظام ، نظام نتلاشى فيه داخل السجون ، ونشهد فيه سلب وتدمير ممتلكاتنا وعائلاتنا ، ونذبح فيه بالجملة ؟

لا اعرف اين ذهب ! اين علي ان اذهب ؟ أأذهب الى الموبدانيين ؟ كيف استطيع العودة الى تلك المعابد التي انشئت لتجعل مني عبدا ؟ أأنضم الى اولئك الذين يدعون كونهم نماذج حريتنا الوطنية ولكنهم في الجوهر يحاولون كسب امتيازاتهم اللاانسانية التي كانت لهم في السابق ؟ ان المساجد ليست افضل من تلك المعابد !

رأيت السيوف التي نقشت عليها آيات الجهاد · ورأيت اماكن

العبادة · رأيت المصلين · ورأيت تلك الوجوه القدسية تتحدث باسم الزعامة الروحية ، باسم الخلفاء ، عن المحافظة على سنة الرسول · رغم ذلك ، اخذونا جماعة الى **العبودية ! هؤلاء** ، قبل ايامي ، قتلوا انسانا بالسيف في المسجد · وكان هذا علي ، صهر رسول الله · قتل في مكان يعبد فيه الله · هو قبلي ، وعائلته قبل عائلتي ، دمروا جميعا ، مثل العبيد الذين عانوا على مدى التاريخ · باسم « الاحسان » سلب بيته قبل بيتنا ، وقبل ذلك بكثير استخدم القرآن كأداة لسرقتنا واستغلالنا ، ورفع على السيوف لكي يهزم علي !

ما اغرب الامر ! بعد خمسة آلاف سنة وجدت رجلا تكلم عن الله لا من اجل السادة بل من اجل العبيد · صلى ، ولكن لا للوصول الى حالة « النيرفانا » ولا لخداع الناس ولا للتوحد مع الله (كالفرس) ، بل صلى لرفاهية وازدهار الجنس البشري · وجدت رجلا من اجل العالم كله · كان رجل عدل ، رجلا قويا ومنظما بما قاده الى ان يجعل من اخيه الاكبر اول اتباعه · كان رجلا عملت زوجته ، ابنة الرسول محمد ، وعانت الحرمان والجوع في حياتها مثلنا · وجدت رجلا كان اطفاله ورثة الراية الحمراء التي كانت على مدى التاريخ راية طبقتنا ·

صديقي ، بحثت عن ملجأ في هذا البيت المبني بالطين نتيجة خوفي من المعابد والقصور الفخمة التي تعرفها والتي ضحت بك القوى الهائلة من اجلها · رفاق الرسول منشغلون · والبيت وحيد · زوجته تموت وهو في حديقة بني نجار يعمل ، ويعلم الله بكل شيء عن شقائنا · خوفي من المعابد المرعبة ، ومن القصور والثروات التي كدستها من عملنا ودمائنا ، هو ما دفعني الى اللجوء الى هذا البيت لاندب التضحيات التي كانت !

صديقي ، كل من بقي على اخلاصه لعلي كان من طبقتنا المعذبة · انه لم يتبنى مواعظه الجميلة (الواردة في نهج البلاغة) ليجد الاعذار لحرماننا ولا لاسراف اولئك الساعين الى السلطة ، بل تم تبني هذه التعاليم لكي تكون لنامعرفة وتنقذنا · انه لم يشهر سيفه ليدافع به عن نفسه وعائلته وعرقه ولا للدفاع عن قوى كبرى ، بل فعل لتحريرنا على كل المستويات · انه يفكر كأفضل من سقراط ، لا لكي يبرهن على الفضائل الخلقية للطبقات النبيلة التي ليس للعبيد فيها حصة ، بل من اجل القيم التي نمتلك · لم يكن وارثا للفراعنة او للذين هم من طبقة مماثلة · انه جعل للافكار والاعتبارات رموزا ، ولكنه لم يفعل ذلك داخل المكتبات المغلقة والمدارس والمراكز الاكاديمية ، كما يفعل اولئك الذين يكون حصولهم على المعرفة هدفا بحد ذاته وهم يعيشون في عالم النظريات

لا مبالين بالطبقات الجائعة والمعذبة · افكاره تحلق عاليا وبعيـدا · وفي آن واحد ، تتحول افكاره المجردة ومشاعره القلبية الى تعاطف تجـاه الحزن المرسوم على وجه يتيم · في نفس الوقت ، ولانه يعرف عظمة الله ، فانه عندما يصلي لا يأبـه لالـم الخنجر في جسده · ومـع ذلك ، وامـام اضطهاد امرأة يهودية يصيح بأعلى صوته قائـلا : « لا يمكن لوم انسان مات خزيا » · ان لديـه قدرة كبرى للتعبير عن نفسه ، ولكـن ليس ابـدا بطريقة شاهنامة (شاعر مدح الملوك) الذي لم يشر الى طبقتنا الا مـرة واحدة في ثنائياته الشعرية البالغة ستين الفا ·

صديقي ، لشد ما نحتاجه نحن في هذا الزمن وهـذا المجتمع · انـه ليس كالمفكرين والفلاسفة والآخرين الذين اما ان يكونوا رجال فكر بلا عمل ونضال ، او رجال عمل بلا افكار ولا حكمة ولا تقوى · واذا تصورنا الى جانبه رجلا آخر بكل هذه الصفات فانه قد لا يمتلك رقة عواطفـه ومحبته ونقاء روحه ، وقد يصادف ان يفتقد الايمان القوي بالله · اما هو ، فرجل يمتد جوهره الى كافة الابعاد الانسانية · انه ، مثلك ومثلي ، يعمـل بكد يده · واليدان اللتـان سجلتا الخطوط المجيـدة للهدي السماوي تغرقان عميقا في التراب تفلحان وتسمدان الاراضي المالحة · انه لا يعمل لحساب احد ! وبينما هو يفجر الماء من الارض تراقبه عائلته سعيدة · وقبل ان يستريح وزوجته يعلن ان « بشرى لورثتي الذين ينالوا قطرة واحـدة من هذه المياه حصة لهم » · صديقي ، لقد فعل ذلك رحمة بك وبي ·

اننا بحاجة اليه · اننا بحاجة الى زعامة على شاكلته · فالحضارات والنظم التعليمية والاديان حولت البشر الى حيوانات تهتم فقط بالطمأنينة المالية ، او الى مصلين انانيين بلا قلوب ، او الى رجال فكر وعقل ينقصهم الشعور والحب والوحي وكذلك تنقصهـم المعرفـة والحكمـة وينقصهـم المنطق · اما هو فرجل يجمع كل هذه الابعاد في شخصه · انه قائد الطبقة العاملة والمعذبين · انه القوة الفاعلة المناضلة من اجل سعادة المجتمـع · الصدق والاخلاص والصبر والوفاء ومفـاهيم الثورة والعـدل كانت هي الملامح الرئيسية لرسالته اليومية الى الجماهير ·

صديقي ، اني اعيش في مجتمع اواجه فيه نظاما يسيطر على نصف الكون ، وربما على الكون كله · والجنس البشري يقاد الى قلعـة جديدة للعبودية · ورغم اننا لسنا في العبودية الجسديـة فاننا نواجه في الواقـع مصيرا اسوأ من مصيرك · افكارنا وقلوبنا وارادتنـا مستعبدة · باسم علم الاجتماع والتربيـة والفنون والحرية الجنسية والحرية الماليـة وحب الاستثمار وحب الافراد ، انهـم ينزعون من قلوبنـا الايمـان بالاهـداف

والايمان بالمسؤوليات الانسانية وايمان كل منا بمدرسته الفكرية • النظام جولنا الى اوعية فارغة تستوعب كل ما يصب فيها •

والآن نجد انفسنا نواجه ، باسم الفئة والدم والارض والنظام مقابل النظام الآخر ، انقسامات تجعل من السهل استخدام كل منا على حدة • اتباعه ، اي اتباع مدرسته الفكرية ، يدفعون الى محاربة احدهم للآخر • لماذا يعتبر احدهم الآخر عدوا في ظل نفوذ شامل ؟ احدهم يبقي يديه مفتوحتين اثناء الصلاة والآخر يقبضهما معا • احدهم يسجد على الطين والآخر على السجاد • لحسن الحظ لقد خف التمايز الآن ! فمفكرونا يضطرون الى المنفى ، وقد اصبحوا هم الاوصياء •

صديقي ، انت كنت تعرف انك عبد وكنت تعرف سيدك • كان باستطاعتك تحمل ضربة سوط على جسدك • لماذا ، وكيف ، ومن جعلكم عبيدا؟ اننا نواجه نفس مصيرك، ونحن عاجزون عن معرفة لماذا هذا المصير• من يجعلنا عبيدا في هذا القرن ؟ من اين غزينا ؟ لماذا خضعنا للافكار الخاطئة ؟ لماذا غرقنا في الصلوات الكلامية ؟•• كالحيوانات ، اصبحنا ضحايا للاستغلال ، واكثر مما كان الامر في عصرك وبالنسبة لعرقك •

اننا نعمل لحساب الانظمة والقوى والآلات والقصور القائمة كلها بفضل جهودنا • الثروات تراكمت نتيجة عملنا الشاق ولكن حصتنا منها ضئيلة جدا • ولذلك ، نحن مضطرون للعمل في اليوم التالي • اننا اكثر حرمانا منك ! القسوة والتمييز اكثر حدة اليوم مما كانا عليه في ايامك !

صديقي ، علي ضحى بحياته من اجل هذه الاعتبارات : مدرسة الفكر والوحدة والعدل • كان هذا واضحا في سنواته الثلاث والعشرين التي قضاها في النضال والتضحية من اجل زرع الايمان في قلوب الجماعات الهمجية • وكان هذا واضحا في سنواته الخمس والعشرين من الصمت والتحمل في سبيل المحافظة على الوحدة الاسلامية وانقاذها من اخطار الامبراطوريتين الرومانية والفارسية • وكان هذا واضحا في سنواته الخمس من العمل لتحقيق العدل مستخدما سيفه للقضاء على الكراهية وتحرير الانسان • ورغم انه لم يستطع تحقيق ذلك ، فقد عمل على ان ينقل الينا معاني قيادة الجنس البشري والدين • لقد اقام حياته وحياة عائلته على هذه الشعارات الثلاثة : مدرسة الفكر والوحدة والعدل !

المجتمع و الدين عند الامام الخميني

مرتضى كتبي و جان ليون ڤاندورن

بالنسبة للغالبية العظمى من الشعب الايراني ، لم يعد روح الله الخميني اية الله إنما الامام ، وهو لقب نادرا ما اعطي في تاريخ الشيعة . اما بالنسبة لكثير من المراقبين الغربيين فهو يبدو على عكس ذلك شخصية مضى عهدها وتخطتها الحركة التي اثارها بنفسه .

أيكون الخميني ليس سوى الرمز لما يسميه ارنست بلوخ « ذلك الماضي الذي لم يكتمل » ، والقادر على فضح نظام اسير تناقضاته ، والذي يقدم في الوقت نفسه نموذجا مرتبطا بماض قد ولى ؟ ام يكون فكر الخميني على عكس ذلك ، حاملا لتعاليم تستطيع مساعدة الشعب الايراني في ان يبني على اسسه الخاصة مجتمعا حديثا ؟

لا يستطيع حتى الد اعداء الخميني ان ينكروا عليه نزاهته . فقد كان يرد على بذخ الشاه بحياته المتقشفة ، وعلى حفلات الاستقبال الصاخبة التي يقيمها « ملك الملوك » ببساطة الاستقبال الذي كان يبديه وهو منفي في نوفل — لوشاتو . لقد وهب الامام حياته لشعبه بالمعنى الاعمق للكلمة : « ما هم ان اقتل شرط ان تنتصر الثورة » .

على الانسان ان يواجه « الشر » دائما بقوته : فالخميني لا يغفر تراجعا ولا خضوعا ، خصوصا لدى الذين يمتلكون جزءا من السلطة. فلدى خروجه من السجن ، عشية نفيه الى الخارج عام ١٩٦٣ ، قال في رده على مدير صحيفة « اطلاعات » الذي جاء يعتذر لنشره اخبارا كاذبة بناء على طلب النظام : « اذا كان هناك بالفعل من يقول لك ماذا تكتب ، فان احدا لا يستطيع ان يجبرك على البقاء صحافيا » .

وبالنسبة للخميني ليس ما يملك الانسان هو المهم ، انما ماهية الانسان نفسه هي التي تكتسب الاهمية الكبرى . فالانسان ليس موجودا على هذه الارض ليحيى حياة رفاهية بأي ثمن ، بل لينتزع حريته عن طريق الروحانيات بشكل خاص : « انما يخاف (الموت) اولئك الذين لا يؤمنون » .

● مرتضى كتبي وجان ليون فاندورن : Morteza Kotobi & Jean-Leon Vandoorne ، الاول ، استاذ العلوم الاجتماعية في جامعة طهران والثاني صحافي فرنسي . وقد نشر هذا البحث في « الموند » الفرنسية .

احتقار للموت ولكن ليس احتقارا للحياة . فنبرة صوت هـذا الرجل ، الذي يمثل اليوم ضمير شعب ، ترتعش تأثرا حين يذكر المجازر التي ترتكب بحق شعبه ، وهو المعروف بنبرته ذات الوتيرة الواحدة والهادئة والتي شتان ما بينها وبين بلاغة السياسيين المزيفة .

فلهجته الصادقة وتعابيره البليغة ، والشعرية احيانا ، تؤثر اشد التأثير في شعور ولاوعي ملايين الايرانيين ، عندما تفضح الالم والظلم في حقيقتهما المرعبة : « لقد كسروا ايدي وارجل شبابنا،... لقد رموا بالجرحى خارج المستشفيات وقذفوا الطلاب من على اسطح المدارس ... كم من المسلمين دفنوا تحت التراب وكم منهم في غياهب السجون المظلمة » .

واستنادا الى قوة حقيقته لا يتوانى الخميني عن توبيخ الرئيس الاميركي مباشرة : « هذا الولد » . وتوبيخ الشاه : « فكر اذا كنت ما زلت تستطيع الى ذلك سبيلا ،ماذا فعلت انت وابوك بهذا الشعب خلال اربعين عاما ؟ ... ان ازلامك هم اصدقاؤك بسبب دولاراتك ، وسيتخلون عنك غدا » .

والظالم الذي يدعي انه من سلالة داريوس وكسرى ويسمي نفسه « ملك الملوك » ، يجيبه صدى لا يستكين : « الله اكبر » ، صرخة حرب ونشيد ثوري يردده شعب بأكمله .

وعلى عكس محاولات الاقناع الفكرية التي يتبعها المثقفون ، تدخل لهجة الخميني الريفية وتعابيره البعيدة عن التنميق وحججه ذات البساطة المتينة ، حتى الى داخل الثكنات الرازحة تحت مطرقة التعبئة الايديولوجية للسلطة : « لم يجد الامبرياليون خادما افضل من الشاه » .

والخميني اذ يحمل رسالة الله : « انما هي أوامر الله تأتيكم للحفاظ على استقلال هذا البلد الاسلامي » ، يثق في انه يمتلك الحق وبالتالي يستطيع ان يؤكد : « بأن نصرنا محتم » . وتأتي قوة الخميني من تلك الثقة الداخلية التي يفتقر اليها المثقفون وقادة المعارضة ، الذين اذ قتلوا الله ، كما فعل الغربيون ، يميلون اكثر الى الشك والمساومات .

فخطبه منذ سنوات عديدة تعبر عن خط سياسي واحد يثير الاعجاب باستمراريته : لدى عودته المظفرة الى « قم » في اول اذار

(مارس) ١٩٧٩ اسمع معاونوه الجمهور تسجيلا لخطاب يعود لست عشرة سنة خلف . وكانت اللعنات المنطلقة هي نفس اللعنات التي كان يطلقها من « نوفل ــ لوشاتو » بدون كلل ، وكانت تذكر بتلك السطور التي كتبها منذ ثمان وثلاثين سنة ابان حكم رضا شاه : «ان اوامر الدولة الطاغية ، وكل القوانين التي اقرها البرلمان يجب ان تحرق » .

. ما يجب التذكير به ايضا هو ان انتصار الخميني يمثل قبل كل شيء الهزيمة الاقتصادية والاجتماعية لنظام ما ولايديولوجيته . فقد اصبح الظلم لا يطاق لدرجة انه ، طبقا للتقاليد الشيعية ، كان من المفترض ان يأتي الامام الثاني عشر ، ويأتي معه الخلاص .

ويرى الخميني ، متسلحا بحقيقته ، واقعا محددا ، لا يراه المعتدلون ، حيث الايمان ينتصر على السلاح : « لا يستطيع الجيش ان يصمد طويلا ، فهو من الشعب ولا يمكنه قتل الشعب الى الابد ... وفي النهاية فان الشعب سيمتص الجيش » . وبالفعل ، رغم المذابح لم يكن باستطاعة الشعب ان يعرف اليأس .

وكان الخميني بهذه الطريقة ، يرمي بثقله على الواقع بما ان الواقع صيرورة ايضا . وقد تم على اي حال تحليل ذلك الواقع بنظرة ثاقبة تذهب الى ما وراء الظواهر . فكان يرد على المتخوفين من قدوم حكومة عسكرية بقوله : « اوليست حكومة الشاه منذ الان حكومة عسكرية ؟ ... ان رد فعل الجيش قاس وهذا برهان على ان الامور ليست على ما يرام ، فالقط (*) يهاجم عندما يكون خائفا » .

اختيار محدود

ان الايمان بالاسلام كاف بحد ذاته لتبرير كل الحركة الثورية : « من وجهة النظر الدينية ، يقول الخميني ، انا مخول بالتصرف كما اتصرف » . اما التأييد الشعبي له فليس سوى اعتراف بشرعيته : « عندما كنت ارى اتساع هذه الحركة كنت ارى فيها (يد) الله فذلك لا يمكن ان يكون من صنع الانسان » .

وبالتالي لكي نجد اشكال حكم جديدة يجب علينا التوجه نحو الله : « اطيعوا الله ومن كان منكم قيما على السلطة الالهية (...)

(*) ان كلمة Le Chat اي القط تلفظ بالفرنسية تماما ككلمة Le Chah اي الشاه .

فالحكم الوحيد الذي يقبله الله يوم القيامة يجب ان ينظم على اساس الشرائع الالهية وهذا ما لا يمكن حصوله الا مع رقابة رجال الدين » . وكذلك فان هذه الشرائع التي لم يضف اليها رجال الدين شيئا جديدا هي التي « ستجعل الانسان حرا » اذ « تعلمه كيف يسيطر على نفسه » .

ومن هنا فان الجمهورية الاسلامية لا تقوم على عقد ، بل على فعل ايمان ، وقانونها هو اوامر الله : « ان الحكومة الاسلامية ليست حكومة دستورية حيث تكون القوانين مرهونة بموافقة الاكثرية » . وكذلك بالنسبة للجمعية التأسيسة التي يقترحها الخميني ، فان مهمتها ليست استخلاص صيغة وفاقية عامة ، او نص يعطي الشرعية لعمل الحكومات المقبلة ، ويضع حدود هذا العمل ، بل على العكس تقتصر هذه المهمة ببساطة على تحديد اطار يمكن ان تطبق فيه قوانين قد وضعت سلفا .

ينبغي أن لا تكون الحكومة دستورية بالمعنى الغربي للكلمة ، لان اقامة مثل هذا النمط من الدستور رهن بظروف تاريخية تختلف باختلاف الازمنة . واما مهمة البرلمان فليست تحديد القانون وانما تحديد برامج تسمح بتطبيق القوانين الالهية .

ولا بد من الملاحظة ان الخميني يتوجه هنا في الواقع الى الطائفة الشيعية اكثر منه الى المجتمع الايراني . انه يتوجه الى طائفة توحدها ثقافة واحدة وقواعد اخلاقية واحدة ، ومجموعة قيم مستمدة من الاسلام ومتبولة كما هي،اكثر مما يتوجه الى مجتمع منظم كدولة ــ أمة تنتمي الى حضارة مشتركة ومتحدة حول عقد اجتماعي . وهو يخاطب الروح الشيعية اكثر منه عقل الايرانيين . ونجده على اي حال في كتابه «الحكومة الاسلامية» يتحدث عن «الطائفة او الجماعة الاسلامية» ، لا عن « الشعب الايراني » ، واذا ذكر ائمة الشيعة عليا والحسين فانه يبدي دوما كل احترام ، ولكنه يتكلم عن « اكوام من العظام المهترئة» في ما يخص من تبقى من الملوك الاخمينيين ، داريوس وكسرى. وفي الاطار نفسه كان الخميني يعتزم هذا العام تقليص عدد ايام العيد الوطني (النيروز) من ثلاثة عشر يوما الى ثلاثة ايام (استقر الامر نهائيا على خمسة) . اما الشاه فقد كان من جهته يستهدف الاعياد الدينية .

ولكن كي لا يقع الخميني في المتولات ذات البعد الواحد اليس من المفروض ان يقبل منطقيا ان يحافظ غير الشيعة ، ومن ليس لهم ايمانه،

على استقلاليتهم او على الاقل على شكل من الحكم الذاتي ؟ ان قضية كردستان التي يقطنها مسلمون سنة ، تظهر ان هذا الحل لم يعتمد ، ويفضل الخميني بالنسبة لهذه المسألة ان يتكلم عن « التسامح » . « فالاقليات الدينية لن تجبر على الاشتراك في الدفاع عن البلاد ، وهي ستدفع ضريبة بسيطة على الدخل (الجزية) ، ولكن بعض ثرواتها سيعفى من الضرائب كالخمس والزكاة والتي تقتصر على الشيعة فقط » .

ان مثل هذا النظام سيخرج الى الوجود طبقتين من المواطنين . فعلى جميع الايرانيين اليوم ان يخضعوا للقوانين التي تحرم الخمرة والمخدرات وبيع منتجات منع الحمل ، والشذوذ الجنسي ، وان يأخذوا بعين الاعتبار النداءات الرسمية التي تطلب من النساء الموظفات ان يرتدين الثياب طبقا للتقاليد الاسلامية . وينطبق الامر نفسه على الصعيد السياسي . فمن غير الممكن وجود عدة احزاب ، لان من رفض ان يكون من حزب الله فهو غبي أو خائن .

ماركسيون لينينيون في ايران ؟ « بشكل عام لا وجود لهم . فهم اولاد لا يعرفون شيئا عن المجتمع الايراني ولا عن البعد الروحي للاسلام » . او انهم « ادوات في يد الشاه » او « انحازوا الى الاتحاد السوفياتي بسبب نظام الشاه » .

وبالنسبة للخونة ، عملاء الشاه او عملاء الاجانب فيجب « ان نقطع ايديهم » . واما الجهلة ، فريسة الايديولوجيات السيئة فيكفي ان ننيرهم : « يجب على الشعب بأجمعه ان يكون اسلاميا » ، اذ ان الاسلام يؤمن وحده الحرية والديمقراطية : « فلو توصل اهل كل الطبقات الى فهم الحكم الاسلامي الذي لم يسد سوى بضع سنوات ايام محمد منذ الف وثلاثمئة عام فان اساس كل المدارس السيئة من امثال الشيوعية سوف يكنس تلقائيا » .

حتى المعارضة العلمانية لا يمكن الا ان تنضم الى صفوف هذا المشروع . فبعد ان استقبل السيد كريم سنجابي واعضاء اخرين من الجبهة الوطنية قال الخميني شارحا : « ليس هناك مفاوضات ، لقد شرحت فوافقوا .. انني اضع الشروط التي هي رغبات الشعب .. ولن يتردد احد ، وطنيا كان ام رجل دين في تأييد وجهة نظرنا » .

احيانا تتخطى رؤيته حتى اطار العالم الاسلامي . فهو يقول لبعض الشبان الفرنسيين الذين جاؤوا لزيارته في نوفل — لوشاتو : « لو اقيم الاسلام ، كما هو في حقيقته ، فاننا نأمل ان تنضم الينا الانسانية

جمعاء » . وبالنسبة له فان الملوك والمستعمرين اليمينيين واليساريين وعملاءهم ، لكي يثبتوا سلطتهم ، « حرفوا شبابنا عن الاسلام واستبدلو قوانين الاسلام بقوانينهم ، وقالوا بأن الدين والسياسة يجب ان ينفصلا » .

هذه الرؤية تجر الخميني بالتالي الى الادلاء بتصريحات تنتقل من الطابع السياسي لتصبح توتاليتارية رغم تأكيده « بأن الاقليات سوف تكون مقبولة » . فحتى شهر اذار (مارس) ١٩٧٩ كان لا يزال يطالب بـ « وحدة الراي ووحدة التعبير ووحدة العمل » . ولكن هل هي وحدة عمل تقبل استراتيجيا بعد مقابلة للافكار ؟ تلك أمنية ! وهل هي وحدة تعبير لكي لا يستفيد العدو من الخلافات الداخلية ؟ فليكن ذلك . ولكن ، كما تقول المعارضة ، اليس من المبالغ فيه ان نفرض على الجميع ان يفكروا ويتمنوا السير في نفس الطريق لكي يصلوا الى الحرية؟ويجيب الخميني على ذلك بقوله : «اذا كان الشيوعيون يريدون فعلا العمل من اجل الشعب ، ينبغي عليهم ان يريدوا الجمهورية الاسلامية . كل من يحب هذه البلاد ويريدها مستقرة يجب عليه ان يريد الجمهورية الاسلامية » .

مقولة توتاليتارية حيث كل من لا يفكر كالخميني هو عدو:«سافاكي» او « عميل للاجنبي » او « مناهض للثورة » . ومن هنا نفهم ضيق حدود الاختيار المطروح لاستفتاء الثلاثين من اذار (مارس) ١٩٧٩ : « جمهورية اسلامية » او « ملكية » . فالخميني لا يستطيع ان يتخيل طريقا ثالثة ، وهو لا يرى كما حاول اية الله شريعتمداري ان يفسر له، بان هذا السؤال « يحد من حرية الشعب بأكمله » .

ان نماذج هذا الفكر التوتاليتاري كثيرا ما ظهرت اكثر وضوحا منذ عودة الخميني الى ايران . فعندما اراد « مجاهدو الشعب » (ماركسيون ــ لينينيون) ان ينظموا مسيرة باتجاه مقر الخميني ليشرحوا له تحليلاتهم ، اتهمهم بعرقلة مسيرة الثورة » . اما المدنيون المعتدلون « فمتفرجون على الثورة .. ومن بيوتهم يهاجمون بأقلامهم الاسلام وهم يتكلمون عن الديمقراطية » .

« حرية الصحافة » هذا ما كان قد بشر به . ولكن هل هي حرية حقيقية للصحافة عندما يطلب مع ذلك من الصحف عدم نشر « مقالات تتعارض مع شعور الشعب ؟ » ان الضغوطات التي تمارس على الصحف الايرانية ، والمقولات الاسلامية مائة بالمائة التي يبثها الراديو والتلفزيون والقرار الذي يلحظ الرقابة على التحقيقات الصحفية

الاجنبية ، كل ذلك ياتي بجواب اولي على هذا التساؤل .
وعمال النفط المطالبون بمزيد من الادارة الذاتية في مجال عملهم ، يجيبهم قائلا : « ان كل اضراب يتعارض مع الثورة » ، اما النساء اللواتي ينتمين الى الاقليات الدينية : « فانه من الافضل ان يلبسن « التشادور » كما يؤكد اية الله الطالقاني الذي يحسب مع ذلك من التقدميين » .
. ان كل من لا يعطي الولاء ، عميل للغرب عن وعي او عن غير وعي . اما الخميني فقد أعلن انه مصمم على « تدمير بقايا الغرب الذي اوصل ايران الى الدمار » .

رفض لاي استعباد

ان النظام الغربي والجمهورية الاسلامية ، في فكر الخميني ، هما بالواقع نظامان لا يمكن ان يقدم الواحد منهما شيئا للاخر : « فالديمقراطية هي الغرب ونحن لا نريدها . لا نريد شيئا من الغرب ومن فوضاه » .
ومع ذلك فاذا كان الخميني يرفض « المدارس الغربية » فانه لا يرفض لاجل ذلك التقدم . فقد كتب من العراق للشبان الايرانيين الذاهبين للدراسة في الغرب يقول : « نحن لسنا ضد الدراسة ، اذهبوا الى هناك وادرسوا العلوم الذرية » مجيبا بذلك على الذين يتهمونه بالرجعية . وبالمقابل فانه يستتشيط غضبا ضد الذين ، اثناء دراستهم، يشعرون بانهم ادنى من الرجل الغربي ويتبنون بالتالي قيمه ، بالرغم من ان هذا الرجل الغربي « يحتقر الشرقي » . ولهؤلاء الطلاب يقول على العكس : « عرفوا الناس بالاسلام الحقيقي وحاربوا الاسلام المزيف الذي اخترعه الاستعمار من اساسه لازالتكم من الوجود » .
وبالفعل ، بالنسبة للخميني ليس هناك اية جدلية ممكنة بين النظام الاسلامي وغير الاسلامي . فالاول يرتكز على فعل ايمان في حين ان الديمقراطيات الغربية والاشتراكية تفصل بين الدولة وما هو روحي : « مادام الشعب الاسلامي سيظل يقارن ما بين هذه المدارس الاستعمارية والشرائع الالهية فلن يجد السعادة والحرية ابدا . فهذه المدارس التي تنتمي الى اليسار او الى اليمين تعمل على قهر المسلمين » . وفي نظره ، اذا كانت التقنيات الغربية عقلانية فان مجمل النظام الغربي ليس كذلك ، فهذا النظام حول العلاقات الانسانية ،

وخاصة في ايران ، الى علاقات تجارية .

ويرد الخميني على الشاه الذي يتهمه بالرجعية : « ومجازرك ، والجوع والالام التي تفرضها على شعبك ، اليس ذلك رجعيا ؟ » . وبالنسبة له لا يمكن لاي حل ان يأتي من الغرب : « ان الايديولوجيات الغربية لا تستطيع حل مشكلة استلاب الانسان ، وهي تشل ردات الفعل الاصيلة لدى الشعب الاسلامي » . وهو يرفع ميتافيزيقيته في وجه لا انسانية الراسمالية هذه ، ويؤكد ان على الانسان أن يصل الى درجة عالية من الوعي الاخلاقي والنضج الروحي لكي يسيطر على التقنية : « ان الضمير يزيد من الانتاجية » .

الا يلتقي هنا مع بعض العلماء الغربيين الذين يتخوفون من رؤية التقدم العلمي ، وبالتالي قدرته التدميرية ، يتخطى تقدم الضمير وحكمة الانسان ، وبوجه خاص ضمير وحكمة مسؤوليه ؟

يرى الخميني ان الاستعمار الثقافي الغربي ليس بريئا ، بل يشكل الاداة لسياسة استعمارية متعمدة : « فيما نحن نيام كان الخبراء الاجانب ، سواء كانوا من اليمين ام من اليسار ، يجوبون بلادنا ليحددوا ثرواتنا الوطنية وليفهموا عقلية وتقاليد شعبنا ، ليسهل عليهم بالتالي السيطرة عليه . وقد وجدوا ان الاسلام ورجال الدين فيه يشكلون العقبة الوحيدة امام عملهم « واعلنوا بالتالي ان الدين يجب ان يفصل عن السياسة » .

وفي اقوال الخميني ان الاجانب ، سواء كانوا من اليسار ام من اليمين ، لا يرون في ايران سوى فريسة : « ان الاتحاد السوفياتي ساند الشاه وهو مستعد لارتكاب كل الجرائم ليبتلع الرساميل الايرانية » ... « اما الحلفاء من جهتهم فقد اقاموا اسرة بهلوي ليثبتوا سيطرتهم بشكل افضل » .

وحين يهاجم اسرائيل فلانها تمثل قاعدة الامبريالية الغربية في قلب العالم الاسلامي . اما الدول العربية فقد ساندت الشاه « بسبب جهلها ... رغم ثرواتها وبالرغم من شعوبها » . وهي لا تتحرر من الاجنبي لانه يلعب على خلافاتها بسياسته المضللة والخادعة .. «ومع ذلك فانتصار الثورة الايرانية سيوقظ اليوم ملوك ورؤساء البلاد الاسلامية » .

ان الامبريالية لا تتخلى ابدا عن اهدافها . فهو طيلة ست عشرة سنة استغرقها منفاه ، لانه رفض التخلي عن معركته الثورية ، تعرض

دوما للضغوطات من قبل الشاه وحلفائه . ففي كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩ ، كما يقول ، اوصلت له الحكومة الفرنسية خطابات تحاول اقناعه بتأجيل عودته الى طهران : « لقد فهمت بانهم كانوا يريدون ان يبقوني بعيدا عن بلادي ليجهزوا ضربتهم » . وحتى اليوم لا يزال ينادي بالحذر : « ان الاجانب لا ينامون . انهم يحضرون خططا ليماودوا نهبنا باشكال اخرى » .

• ولكن الخميني « ليس معاديا للغرب » بل مستقل ، وهو يؤكد تخوفه من ان تثير سياسة واشنطن لدى مواطنيه ضغينة ضد الامريكيين . وفي السياسة الخارجية يظهر الخميني كأحد اتباع « عدم الانحياز » . وبالفعل ، بالنسبة له ، تمارس الدول الكبرى السياسة الامبريالية ذاتها ولا تتكلم عن حرية الشعوب واستقلالها الا لتخفي بشكل افضل استعمارها . وشهادات حسن السلوك التي كان الرئيس كارتر يعطيها للشاه بشأن حقوق الانسان تشكل بالنسبة له براهين ممتازة . يهاجم الخميني خبث هذه اللعبة السياسية ويحث جميع الشعوب على عدم القبول بهذه التسويات بعد الان املا في ان يحصلوا على مزيد من الحرية والسلطة . وهو يندد بعنف بالذين يتحالفون مع البعض ليدافعوا عن انفسهم او ليسيطروا على الاخرين : « فهذا لا يمكن ان يؤدي الا الى العبودية » . ويذكر الذين لا يفكرون الا بعدد الوحدات العسكرية او بالقدرة الاقتصادية قائلا : « بالرغم من مساندة كل الدول العظمى له ورغم اسلحته الحديثة تحطم نظام عمره الفان وخمسمائة سنة تحت ضربات شعب مسلح بايمانه فقط » .

ومنذ أربعين سنة كان الخميني يدعو الايرانيين الى عدم التخلي عن النضال اذ لو نزل كل الشعب الى الشارع ورفض التعاون مع الشاه لسقط الشاه حتما . وكذلك فانه يدعو كل امة من الامم الى رفض التعاون مع الامبرياليات ، فهذا هو السبيل الوحيد لتدمير قوتها . ١٩٠٦ ، ١٩٥٣ ، ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ : منذ بداية هذا القرن ثار الايرانيون من جهتهم ثلاث مرات .

الاخلاق والتنمية الاقتصادية

وكذلك فان تعريفه بالهيكليات التي يتمناها لتحقيق النمو الاقتصادي لبلده يترك التجربة الراسمالية جانبا . فهو لا ينتظر شيئا من

الرأسمالية « التي دمرت الاقتصاد الايراني » ولا من الاشتراكية التي تدعي تجاوز هذا النظام .

فالنظام الاقتصادي الذي يصبو اليه لا يرتكز الى قوانين السوق والمزاحمة ، ولا الى التخطيط ورقابة الانشطة الاقتصادية من قبل الدولة وانما الى **الاخلاق** : اخلاقية في الدوافع واخلاقية في المبادلات .

وهذا الرجل الذي يأكل كل مساء الطبق البسيط ذاته يطلب من شعبه احتقار المال والربح . وبعض وزراء حكومة بازركان لن يأخذوا من مرتبهم ، الذي خفض في وقت سابق ، الا ما يحتاجونه . ان فكره السياسي بسيط : ان حاجة كل فرد والقيمة الاستعمالية لسلعة ما ستعود وتتغلب على قيمتها التجارية .

«ايها التجار ،بيعوا بأرخص ما يمكن ،خفضوا اسعاركم للمعدمين. انتم اخوة فتعاونوا » . وقبل ان يعتكف في « قم » اعلن في خطاب من الاذاعة بأن الماء والكهرباء ستكون مجانية للفقراء ، كما طلب بان تعطى القروض المصرفية من دون فائدة .

وما الغرابة في ذلك ؟ بما ان الفقر،اذ يدفع الانسان الى السرقة والبغاء (الجسدي والروحي)،قد يكون العقبة الاولى امام نظامه ؟ . فالمجتمع الذي يرسم خطوطه ، هو بالواقع جماعة كبيرة . فالخميني لا يتكلم ابدا عن « طبقات » وانما عن «فئات» اجتماعية .ولا يرى حاجة لاصلاحات في الهيكلية بما انه حالما يطرد رجال النظام القديم المتعفنون سوف يكون الحكام رجالا ذوي منزلة اخلاقية عالية . واذ يهمل دروس التاريخ فان الخميني يقفز فوق موازين القوى التي تعمل لصالح من يمتلك المال والمعرفة والسلطة السياسية او وسائل الاعلام.

في الجمهورية الاسلامية ، القيمون على السلطة لا يستغلونها لان دوافعهم جيدة . يقول الخميني للطلاب : « اذا كنتم تتابعون دراستكم للوصول من الناحية المادية فلستم بأنتياء » . وبما ان حكومته هي حكومة « اخلاقية » لا يخاف الخميني ان يسيء اعضاؤها استعمال سلطتهم او ان يحتالوا على القوانين . ويرى انه بعد اعدام جنرالات الشاه رميا بالرصاص لا يمكن ان يصبح الجيش من جديد قوة قهر محتملة . وهو لا يسمع اليسار الذي ينادي باقامة جيش شعبي حقا في هيكليته .

وبما انه لاحظ بان نظام الشاه ترك خلفه « عناصر غير مفيدة وكسولة وبدون ارادة » ، فانه فرض ايجاد وزارة « لتساعد على الخير وتنهى عن الباطل » . وهذه هي حقيقة الوزارة الوحيدة التي

خلقها النظام الجديد .

ومنذ اليوم يثور غضبه ضد اعضاء الحكومة الذين حافظوا حسب رايه على فخامة مظهر غير ضرورية بل مضرة . فعلى الحكـــام ان يقيموا في وسط الشعب ، كما يعيش هو نفسه في « قم » .

ومهما يبدو مشروعه طموحا يبقى الخميني واثقا بالمستقبـــل : « ان ما يثير اعجابي هو روح العطاء والتضحية والانسانية لـــدى الايرانيين . ان هذا التطور لديهم اهم من تغيير النظام » . . .

« بذهاب الشاه ستصبح ايران ايرانا خيرة . وكل طاقـــات الايرانيين ستذهب في اتجاه الاصلاحات » .

من جهة اخرى لم تكن مشاكل ايران في جوهرهـــا مشاكـل ايرانية : فالشاه لم يكن رمز قوة ايرانية حقا ، ولكن مجرد اداة للقوى الامبريالية . ولم يكن اعوانه سوى شركاء له يشتريهم بالرشوة .

ومن الواجب بالتالي الاحتماء ليس فقط من التأثير الايديولوجـي لهذه القوى ، وانما من قدرتها الاقتصادية ايضا : « لقد حطمـــوا الاقتصاد الايراني » ، وبوجه خاص زراعته ، التي اصبحت اليوم فـي عجز بعد ان كانت تتمتع سابقا بفائض . اذن للانتصار على الامبريالية الزراعية الغذائية ، ولكي لا يكون هناك ارتهان للاجنبي في مجـــال الطعام ، يجب ان تتمكن الزراعة من اطعام الشعب باسره . ويرفض الخميني كذلك « صناعة تركيب تفرض علينا ارتباطا بالاجنبـــي » . « نريد ان نتصرف كبلد مستقل مائة بالمائة » .

اهي رغبة في الاكتفاء الذاتي تبدو اليوم خيالية ؟ كثيرون مـــن الغربيين يردون بالايجاب . ومع ذلك ، عندما يؤكـــد الخمينـي ان « اشباع الحاجات المادية مخيب للامال » ، الا يلتقي مـــع بعض التساؤلات القلقة للمجتمعات الغربية « الواقعة في ازمة » ؟ فهـــده المجتمعات لم تتمكن حتى الآن من الوصول سوى الى حلول تهـــم جماعات هامشية ، او الى حلول فردية بحتة وبمقياس اضيق بكثيـر . وهذه التجارب غالبا ما فشلت او بقيت معزولة . اما الخميني فانـــه يراهن على تراث الشيعة ويريد حماية ايران من التأثيرات الخارجيـة التي قد تؤدي بمشروعه الى الفشل .

اتراه ينجح ، وسلاحه الايمان وحده ؟

ان الشاه واعوانه والعديد من المراقبين ، لم يكونوا يظنون ممكنا انبعاث القدرة هذا الذي اثاره الخميني . فقد اعاد الى الاذهان ، ان

الانسان بقوة ارادته يستطيع ان يسمو على الواقع المادي البحت ؛ وذلك بمقدار ما يرفض العزلة : « اذا كنتم لوحدكم فلن تستطيعوا عمل شيء اطلاقا ، اما اذا اتحدتم فانكم تستطيعون كل شيء » .

ولكن واقع اليوم هو ايضا مشاكل مادية يجب ان تحل بصفة مستعجلة ، بالاضافة الى حل خلافات الذين ساروا خلفه متحدين لاسقاط الشاه . انه يعرف المشاكل ولكن ، كما كان يشرح في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨ : « يجب الخروج من السجن لنرى ما يمكن ان نعمله » . وبالفعل لقد ادى الحرم ، الذي ضرب لعشرات السنين هذه المناقشات التي لا تتطابق مع ايديولوجية الشاه ، الى لجم تفكير الكثيرين من الايرانيين الى درجة كبيرة . وفي هذا المضمار ما زالت الثورة في بدايتها .

بالنسبة للخميني ستجد هذه المشاكل حلولا سريعة لها . فمثلا : « ان المشاكل الزراعية ستجد لها حلولا سريعة جدا وستتمكن ايران من الاستغناء عن الاستيراد » . وهو يثق « بالخبراء » ولكن هؤلاء الخبراء انفسهم يسقط في ايديهم عندما يعلن الخميني مثلا مجانية الماء والكهرباء ويمنع استيراد اللحوم المجلدة . وبسبب لهفته للعيش في المجتمع المثالي ، يدخل الخميني الفوضى في البنى الاقتصادية قبل ان يتم تطويرها بواسطة اصلاحات في العمق .

وبموازاة ذلك فان رؤيته المثالية لايران موحدة وراءه لبناء الجمهورية الاسلامية تتعارض منذ الآن مع الوقائع . فاذا كانت المجموعات الاكثر تشربا بالشيعية ، والتي يمثل الخميني مصالحها بشكل جيد (تجار البازار والريفيون ومقتلعو المدن وفقرائها) تبقى موحدة وراءه ، فان غيرها يرفض ان يطيعه اطاعة عمياء . ان تطرف بعض الملالات (علماء الدين) المقربين له لا يمكن الا ان يعرقل الوحدة التي يطالب بها الخميني في خطبه . ان قلة حذاقة احد آيات الله الشيعة المحليين ساعد على تفجير الصدامات التي عكرت هدوء كردستان . هذا ما توصل اليه ممثلوا الاكراد واللجنة الحكومية التي ارسلت الى هذه المنطقة .

واخيرا اذا كان الصراع الطويل ضد الشاه قد ولد زخما ثوريا ، يعد بمثابة راسمال نفسي — عاطفي لا يستغنى عنه في المرحلة الثانية من الثورة ، فان هذه الرومنسية الثورية تقليديا ، تفقد من زخمها بعد ذهاب الطاغية .

بالاضافة الى ذلك فان الحكومة تؤكد على ضرورة استئناف العمل ولا تشجع على المناقشات في المصانع والجامعات والاذاعة والتلفزيون، من اجل تحديد الاطر الجديدة الاكثر ملاءمة . الا يهدد ذلك بتلم حد الايمان الذي يستند اليه الخميني لبناء ايرانه الجديدة ؟

ايران ما بعد الدكتاتورية ، حيث تكون كل التناقضات قد سويت والتي لا تحتاج الا الى أن تحكم ، كانت سرابا . فاما ان يلاحظ الخميني ذلك ويقبل بالحلول الوسط المناسبة ، فيكون المشروع للنقاوة الاخلاقية الذي خلقه باق كعنصر ايجابي للثورة . واما على العكس من ذلك وعندها سوف يبدو بشكل متزايد كسلطة تقييد وتجميد ويخشى على المدى البعيد من ان يقتلع مع كل ما اتى به .

المراجع

١) كتب للخميني ومنها « مفاتيح الروحانية » (قم ١٩٤١) « والحكومة الاسلامية » (النجف ١٩٧١) .

٢) خطابات القاها الخميني في قم والنجف (العراق) ، ونوفل – لوشاتو وطهران منذ ١٩٤١ (نشرات وشرائط تسجيل) .

٣) مقابلات للخميني أثناء اقامته في نوفل – لوشاتو مع وسائل اعلامية مختلفة.

الجزء الثالث

▪ دور الحشود الجماهيرية في الحياة السياسية الايرانية المعاصرة

يرفند ابرهميان

دور الحشود الجماهيرية في الحياة السياسية الايرانية المعاصرة

يرفند ابرهميان

يقول جورج رودي George Rude : « لعله ما من ظاهرة تاريخية اهملها المؤرخون كظاهرة الحشود الجماهيرية » (١) ، ان ملاحظة جورج رودي هذه تصح بشكل خاص بالنسبة للشرق الاوسط . وفي حين دأب الصحفيون الاوروبيون على تصوير الحشود الجماهيرية الشرقية وكأنها « رعاع متعصبة ضد الاجانب » تقذف السفارات الاجنبية بالشتائم والحجارة ، فان المحافظين المحليين قد درجوا على شجبها بوصفها « حثالة اجتماعية » مأجورة للاجنبي ، في حين يصفها الراديكاليون بأنها هي « الشعب » عندما يتحرك .

وفي نظر كل هؤلاء كانت الحشود شيئا مجردا ، سواء كانت جديرة بالشتيمة أو الخوف أو الاطراء ، أو حتى التندر ، بيد انها لم تكن موضوعا للدراسة .

تهدف هذه الدراسة الى امور ثلاثة . سوف تتناول اولا ، دور الحشود في ايران الحديثة . وسيقتصر الموضوع على الحشود السياسية ، ذلك ان جعل الموضوع يتسع ليشمل جميع الاضطرابات العامة — كأعمال الشغب من اجل الخبز والمظاهرات ضد الضرائب و « المساومة الجماعية عن طريق اعمال الشغب » ، والصراعات الطائفية — كان سيقتضي تولي مهمة بضخامة مهمة جورج رودي ، وربما اضخم منها ، نظرا لان الدور الذي لعبه الشارع في ايران اهم من ذلك الذي لعبه في انجلترا وفرنسا . وستحاول الدراسة ثانيا ، رسم صورة القوى التي كونت هذه الحشود ، مقارنة البنية الاجتماعية لمظاهرات ما قبل المرحلة الصناعية مع تلك الخاصة بالمرحلة شبه الصناعية . اما الهدف الثالث من هذه الدراسة فهو عقد بعض المقارنات العامة مع اضطرابات شعبية في اوروبا وذلك من خلال مواجهة الاستنتاجات التي نتوصل اليها هنا مع تلك التي استخرجها رودي .

● نشرت هذه الدراسة في مجلة Past & Present ، العدد ٤١ ، كانون الاول ، ديسمبر ، ١٩٦٨ .

كان الحكم المطلق في ايران القرن التاسع عشر أقرب الى نمط الحكم التيودوري في انجلترا منه الى « الاستبداد الشرقي » كما وصفه كارل فيتفوغل (٢) . فسلالة القاجار لم تبن قوتها على أساس جيش دائم ، ولا على اساس بيروقراطية واسعة ، لانها لم تملك ايا منهما ، وانما على استعداد الوجهاء والعلماء والقضاة وزعماء النقابات لفرض ارادة الشاه ، وعلى ميل الرعايا للخضوع لسلطته . وكان الاستياء العام يعبر عن نفسه من خلال العرائض والاجتماعات والاضرابات والاعتصام في الاماكن المقدسة أو القصر الملكي أو مكاتب البرق ، حيث كان يتسنى للمحتجين الوصول الى الشاه . اما الذين كانوا يحاولون نقل احتجاجهم خارج هذه الحدود فقد كان يجري اخضاعهم ليس عن طريق جهاز الدولة وانما عن طريق رعايا كانوا على استعداد لفرض الارادة الملكية .

لقد قوض تأثير الغرب هذا النمط من الحكم . فالهزائم العسكرية، وتعاون العائلة المالكة مع القوى المستعمرة ، ومنح التنازلات والاحتكارات والامتيازات « للكفار » ، وعجز الحكومة عن مساعدة التجار الايرانيين ضد التجار الاوروبيين ، والفشل في حماية الصناعة الوطنية من المنافسة الاجنبية ، وادخال مبدأ « حقوق الانسان » الهدام ، كل هذا خلق أزمة ثقة حادة . ولم يعد القاجار الحماة الذين عينهم الله لحماية شعبه والحصن الامامي في وجه الانحلال الاجتماعي، وانما أصبحوا عائلة عاجزة وفاسدة تشارك في نهب البلاد وتدميرها

كان النظام القديم لا يزال سليما في نهاية القرن التاسع عشر ، رغم تزعزع اركانه في زلزال سياسي كبير اثناء أزمة التبغ عام ١٨٩١ — ١٨٩٢ (٣) . وقد بدأ انهياره عام ١٩٠٥ ،مع انتفاضة نيسان (ابريل) التي بدات برفع عريضة في طهران ضد مسؤول الجمارك الاوروبي . وحين لم يصدر أي رد عن الحكومة دعا رافعو العريضة الى اضراب عام واعتصموا في جامع عبد العظيم خارج العاصمة (٤) .

وبعد اسبوع وافق الشاه على النظر في المسألة ، وتفرق الحشد . بيد أن الشاه لم يقم بأية خطوة ذات اهمية ، وهكذا ، بعد تسعة أشهر عندما حاول حاكم طهران تخفيض سعر السكر عن طريق التضحية بقلة من التجار البارزين ، تكررت احداث نيسان ، ولكنها في

هذه المرة كانت اكثر حدة . وجرى تنظيم اضراب عام ، واعتصمت جماعة من المحتجين في جامع في طهران ، واتجهت مسيرة من الفي شخص الى جامع عبد العظيم ، وظلوا هناك حتى قبل الشاه مطالبهم الرئيسية : صرف موظف الجمارك الاوروبي وعزل الحاكم وانشاء « دار للعدل » . ولكنهم خدعوا مرة اخرى ، فما ان عادوا الى العمل حتى نسيت الوعود . وبدا كل شيء هادئا حتى تموز (يوليو) ١٩٠٦ ، عندما اشعلت محاولة لاعتقال واعظ بارز مناهض للحكومة ازمة أخرى ، أشد حدة هذه المرة من سابقتها . وقد حاول جمهور غفير وغاضب اطلاق سراح الضحية ، ففتحت الشرطة النيران وقتلت رجل دين اخر ، ومن ثم ولت هاربة امام الحشد الثائر . وسيطر المتظاهرون على شوارع العاصمة طيلة يومين بينما اعتصم الف محتج في مدينة قم المقدسة خارج طهران ، واعتصم خمسون في دار المفوضية البريطانية ، وفي خلال ثمانية ايام ارتفع عددهم الى اربعة عشر الفا . ولم يكتف المحتجون هذه المرة بتعهدات الشاه وبـ « دار للعدل » ، ولكنهم طالبوا بدستور مكتوب وبرلمان منتخب . وعسكروا في ارض المفوضية ثلاثة أيام حتى أذعن الشاه لمطالبهم .

لقد حصل الثوريون على دستورهم ولكنهم لم يضمنوا ثباته على ارضية صلبة بعد . وقد فقد البلاط قوته المطلقة ولكنه حتى الآن لم يكن راغبا في تقبل الوضع الجديد . واستمر الكفاح بين الطرفين طيلة السنوات الثلاث التالية ، حيث حاول الثوريون المحافظة على مكاسبهم وجهد البلاط لاستعادة ما فقده . وكانت الشوارع بالنسبة للطرفين سلاحا حيويا في الصراع . فحين ماطل الشاه بشأن الانتخابات البرلمانية نشبت اضرابات وتظاهرات في تبريز استمرت عشرة أيام على التوالي . وعندما توانى عن توقيع الصيغة النهائية للقوانين الاساسية ظهرت تجمهرات احتجاجية في معظم المدن ، وفي تبريز أعد المتطوعون المسلمون انفسهم للدفاع عن المدينة في حين اقسم حشد من عشرين الف شخص على « الانصراف عن العمل حتى يتم توقيع القوانين » (٥) . واستمر اضرابهم شهرا بأكمله . وعندما حاول المحافظون في تبريز تقويض الدستور نظم الراديكاليون مظاهرات جماهيرية متواصلة الى أن غادر خصومهم المدينة . وحين اتضح ان رئيس الوزراء يتآمر ضد الراديكاليين جرى تنظيم اضراب عام في طهران للمطالبة باستقالته . ولما قتل ،تجمع خمسة عشر الف شخص،

ليقدموا احترامهم لجثمان الشخص الذي اغتاله وليقطعوا على انفسهم عهدا بتأييد الثورة .

في غضون ذلك لم يبق البلاط متفرجا . فقد عبأ مؤيديه حتى اصبح ، في كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٠٧ ، قادرا على عرض قوته عن طريق حشد جمع مشاغب من عشرة آلاف من أنصار الملكية في ميدان المدفعية الرحب في مركز العاصمة . ورد الدستوريون بالتجمع خارج مبنى البرلمان . ووقف الطرفان متجابهين طيلة ثلاثة أيام حتى فرق الشاه مؤيديه . غير ان هذه الخطوة كانت مجرد تراجع تكتيكي ، اذ تكررت هذه الاحداث بعد ستة أشهر ، ولكنها انتهت في هذه المرة على نحو آخر . فقد بدأ اللواء القوزاقي ، وهو القوة العسكرية الفعالة الوحيدة في الجانب الملكي ، بقصف مبنى البرلمان ؛ ومن ثم اقدمت جماعة من مناصري الملك على نهب المجلس . وعلى اثر ذلك اعلنت الاحكام العرفية وحظرت كافة الاجتماعات العامة بما في ذلك المسرحيات العاطفية . وقد انتصر المحافظون في العاصمة ، غير أن العاصمة لم تكن هي كل ايران ، فقد استمر الصراع في الاقاليم حيث جرى تنظيم اجتماعات الاحتجاج وتوجيه الدعوة الى الاضرابات واستعراض الاسلحة . وبحلول تموز (يوليو) ١٩٠٩ ، اي بعد ثلاثة اشهر من انقلاب الشاه الناجح ، عادت المقاومة الناشطة الى الظهور حتى في العاصمة . وجرى تنظيم اضراب عام في حين توافدت قوة من المتطوعين من رشت وجيش من رجال القبائل من أصفهان على طهران . وتم خلع الشاه وسلم عرشه الى ابنه البالغ اثنتي عشرة سنة. وكانت تلك نهاية الحرب الاهلية .

خلال الاثني عشر عاما التالية حل الصراع بين القوى الامبريالية والوطنيين الايرانيين محل النزاع بين الملكيين والدستوريين . ولم تعد القضايا المتعلقة بالحقوق الدستورية هي ما يدفع الجماهير الى الشارع ، وانما القضايا المتصلة بوحدة اراضي البلد (٦) . ففي اثناء الحرب الاهلية كانت الجيوش الروسية قد تحركت باتجاه تبريز « للحيلولة دون الفوضى » . ولم تنجح المظاهرات الحاشدة التي عمت انحاء البلاد في وقف تقدمها ، ووسعت خلال السنوات القليلة التالية المنطقة التي احتلتها في الشمال بصورة تدريجية . وفي الجنوب ، وصلت الجيوش البريطانية في تشرين الاول (اوكتوبر) ١٩١١ وباشرت تقدمها الى شيراز لكي تصون « الارواح والممتلكات »

البريطانية .وبلغت الاحداث ذروتها فيتشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١١، عندما وجهت الحكومة الروسية انذارا نهائيا الى مجلس الـــوزراء الايراني يطالب بدفع نفقات الجيش الذي أرسل الى الجنوب ويمنـع المجلس من استخدام مستشارين أجانب دون استشارة القوتيـــن العظميين . وكانت الحكومة راغبة في الاستسلام،غير ان النواب الذين شجعتهم المظاهرات الضخمة خارج مبنى البرلمان رفضوا الاذعان ، في حين أن الوزراء ، الذين وقعوا بين شرين ، شر القوى الامبرياليـة وشر الجمهور الغاضب ، فضلوا الخيار الاول . اما المتطوعون ورجال القبائل ، الذين كانوا قد انقذوا الدستور قبل سنتين فقط ، فقد أغلقوا البرلمان بالقوة وصرفوا النواب واعلنوا الاحكام العرفيـــة . الا ان المجلس دعي مجددا الى الانعقاد بعد تسعة عشر شهرا بسبـب « تهديدات » بالتظاهر والاضراب (٧) . واستمر احتلال البلاد طوال الحرب العالمية الاولى ، ولم يتوقف الخطر من الشمال الا بمجـيء الثورة الروسية ، وحل محله التهديد المتزايد من الجنوب . وقد هدفت الاتفاقية التي عقدت في آب (اغسطس) ١٩١٩ بين انجلترا وايـران، والتي صاغها اللورد كورزون Curzon ، الى تحويل ايران الى دولة تابعة . ولم ينسف هذه الخطط سوى الجمهور وسلاحه الرئيســي ، اي الشوارع . وكتب احد الجنرالات البريطانيين في ايران الى كورزون ليخبره بـ « نمو شعور في ايران بأن بريطانيا العظمى عدو لدود يجـب اقتلاعه من البلد باي ثمن » (٨) . ووقع مجلس الوزراء مرة اخـرى بين قوتين متعارضتين ، الجمهور الثائر والبريطانيين الذين واصلـوا احتلالهم للبلد . وادى ذلك الى حالة من عدم الاستقرار السياسـي استمرت حدتها عشرين شهرا وتغيرت خلالها رئاسة الوزارة تسـع مرات .

في هذا الجو المضطرب زحف عقيد غير معروف ، يحمل اسم رضا خان،على العاصمة بصحبة لواء من القوزاق الذين لم يقبضوا مرتباتهـم، ونصب حكومة جديدة ، وشرع بتهدئة الامة عن طريق الغاء الاتفاقية البريطانية الايرانية وبتهدئة كورزون عن طريق الظهور بمظهر « الرجل القوي » الذي سينقذ البلاد من البلشفية . وخلال السنوات الثـلاث التالية كان هو القوة التي تسند العرش ، يعيـــن النواب والوزراء ورؤساء الوزراء ويخلعهم . وبحلول آذار (مارس) ١٩٢٤ شعر من الثقة بقوته ما جعله يحاول اقصاء الملكية التي دام حكمها الفي سنـة

وتأسيس جمهورية . وجرى تقديم مشروع قانون يقضي بهذا التغيير الى برلمان مزدحم ومهيأ ، وبدا ان اقراره مفروغ منه . ومرة اخرى قفز الجمهور الى المسرح واحبط القانون . فقد حاصر نحو ثلاثون الف ملكي مبنى البرلمان في حين تجمعت مجموعة صغيرة من الجمهوريين بالقرب من المكان (٩) . وسحب مشروع القانون على وجه السرعة ، وتم التوصل في النهاية الى حل وسط : عزل سلالة القاجار دستوريا ، وبدلا منها أصبح رضا خان رضا شاه .

في الفترة ما بين ١٩٢٥ و ١٩٤١ حكم الملك الجديد بيد من حديد . وقد تمكن ، بعد أن بنى قوته على الجيش الحديث والبيروقراطية ، اللذين وسعهما الى حد كبير عن طريق عائدات النفط المتزايدة ، من السيطرة ليس على الوزراء والنواب والصحافة فحسب ، وانما على الجمهور ايضا . وتم ادخال « الاستبداد الشرقي » الى ايران في هذه السنوات على نحو تدرجي على شكل الغربنة والتحديث . ونتيجة لهذا التغيير لم يعد الجمهور عاملا ذا شأن في السياسة . وباستثناء مسيرتين في عيد العمال وثلاث انتفاضات دينية فرق الجيش كلا منها على الفور ، اختفت المظاهرات عن المسرح واصبحت ظاهرة تاريخية تعود الى الماضي « الفوضوي » .

عادت الحشود بعنف بعد آب (اغسطس) ١٩٤١ ، عندما سحق غزو الحلفاء جيش رضا شاه وأجبره على التنازل عن العرش لابنه ، وحرر الجمهور من حكمه المطلق . واستمر الوضع حتى آب (اغسطس) ١٩٥٣ ، عندما تمكن البلاط ، يدعمه جيش موسع أعيد تسليحه وتدريبه ،من خلع مجلس الوزراء واعادة الحكم الاوتوقراطي والسيطرة على الشوارع . في الاثنتي عشرة سنة التي تخللت ذلك كانت الحشود عنصرا رئيسيا في السياسة . وبالرغم من أن الكثيرين حاولوا حشد الجماهير واستخدام الشارع كسلاح ، الا أن تنظيمين فقط سجلا نجاحا جديرا بالذكر : حزب توده والجبهة الوطنية (١٠) . كان أول ظهور رئيسي لحزب توده في الشوارع في ٢١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٣ ، عندما عقد اجتماعا حاشدا للاحتفال بذكراه السنوية الثانية ولافتتاح حملته الانتخابية للبرلمان . وقد فاجأ التجاوب المراقبين وربما ايضا منظمي الاجتماع انفسهم . ومن المحتمل ان تكون صحافة الحزب قد ضخمت الارقام عندما زعمت أن ما يزيد على أربعين الفا حضروا الاجتماع ، ولكنها لم تبالغ عندما وصفت الحشد بأنه « الاكبر

في تاريخ ايران » (١١) . وفي العام نفسه برهن المتظاهرون المنتمون الى حزب توده في اصفهان انهم قد حسموا امرهم الى درجة اضطرت الحاكم الى الهرب من المدينة (٢) . وفي خريف عام ١٩٤٤ ، نظم حزب توده اجتماعات في جميع انحاء البلاد للاحتجاج ضد وزارة رفضت التفاوض حول اتفاقية للنفط مع الاتحاد السوفيتي . ووصف سفير الولايات المتحدة في طهران الاجتماع الحاشد المؤلف من خمسة وثلاثين الفا خارج مبنى البرلمان بأنه اجتماع « منضبط » (١٣) . وعندما استقالت الحكومة ذاتها ، افاد مراسل النيويورك تايمز ان هذه المظاهرات الضخمة كانت « مسؤولة الى حد كبير عن اسقاط الوزارة» (١٤) . وفي يوم الدستور ، في آب (اغسطس) ١٩٤٥ ، اقام الحزب احتفالات جماهيرية في اكثر من عشرين بلدة . وقد قدر أحد الصحافيين وهو لا ينتمي الى حزب توده ، الجمهور في الاجتماع الحاشد في طهران بما يزيد على اربعين الفا (١٥) .وفي شباط ١٩٤٦ اقيمت صلاة تذكارية عند ضريح الدكتور اراني Arani الماركسي و « الاب الروحي » للحزب ، الذي قضى في سجون رضا شاه ، وقد تزاحم خمسة عشر الفا في المدفن (١٦) . وفي عيد العمال ، أجريت الاستعراضات في عشرين مدينة : ففي اصفهان اجتذب الاجتماع أربعين الفا ، وفي طهران خمسين الفا (١٧) ، وفي عبادان ، طبقا لما ذكرته التايمز وصحافة حزب توده ، ثمانين الفا (١٨) . وتم تخطي جميع هذه الارقام في تشرين الاول (اوكتوبر) ١٩٤٦ ، عندما اشترك مئة الف في احتفالات الذكرى السنوية الخامسة للحزب في طهران (١٩) .

تم قمع حزب توده بعد كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٦ . وظلت الشوارع خالية نسبيا حتى خريف ١٩٤٩ ، عندما بدأت الجبهة الوطنية حملتها في سبيل انتخابات حره وتأميم صناعة النفط . وبدأت المرحلة الجديدة في تشرين الاول (اوكتوبر) ١٩٤٩ ،عندما قامت جماعة صغيرة من السياسيين المناهضين للبلاط ، بقيادة الدكتور مصدق ، بمظاهرة صغيرة على ارض القصر ، احتجاجا على التدخل الملكي في الانتخابات البرلمانية . وخلال عام واحد أصبح مصدق يتمتع ليس بتأييد عدد من السياسيين فحسب ، وانما ايضا بتأييد الجماهير في الشوارع . وكان كوطني مناضل ومدافع صلب عن الدستور ، مصمما على جعل صناعة النفط ملكا لايران واجبار الشاه على التوقف عن تعاطي السياسة نهائيا . وعلى اثر حملة من العرائض والاضرابات

والمظاهرات والاجتماعات الحاشدة ، اجبرت الجبهة الوطنية البرلمان المتردد والبلاط المعادي على القبول بمصدق رئيسا للوزراء واقرار مشروع قانون تأميم النفط .

لقد حمل الشارع مصدق الى السلطة ، واستمر في احتلال منصبه بالطريقة عينها . وكلما رفعت المعارضة راسها ، سواء في البرلمان او في البلاط ، كان يتوجه مباشرة الى الجمهور ويعتمد على المظاهرات في جعل خصومه « خاضعين لتأثيره » (٢٠) . وفي احدى المرات صاح رئيس مجلس النواب الموالي للبلاط بسخط :

هل هذا الرجل رئيس وزراء أم قائد رعاع ؟ اي نوع من رجال الدولة يقول ، « سوف اتحدث الى الشعب » كلما توجب البحث في حل لقضية سياسية . كنت دائما اعتبر هذا الرجل غير جدير بالثقة ، ولكني ، حتى في اشد الكوابيس ازعاجا ، ما كنت لاتخيل أن رجلا مسنا في السبعين من عمره يمكن ان يكون ديماغوجيا ومثيرا للهياج ، لا يتردد في تطويق مبنى البرلمان بقطاع الطرق . (٢١)

كانت آخر مرة يتم فيها اللجوء الى الجمهور في تموز (يوليو) ١٩٥٢ ، عندما رفض الشاه نبذ عادته التي لا تستند الى الدستور في تعيين مرشحين من قبله لتولي وزارة الحربية . واستقال مصدق من رئاسة الوزارة وتوجه مباشرة الى الشعب . وفعلت شخصيته القوية الجذابة فعلها مجددا ، فقد تدفق متظاهرو الجبهة الوطنية وحزب توده الى الشوارع ، وبعد ثلاثة أيام من اراقة الدماء أجبر الشاه على دعوة مصدق الى العودة وتسليمه وزارة الحربية . ان الجمهور لم يهزم البلاط والسياسيين في البرلمان فحسب ، وانما قوات الدولة المسلحة ايضا .

كانت انتفاضة تموز (يوليو) ١٩٥٢ جهدا مشتركا قامت به الجبهة الوطنية وحزب توده ، غير أن الثلاثة عشر شهرا التي تلت النصر شهدت ضعف الجبهة الوطنية التدريجي وتصاعد قوة حزب توده . وقد كتب أحد المراقبين الايرانيين : « اذا كان ثلث المشتركين في الاجتماعات الوطنية الحاشدة قبل ١٩٥٢ أعضاء في حزب توده ، وكان الثلثان من مؤيدي الجبهة الوطنية ، فان الادوار قد انقلبت بعد ١٩٥٢ » . (٢٢) وكان هذا الاتجاه بارزا في الذكرى السنوية لانتفاضة تموز (يوليو) . فقد نظم الطرفان اجتماعيهما الحاشدين المنفصلين في ميدان البرلمان : اجتذب اجتماع حزب توده ما بلغ مئة الف شخص ،

متفوقا من حيث عدد الحضور على الجبهة الوطنية بنسبة خمسة أو حتى عشرة الى واحد . (٢٣) وقد ساهم ذلك في زيادة ضعف الجبهة الوطنية ، اذ التفت بعض مؤيديها الى الشاه بحثا عن الحماية ضد « الخطر الاحمر » . وفي ٢٨ آب (اغسطس) اليوم الذي سبق هجوم الجنرالات ضد مصدق ، كانت هناك مظاهرات لحزب توده في جميع انحاء البلد ، « حتى في مصحات السل » ، بينما لم يظهر لمؤيدي الجبهة الوطنية اي أثر (٢٤) . وفي ١٩ آب (اغسطس) ، طهر الجيش الشوارع من المتظاهرين ، في حين أقدمت مجموعات موالية للشاه على نهب بيوت ومكاتب خصومهم على نحو منسق (٢٥) .

هكذا ، لم تكن الحشود الجماهيرية مجرد عامل في السياسة، لقد كانت عاملا رئيسيا ، وكانت فعالة في تحقيق ثورة دستورية وكسب الحرب الاهلية ، وفي النضال ضد القوى الاستعمارية واحباط معاهدة ١٩١٩ البريطانية — الايرانية ، وفي الحفاظ على الملكية والحيلولة دون تأسيس جمهورية عام ١٩٢٤ . وبين ١٩٤١ و ١٩٥٣ كانت هي السلاح الرئيسي لحزب توده والجبهة الوطنية ، مزودة اياهما بالقوة التي تمكنا بواسطتها من ممارسة الضغط على صانعي القرار .

تكوين الحشود في المرحلة ما قبل الصناعية ١٩٠٥ — ١٩٤٥

لم يكن البازار في الاقتصاد التقليدي مجرد سوق ، بل كان مخزن القمح والمشغل والبنك والمركز الديني للمجتمع باسره . فهناك كان أصحاب الاراضي يبيعون محاصيلهم ، ويصنع الحرفيون بضائعهم ، ويسوق التجار سلعهم ، ويحصل المحتاجون الى النقود على القروض . وهناك كان رجال الاعمال يبنون الجوامع والمدارس ويمولونها . علاوة على ذلك ، لم يكن البازار كتلة غير منظمة من التجار والحرفيين ومقرضي الاموال والباعة المتجولين والائمة ، وانما كان يتوزع توزعا محكما في نقابات . كان لكل حرفة ولكل تجارة ولكل مهنة غير متخصصة منظمتها وتركيبها الهرمي وتقاليدها الخاصة وفي بعض الاحيان لهجتها السرية أيضا (٢٦) . وفي عام ١٩٢٦ ، كان هناك ما يزيد على مئة نقابة مختلفة للحرفيين ، ونحو سبعين نقابة للتجار ، وأربعين لمن لا يملكون مهنة متخصصة أو موارد مالية (٢٧) .

كانت الثورة الدستورية حركة قام بها البازار . وقد اتى جمهورها من النقابات ، ودعمها المالي من التجار ، ودعمها

المعنوي من السلطات الدينية ، ونظر لها بعض المفكرين أصحاب الثقافة الغربية .

وقد اثار الازمة الاولية في نيسان (ابريل) ١٩٠٥ مقرضو الاموال وتجار الاقمشة في طهران . كان الاوائل يحتجون على فشل الخزينة في الوفاء بالتزاماتها المالية وكان الاخرون ينتقدون سياسات مسؤول الجمارك الاوروبي . وقد أبلغ احد منظمي التظاهرة احد المراسلين الصحفيين بأن التجار المنضمين الى الحشد يحتجون على التعرفات الجديدة المنحازة لصالح الشركات الروسية ضد التجار الايرانيين : « يجب أن نشجع الصناعة الوطنية ، حتى وان لم تكن نوعيتها بجودة المستوردات الاجنبية . ان الاتجاه الحالي لزيادة المستوردات سيؤدي حتما الى تدمير صناعتنا وتجارتنا » (٢٨) . وقد أغلق الاضراب الذي نظمه هؤلاء المحتجون سوق تجار الاقمشة واروقة مقرضي الاموال والفنادق . وقاد المسيرة التي شقت طريقها من طهران الى جامع عبد العظيم احد اصحاب الحوانيت البارزين واحد بائعي الاوشحة . وكان أتباعهما اعضاء في نقابات تجار الاقمشة ومقرضي الاموال . وقد تمتعا أيضا بدعم السلطات الدينية ، لانهما وزعا صورة لمسؤول الجمارك متنكرا في ثوب رجل دين . ومع أن المتظاهرين فشلوا في بلوغ اهدافهم ، الا أن وزارة المالية ، بعد مرور خمسة اشهر ، تنازلت للتجار ومنحتهم مجلسا استشاريا يستطيعون من خلاله التعبير عن آرائهم في التعرفات والجمارك .

كان التجمع الذي اعتصم في احد الجوامع في طهران في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٥ يتألف من تجار أثرياء يحتجون على ضرب تاجري سكر بارزين كان احدهما قد بنى ثلاثة جوامع . وقد تلقوا المساندة من البازار ، الذي بدأ اضرابا عاما ، ومن مجموعة من الزعماء الدينيين ، الذين اعتصموا في جامع عبد العظيم بصحبة عائلاتهم وطلاب العلوم الدينية . وقد مول اقامتهم في الجامع والتي استمرت شهرا ، احد تجار الجملة وعدد من التجار البارزين .

وقد تولدت الحدة التي بلغتها أزمة تموز (يوليو) ١٩٠٦ عن المشاركة النشطة لجميع نقابات الحرفيين والتجار ، الذين حصروا دورهم حتى ذلك الحين في تنظيم اضرابات التعاطف مع التجار والعلماء . وقد نظمت جمعية النقابات وهي اتحاد حديث العهد يضم كافة النقابات في البازار ، اعتصام الاربعة عشر الف شخص في

مقر المفوضية البريطانية ، والذي استمر ثلاث اسابيع . وكان المشتركون في الحشد في معظمهم حرفيين وتجارا يرافقهم صبيانهم المتدربون والعمال المياومون . وقد كتب احد المعلقين : « لقد شاهدت ما يزيد على ١٥٠٠ر١ خيمة ، لمختلف المهن ، وكان هناك ، حتى للاسكافيين وباعة الجوز والسمكريين ، خيمة واحدة على الاقل » (٢٩) . وارسل الوزير البريطاني المفوض تقريرا الى وزارة الخارجية يقول فيه :

« كان يشرف على تنظيم حشد الملتجئين رؤساء النقابات ، الذين اتخذوا اجراءات لمنع غير المخولين من دخول المفوضية ... ولم يلحق اي ضرر متعمد بالحديقة ، رغم أنهم بطبيعة الحال ، داسوا المزاهر حتى محيت من الوجود ، وما زالت الكلمات الدينية التي حفروها على لحاء الشجر ماثلة للعيان . اما الانضباط والنظام فقد حفظهما الملتجئون انفسهم » (٣٠) .

وقد سمح المحتجون لبعض الطلبة من الكلية الفنية والاكاديمية العسكرية والمدرسة الزراعية بالانضمام الى صفوفهم .وقامت زوجات المحتجين بالتظاهر مرة تلو الاخرى في شوارع طهران خارج أسوار الحديقة . وفي مدينة قم نفذ الف من الزعماء الدينيين وطلبة العلوم الدينية اعتصاما مؤيدا .

من الممكن ادراك اهمية البازار في الحركة الثورية من خلال القانون الانتخابي الاول لعام ١٩٠٦ (٣١) . فقد قسم جمهور الناخبين الى ست فئات : الامراء وقبيلة القاجار ، أصحاب الاراضي ، النبلاء، رجال الدين وطلبة العلوم الدينية ، التجار ، والنقابات . وكان توزيع المقاعد في طهران ، التي مثلها ستون نائبا كالتالي : اربعة مقاعد للعلماء ، عشر للتجار ، واثنان وثلاثون للنقابات . ومن بين النواب الذين انتخبوا للبرلمان الوطني الاول ، كان هناك ٢٦ بالمئة من أعضاء النقابات و ٢٠ بالمئة من العلماء و ١٥ بالمئة من التجار (٣٢) .

استمر البازار في لعب دور معقل الحركة الدستورية طيلة الحرب الاهلية . وفي الفترات الحرجة ، كان من الممارسات الاعتيادية أن يدعو الزعماء الدينيون والتجار ورؤساء النقابات الى الاضرابات والمظاهرات ، وان تغلق المشاغل والمتاجر والاسواق، وان تحتشد جماعة البازار في ميدان الشارع المعين. وقد اتبع هذا النهج في تبريز بين تموز « يوليو » ١٩٠٦ وتموز ١٩٠٩ ردا على ثماني قضايا منفصلة على الاقل . وحين كان التواجد في الشوارع

ينطوي على خطورة كبيرة كان المحتجون يذهبون على الفور الى مكان يتوفر فيه الامان . فبعد قصف البرلمان ، نقل الوزير البريطاني المفوض أن حشدا من مئتي شخص في أصفهان ، يتألف في معظمه من « أصحاب الحوانيت الصغيرة » ، حاول الدخول الى اراضي المفوضية (٣٣) . وفي احدى المراحل التجأ « جميع العاملين في التجارة ومختلف الوظائف وحتى الحمالين في كرمنشاه » الى مكتب البرق (٣٤) . وحيثما نشأت حاجة لاستعراض القوة ، كان المتطوعون يصلون حاملين بنادقهم وذخيرتهم الخاصة ، اشارة الى ان « مناضلي النواة الصلبة » هم على درجة من الثراء بحيث يملكون سلاحا ليس في مقدور غالبية الشعب شراؤه (٣٥) .

وتنعكس التركيبة الاجتماعية للحشود الراديكالية أيضا في خلفية الثوار الذين أعدموا في تبريز (٣٦) . فمن بين الثلاثين شهيدا الذين عرفت مهنة كل منهم كان هناك خمسة تجار وثلاثة زعماء دينيين وثلاثة موظفين حكوميين واثنان من أصحاب المتاجر ، وتاجرا اسلحة وصيدليان ونجار وحائك وخباز وصاحب مقهى وصائغ ودلال وموسيقار وصحافي وحلاق مع صبيه ، ورسام وامام مسجد ومدير مدرسة . وتم اعدام اربعة آخرين لكونهم على صلة قربى ببعض الثوار البارزين : اثنان منهم كانا ولدين لتاجر اشرف على تنظيم الحزب الديمقراطي الاجتماعي في تبريز ، والاثنان الآخران كانا ابني أخت ستار خان ، وهو تاجر خيول كان قد أصبح قائد قوة المتطوعين المحلية .

لقد كتب الجزء الاكبر من تاريخ الثورة الدستورية فعاليون ليبراليون عمدوا الى تفسير الجاذبية الشعبية للجانب الرجعي بشكل خاطىء ومحرف ورفضوا التظاهرات الموالية للشاه باعتبار ان القائمين بها رعاع « سفاحون » و « قطاع طرق » و « لوتيون » (٣٧) . وحتى الكتاب القليلون الذين سلموا بوجود تعاطف شعبي مع البلاط فشلوا في تفسير هذه الظاهرة وتعليلها (٣٨) .

ان وجود الحشود الموالية للشاه يمكن تفسيره كنتيجة لوجود ثلاثة عناصر متعاطفة مع القضية الرجعية . كان هناك أولا المرتبطون اقتصاديا بالشاه ، وعليه فقد كانت لهم مصلحة راسخة في الحفاظ على النظام القديم . وكان هناك من جهة ثانية زعماء دينيون مختلفون ممن خشوا أن يكون الدستور خطوة أولى في اتجاه « الفوضوية »

و « العدمية » و « المساواة » و « الاشتراكية » والهرطقة « البابية » (٣٩) .

قلبت مشاركة هذا العنصر الديني المظاهرات الموالية للشاه الى حشود مؤيدة « للاسلام والشاه » . ومن جهة ثالثة ، كان هناك بين الحين والآخر « احتجاجات الفقراء » ، الفقراء المعدمين الذين حملوا كرها شديدا لاغنياء البازار ، والذين لم يحصلوا على اي مكسب من ثورة أصحاب المتاجر ومقرضي الاموال والتجار .

سيطر القاجار ، بثرائهم الواسع وما اغدقته عليهم الدولة من مداخيل ، على شبكة من الانصار . وقد منحوا الهدايا والاعانات لمحاسيبهم ، والمناصب والرواتب لرجال الادارة المخلصين لهم ، ووفروا الوظائف لآلاف الخدم ، والاعوان ، والعمال والحرفيين المستخدمين في قصور الشاه واسطبلاته ومزارعه ومشاغله . علاوة على ذلك ، قلد العديدون من الاقطاب ، في كل من العاصمة والاقاليم، اسلوب حياة الشاه . وعندما اقترح النظام البرلماني ، في سنته الاولى ، ميزانية تتضمن تقليصا لمخصصات البلاط ، وحذفا لدخل ولي العهد ، وقطعا لمعاشات نحو الفين من المحالين على التقاعد ومن رجال الحاشية ، وتخطط ايضا لجباية الضرائب المتأخرة عن اراضي الملاكين ، هدد هذا الاقتراح ليس فقط القوة الاجتماعية للعائلة المالكة والطبقة الارستقراطية ، بل هدد ايضا الوضع الاقتصادي للذين يعملون في خدمتها . أما خزينة الادارة الحكومية * التي كانت ، حتى الثورة ، تصر على ايفاء التزاماتها بأكملها على وجه السرعة ، حتى ولو كانت خزينة الدولة تعاني الصعوبات الشاقة ، فقد أصبحت الآن تتأخر في دفع الاموال وحتى انها ابلغت المدرجين على جدول الرواتب لديها انها لن تستطيع دفع رواتبهم وأجورهم بسبب الميزانية (٤٠) . وكما كان مرتقبا ، اندفع هؤلاء للانضمام الى حشود الملكيين . وقد كتب احد المحاربين في الحرب الاهلية ما يلي :

في تلك الايام ، كان اسلوب التجريح السائد هو أن نقول في الشخص ، بأنه يتصف « بأخلاق سائس الخيل » او بـ « عقلية خادم » ، وسبب ذلك هو ان هؤلاء وغيرهم من المأجورين ، لكثرة

---

* Household Treasury

ما تدللوا في البلاط ، اصبحوا اكثر الناس لؤما وتخلفا واشدهم تعصبا في تاييد الحكم المطلق بين كل سكان طهران ■ (٤١) .

وقد زود هؤلاء الاتباع التظاهرات الرجعية بالنواة المخلصة ، كما اعطاها وجود الشخصيات الدينية في صفوفها المحتوى الايديولوجي . فبالرغم من انه كان لمعظم العلماء روابط متينة مع الجوامع والمدارس الدينية الموجودة في البازار ، فقد ارتبطت رواتب واقطاعات ومناصب بعضهم بالشاه وبالدولة وليس بمجتمع العمل. لذلك ، فان السلطة الهرمية الدينية ، حتى قبل الثورة الدستورية ، كانت مقسومة انقساما حادا غير متساو: القلة التي عبرت عن آراء البلاط والكثرة التي تعاطفت مع البازار . في الاصل ، فاق عدد المتعاطفين مع البازار عدد انصار البلاط بكثير ، ولكن اثناء مسيرة الثورة ومع انكشاف اهداف الراديكاليين بوضوح والتي تضمنت المطالبة بالمساواة بين جميع المواطنين مهما كان مذهبهم ، وببناء مدارس رسمية مستقلة عن المؤسسة الدينية وبتقليد نمط الحياة الاوروبي ،هجر بعض رجال الدين الليبراليين القضية طلبا للامان الذي كان يبثه النظام القديم : « لا حكم مطلق ، لا اسلام » . وفي تموز (يوليو) عام ١٩٠٧ ، اعلن احد ابرز الشخصيات الدينية في طهران معارضته للبرلمان والتجأ مع حوالي سبعين من طلاب العلوم الدينية الى مسجد عبد العظيم . يصف احمد كسراوي ، مؤرخ الثورة الدستورية المناهض لرجال الدين هذا الامر بانه « كان اول ارتداد عن الجماهير » (٤٢) . وبعد ثلاثة اشهر ، اعتصمت مجموعة اكبر مؤلفة من خمسمئة شخص في المكان ذاته واعلنت ان الشريعة في خطر . يعلق كسراوي بانه كان لهذه الامور تأثير قوي في اضعاف معنويات الراديكاليين لان الشخصيات الدينية التي قادت المعارضة كانت « محترمة جدا من الناس » (٤٣) .

وكانت صفوف حشود « الاسلام والشاه » في بعض الاحيان أيضا تزداد تراصا عند مشاركة « الطبقات الدنيا » لها . وتفسير دور هذه الطبقات يقوم على قضيتي الخبز وحق التصويت ، واخلاصها للمذهب الشيعي الارثوذكسي .

في المراحل المبكرة من الثورة ، نجح الثوار في كسب الفقراء الى جانبهم عندما ناصروا قضية تخفيض ثمن الخبز ، وشنوا الحرب ضد الحكومة حول مسألة ارتفاع اسعار المواد الغذائية وهكذا كان

باستطاعة البورجوازية الصغيرة في البازار والفقراء في احيائهم المعدمة ان يعملا معا ضد البلاط . وافترق الاثنان عندما تغير النظام واصبح ظاهرا للعيان ان الادارة الجديدة ليست افضل من القديمة بالنسبة للوعود بتخفيض أسعار المواد الغذائية . ووسعت الثغرة بينهما **المصالح المالية** في البرلمان المؤيدة للتسويق الحر للبضائع الزراعية والداعية لابطال السياسة التقليدية بالحد من تقلبات سعر الخبز بواسطة تدخل الحكومة في بيع الطحين (٤٤) . وقد تفجر الصراع المفتوح بين الفقراء والراديكاليين حول مسألة الخبز في تبريز . ففي حزيران (يونيو) عام ١٩٠٧ ، حاصر جمهور غاضب مجلس البلدة المؤيد للدستوريين وطالب بخفض ثمن الخبز ، واعدم ، أثناء **الانتفاضة** ، تاجر ذرة غني ، من أعضاء المجلس البارزين . وبعد سنتين ، ابلغ الوزير البريطاني المفوض وزارة الخارجية ان الدستوريين في تبريز « في موقف حرج » وانهم « يخشون نهوضا شعبيا من الفقراء الجائعين » (٤٥) . ويعلق كسراوي قائلا :

في تبريز خلال الثورة الدستورية ، كما في باريس خلال الثورة الفرنسية ، رفع المعدمون رؤوسهم عاليا . وكانت قوة هؤلاء الرجال تدفع باتجاه الفوضوية : اسقاط النظام الاستبدادي أولا ثم الانقلاب على الاغنياء والطبقات المالكة ، ان دعم مثل هؤلاء الرجال هو الذي أوصل دانتون وروبسبيير الى السلطة ، اما في تبريز فلم يظهر قادة كدانتون او روبسبيير ، ولكن لو حصل هذا لكان عام عندنا نحن ايضا عهد ارهاب (٤٦) .

اما في اصفهان فقد ظهر ، لفترة قصيرة ، مثل هؤلاء القادة ، اذ تحول موكب نسائي سلمي قدم عريضة الى رئيس البلدية لخفض ثمن الخبز ، الى مظاهرة شغب عندما اعطى الاخير النساء « جوابا تذرا » لاحق المتظاهرون رئيس البلدية في الشوارع وفي آخر الامر قتلوه ، ونهبوا مكاتب الحكومة وفتحوا ابواب سجن المدينة . وفي الوقت الذي أمر فيه الحاكم الجنود بفتح النار ، كان الشغب حول ثمن الخبز قد تحول الى حركة سياسية يقودها « رجال الدين الرجعيون » (٤٧) .

فشلت الثورة ، ليس فقط في احقاق تخفيض ثمن الخبز ، بل ايضا في الحصول للفقراء على حق التصويت . فقد حرم قانون الانتخابات من حق التصويت كل اصحاب الاراضي ممن يقل ثمن

اراضيهم عن ٢٠٠ جنيه ، كذلك التجار ممن لا يشغلون « منصبا ثابتا » ، والحرفيين والتجار الصغار ممن لا ينتمون الى « نقابة معترف بها » او لا يملكون حانوتا « يتطابق ايجاره مع معدل الايجارات المدفوعة في المحلة » (٤٨) . تبعا لذلك سمح في الانتخابات الاولى في طهران لمئة وخمس نقابات فقط بالاشتراك (٤٩) . اما جماعات المداخيل الدنيا ، مثل الحمالين ، وحائكي السجاد والصباغين وبنائي الآجر والعمال والمكاريين والحمالين ، فلم تكن جمعياتهم معترفا بها بالرغم من أن عددا منها كان يدفع ضرائب الانتساب الى النقابات . بالاضافة الى أن هذه المهن لم تنل من الثورة اية مكاسب ، فهي قد عانت أيضا من صعوبات اقتصادية بسبب الاضرابات العامة المتكررة التي خفضت من الطلب على العمل وعززت ارتفاع الاسعار . هذه العوامل سببت توترا في الحركة الدستورية ، حتى خلال الايام الاولى من الثورة حينما لم يكن هناك ارتداد عنها بعد . كتب احد المشاركين في مغامرة الولوج داخل المفوضية البريطانية يقول :

« اذكر بوضوح ذلك اليوم الذي أبلغ فيه قسم الدعاية بان الرجعيين يزرعون بذور الاستياء بين صفوفنا وخاصة وسط النجارين الشباب والخياطين الاميين . اذ غضب النجارون لانهم ابعدوا عن عملهم وطالبوا بمعرفة ما سينالونه من المغامرة كلها . اما الخياطون فكان اقتناعهم اصعب لانهم رفضوا القبول باي منطق . ولو ان هذه المجموعات اللامسؤولة خرجت من المفوضية لكانت حركتنا كلها انهارت ولكان حصل صراع مفتوح بين مختلف النقابات . ولحسن الحظ نجحنا في اقناعهم بأن يتعهدوا بالبقاء في المفوضية مع الآخرين » (٥٠) .

لعب الدين ايضا دورا في جذب الفقراء الى الجانب الملكي . وبينما نزعت الطبقات الدنيا لان تكون المدافعة الوفية عن المعتقد الشيعي الارثوذكسي ، حمل كثير من المفكرين المتغربنين * في الحركة الدستورية افكارا مناهضة لرجال الدين ، واغوت البدع «الشيخية» (Sheikhi) و « البابية » (Babi) بعض أغنياء البازار . وهكذا ، عندما رفع العلماء الملكيون شعار « الاسلام في خطر » استطاعوا تقويض الاساس الجماهيري للدستوريين .

ويمكن رسم صورة مشاركة الجماعات المختلفة في المظاهرات الملكية في كل من تبريز وطهران . ففي خلال الحرب الاهلية ، كانت

مدينة تبريز منقسمة جغرافيا بين الملكيين المتحصنين في الضواحي الشمالية ، والراديكاليين الصامديين في المناطق الجنوبية . ووجد البلاط والعلماء التقليديون مناصريهم في المناطق الفقيرة من داشاش وسرحاب ، اما الدستوريون وزعماء « الشيخيين » فقد تلقوا الدعم من رعايا مناطق خيابان واميرخيزي الغنية .كانت احياء المعدمين حصونا للرجعية ومركز شغب الملكيين ، اما مناطق تواجد الطبقة الوسطى فكانت مرتعا للسخط السياسي ومسرحا للمهرجانات الراديكالية .

في العاصمة ، كان يمكن رؤية الاسس الاجتماعية للملكية في اجتماع ساحة المدفعية في شهر كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٠٧ . ففي الحشود تواجد الزعماء الدينيون من جمعية « المحمد » المحافظة برفقة تلامذتهم ، ورجال الحاشية الملكية مع مستخدميهم ، والخدم والسائسون والحمالون والمكاريون والحرفيون العاملون في القصور الملكية ، والعمال من مزرعة لخيل الاستيلاد يملكها الشاه خارج طهران ، واللوتيون الموظفون في البلاط ، كما تواجد « افقر الفقراء » ممن لم يكن هناك سبب يدعوهم للوقوف الى جانب الدستوريين الاغنياء من أهل البازار .

لدى غزو روسيا لبلاد الفرس في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩١١ ، اندمج المتظاهرون الراديكاليون والملكيون في حشد وطني واحد كبير . ففي تبريز ، قام البازار باضراب عام ،بينما قاد العلماء المسيرة الاحتجاجية . وفي مشهد قصفت المدافع الروسية مزارا التجأ اليه « حشد هائل من الناس » (٥١) . واغلق البازار في انزلي،ولما حاول بعض الضباط القيصريون فتح احد دكاكين المواد الغذائية ، اعتدى بائع بازلاء على احدهم بكرسي فكانت الحادثة الشرارة التي اشعلت الشغب الذي قتل فيه ٢٢ مواطنا ، وفي شيراز رفض كل السكان شراء البضائع الانكليزية وسحبوا ودائعهم من البنك الامبراطوري وتجنبوا بيع المؤن للحامية البريطانية . حتى ان وزير صاحب الجلالة تذمر لان تصرف البازار المحلي كان « مخزيا » (٥٢) . أما طهران فكانت الاكثر رفضا للغزو الروسي . فخلال مناقشة البرلمان للانذار دخلت اليه ٣٠٠ امرأة مسلحات « بالمسدسات تحت اثوابهن وفي طيات اكمامهن» (٥٣) وجلسن في الشرفة المخصصة للعامة وهددن بفتح النار على اي نائب يرغب في الاذعان للروس . وفي الخارج ، قاطع الناس

سكة الحديد التي تملكها بلجيكا لمجرد الشك بأن للروس اسهما في الشركة ، و « امتلأت الشوارع بجماهير الشباب والتلاميذ والنساء يسحبون وراءهم من شرد ذهنه وركب الترام ، ويهشمون نوافذ الحوانيت التي كانت لا تزال تعرض البضائع الروسية ويعملون على الا يشرب احد الشاي الروسي » (٥٤) . وتكثفت الجموع عندما أغلق البرلمان بالقوة واضطر النواب الى الانتقال بقضيتهم الى الشارع . واجتمع في ساحة البرلمان « اضخم الحشود التي شهدها تاريخ ايران حتئذ » (٥٥) . تهتف « الاستقلال أو الموت » بينما تظاهر المعدمون في احياء المدينة الفقيرة مطالبين بتخفيض ثمن الخبز . لكن المتظاهرين العزل كانوا عاجزين عن مواجهة الجنود الغربيين ، واضرت المقاطعة والاضرابات المكثفة بالبازار بقدر اكبر مما فضحت الوكلاء الاجانب ،كما لم تلق عبارات السخط الجماهيري أذنا صاغية لدى الحكومات الملكية البعيدة في بطرسبورج ووستمنستر . اخفقت المقاطعة للبضائع . وتوارت الحشود ، بينما تركت بقايا المقاومة المدن الى الصحراء . ولم تظهر مثل هذه الحشود الوطنية في ايران مرة اخرى الا بعد عام ١٩١٨ حينما زالت بطرسبورج وغرقت وستمنستر في الفوضى .

استرجعت حشود كل من المحافظين والراديكاليين هويتها المستقلة خلال الازمة الجمهورية في عام ١٩٢٤ ، بيد انها لم تكن حشود « الاسلام والشاه » والتجمعات الراديكالية ذاتها التي وجدت في الفترة السابقة . فالوجوه القديمة تتظاهر اليوم تحت لواء جديد والوجوه الجديدة تهتف بشعارات حديثة .

قبل ثلاثة ايام من الموعد المحدد لتقديم الاكثرية الجمهورية في البرلمان لمشروع قانون تطالب فيه بالغاء الملكية ، احتشد حوالي ثمانية آلاف رجل من زعماء النقابات الملكيين في الجامع الرئيسي في البازار واستمعوا الى الائمة يمجدون سلطة العرش السماوية . اذ ان الحوادث الاخيرة في تركيا ـ حيث سبق الغاء السلطنة هناك زوال الخلافة والهجوم على العلماء ـ اقنعت الهيئة الدينية ان الملكية والاسلام يعيشان معا ويسقطان معا . وفي الجامع ، صاغ الحاضرون عريضة ووقعوها وانتخبت كل نقابة ممثلين عنها لتقديم الالتماس لدى البرلمان. وفي اليوم الثاني ، استطاع الوفد المفوض الحصول على اذن بالكلام في البرلمان ، ولكن العدائية التي استقبلوا بها والشائعات التي انتشرت بأن النواب قد اعتدوا جسديا على رئيس الوفد ، خلقت حالة هياج في البازار . وفي الصباح الذي قرأت فيه مذكرة الجمهوريين ، اقفلت

المتاجر والمشاغل وخرج موكب غاضب من البازار متوجها الى ساحة البرلمان وهو يهتف « نريد ان نبقى على ديـــن اجدادنا ، لا نريـد الجمهورية ، نحن اهل القرآن ، لا نريد الجمهورية » . اختـــرق المتظاهرون حواجز الشرطة وملاؤا الساحة حيث بقوا هادئين الى أن ضرب أحد ضباط الجيش بسوطه زعيما دينيا مؤيدا لقضية المحافظين كان قد لعب قبلا دورا هاما في الحركة الدستورية . حدث تراشـــق بالقذائف ، وتلقى رضا خان بعض اللكمات ، وتكسرت بعض الرؤوس والقي القبض على نحو الف متظاهر ، قبل ان يتدخل الناطق باســـم المجلس ويبلغ قواد الجيش ان للشعب الحق المشروع في التعبير عن آرائه في حرم ساحة البرلمان . وبعد ان اجتمع رضا خان مع كبـــار رجال الدين وزعماء البازار في احدى الغرف الخلفية ، اعلن ، انه لما رأى الامة كلها ترفض النظام الجمهوري قرر ان ينزل عند مشيئتهـــا وينسى الموضوع بأكمله . وبعد يومين ، بدأ رضا خان رحلة الحـــج ليثبت للراي العام بأنه مسلم صالح .

بينما كانت مظاهرة الملكيين الضخمة تخرب خطط الجمهوريـــين كان نحو ثلاثماية من « القمصان الحمر » يعدون لمظاهرة مضـــادة في الجهة الاخرى من ساحة البرلمان وهذا المهرجان الاخير كان برعايـــة « الحزب العصري » (Modern party) العلمانـــي « والحـــزب الاشتراكي » الاصلاحى كما دعم مجلس نقابة العمال اليساري والحزب الشيوعي هذا المهرجان . اما المشاركون ، فكان معظمهم من الاعضاء في نقابـــات العمال الحديثة التكوين ، من الاساتذة وعمـــال البرق والصيادلة وعمال المطابع والمخابز والحمامات ومصانع الاحذيـــة . وانضم الى هؤلاء موظفو الحكومة الذين اعطوا اجازة ذلك اليـــوم ليتسنى لهم « التعبير » عن تعاطفهم مع الجمهورية .

يمكن اعتبار مظاهرة الجمهوريين هذه أول حشد « حديث » فـــي تاريخ بلاد فارس لان الاحزاب السياسية هـــي التي نظمتـــه ولان المشاركين فيه كانوا من الطبقات الجديدة . وكون هذه المظاهرة كانت صغيرة جدا بالمقارنة مع ضخامة المظاهرة الملكية ، هو دلالة علـــى التخلف الاقتصادى والاجتماعي بالاضافة الى التخلف السياسي فـــي ايران سنة ١٩٢٤ .

تركيبة الحشود في المرحلة شبه الصناعية ١٩٤١ — ١٩٥٣

عاملان اثنان جعلا الحشود في ايران بعد حكم رضا شاه تختلف

عن حشود بلاد فارس ما قبل حكمه . احد هذين العاملين هو البنية الاجتماعية الجديدة التي قامت بفضل التحديث والتصنيع . والعامل الآخر هو انتشار الاشتراكية وهي الايديولوجية التي جذبت ، ليس فقط الطبقة العاملة الجديدة وشرائح من الانتلجنسيا الجديدة ، بل جذبت ايضا الاجراء التقليديين في البازار . وقد باعد الوعي الطبقي الجديد بين العامل المياوم والمعلم ، وبين الصبي المتدرب والحرفي ، وبين الموظف ورب العمل ، محطما نظام النقابات القديم الذي كان قد أظهر فعالية كبيرة خلال الثورة الدستورية والازمة الجمهورية عام ١٩٢٤ .

في الماضي كانت النقابات تتعرض لضغوط داخلية ولكنها كانت تتغلب عليها كما كان يجري مغادرة صفوفها الى المعارضة ولكن بالجملة ، من ثم فقد حافظت النقابات الفردية على الوحدة التقليدية بين المعلم والعمال المياومين . أما الآن ، فالعمال لم يعودوا يقبلون باتباع الخط السياسي لمعلميهم بل قاموا ، عوضا عن ذلك يطالبون باتحادات تمثل مصالحهم الطبقية (٥٦) وتحمي اجورهم خلال فترات التضخم اللولبي . وترك الكثيرون نقاباتهم واسسوا نقابات عمالية خاصة بهم . أما الذين بقوا داخل النقابات فلم يعودوا يأتمرون برغبات معلميهم . علاوة على ذلك ، فقد تحرر هؤلاء من كلام العلماء في البازار الذين ما فتئوا يرتبطون ارتباطا وثيقا بمجتمع العمل وراحوا يفتشون بالتالي عن ناطقين بلسانهم،اكثر راديكالية . نقل مراسل اجنبي أنه « لاول مرة ، يجري حث الجماهير على ان تفكر سياسيا وتتصرف سياسيا » . ويشير استطلاع اجري في طهران قبل انتخابات عام ١٩٤٩ للوقوف على الآراء في النقابات التقليدية بأمر رئيس الحكومة الى انه في قليل من هذه النقابات سيصوت ارباب العمل والموظفون للمرشحين ذاتهم ، أما في أكثرها ، فسيؤيد أرباب العمل المرشحين المحافظين والدينيين ، بينما سيفضل الموظفون المرشحين الراديكاليين العلمانيين الذين يرعاهم حزب توده (٥٨) .

يظهر التغير في المناخ السياسي بشكل ملفت للنظر عند مقارنة اضراب الجمهوريين عام ١٩٢٤ بالمهرجانات الهائلة التي نظمها حزب توده بحيث يبدو الاول ازاءها مدعاة للسخرية الى حد ما ، ولو أنه كان هناك تفاوت كبير بين حجميها ، الا ان هذا التفاوت لم يطل التركيبة الاجتماعية للحشود في كليهما ، اذ أن الاثنين كانا مؤلفين بغالبيتهما من الطبقة الوسطى الحديثة ومن الطبقة العاملة . وكان

يشارك في رعاية اجتماعات حزب توده المجلس المركزي للنقابات العمالية الموحدة الذي ادعى ، وهو في اوجه عام ١٩٤٥ ، ان عدد اعضائه ٤٠٠ ألف عضو (٥٩) . ومع ان هذا المجلس كان في الاغلب ، تنظيم الطبقة العاملة الحديثة ، اي عمال المصانع والمواصلات والبترول ، فقد انخرط فيه ايضا عدد كبير من التقليديين من البازار واصحاب المهن مثل اتحاد موظفي المكاتب ، واتحاد المدرسين ، وجمعية المحامين ونقابة المهندسين والتقنيين ، وجمعية الاطباء .

في اللقاء التذكاري سنة ١٩٤٦ عند قبر آراني Arani الذي حضره خمسة عشر الف نسمة ، تمثلت ثمان وعشرون منظمة مختلفة هي : احدى عشرة نقابة للمصانع ، اربع نقابات عمالية من البازار ، وخمس مجموعات طلابية ، وجمعية نسائية ، وسبعة فروع للحزب (٦٠) . واشترك مئة الف نسمة في المهرجان الاحتفالي بالعيد الخامس للحزب.وقد قدر احد المراسلين الصحفيين ان معظم الحشود ، او نحو ٧٠ بالمئة ، كانوا من الاجراء ، اما التلاميذ وموظفو المكاتب واهل الفكر فشكلوا ١٧ بالمئة من المشاركين (٦١) . وكان وجود العنصر البروليتاري أكثر وضوحا في المراكز الصناعية مثل عبادان واصفهان فقد كتب احد النواب الانكليز من حزب العمال،زار حقول النفط،ما يلي:

بانتشار الادبيات الشيوعية ، ابتدأ الجهلة ، اذا جازت التسمية، والعمال الفرس شبه الاميين يصغون الى هذه الايديولوجية ، وخلال أربع سنوات نظموا انفسهم سرا فيكيان شبيه بنقابة العمال،وضموا بين صفوفهم اناسا يدماون الفكر الشيوعي واتخذوهم زعماء لهم . وفي اول ايار (مايو) عام ١٩٤٦ ، خرج الاتحاد الى العلن ، وعرض في شوارع عبادان ٨١ الف رجل . ان مثل هذا العدد من المصممين على القيام بعمل جاد لهم قوة صناعية تؤخذ بالحسبان (٦٢) .

ظهرت جدية هؤلاء بوضوح عندما قام مئة وعشرون اتحادا في صناعة النفط وعشرون في البازار ، يستخدمون ما مجموعه خمسين الف عامل ، باعلان الاضراب العام . وقد تسببت محاولة شركة النفط لكسر الاضراب بواسطة مفسدي الاضراب في وقوع حوادث شغب عنيفة في عبادان والاهواز حيث قتل ١٩٦ عاملا (٦٣) . وقد ساد هذا الوضع ايضا في أصفهان ، (مانشيستر ايران) حيث كان حزب توده المحلي يستمد معظم قوته من الحركة النقابية في تسعة مصانع كبيرة للنسيج تستخدم احد عشر الف عامل ، وعلى نطاق أضيق ، من خمس

وثلاثين الف اجير في البازار (٦٤) . وفي تموز (يوليو) عام ١٩٤٣ ، اي بعد ثمانية عشر شهرا من ادخال نقابات العمال الى المدينة ، حققت الحركة العمالية الايرانية انتصارها الكبير الاول حين حصلت النقابات اليسارية على حق المؤسسة المغلقة (Closed Shop) وحق المساومة الجماعية كما حصلت على اعتراف اصحاب المعامل والحكومة بها (٦٥) . وكانت السنوات الثلاث التالية ، صراعا بين الادارة وللعمال » (٦٦) كما قال ضابط بريطاني كان متمركزا هناك . وعندما حاول اصحاب المصانع ان يؤسسوا « اتحادات صفراء » (Yellow Unions) خاصة بهم ، انتقل الصراع خارج ابواب المعامل الى الشارع ، وبالتالي جوبهت السلطات المحلية «بثورة عمال »(٦٧). ولم تضع الاتحادات يدها على المصانع واهراءاتها فحسب بل على المدينة كلها . وارتاعت الطبقات المالكة لانه قد حصل « انتهاك » لمفهوم الملكية الخاصة . (٦٨)

تنعكس التركيبة الاجتماعية للمشاركين في مهرجانات حزب توده ، في القائمة المنشورة لاسماء ١٧٦ متظاهرا التي القبض عليهم بعد اجتماعات انصار السلم في اصفهان وعبادان وشيراز خلال عامي١٩٥١ و ١٩٥٢ . فبين ثمان وعشرين موقوفا في أصفهان ، وجد ٢٣ عاملا؛ وصحفي وموظفمكتبوزعيمديني وطالب،وعامل عاطل عن العمل(٦٩). وبين ١١٠ سجناء في عبادان ، وجد ٣٥ طالبا من مدرسة صناعية و١٦ عاملا متدربا و١٥ عاملا و١٥ طالبا ثانويا و١٥ كاتبا و١٠أساتذة و ٣ مهندسين وتاجر واحد . (٧٠) . اما في شيراز فقد القي القبض على ١٠ تلاميذ و ٣ عمال و ٣ صحافيين و ٣ كتبة وحرفي وفنان ومزارع ، وعامل زراعي (٧١) .

شكلت الطبقة العاملة مع جزء من الطبقة الوسطى الحديثة قاعدة حزب توده . اما الطبقة الوسطى التقليدية في البازار وذاك القسم من الطبقة الوسطى الحديثة الذي اعتبر ان حزب توده متعاطف اكثر مما ينبغي مع الاتحاد السوفياتي ، فقد شكلت الكتلة الاساسية لحركة مصدق الوطنية .

المرة الاولى التي اثبت فيها مصدق أن له مناصرين في الشارع كانت في آذار (مارس) ١٩٤٥ ، بعد خطبة له في البرلمان اتهم فيها زملاءه « بالفساد » ووصف فيها المجلس بـ « وكر اللصوص » وفي اليوم التالي اضرب البازار كله تأييدا له بينما حملته تظاهرة من طلاب الحقوق من بيته الى ساحة البرلمان . وخلال محاولة الشرطة منعهم

من الدخول الى الساحة قتلت طالبا واحدا وجرحت ثلاثة آخرين (٧٢).

خلال ازمة النفط كانت ثورة مصدق داخل الجبهة الوطنية ترتكز الى قاعدتين : « حزب ايران » و « جمعية مجاهدي الاسلام » .

بدأ حزب ايران كاتحاد للمهندسين ، ومع انه تحول لاحقا الى حزب وطني ، الا انه استمر في أغلبيته كتنظيم لافراد الطبقة المتوسطة، أصحاب الرواتب مثل المهندسين والمحامين والاطباء والاساتذة وموظفي الدولة . وكان يحضر مهرجانات الحزب عدد جيد من طلاب الجامعات والتلاميذ الثانويين ومن العمال ذوي الياقات البيض . اما « جمعية مجاهدي الاسلام » فكانت عبارة عن جمعية مفككة مؤلفة من التجار ورجال الدين تزعمها ، آية الله الكاشاني،الشخصية الدينية البارزة . وتركزت نشاطات الكاشاني في المساجد ومدارس البازار التقليدية اما اتباعه فكان معظمهم من الفقهاء وأصحاب المتاجر والتجار واصحاب المشاغل . حتى أن بياناته الداعية الى التظاهرات كانت تصر على مناشدة « اصحاب الحوانيت والتجار ونقابات البازار » (٧٣) . وكان الكاشاني ، في الحقيقة ، وريث القادة الدستوريين الاوائل ولكن مع فارق مهم جدا هو انه خسر القواعد ،اي الاجراء في النظام الاقتصادي القديم .

الايام الثلاثة التي هزت العالم وارجعت مصدق الى السلطة كانت بفضل الجهود الموحدة لحزب توده والجبهة الوطنية اللذين جمعهما اعلان الحكومة الحرب على الشيوعية وعلى الفقهاء الذين يتدخلون في السياسة . اندلعت الثورة في طهران بمجرد وصول الانباء الى البازار ان مصدق قد اجبر على الاستقالة . فقاتلت مجموعة غاضبة من « التجار والنقابيين » قوات الامن وشقت طريقها الى ساحة البرلمان (٧٤) ، بينما قام نواب الجبهة الوطنية ، تشجعهم هذه الحماسة،بالدعوة الى الاضراب العام . وقد استجيبت دعوتهم في اليوم التالي عندما « لم يفتح حانوت واحد » (٧٥) في البازار . عند هذه النقطة ، انضم حزب توده الى الحركة ودعا مناصريه الى الاشتراك في الاضراب والتظاهر في الشوارع . وقد ظهرت فعالية هذا الاعلان بوضوح عندما شل الاقتصاد كله بينما احتل المتظاهرون معظم العاصمة . وكتب مفكر مناهض للشيوعية ما يلي : « يجب الاعتراف بان حزب توده لعب الدور الاهم في الانتفاضة الشعبية وبأن الجبهة الوطنية لعبت دورا ثانويا (٧٦)» . وبعد يوم كامل من سفك الدماء انتهى بمؤشرات حول انشقاق داخل الجيش ، استسلمت

الحكومة .

دارت اكثر المعارك ضراوة في اربع مناطق مختلفة.اولا : في البازار ، وخاصة في اسواق تجار الاجواخ والالبسة وبائعي الخضار وحرفيي المعادن ، وثانيا في مناطق الطبقة العمالية ، اي بالقرب من المعامل في الجزء الشرقي من المدينة وبجانب مشاغل تصليح خطوط سكة الحديد الموجودة قرب المحطة ، وثالثا في الطريق بين الجامعة ومبنى البرلمان حيث اعترض الجيش موكبا من الطلاب ، ورابعا عند ساحة البرلمان ، المركز التقليدي لاجتماعات المحتجين . اما الاحياء المعدمة في الاجزاء الجنوبية من المدينة ، فقد كانت هادئة هدوءا ذا مغزى . وتوفر لائحة باسماء المفقودين بنتيجة الشغب في طهران نموذجا لخلفية المتظاهرين الاجتماعية . فبين ٢٦ مفقودا ذكرت مهنهم، كان هناك ٦ من عمال المصانع و ٤ باعة متجولين ، و ٣ سائقين ، و ٣ طلاب ، و ٣ مهنيين متدربين ، وحرفيان وموظف مكتب وعامل مياوم ومزارع وصاحب مقهى وعامل عاطل عن العمل . (٧٧) .

وقد اتبعت الثورة في المقاطعات النهج ذاته . فقد ابتدأت بالاضرابات واعمال الشغب في البازارات في معظم المدن ثم تصاعدت عند اشتراك الطبقة العاملة في الاحتجاج الى اضرابات عامة وتظاهرات جماهيرية . في عبادان ، توقف عمال مصافي النفط عن العمل واحتشد جمع من اربعين الف نسمة خارج مكتب البرق . اما في اصفهان ، فقد قامت النقابات بمسيرات احتجاجية بينما منع عمال النسيج من الاشتراك في التظاهرة بواسطة المدافع الرشاشة التي نصبت حول اسوار مصانعهم (٧٨) .

اختلفت بيئة المرحلة شبه الصناعية بشكل جدير بالملاحظة عن بيئة مرحلة ما قبل التصنيع ، ليس فقط بسبب تضخم الحشود الراديكالية والعلمانية ، بل ايضا بسبب تقلص اعمال الشغب المؤيدة لـ « الاسلام والشاه ».واذا كان الجمهوريون قد ظهروا في عام ١٩٢٤ بمظهر يثير السخرية ، فالملكيون هم الذين اصبحوا يثيرون الشفقة . اذ كانت الشوارع خلال الفترة كلها ، خالية من اية تظاهرة ملكية رئيسية ، حتى كان يوم الاول من آذار (مارس) سنة ١٩٥٣ حين ظهر تعاطف علني مع الشاه في شوارع طهران . اذ انه في ذلك اليوم سرب البلاط اشاعة بأن الشاه ينوي الذهاب الى المنفى بسبب مصدق فكان ان تجمع حشد من ثلاثمئة ملكي خارج القصر يقودهم رجلا دين بارزان

ومكون من ضباط سابقين في الجيش ، وجنود يرتدون الثياب المدنية واعضاء من حزب سومكا الفاشي . (٧٩) وفي الاسبوع ذاته ، حصلت أعمال شغب صغيرة بالقرب من منزل رئيس الوزراء تأييدا للملكية . وقد قاد الاضطرابات بعض « التشاك كيشان » الذين خلفوا « اللوتيين » (٨٠) .

كانت التظاهرة الملكية التي قامت في اليوم الاخير من حكم مصدق اكثر اهمية ولكنها لم تكن بأي حال حشدا كبيرا . وقد قدر أحد المراقبين الاجانب الحشد بسخاء بثلاثة آلاف نسمة (٨١). فضلا عن أن هذا الحشد لم يلعب أي دور هام في الازمة بل كان مجرد تحويل صوتي للانتباه في الوقت الذي كان فيه ضباط الجيش ينفذون انقلابهم العسكري . ولقد شكلت تركيبة أعمال الشغب هذه مادة لكثير من الجدل السياسي . ففي نظر النظام الحالي مثل المتظاهرون « الشعب » بينما لم تر المعارضة فيها سوى حفنة من « قطاع الطرق» ورجعيي الفقهاء المأجورين من قبل وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية . والحقيقة هي اقرب الى الرواية الثانية منها الى الاولى ولكن مع اضافة مهمة ، وهي ان بعض الافراد من الاحياء المعدمة قد اشتركوا أيضا في الشغب،وليس يقينا ما اذا كان هؤلاء كوفئوا على حماستهم للشاه ، ولكنه كان جليا ان « افقر الفقراء » كانوا قليلي الارتباط بالحركة الراديكالية وانهم كانوا متضررين من غلاء المعيشة ومن البطالة المتزايدة وبالتالي كانوا ادوات طيعة بين يدي العلماء والتشاك ــ كيشان الملكيين . وبينما شن المتظاهرون طريقهم من المناطق المعدمة في الجنوب ، عبر البازار ، الى وسط العاصمة انضم اليهم الجنود ورجال الشرطة (٨٢) وحوالي الف وثمانماية فلاح كانوا قد زودوا ببنادق الجيش ونقلوا الى المدينة بالشاحنات العسكرية (٨٣).

بعض المقارنات مع الحشد الاوروبي

كثير من استنتاجات رودي حول فرنسا وانكلترا تنطبق ايضا على ايران . ففي المجتمعات الثلاثة هذه ، كان الحشد وسيلة ، وغالبا الوسيلة الوحيدة ، للتعبير عند الجماهير . فقبل الثورة الدستورية ، كانت التظاهرات أسلوب احتجاج معترفا به ومقبولا كوسيلة لكبح سلطات الملك الاعتباطية. في سنة ١٩٠٦ ، نالت الطبقات المالكة حق التصويت ، بينما بقيت الاكثرية الساحقة خارج النظام السياسي . وادخل حق الاقتراع للذكور عام ١٩١٩ ، الا انه بسبب العلاقات

الاقتصادية التي كانت موجودة انذاك بين اصحاب الاراضي والفلاحين، وبسبب تدخل الحكومة المتزايد في التصويت ، لم تضمن الانتخابات التمثيل الصحيح في البرلمان وبالتالي فبين عامي ١٩١٩ و ١٩٥٣ ، كان ٥٧ بالمئة من النواب من ملاكي الاراضي ، و ٢٠ بالمائة من كبار البيروقراطيين ، و ١٠ بالمائة من التجار الاغنياء وواحد بالمئة فقط من «الطبقات الدنيا» (٨٤). اما المستاؤون من الوضع ، فلم يكن لحق التصويت في نظرهم أي معنى في حين كان حق اعلان رأيهم في الشارع هو الاهم .

كانت تركيبة الحشود متشابهة في كل من المجتمعات الثلاثة . فالذين هاجموا الباستيل ، وقاموا بمشاغبات « غوردون » (Gordon Riots) وشاركوا في المهرجانات السياسية في ايران لم يكونوا رعاعا ولصوصا ومجرمين وقطاع طرق او محترفي البطالة ، بل كانوا اعضاء واعين وحتى « محترمين » في المجتمع . وقد تشكلت بنية الحشود في ايران في فترة ما قبل التصنيع بشكل أساسي من التجار واصحاب الحوانيت والحرفيين والصناع المتدربين والعمال المياومين ورجال الدين وطلاب المدارس التقليدية ، وخلال مرحلة تصنيع البلاد انضم الى الصفوف عمال المصانع والكتبة والمعلمون وطلاب الجامعات والتلاميذ الثانويون . وفي طهران ، كما في باريس ولندن ، لم تكن الاحياء المعدمة هي المراكز الاساسية للحركة الراديكالية بل كانت المراكز في المناطق التي وجدت فيها الصناعة والحرف والتجارة . في كل من اوروبا وايران ايضا ، تقلصت العناصر المحافظة والدينية مثل مشاغبي « الكنيسة والملك » ومتظاهري « الاسلام والشاه » ، مع تطور المجتمع كما حلت الراديكالية العلمانية مكان الولاء والارثوذكسية .

وفي ايران ، كما في أوروبا ، لعب ارتفاع الاسعار دور محرك دافع للناس نحو حركات سياسية لم تكن معنية بالقضايا الاقتصادية فحسب . فالاضطرابات العامة في أعوام ١٩٠٥ — ١٩١٣ و ١٩١٩ — ١٩٢١ حصلت في سنوات كانت فيها مواسم الحصاد سيئة وحصل فيها نقص في مادة الخبز ، اما في سنوات ١٩٤١ — ١٩٤٦ و ١٩٥١ — ١٩٥٣ فقد حصلت الاضطرابات في فترات التضخم الشديد . فقط أزمة سنة ١٩٢٤ كان سببها ايديولوجيا بكل معنى الكلمة .

بالاضافة الى ذلك ، لم تكن الحشود في البلدان الثلاثة متقلبة،

او غير عقلانية او متعطشة للدماء ، الا حين كانت تواجه الموت جوعا. وفي الاحيان التي انغمس فيها المشاغبون في التدمير ، كان عنفهم موجها ضد الممتلكات اكثر مما كان موجها «ضد الاشخاص». والدماء كانت تسفك غالبا من قبل السلطات ، ونادرا من قبل المتظاهرين.

هذه هي نقاط التشابه أما من ناحية الاختلاف فيمكن تحديد ثلاث نقاط : اولا ، اندلعت الاضطرابات العامة في ايران في المدن فحسب، اما في أوروبا فقد حصلت مرارا في القرى بالاضافة الى المدن . ثانيا ،كان الحشد الايراني اكثر نجاحا من نظيريه الفرنسي والانكليزي . وثالثا ، حدث مع تطور الاقتصاد في اوروبا انتقال من أعمال الشغب الى الاضرابات والتظاهرات المنظمة والمهرجانات ، اما في ايران فلم يحصل مثل هذا التغيير ، فالاضرابات العامة والاجتماعات الشعبية والاحتجاجات المنظمة كانت سمات الاقتصاد الايراني في فترة ما قبل التصنيع كما كانت سمات الاقتصاد الايراني في المجتمع شبه الصناعي.

اما هدوء الريف فيمكن تفسيره بسلبية الفلاحين . فخلال الاضطرابات العديدة في المدن خلال سنوات ١٩٠٦ ـــ ١٩١٣ العنيفة ، سجلت ثلاث حوادث فقط للتحركات الفلاحية . فعلى مقربة من « رشت » ، رفض الفلاحون دفع الضرائب والتجاؤوا الى جامع المدينة (٨٥). اما قرب «تاليش»فقد هاجم الفلاحون منزل الحاكم(٨٦)، كما استولوا على بلدة « يزد » (٨٧) ، في عمل جماعي احتجاجا على الضرائب المرتفعة . وفي السنوات الاثنتي عشرة بين ١٩٤١ و ١٩٥٣؛ حصلت أربع حوادث فقط من الهيجان الريفي ذات حجم مهم . كما قام الفلاحون ، سنة ١٩٤١ ، بعد هرب السلطات من امام الجيش الروسي المتقدم ، بمصادرة الطحين الذي كان وضع جانبا لصالح الملاكين (٨٨) .

وفي سنة ١٩٤٥ ، وعلى مقربة من تبريز ، أعدمت عصابة من الفلاحين احد الاقطاعيين (٨٩) .

وفي آب (اغسطس) عام ١٩٤٦،كانت هناك مخاوف كبيرة «من اندلاع الحرب بين الفلاحين واسيادهم » في المناطق جنوبي طهران (٩٠). وفي كردستان ، قاتل قرويون مسلمون ملاكيهم في الاعوام ١٩٥٢ ـــ ١٩٥٣ (٩١) . ولكن هذه الحوادث كانت نادرة ، وبقي الفلاح على لامبالاته بل وانحصرت نشاطاته السياسية في الزحف الى اقلام الاقتراع لانتخاب الاقطاب المحليين . واذا كان علماء السياسة والمؤرخون قد فشلوا في تفسير ظاهرة السلبية الفلاحية ،فقد يستطيع السيكولوجيون

الاجتماعيون ايجاد الجواب على هذا السؤال ..

راى « رودي » أن عاملين اثنين يقرران ما اذا كان الحشد سينجح أم سيفشل ، هما موقف وقوة القوات المسلحة وسياسة الطبقة الحاكمة . في ايران ، عمل الحشد ، غالبا ، في ظروف مرضية. فحتى مجيء رضا شاه ، كان هناك عدد قليل غير موثوق به من الجنود تحت امرة الحكومة . وفي ازمة تموز (يوليو) عام ١٩٠٦ ، عندما قام ١٤ الف نسمة باعتصامهم ، اطلق قائد كتائب طهران «الاعلان المصيري » بأن جنوده لن يحاربوا المحتجين (٩٢) .وقد لاحظ احد المراقبين بانه « ماذا يستطيع الشاه ان يفعل وجنوده عزل من السلاح ، جائعون ، ثيابهم رثة ولا يتقاضون اية رواتب امام التهديد بالاضراب العام او بالشغب » . (٩٣) وبعد مجيء رضا شاه . اصبح الجنود افضل تسليحا وازدادت رواتبهم . ولكن الجيش لم يكن مستعدا لاطاعة الاوامر بصورة مستمرة . فخلال اضراب صناعة النفط العام سنة ١٩٥١ رفض الجنود المحليون فتح النار على المضربين (٩٤) ، وفي أحداث تموز (يوليو) ١٩٥٢ المثيرة ، حصل شقاق في صفوف الجيش . فضلا عن ذلك ، كان المتظاهرون يتلقون الدعم السياسي . فخلال الثورة الدستورية ، وهبهم البريطانيون ، وحتى بعض رجال البلاط ، الحماية ، كما توسط لهم الناطق باسم مجلس النواب سنة ١٩٢٤ . وخلال الفترة بين عامي ١٩٤١و١٩٥٣، كان للسياسيين مصالح كامنة في الحفاظ على حرية الشارع لانهم ايقنوا ان قمع الحشود سوف يؤدي الى اعادة تثبيت استبدادية البلاط. وفي الوقت الذي غابت فيه هذه العوامل ، كان الحشد الايراني غير ذي فعالية تماما مثل نظيريه الاوروبيين .

ان الشغب هو نتاج العفوية ، أما الاضرابات والمهرجانات والتظاهرات فهي نتيجة تعمد تنظيمي . ففي أوروبا ، وخلال الفترة الطويلة الفاصلة بين انحلال النقابات التقليدية وظهور النقابات العمالية الحديثة ، كان هناك أدوات قليلة صالحة للاستخدام في تمثيل المصالح الشعبية وتعبئة العمال ليصبحوا مجموعات تضغط بفعالية .لذلك ، كان الجمهور يعبر عن استيائه من خلال انفجار اعمال شغب غير منظمة . ونادرا ما كان يستخدم الاحتجاج المنظم . أما في ايران ، فان الفترة الانتقالية بين اندثار النقابات وولادة اتحادات العمال لم تستغرق قرونا ، فهي لم تزد عن خمسة عشر عاما فحسب.

ونتيجة لهذا ، فان الحشود في ايران نادرا ما كانت غوغائية ، اكثر مما كانت عليه في أوروبا ، فقد اتخذت عادة شكل تظاهـــرة أو مهرجان.

هوامش

1- G. Rudé, The Crowd in History, 1730-1848 (New York, 1964), p. 3.
2- Karl Wittfogel, Oriental Despotism (New Haven, 1957).
3- For the Tobaco Crisis see N. Keddie, Religion and Rebelion in Iran (London, 1966).
4- Information on the crowds during the Constitutional Revolution and the Civil War has been obtained from: A. Kasravi, A History of the Iranian Constitution (in Farsi) (Tehran, Chap-i Amir Kabir, 1961); A. Kasravi, An Eighteen-Year History of Azerbaijan (in Farsi) (Tehran, Chap-i Amir Kabir, 1961) Y. Doulatabadi, An Autobiography (in Farsi) (Tehran: Cha p-i Chahar, 1961); vols. I and II; M. Malekzadeh, A History of the Constitutional Revolution in Iran (in Farsi) (Tehran, Ketab-i Khaneh-i Suqrat, 1962), Vols. II and III; the newspaper Hab-lu'l Matin; M. Khurasani, The Genesis of the Constitution in Iran (in Farsi) (Meshed, Chapkhaneh-i Khurasan, 1953); M. Taherzadeh, The Revolt in Azerbaijan during the Constitutional Revolution (in Farsi) (Tehran, Sherat-i Eqbal); British Government, Correspondence Respective the Affairs of Persia, December 1906 — October 1913 (London, H.M. Stationery Office, May 1911-April 1914).
5- Kasravi, A History of the Iranian Constitution, p. 336.
6- Information on the crowds during the struggle against the Imperial Powers has been obtained from: the newspaper Kaveh; British Governmen, op., cit.,; Documents on British Foreign Policy, 1919-39, Ist. ser. Chap-i Rangin, 1943).
7- British Government, op. cit., Vol. III, No. 2, p. 134.
8- Documents on British Foreign Policy, XIII, p. 586.
9- Information on the crowds during the Republican Crisis have been obtained from: H. Makki, A Twenty Year History of Iran (in Farsi) (Tehran, Chapkhaneh-i Majlis, 1945), Vol. II, pp. 319-49; H. Mustaufi, An account of My Life (in Farsi) (Tehran, Ketab-i Furush-i 'Alami, 1947), Vol III, part 2, 410-30; Doulatabadi, op. cit., Vol. IV; M. Hedayat, My Memoirs (in Farsi) (Tehran, Ketab Furush-i Zavar), p. 363.
10- Information on the crowds of the period from 1941 until 1953 has been obtained from newspapers of diverse political views. Those most relied upon have been: Mardom Zafar, Rahbar, Ettelaat, Keyhan,

Jebeh, Democrati-Iran, Ra'ad Emruz, Emruz va Farda.

11- Mardom, 22 October 1943.

12- N. Fatemi, Oil Diplomacy (New York, 1954), p. 216.

13- U.S., Dept. of State, Papers Relating to the Foreing Relations of the U.S. (Washington, D.C. : U.S. Government Printing Office), Vol. V, 1944, p. 461).

14- The New York Times, 17 Mar. 1945.

15- Tofeg, quoted in Rahbar, 6 Aug. 1945.

16- Mardom, 2 Feb. 1946.

17- Zafar, 3 May 1946.

18- Ibid., and The Times (London), 30 July 1946.

19- Rahbar, 8 Oct. 1946.

20- Ettelaat-i Haftegi, 20 June 1951.

21- M. Fateh, Fifty Years of Iranian Oil (in Paris) (Tehran, Sherkat-i Saham-i Char, 1956), p. 58 p.

22- Ibid., p. 653.

23- The New York Times, 23 July 1953.

24- Ibid., 19 Aug. 1953.

25- Information on the royalist crowd of 19 August 1953 has been obtained mostly from: R. Cottam, Nationalism in Iran (Pittsburg University Press, 1964), pp. 38, 155, 226; The Central Committee of the Tudeh Party, Concerning 19 August (in Farsi) (1953); Aresh, The Revolution for the Monarchy (in Farsi) (Tehran, Chapkhaneh-i Majlis, 1954).

26- M. Hussein-Khan, The Geography of Isfahan (in Farsi) (Tehran, Tehran University Press, 1963).

27- Iranian Government, Parliamentary Debates, The Sixth Majlis, The Fortieth Meeting, II, December 1926.

28- Hablu'l Matin, 19 June 1905.

29- Quoted in Kasravi, op. cit., The History of the Iranian Constitution, p. 110.

30- British Government, op. cit., I, No. I, p. 4.

31- The Electoral Law of 1906, E. Browne, The Persian Revolution of 1905-9 (Cambridge University Press, 1910), pp. 354-61.

32- Z. Shaje'ehi, The Members of Parliament (in Farsi) (Tehran, Tehran University Press, 1965), p. 176.

33- British Government, op. cit., I No. 2, p. 46.

34- Ibid., I, No. I, p. 27.

35- Taherzadeh, op. cit., VI, p. 47.

36- Information has been obtained from: Kasravi, An Eighteen - Year History of Azerbaijan; Taherzadeh, op. cit.; Malekzadeh, op., cit., Vol. VII.

(٣٧) لوتيون Lutis وتعني في الفارسية رجالا اشداء اقوياء البنية مـن (بيوت القوة) التي انتشرت في مناطق مختلفة . كثير من هؤلاء كانوا يعملون كباعـة متجولين ، نيبا امتلك بعضهم حوانيت خاصة . معظمهم كان على استعداد لوضع قواه الجسدية في خدمة مريستأجرها طالما لم تتعارض المهمة المكلف بها وايمانهم الدينـي القوي . قاتل اللوتيون في الحرب الاهلية مع الفريقين .

(٣٨) يقول الكاتب : ابان الثورة أيدت الطبقة العليا والطبقة الدنيا الحكـم المطلق ولم يدافع عن الدستور سوى الطبقة المتوسطة .

M.A. Bahar, A Short History of Political Parties (in Farsi).

39- A proclamation of the conservative ulama published in Karavi, A History of the Iranian Constitution. p. 415

40- Ibid., p. 488; Taherzadeh, op. cit., IV, p. 59; Maekzadeh, op. cit., II, p. 93.
(London, 1963), Vols. IV and XIII; M. Shuster, The Strangling of Persia (New York, 1920).

41- Taherzadeh, op. cit., IV, p. 59.

42- Kasravi, A History of the Iranian Constitution, p. 226.

43- Ibid., p. 386.

44- Hablu'l Matin, 23 Sept. 1907.

45- Great Britain, op. cit., I, No. 2, p. 97.

46- Kasravi, A History of the Iranian Constitution, p. 355.

47- Great Britain, op. cit., II, 2, p. 65.

48- The Electoral Law of 1906, Browne, op., cit., p. 356.

49- Hablu'l Matin, 12 Nov. 1906.

50- Khurasani, op. cit., p. 50.

5- Great Britain, op. cit., II, No. 4, p. 88.

52- Ibid, ii, No. 3, p. 117.

53- Shuster, op. cit., p. 198.

54- Ibid., p. 184.

55- «Demonstrations and Meetings in Iran» (in Farsi), Ettelaat-i Haftegi, 26 April 1951.

56- A quotation from a trade union pamphlet, Rahbar, 31 Jan. 1944.

57- The New York Times, 17 Mar. 1945.

58- «An Electoral Survey» (in Farsi), Khandani-ha, Vol, XVI, No. 53, 23 Jan. 1966.

59- World Federation of Trade Unions, «Report on Iran», Report on the Activities of the W.F.T.U. (1949), pp. 105-170.
60- Mardom, 1 Feb. 1946.
61- Rahbar, 6 Oct. 1946.
62- J. Jones, «My Visit to the Persian Oil Fields», Royal Central Asian Journal (January, 1947), Vol. XXXIV, part 1, p. 60.
63- Zafar, 15 June 1946.
64- Rahbar, 4 Mar. 1945.
65- Rahbar, 18 June 1944.
66- Major E. Sykes, «Isfahan», Journal of the Central Asian Society, XXXIII (January-October 1946), p. 312.
67- Fatemi, op. cit., p. 216.
68- A quotation from Sheif-Pour Fatemi, a local magnate, Ra'ad Emruz, 2 May 1944.
69- Besuyeh-i Ayandeh, 15 Oct. 1951.
70- Besuyeh-i Ayandeh, 2 Mar. 1952.
71- Besuyeh-i Ayandeh, 21 Apr. 1952.
72- H. Key-Ostovan, The Politics o f Negative Eqilibrium in the Fourteenth Parliament (in Farsi) (Tehran, Taban Press, 1946), i, p. 290.
73- Ettelaat, 10 July 1952.
74- Ettelaat, 19 July 1952.
75- Ettelaat, 20 July 1952.
76- A. Arsanjani, The Thirtieth of Tir (in Farsi) (Tehran, Chapkhanehi Atesh, 1956), p. 4.
77- Ettelaat, 30 July 1952.
78- Bakhtar-i Emruz, 20 July 1952.
79- Ettellaat-i Haftegi, 5 Mar. 1953; Besuyeh-i Ayandeh, 5 Mar. 1953.
80- Ibid.
81- S. Margold, «The Streets of Tehran», The Reporter, 10 Nov. 1953, p. 15.
82- Ibid.
83- Ettelaat-i Haftegi, 28 Aug. 1953.
84- Shaje'ehi, op. cit., p. 177.
85- Great Brita'n, op. cit., I, p. 26.
86- Ibid., p. 43.
87- Ibid, p. 144.
88- J. Moose, «Memorandum on Azerbaijan» (unpublished report sent to the State Department in Oct. 1941, filed in the State Department,

No. 740.0011 EW).

89- H. Faboud, L'evolution Politique de l'Iran (Lausane, 1957), p. 206.

90- Khandani-ha, 13 Sept. 1946.

91- Ettelaat-i Haftegi, 19 Sept. 1952.

92- British Government, op. cit., I, No. 1, p. 4.

93- Browne, op. cit., p. 137.

94- Ettelaat-i Haftegi, 19 Apr. 1951.

الجزء الرابع

■ الاسلحة والشاه :

صعود و سقوط أستراتيجية التوكيل

مايكل كلير

■ ايران :

الأزمة الجديدة فى الهيمنة الاميركية

بول سويزي وهاري ماجدوف

الاسلحة والشاه : صعود و سقوط استراتيجية التوكيل

مايكل كلير

في الفترة بين عامي ١٩٧٠ و ١٩٧٨ ، اوصى شاه ايران على اسلحة وذخيرة ومعدات بقيمة عشرين بليون دولار من الولايات المتحدة ، في ما وصفه احد اعضاء مجلس الكونغرس بأنه اسرع عملية بناء لقوة عسكرية تحت ظروف زمن السلم لاية دولة في تاريخ العالم · وكان القصد من هذا التكديس غير المعتاد للكفاءات الحربية هو تحويل ايران الى قوة عسكرية كبرى ، وبذلك تحقيق طموح الشاه في اعادة بناء « امبراطورية فارس العظمى الغابرة » · وكان الزعماء الامريكيون ، الذين رعوا وغذوا تطلعات الشاه الامبراطورية ، يأملون بدورهم ان تمكن الاسلحة الامريكية ايران من تادية دور « حارس » النفط الذي يتزود به الغرب من منطقة الخليج الفارسي ★ · وكان من المتوقع ان تجترح مبيعات الاسلحة الامريكية معجزات اخرى : ازالة عجز الميزان التجاري الامريكي ، تامين المعونة المالية لتطوير الاسلحة الامريكية ، تامين نسبة توظيف عالية في الصناعة الجوية ، وزيادة سرعة حركة « التحديث » في المجتمع الايراني· ولم يسبق لصفقات الاسلحة ان لعبت دورا مركزيا في السياسة الامريكية الخارجية كما فعلت في ايران · ولكن مهما كانت توقعات صانعي السياسة الامريكية ، لم تتمكن كل هذه الاسلحة من انقاذ الشاه عندما صمم اتباعه على الغاء النظام الملكي · وفي يوم ١٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩ اجبر الشاه محمد رضا بهلوي ، « ملك الملوك » و « ضوء الآريين » على مغادرة البلاد الى الابد ملتجئا الى الغرب · ورغم ان عوامل كثيرة ولا شك ساهمت في سقوط الشاه ، فلربما اكتشفنا ان اخطرها كان برنامج التزود بالاسلحة الاميركية السيء الترتيب ·

وسنقوم في هذه المقالة بدراسة طبيعة وتاريخ هذا البرنامج، واظهار

● مايكل كلير : Michael T. Klare ، استاذ زمالة في واشنطن امستردام في معهد Transnational Institute - Institute of Race Relations.

وهو مدير مشروع « العسكريتارية ونزع السلاح » في «مؤسسة دراسات السياسة» في واشنطن العاصمة ، · وقد اعد هذا البحث في ربيع ١٩٧٩ ·

★ كما ورد التعبير في النص الاصلي (المحرر)

كيف ادىٰ الى تآكل ، وفي النهاية ، الى دمار حكم آل بهلوي ، ومعه السياسة الاميركية القائمة علىتحويل ايران الى «شرطي» الخليج الفارسي ولكن ، لان علاقات التسلح الامريكية ـ الايرانية كانت واسعة ومعقدة ، يجدر بنا التعريف ببعض ملامحها الاساسية قبل القاء نظرة تاريخية شاملة عليها ٠

١ ـ **الحجم** : منذ ١٩٧١ كانت ايران اكبر زبون عالمي للاسلحة الامريكية فشكلت طلباتها ما مجموعه ٢٠ بليون دولار من مبيعات الاسلحة الخارجية★ او ٢٥ بالمئة من مجموع مبيعات الاسلحة الامريكيةبين عامي ١٩٧٠ و ١٩٧٨ ٠ ولكن بما ان تسليم الكثير من هذه الاسلحة لم يكن يفترض ان يتم قبل مطلع الثمانينات ، فقد بلغ مجموع **الشحنات** الفعلية الى ايران عشرة بلايين دولار فقط عندما سقط النظام في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩ ٠ (قامت حكومة مهدي بازركان الجديدة بالغاء جميع الطلبات الباقية طبعا) ٠

٢ ـ **التطور** : رغم ان واشنطن في الاصل لم تشجع بيع اسلحة متطورة تكنولوجيا لايران ، فقد وافق الرئيس نيكسون عام ١٩٧٢ على بيع الشاه اقوى انواع الذخيرة الامريكية واكثرها تطورا ٠ واثر ذلك قام الشاه بطلب مجموعة واسعة من الاسلحة فوق ـ المتطورة ، بما في ذلك الطائرة المقاتلة المتفوقة جويا ف ـ ١٤ ذات الاجنحة المتحركة ومدمرة الصواريخ طراز دي٠ دي٠ ٩٦٣ ـ سبراونس ، وطائرة الاستطلاع المجهزة برادار من طراز بوينغ اي ـ ٣ آي اواكس ٠

٣ ـ **نقل التكنولوجيا** : لم تكتسب ايران كميات كبيرة من الاسلحة الامريكية فقط ، بل اكتسبت ايضا التكنولوجيا التي تمكنها من **انتاج** هذه الاسلحة٠ فضمن برنامج طموحتبلغ تكاليفه بليون دولار وتشترك فيه عدة مصانع اسلحة امريكية ، كان الشاه عازما على خلق « مجمع عسكري ـ صناعي » حديث في اواخر الثمانينات ٠ (وقد قام نظام بازركان بالغاء هذه المشاريع ايضا) ٠

٤ ـ **المساعدة التقنية العسكرية** : اضطرت ايران لاستخدام عشرات الآلاف من التقنيين الاجانب ـ او « المرتزقة ذوي الياقات البيض »ـ لاداء وظائف الصيانة الضرورية ، لان الشاه كان يستورد اسلحة متطورة

★ مبيعات الاسلحة الخارجية هو الاصطلاح الذي تستعمله وزارة الخارجية لوصف مبيعات حكومة الولايات المتحدة لحكومات اخرى ٠ اما المبيعات المباشرة من مصانع الاسلحة الاميركية للحكومات الاجنبية فتعرف باسم « مبيعات تجارية »٠

تكنولوجيا بنسبة اسرع من ان يتمكن المدربون الامريكيون من تدريب الايرانيين على صيانتها وتشغيلها · وفي عام ١٩٧٨ كان هناك ما يقدر بعشرة آلاف مستخدم امريكي مساعد يعمل في المشاريع المتعلقة بالاسلحة في ايران ·

٥ ـ صادرات القمع : بالاضافة الى جميع المعدات العسكرية التقليدية التي زودت بها ايران ، قامت واشنطن ايضا بتزويد ايران بكميات كبيرة من اسلحة الشرطة والمعدات شبه العسكرية (الغاز المسيل للدموع ، عصي المظاهرات ، الاسلحة الصغيرة الخ ··) كما قامت الولايات المتحدة ايضا بتدريب ضباط الشرطة الايرانية ـ بما في ذلك ضباط السافاك ، الشرطة السرية الشهيرة ـ وتقديم الاستشارات للجيش في العمليات المضادة للتمرد ·

هذه بعض الملامح المميزة لعلاقات التسلح الامريكية ـ الايرانية · وهي تساعد على اظهار مدى اتساع وتعقيد عمليات التموين الامريكية · ولكن بالاضافة الى هذه الصفقات العلنية نسبيا ، كانت هناك مجموعة من الابعاد الخفية لبرنامج التسلح ، لعبت دورا في العلاقات الايرانية الامريكية يماثل في اهميته العمليات العلنية ، ان لم يكن يزيد عليها · وكانت هذه العمليات تشمل الرشوة والفساد وسوء الادارة الحكومية والمؤامرات السياسية ، وكما سنوضح فيما بعد ، عملت هذه النشاطات السرية الى جانب النتائج غير المقصودة وغير المرغوبة للصفقات العلنية ، على اضعاف موقف الشاه · ولكن قبل وصف هذه العملية سنستعرض باختصار تاريخ علاقات التسلح الامريكية ـ الايرانية ·

اصول برنامج الاسلحة الامريكية

في عام ١٩٤١ احتلت القوات البريطانية والروسية ايران ، واطاحت بنظام رضا خان المؤيد لالمانيا ـ ومؤسس سلالة بهلوي ووالد الشاه (او الملك) الحالي · وبعد ذلك بسنتين ارسلت الولايات المتحدة بعثة تدريب صغيرة لمساعدة الشاه الجديد ، محمد رضا بهلوي ، في جهوده الهادفة الى اعادة بناء الجيش الايراني · ورغم ان واشنطن لم تقدم الا كميات قليلة من العتاد والتدريب خلال سنوات الحرب ، عملت هذه البعثة كأساس لتورط امريكي آخذ في الاتساع باستمرار في الشؤون الايرانية العسكرية والسياسية ·

واحتلت ايران منزلة هامة في بداية الحرب الباردة ، خاصةعندما ارسل الاتحاد السوفياتي قواته الى الجمهوريات الانفصالية التي اقامها رجال القبائل الكردية والاذربيجانية في المناطق الايرانية الحدودية ·

ورغم ان الضغط الذي مارسته الولايات المتحدة نجح في ارغام الروس على الانسحاب ، مما مكن الشاه من اعادة تثبيت السيطرة الايرانية على المناطق المتنازع عليها ، الا ان الرئيس ترومان كان يعتبر ايران (الى جانب اليونان وتركيا) ، « خط الدفاع الاول » المحفوف بالمخاطر في وجه التغلغل السوفياتي في الشرق الاوسط · وبذلك صعدت واشنطن ، ضمن مبدا ترومان ، من مساعداتها للجيش الايراني ، وشجعت طهران على الانضمام الى قوى اخرى من « المجموعة الشمالية » لتشكيل حلف عسكري مضاد للسوفيات ·

ورغم ان الدعم العسكري الامريكي لايران كان مبنيا اساسا على مبدا « الاحتواء » الذي كان سائدا عندها ، الا انه خدم هدفا آخر ايضا هو تقوية قاعدة دعم الشاه في الجيش · ففي الوقت الذي كانت فيه عوائد الحكومة المركزية من انتاج النفط ـ الذي كان يسيطر عليه آنذاك اتحاد مالي (كونسورتيوم) من شركات بريطانية وامريكية ـ لا تزال ضئيلة للغاية ، كانت المساعدة العسكرية الامريكية تشكل مصدرا هاما للاسلحة والمعدات للجيش الايراني الذي كان سيىء التجهيز نسبيا · ولان الشاه ، باعتباره القائد الاعلى للقوات المسلحة ، تولى توزيع المساعدات الامريكية ، فقد تمكن من تجميع نخبة من الضباط الموالين في قلب الجيش ، وكانت ترقيتهم ترسم بواسطة برنامج المساعدات · ولذلك كان للمساعدات الامريكية منذ البداية تأثير مباشر ، وغالبا قوي ، على النسيج السياسي الداخلي في ايران ·

وظهر حزم التورط الامريكي في الشؤون العسكرية الايرانية للمرة الاولى عام ١٩٥٣ ، عندما رتبت وكالة الاستخبارات المركزية انقلابا ضد رئيس الوزراء محمد مصدق · وكان مصدق ، الذي تولى منصبه عام ١٩٥١ ، في الوقت الذي كان فيه «المجلس» ، او البرلمان الايراني ، لا يزال يحتفظ ببعض الاستقلال عن الاسرة الحاكمة ، قد كسب غضب واشنطن عندما امم النفط الايراني واتبع سياسة خارجية مستقلة · واوكلت مهمة الاطاحة بمصدق الى كيرمت روزفلت ، الذي دخل ايران سرا وجمع « فريق انقلاب » مكون من ضباط في الشرطة والجيش موالين للشاه · وفي يوم ١٩ اب (اغسطس) سنة ١٩٥٣ نزلت هذه العناصر المؤيدة للشاه الى الشوارع وسحقت القوى المدنية الموالية لمصدق ، الذي قدم استقالته بعد ذلك · ورغم ان هذه الحادثة وصفت عندها بأنها ثورة شعبية ، الا ان رئيس بعثة المساعدات الامريكية قال بافتخار ان « البنادق التي كانت بأيديهم ، والشاحنات التي استقلوها ، والسيارات المصفحة التي عبروا

الشوارع فيها ، والاتصالات اللاسلكية التي سمحت لهم بتولي السيطرة ، كلها كانت قد اتت عبر برنامج مساعدات الدفاع العسكرية » ٠

وعلى اثر ذلك الانقلاب ، اصبحت علاقات الولايات المتحدة مع نظام بهلوي اكثر اتساعا ٠ فقد تضاعفت المساعدات العسكرية بنسبة كبيرة ، ومرة اخرى استخدم الشاه هذه الاموال لتوسيع القاعدة الموالية له في صفوف الجيش ٠ اما المؤسسات الاخرى ـ المجلس، رجال الدين، الادارة المدنية، الخ ـ فهي اما تعرضت للحل او غدت عاجزة ٠ وكانت اية معارضة للحكم الامبراطوري تقمع فورا بواسطة الجيش او الشرطة او قوات الدرك ٠ وبينما كان المسؤولون الامريكيون يشددون على خطر هجوم سوفياتي في بياناتهم الرسمية ، كانوا مستمرين في مساعدتهم للشاه في جهوده لاسكات حركات المعارضة الداخلية ، وفي عام ١٩٧٥ تلقت وكالة الاستخبارات المركزية اوامر بالمساعدة على انشاء « السافاك » ، الشرطة السرية سيئة الذكر ٠ وبصورة اجمالية قدمت واشنطن ما قيمته ٩٠٠ مليون دولار من الاسلحة والمعدات الى الجيش الايراني وقوات الشرطة في الفترة التي تلت ظهور مصدق ـ وهي كمية هائلة في فترة عوائد النفط المنخفضة تلك ٠

نشوء استراتيجية التوكيل

طوال فترة الحرب الباردة ، كانت ايران تعتبر حليفا هاما للولايات المتحدة ، لكنها لا تزيد اهمية على دول الحاميات الاخرى التي كان نظام التحالف الامريكي يرتكز عليها ، والتي تمتد من اليونان الى باكستان ، ومن هناك حول اسيا الى كوريا ٠ ولم تأت نقطة التحول الحقيقية في العلاقات الامريكية الايرانية حتى كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٨ ، عندما اعلن رئيس الوزراء البريطاني انذاك هارولد ويلسون ، ان بريطانيا ستنهي وجودها العسكري في منطقة الخليج الفارسي عند نهاية عام ١٩٧١ ٠ ورغم ان الوجود البريطاني كان قد اصبح عندها متواضعا نسبيا ، الا ان اعلان ويلسون اثار قلق واشنطن ، لان مخططي الاستراتيجية الامريكية كانوا يعتمدون دائما على لندن لتأدية دور الحارس الرسمي للمصالح الغربية في منطقة الخليج الحيوية ٠ ومع خروج لندن الآن من الصورة ، وعدم وجود خليفة ظاهر للعب دور « الحارس » ، اضطرت واشنطن للمرة الاولى لبناء استراتيجية للخليج الفارسي ٠

وقد ادلى ويلسون ببيانه هذا خلال الايام الاخيرة لادارة جونسون ، وبذلك ألقيت على عاتق ادارة ريتشارد نيكسون الجديدة مهمة القيام بالجهود الضرورية لصياغة سياسة معينة ٠ ولتسهيل المهمة امر نيكسون

مجلس الامن القومي ، الذيكان يرأسه آنذاك هنري كيسنجر ، باستكشاف مختلف الخيارات السياسية المفتوحة امـام الولايـات المتحـدة والتوصية باطار سياسي اساسي ٠ ورغم ان كيسنجر كان منشغلا بالنزاع في فيتنام، الا انه اعطى هذا المشروع اولوية عليـا كما يبدو ، وقدمت الوثيقـة التي نتجت عن جهوده ـ المذكرة الدراسية لمجلس الامن القومي رقم ٦٦ ـ الى البيت الابيض يـوم ١٢ تموز (يوليـو) سنة ١٩٦٩ ٠ وبعـد مراجعـة التوصيات التي احتوتها المذكرة رقم ٦٦ ، اصدر الرئيس نيكسون مذكرة قرار الامن القومي رقم ٩٢ ، لترسم سياسة الولايات المتحدة في المنطقة ٠

ورغم ان المذكرة الدراسية لمجلس الامن القومي رقم ٦٦ ومذكـــرة قرار الامن القومي رقم ٩٢ اعطيتا تصنيفا سريا للغاية ولم ينشر فحواهما اطلاقـا★ ، الا ان بامكاننـا تجميـع استنتاجاتهما من مختلف المصـادر الرسمية ٠ ان الدراسة التي اصدرها مركز جامعة جورجتاون للدراسات الاستراتيجية والدولية عام ١٩٦٩ بعنوان : **الخليج : معـاني الانسحـاب البريطاني** ، هي ذات اهمية خاصة لعملية التجميـع هـذه ٠ ان الدراسة المبنية على تحليلات عدة خبراء بارزين مختصين بشؤون الشرق الاوسط ، وهي تقترب كثيرا مـن تفكير الادارة في ذلـك الوقت ، تتيـح لنـا ، الى جانب تصريحات ادلى بها شهود حكوميون امام عدة لجان في الكونغرس، ان نستنتج مـا هو منطق مجلس الامن القومي بنسبة كبيرة من الدقة ٠

اولا ، كان على مجلس الامن القومي ان يحدد الخيارات السياسية الاساسية التي تواجه واشنطن ٠ ورغم انه لا شك ان مجموعة كبيرة من التعديلات والتركيبات وضعت قيد البحث ، الا ان خيارات امريكا اقتصرت في النهاية على هذه الامور الثلاثة البديلة :

الخيار رقم ١ : الابتعاد : على الولايات المتحـدة ان تستمر ، كما في السابق ، في تقديم المساعدات العسكرية الى الحكومات الموالية للغرب في الخليج ، لكن عليها ان لا تقبل بدور عسكري مباشر في المنطقة ٠

الخيار رقم ٢ : التدخل : على قوات الولايات المتحدة ان تنتشر في الخليج لتأدية مهمات « الشرطي » التي كانت بريطانيا تؤديها سابقا ٠

الخيار رقم ٣ : العثور على وكيل : بدلا من نشر القوات الامريكية ،

★ حاول كاتب هـذه السطور عام ١٩٧٥ الحصول على هـذه الوثائق عبر قانون حرية المعلومات ، لكن مجلس الامن القومي رد بقوله ان نشر هذه الوثائق سيؤدي الى « احراج » حلفاء معينين للولايات المتحدة ـ مما يسيء الى علاقـات الولايات المتحدة مع دول الخليج ـ وحكمت المحاكم ان هذه الوثاق معفاة من قانون النشر ٠

باستطاعة واشنطن ان تجند قوة اخرى لتؤدي دور « شرطي » اقليمي بدلا من بريطانيا ·

وفي محاولة الانتقاء بين هذه البدائل الثلاثة ، كان على مجلس الامن القومي عندها ان يقيم المصالح الاستراتيجية الامريكية في المنطقة ، وبعد ذلك ان يحسب تكاليف كل خيار · وهنا علينا مرة اخرى ان نعيد تركيب الخطوط الاساسية لمنطق مجلس الامن القومي ، رغم انه ولا شك بحث في مجموعة واسعة من المتغيرات ·

• رغم ان الولايات المتحدة في ذلك الوقت كانت تستورد نسبة ضئيلة فقط (اقل من ثلاثة بالمئة) من كمية استهلاكها من النفط من الخليج ، الا ان كل التوقعات الموثوقة كانت تشير الى ان على هذه الواردات ان ترتفع كثيرا لتفي بحاجة الولايات المتحدة من الطاقة في السبعينات وما بعدها · كما ان حلفاء امريكا الرئيسيين في اوروبا والشرق الاقصى كانوا قد بدأوا يعتمدون بشدة على نفط الشرق الاوسط · ولذلك كان باستطاعة اي انقطاع لهذا النفط ان يشكل تهديدا خطيرا لامن الغرب · وكما اكدت مناقشة مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية عام ١٩٦٩ : « ان المصالح الحيوية للعالم غير الشيوعي ستتعرض لاخطار جمة اذا تم الحد من حرية الحركة من والى الخليج او اذا منعت هذه الحرية تماما · »

ان هذا الاستنتاج سيلغي الخيار رقم ١ ، الابتعاد ، من الاعتبار · فالحكمة التقليدية آنذاك كانت تقول ان الانسحاب البريطاني سيخلق « خواء قوة » في المنطقة لا شك ان الروس سيعملون على ملئه ـ ما لم تأت جهة ما وتمنعهم · وكتب آلفين كوتريل وديفيد ابشير ، من مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية عام ١٩٦٩ ، « علينا ان نفترض ان الاتحاد السوفياتي سوف يملأ خواء القوة الناتج عن الانسحاب البريطاني» ، طالما ان موسكو تدخل دائما « المناطق التي يظهر فيها الغرب عجزه عن حماية مصالحه » · ونظرا لضخامة المصالح الغربية في الخليج ، اعتبر هذا الامر ببساطة امرا لا يمكن قبوله ·

وهكذا اصبحت المشكلة الحقيقية هي : من سيحمي المصالح الغربية في الخليج ؟ لا شك ان الكثير من الزعماء الامريكيين كانوا سينتقون الخيار رقم ٢ ، الوجود الامريكي المباشر ، باعتباره اضمن وسيلة لملء خواء القوة المحدق بالمنطقة ، لكن عدة عقبات كبيرة كانت تواجه هذا الخيار · فأولا ، كانت تلك سنة ١٩٦٩ ، والولايات المتحدة متورطة بعمق في حرب غير شعبية في جنوب شرق اسيا · والتواجد في الخليج الفارسي لن يؤدي فقط الى تحويل قوات يحتاج اليها المجهود الحربي في فييتنام ، بل سيثير

ايضا حنق الكونغرس الذي خاب امله في دور امريكا « كشرطي العالم »·
كما ان التواجد الامريكي في الخليج ستعتبره الدول العربية الاكثر تطرفا دليلا على المخططات الامريكية « الامبريالية » ، وبذلك تخيب الجهود الامريكية لانتزاع هذه الدول من المدار السوفياتي · ولذلك كان الاسلوب الحذر الوحيد هو رفض الخيار رقم ٢ ، التدخل ·

وفي النهاية لا يبقى سوى خيار واحد : العثور على وكيل · وكان هذا الخيار يتوافق و « مبدأ نيكسون » ، الذي كانت الحكومة قد تبنته مؤخرا · لكن هذا كان يترك سؤالا محرجا : من يمكن الاعتماد عليه ليخدم مصالح الولايات المتحدة في المنطقة ؟ وربما اقترح بعض صانعي السياسة اسرائيل ، لكن هذا الخيار ربما ادى الى دفع الدول العربية نحو تحالف معاد للولايات المتحدة ، مما يسهل المزيد من التغلغل السوفياتي في المنطقة · وكانت الخيارات الاخرى ـ ربما فرنسا ، او حتى الهند ـ بعيدة جدا عن الساحة ، و/او تفتقر الى الدافع للعب دور كهذا · ولذلك لم يعد من مرشحين سوى دول الخليج نفسها · لكن اكثر دول المنطقة تقدما وازدهارا كانت تفتقر الى المقومات التي تجعلها تلعب دور الشرطي الاقليمي · وكان هذا يعني انه لا مفر لواشنطن من القيام بدور المنظم والمشرف على التموين في هذه المناورة الدقيقة · واوضح مساعد وزير الخارجية جوزف ج· سيسكو فيما بعد قائلا : « ان ما قررناه هو اننا سنحاول دفع ومساعدة اهم دولتين في المنطقة ـ اي ايران والسعودية ـ بحيث تصبحان اهم عنصري استقرار عند خروج بريطانيا ، بالقدر الذي سننجح فيه على الحث على التعاون بين الدولتين » ·

وهكذا ولد مبدأ جديد ، هو **استراتيجية التوكيل** · وهذا المبدأ ينص على ان تقوم الولايات المتحدة بمد يد المساعدة الى ايران والسعودية للقيام بدور الحفاظ على السلام ، وفيما عدا ذلك تظل خارج المنطقة · وقد شهد مساعد نائب وزير الدفاع جيمس هـ· نويز عام ١٩٧٣ ، في احدى الاشارات العلنية القليلة الى المذكرة الدراسية لمجلس الامن القومي رقم ٦٦ :

« كان احد اهم استنتاجات تلك الدراسة ··· هو ان الولايات المتحدة لن تلعب دور حامي الخليج الفارسي الذي لعبته بريطانيا سابقا ، بل ستقع المسؤولية الاولية للسلام والاستقرار من الآن فصاعدا على دول المنطقة ··· وتمشيا مع روح مبدأ نيكسون ، ترغب الولايات المتحدة في مساعدة دول الخليج ، لكنها تتطلع اليها لتضطلع بالمسؤولية الرئيسية في الدفاع عن نفسها والتعاون فيما بينها لضمان الامن والاستقرار

الاقليميين . ونحن نتطلع بشكل خاص الى الدولتين القائدتين في المنطقة ، ايران والسعودية ، للتعاون من اجل هذا الهدف » .

وكانت هذه السياسة ، بصورتها الاصلية وكما اقترحها سيسكو ونويز ، تفترض ادوارا مشتركة متساوية لايران والسعودية . ولكن عندما بدأ صانعو السياسة الامريكية تولي المهمة الصعبة ، وهي تطبيق هذه الاستراتيجية الجديدة ، اتضح بسرعة ان الدولتين لم تكونا قادرتين على الاضطلاع بنصيب متساو من العبء . فالسعودية في ذلك الوقت لم تكن تملك سلاح بحرية ، ولم يكن جيشها الصغير المكون من ثلاثة آلاف رجل (معظمهم ملتزمون بمهام الامن الداخلي) قادرا على اداء مهمات حفظ السلام في منطقة الخليج بأسرها . وكانت ايران ، من ناحية اخرى ، تمتلك قوة بحرية وجوية كبرى ، وكان جيشها الجيد التجهيز ، وقوامه ١٥٠ الف رجل ، يعتبر من اقوى الجيوش في المنطقة (خاصة ان الولايات المتحدة اشرفت على تطوره منذ عام ١٩٤٣) . ولذلك لم يكن ثمة مفر من ان تتحول استراتيجية التوكيل عمليا الى استراتيجية ايرانية .

ولكن الى جانب هذه الاعتبارات العسكرية ، تحدد اختيار ايران كوكيل رئيسي لامريكا بصورة اساسية ومسبقة ، عبر مواقف الحكام المعنيين . ففي حين كانت الزعامة السعودية معنية بشكل كبير بشؤون الحكم والقضايا العربية الداخلية ، كان الشاه قد اثبت من فترة طويلة دور ايران « كحارس » للخليج الفارسي ، ولم ينفر من فكرة تولي دور اكبر من ذلك . فقد قال لارنو دي بورشجراف ، كبير مراسلي نيوزويك عام ١٩٧٣ ، « ان مسؤولياتنا ليست قومية واقليمية فقط ، بل ان لنا ايضا دورا عالميا كحارس وحام لستين بالمئة من احتياطي النفط في العالم » (الكلمات مشددة من قبل الكاتب) . والاهم من ذلك من وجهة النظر الامريكية انه كان يبدو على استعداد للتصرف على هذا الاساس عند ظهور اخطار حقيقية : ففي عام ١٩٧٣ مثلا ، ارسل قوات ايرانية الى عمان للمساعدة على سحق ثورة يسارية في مقاطعة ظفار .

وكان من فوائد التحالف الامريكي الايراني ايضا ان واشنطن كانت تستشير شخصا واحدا فقط ، هو الشاه ، عندما تحتاج الى اتخاذ قرارات حرجة . ففي حين ان مجموعة كاملة من الامراء (والكثير منهم غير خاضعين لنفوذ الولايات المتحدة) يجب استشارتهم في السعودية عند اتخاذ القرارات ، كانت جميع القرارات الهامة المتعلقة بالسياسة الخارجية في ايران بيد الشاه نفسه ـ ولا يجرؤ احد على تحديه . ففي عقد السنين الذي تلا حادثة مصدق ، ازال الشاه بالتدريج كل من بقي يتحدى

الحكم الامبراطوري ، واقام حكما شبه مطلق على المجتمع الايراني • كما ان موقف الشاه البالـغ القوة كان يبـدو للمحللين الامريكيين غير قابـل للاهتزاز لاجل غير مسمى ـ فبسيطرته على ثروة ايران النفطية الغنية ، كان يستطيع شراء اكثر البيروقراطيين والمقاولين طموحا ، في حين كانت يقظة السافاك المستمرة تضمن التخلص من جميع المعارضين سريعا • اما المؤسسة الوحيدة التي تملك قوة التاثير على بقاء الشاه ـ وهي الجيش ـ فقد تم ضبطها بواسطة الدفعات الجانبية المربحة من جهة ومراقبةالسافاك من جهة اخرى • وقالت مجلة **يو• اس• نيوز اند وورلد ريبورت** عـــام ١٩٧٣ : « ان المجتمـــع الايراني يشبه الهـرم ، يجلس الشاه على قمتـه ويشكل الجيش جماعة متميزة » •

ولا شك ان التحـــالف الايراني الامريكي بـدا ذا اغـراء لا يقـاوم بالنسبة لصانعي السياسة الامريكية ، الذين كان عليهم معالجة مشـاكل فييتنام والتململ المتزايد داخل الولايات المتحدة • ولكن كان هناك ثمـن لهذه الشراكة التي لم يسبق لها مثيل : ترسانة اسلحة عسكرية حديثـة • ففي حين كان الشاه اكثر من راغب في القيام بدور وكيل الولايات المتحدة في الخليج الفارسي ، كان يتوقع الحصول على قـدرات عسكرية تتماشى ومنزلـة بـلاده الجـديدة • وبدأ الشاه ، الذي لم يعد مكتفيا بالنمـاذج المستعملة والقديمة التي يزوده بها برنامج المساعدات العسكرية ، يتطلع الى احدث واروع المعدات العسكرية الامريكية • وكان اول ما رغب فيـه هو قوة جوية حديثـة ، مجهزة بأحـدث المقـاتلات الامريكيـة ، طائرات ماكدونل دوغلاس ف ـ ١٥ (ايجل) وغرومان ف ـ ١٤ (تومكات) •

وعندمـا اقترح الشاه للمرة الاولى شراء ايران طائرات ف ـ ١٥ او/ و ف ـ ١٤ عام ١٩٧١ ـ ١٩٧٢، كان هناك بعض المسؤولين في وزارة الدفـاع الذين عارضوا صفقـة كهـذه • اذ لم يسبق لواشنطن ان باعت طائرات متطورة كهذه الى دولة من دول العالم الثالث ، وكان هناك شعور واسع الانتشار بأن تحركا كهذا يسيء الى امن الولايات المتحدة من خلال وضع اسرارها الدفاعية في ايدي اجانب لا يتوقع منهم الحفاظ عليها سرا لفترة طويلة • ولا شك ان هذا التردد اثار غضب الشاه الذي اخذ ينظر الى دور ايران من منظور آخذ في التعاظم ، نتيجـة للشراكة الامريكية ـ الايرانيـة • وذكر الشاه حلفـاءه في ذلـك الوقت بأن « اوروبا الغربيـة والولايات المتحدة واليابان تنظر الى الخليج باعتباره جزءا لا يتجزأ من امنها ، ومع ذلك فهي ليست في موقع يسمح لها بضمان هذا الامن (و) هذا ما يحدو بنا الى القيام بهذا الدور بـدلا منهـا » • ولا شـك ان الشاه في

النهاية سلم واشنطن انذارا من نوع ما عندمــا اخذ صبره ينفذ : اما ان تبيعونا ما نريــد ، او ينتهي كل ترتيب التوكيــل · واستسلمت واشنطن لافتقارها الى سياسة بديلة · وفي ايار (مايو) ١٩٧٢ ذهب الرئيس‌نيكسون وهنري كيسنجر الى طهران ، ووقعا اتفاقا سريا مع الشاه ، سمح بموجبه لايران بالتوصية على « اي نظام اسلحة تريده » ·

وفي غضون اشهر من حسم المسألة في ايار (مايو) ١٩٧٢ ، اوصى الشاه على ثمانين طائرة ف ـ ١٤ قدرت كلفتها ببليوني دولار ، اضافــة الى عشرات الاسلحة الامريكية الاخرى · وارتفع الانفــاق الايراني على الاسلحة الامريكية من ٥٠٠ مليون دولار عام ١٩٧٢ الى ٢ر٢ بليون دولار عام ١٩٧٣ و ٣ر٤ بليون عام ١٩٧٤ · وبالاضافة الى طائرات ف ـ ١٤ ، كانت المشتريات الايرانية الاخرى تضم :

١٦٩ طائرة مقاتلة طراز نورثروب ف ـ ٥ اي ، ثمنها ٤٨٠ مليون دولار ·

٢٠٩ طائرات قاذفة مقاتلة طراز ماكدونل ـ دوغلاس ف ـ ٤ فانتوم ثمنها بئيون دولار ·

١٦٠ طائرة مقاتلــة طراز جنرال ديناميكس ف ـ ١٦ ثمنهــا ٢ر٣ بليون دولار ·

٧ طائرات استطلاع بوينج اي ـ ٣ اي اواكس مجهزة برادار، ثمنها ٢ر١ بليون دولار ·

٢٠٢ طائرة هيلوكبتر نقل طراز اي·هـ ـ ١ جي كوبرا ، ثمنها ٣٦٧ مليون دولار ·

٣٢٦ طائرة هيلوكبتر ناقلــة جنود طراز بل موديل ـ ٢١٤ ثمنهــا ٤٩٦ مليون دولار ·

٢٥ الف صاروخ مضاد للدبابات طراز تاو ودراجون ثمنهــا ١٥٠ مليون دولار ·

٤ مدمرات ثقيلة طراز دي دي ـ ٩٦٣ سبروانس ثمنها ٥ر١ بليون دولار ·

وهــذه اللائحة لا تمثــل سوى البنود الهامــة ، فمجموع « قائمــة المشتريات » الايرانية تضم قطعا اقل اهمية تبلغ قيمتها بلايين الدولارات، كطائرات النقل ، وناقلات الجنود المصفحة وقطع المدفعية · وبلغ مجموع قيمة ما اوصى عليه الشاه من الاسلحــة الامريكيــة في الفترة بين ١٩٧٢ و ١٩٧٨ عشرين بليون دولار ، او حوالي ضعف مجموع مبيعات الولايات المتحدة من الاسلحة لجميع دول العالم خلال الخمس وعشرين سنة التي

تلت الحرب العالمية الثانية ٠

وقال منتقدو تراكم الاسلحة غير المعتاد لدى ايران ، ان واشنطن فقدت كل سيطرتها على برنامج التسلح بعد اتفاقية ايار (مايو) ١٩٧٢ ٠ وقال فريق الابحاث التابع للجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الامريكي في ختام تقرير نشر عنه الكثير حول **مبيعات الولايات المتحدة العسكرية الى ايران** عام ١٩٧٦ ان « مبيعات الولايات المتحدة من الاسلحة لايران خرجت عن سيطرتها لثلاث سنين على الاقل » ٠ ولم توقع اتفاقية ١٩٧٢ دون مراجعة سابقة لسياسات الاسلحة الامريكية فقط ، بل ان قرار رئيس الولايات المتحدة ايضا « اعفى بشكل عملي مبيعات الاسلحة الى ايران من عملية اتخاذ القرارات المعتادة في قضايا مبيعات الاسلحة في وزارتي الدفاع والخارجية » ٠ لكن مسؤولي الادارة اصروا على ان اتفاقية الشاه ـ نيكسون لم تكن عديمة الحكمة كما انها لم تتم بسرعة ٠ وقال مساعد نائب وزير الدفاع نويس في شهادته عام ١٩٧٣ : « ان سياستنا بشأن (التزود) بالاسلحة ليست نتيجة سلسلة ارتجالات ، بل هي نتيجة مباشرة لقرار عام ١٩٦٩ (مذكرة قرار الامن القومي رقم ٩٢) بتشجيع ايران على تولي « مسؤولية اولية في السلام والاستقرار » في الخليج ٠ والحقيقة انه ما ان اختارت واشنطن ان تحول ايران الى قوة شرطة وكيلة ، حتى لم يعد امامها خيار سوى تنفيذ طلبات الشاه للاسلحة التي احس انه يحتاج اليها للقيام بالمهمة ٠

وكان هناك بعد آخر لمخطط الادارة الاستراتيجي لم تكن تستطيع استخدامه علنا للدفاع عن نفسها ، لكنه كان يشكل تبريرا هاما لبرنامج التسلح الايراني ٠ ان الاسلحة الحديثة تتطلب صيانة دائمة وخدمات وتفتيشا يقوم بها تقنيون مهرة ، وايران تفتقر ببساطة الى اليد العاملة المدربة على اداء هذه الخدمات ٠ وبالتالي كانت كل صفقة عتاد متطور يعقدها الشاه تخلق متطلبا جديدا للدعم ، لا يمكن ان يوفره سوى التقنيون الامريكيون ٠ وبما انه كلما ازداد تطور السلاح ازدادت الحاجة الى الصيانة والخدمات المتخصصة ، خلقت مشتريات الشاه من الاسلحة طلبا متزايدا باستمرار على هذه الخدمات ٠ وعند حلول عام ١٩٧٣ ، كان هناك حوالي ٣٦٠٠ تقني امريكي يعملون في المشاريع ذات العلاقة بالاسلحة في ايران (٨٠٠ عسكري و ٢٨٠٠ مستخدم في المقاولات) ، وكان يتوقع ان يرتفع العدد الى ٢٥ الفا او اكثر عند حلول عام ١٩٨٠ ٠ وسرعان ما اصبح هؤلاء التقنيون ، او المرتزقة « ذوي الياقات البيض » ، كما كان يطلق عليهم احيانا ، جزءا اساسيا من آلة الحرب المتقدمة تكنولوجيا التي يملكها

الشاه • وهكذا كانت واشنطن تستطيع ، عن طريق التهديد باستدعاء هؤلاء الاختصاصيين ، ممارسة نوع من « حق الفيتو » على النشاطات الايرانية العسكرية •

وقال تقرير لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ عام ١٩٧٦ « هناك اجماع عام بين المستخدمين الامريكيين المرتبطين بالبرامج الايرانية ، انه من غير المحتمل ان تذهب ايران الى الحرب في السنوات الخمس الى العشرة القادمة ، خاصة بمخزونها الحالي والمتوقع من الاسلحة المتطورة ••• بدون تأييد الولايات المتحدة على اساس يومي » • وهكذا ، كان المقصود ببرنامج اسلحة الولايات المتحدة ان يضمن الا يعمل « الوكيل » اطلاقا بصورة مستقلة عن دوره المحدد مسبقا كحارس للمصالح النفطية الغربية ، وذلك بواسطة زيادة اعتماد الشاه باستمرار على المهارات التقنية الامريكية •

ضرورية « البترودولار »

اذا كان قرار ادارة نيكسون الاصلي عام ١٩٧٢ ببيع الشاه « كل ما يشاء » مدفوعا اساسا باعتبارات استراتيجية ، فان تمسك الادارة المستمر بالاتفاق سرعان ما اكده اعتبار هام آخر : ازمة ميزان المدفوعات نتيجة النفط • فعلى اثر ارتفاع اسعار النفط بنسبة اربعة اضعاف ، والذي اعلنته دول الاوبيك في بداية عام ١٩٧٤ ، تدهورت حسابات ميزان المدفوعات الامريكي عندما اضطرت لدفع المزيد ثمنا لنفطها المستورد • ومع اندفاع البلاد نحو فترة ركود اقتصادي ، وقع البيت الابيض تحت ضغط رهيب لاسترداد ما امكن من « البترودولارات » الامريكية بواسطة بيع منتجي النفط **كل ما يمكن اقناعهم بشرائه** • وليس ثمة شك ان ما ارادت الحكومة الايرانية ـ اي الشاه ـ شراءه كان الاسلحة والمزيد من الاسلحة • وهكذا اصبحت المبيعات العسكرية تعتبر هدفا **اقتصاديا** حساسا ، اضافة الى الهدف العسكري • وكما قال نائب وزير الدفاع آنذاك ويليام ب• كليمنتس للكونغرس في ذلك الحين ، سيؤدي اي تباطؤ في تصدير الاسلحة الى « تضاؤل امكانية مساهمة المبيعات ••• في تقوية امن العالم الحر بالاضافة الى وضع ميزان مدفوعات الولايات المتحدة »•

واذا كانت زيادة اسعار النفط قد خلقت دوافعجديدة تجعل واشنطن تبيع الاسلحة ، فهي زودت الشاه ايضا بزيادة كبيرة في الموارد المالية التي يستطيع بواسطتها شراء الاسلحة •

وفي حين كان الشاه يستطيع الحديث بأسلوب منطقي عن دور ايران « كحارس » لموارد النفط الغربية ، فلا شك ان نشاطه في شراء الاسلحة

كان مدفوعا ايضا برغبته في اعـادة خلق « امبراطوريـة فارس العظمى الغابرة » · وفي عـام ١٩٧١ استولى على ثلاث جزر استراتيجيـة كانت تابعة لدولة الامارات العربية المتحدة عند مدخل الخليج ، كما باشر بناء سلاح بحرية قادر على القيام بعمليات في المحيط الهندي وما وراءه · فقد اعلن مثلا في احتفالات مرور ٤٢ عاما على تأسيس البحرية الامبراطورية الايرانية :« لم يكن هدفنا في بناء بحرية حديثة مقصورا على تولي الزعامة في الخليج الفارسي او مياه ايران الاقليمية ··· لان ايران تتمتع في عالم اليوم بموقع يعطي واجباتها بعدا اقليميا » · ولم يحرك زعماء الولايـات المتحدة ساكنـا لتثبيط عزائم الشاه وجنون العظمـة الذي انتـابه ، بـل استمروا في تقديم الاسلحة التي جعلت من الممكن تصديق هذه الطموحات· ففي عام ١٩٧٤ مثلا وافقت واشنطن على بيع الشاه ست مدمرات ثقيلـة طراز سبروانس ، بحيث يتم تمركزها في شاه بهار ، وهي قاعـدة جديدة كانت شركات البناء الامريكية تقوم ببنائها على شاطىء ايران المطل على المحيط الهندي ·

وكانت شهية الشاه للاسلحة تتغذى ايضا على ما يمكن وصفه فقط بأنه هوس بالسلاح · فالشاه ، وهو طيـار مرخص ، كثيرا ما كان يختبر بنفسه الطائرات الحربية التي كان يعتزم شراءها ، يفتخر بمعرفته التقنية لانظمة الاسلحة ، ولا يحاول اخفاء تحمسه لشرائها ، كما يظهر في هـذا التعليق الذي ادلى به في مقابلته مع ارنو دي بورشجراف عام ١٩٧٣ :

« ان لدينا الآن ثمانين طائرة فانتوم ثمن كل واحدة منها ٥ر٢ مليون دولار ، وهناك مئة طـائرة اخرى في طريقها الينـا ثمن كل منهـا خمسة ملايين دولار ، بحيث تصبح لدينا قوة قاذفة ــ مقاتلة يزيد عددهـا على ٣٠٠ طائرة · وقد طلبنا ٧٠٠ هيلوكبتر ، بمـا فيهـا ٢٠٠ طـائرة نقـل بالاضافـة الى عشرة شينوك و ١٨ اي·د·اس· (طـائرات مضـادة للغواصات) ، من طراز سيكورسكي ··· كما اننا نقوم بشراء ٨٠٠ دبابة شيفتين من بريطانيا ستكلف ٤٨٠ مليون دولار · وفي هـذه الاثنـاء نقوم بتطوير ٤٠٠ دبابة م ــ ٤٧ بحوزتنا · وهكذا ستصبح لدينا قوة دبابات قوامها حوالي ١٧٠٠ دبابة » ·

كمـا لم يكن الشاه يهتم لاعضـاء الكونغرس المنكبين على تخفيض الميزانية او لموظفي وزارة الخزانة القلقين ، عندما كان يذهب لشراء المزيد من الاسلحة · فقد قال احد بائعي الاسلحة الامريكيين عام ١٩٧٤ : « ان الشاه يحصل على ما يريد ، كما لا توجد هناك منافسات بين الاجهزة او مشاجرات بيروقراطية · فهو يقرر ما يريد ويقوم موظفوه بتنفيذ الاوامر ــ

والا ۰۰۰ » ۰

ومع اهتمام واشنطن باسترجاع ما امكن من « البترودولارات » ، وتلهف الشاه على تطوير القوات المسلحة الايرانية بأسرع ما يمكن ، سرعان ما اصبحت ايران اكبر منفذ وحيد نصادرات الاسلحة الامريكية۰ وفي تلك النقطة دخل عامل جديد على الصورة : الطمع ، فكما قال تقرير لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ عام ١٩٧٦ : « ان قرار (نيكسون) عام ١٩٧٢ بشأن بيع الاسلحة ، يضاف اليه زيادة العوائد الايرانية اثر تضاعف اسعار النفط اربع مرات ، خلق وضعا يشبه النحل المتكوم على اناء العسل ۰ فقد اسرعت الصناعات الدفاعية ، الامريكية والاجنبية ، الى ايران لاقناع الحكومة بالحصول على منتجاتها » ۰ ولذا ليس بغريب ، مع وجود عقود معروضة بهذه الكمية ، وشركات كثيرة تتنافس على الصفقة نفسها ، ان يسلك بعضها طرقا مختصرة في عملية التسويق ۰ صحيح ان نسبة معينة من الفساد كانت مستوطنة في ايران على الدوام ، لكنها لم تصل اطلاقا الى الرشاوى التي تبلغ قيمتها عدة ملايين و « العمولة » التي كانت تدفعها الشركات الامريكية لتضمن صفقات الاسلحة الايرانية ۰ ويقال ان شركة غرومان دفعت حوالي ٢٨ مليون دولار عمولة لموظفي الحكومة الايرانية اثناء عملية التفاوض على بيعها طائرات ف ـ ١٤ في الصفقة التي بلغت قيمتها بليوني دولار ، وان شركة نورثروب دفعت عشرة ملايين دولار على الاقل لتسهيل بيع اجهزة الاتصالات اللاسلكية لطائراتها المقاتلة طراز ف ـ ٥ اي ۰ (اضطرت كلتا الشركتين فيما بعد الى تعويض الحكومة الايرانية عن بعض هذه الاموال عندما اعلن عن المدفوعات عام ١٩٧٦) ۰ واتهمت شركات امريكية اخرى ، بما فيها روكويل انترناشونال وماكدونل دوغلاس ، بدفع رشاوى للموظفين الايرانيين او « عملاء » لم يكشف النقاب عن اسمهم ، خلال مفاوضات بيع الاسلحة ، ويمكن الافتراض ، بثقة ، ان الموظفين الايرانيين قبضوا ما مجموعه ٢٠٠ مليون دولار دفعتها شركات الاسلحة الامريكية الى عملاء بيع اجانب في الفترة بين ١٩٧٢ و ١٩٧٥ ۰

ورغم ان اجهزة الخدمات العسكرية كانت تفتقر الى دوافع مالية بحتة لخلق صفقات الاسلحة ، الا انها كانت تملك اسبابها الخاصة لدفع صفقات معينة ۰ فيما ان الحكومة الامريكية كانت تطلب من الحكومة الايرانية دفع حصة من تكاليف تطوير الاسلحة التي يطلبها الشاه ، كان من الممكن ان تؤدي طلبات ايران الى تخفيض لا بأس به في الثمن الذي

تدفعه اجهزة الخدمات مقابل تزويدها بذلك النوع من السلاح · وبما ان الاجهزة المختلفة كانت كثيرا ما تضطر للتنافس فيما بينها على اموال وزارة الدفاع المحدودة ، كان يمكن ان تؤدي صفقة كبيرة مع ايران الى انتاج جهاز معين على حساب جهاز آخر · ولهذا السبب كانت الاجهزة كثيرا ما ترسل ممثلين عنها الى ايران لمساعدة مقاولي الدفاع الحلفاء على تسويق منتجاتها ، ويقول تقرير لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ ان هذا ادى في بعض الاحيان الى « تنافس حاد بين اجهزة الولايات المتحدة» · ففي حالة صفقة فـ١٤/فـ١٥ المقترحة مثلا ، ارسلت البحرية (راعية طائرات ف ـ ١٤) وسلاح الجو (راعي طائرات فـ١٥) فرقا الى ايران للعمل على تأكيد شراء ايران · ونتيجة لذلك « كانت النصائح الصاخبة ، واحيانا المتناقضة ، تقدم بحرية الى المؤسسة العسكرية الايرانية والشاه من قبل مجموعة من الممثلين الامريكيين ، بمن فيهم ممثلي سلاح البحرية الامريكي ، سلاح الجو الامريكي ، وصانعي الاسلحة الامريكية ، الذين لكل منهم مصالح في بيع ايران اسلحة مختلفة » ·

ولم يكن هذا بالجو الذي يشجع على التحفظ ، ولا شك ان المسؤولين العسكريين الايرانيين البارزين اثروا ثراء فاحشا نتيجة لبرامج الاسلحة الامريكية ، وقد اشار مسؤول امريكي في مقال كتبه في مجلة القوات المسلحة (**آرمد فورسز جورنال**) ان :

« الضباط العسكريين البارزين كسبوا ثروة ضخمة من العمولات·· وقد تورط صهر الشاه ، محمد خاتمي ، الذي اصبح فيما بعد قائد القوات الجوية ، في صفقات طارئة اعلن عنها انكثير ، تتعلق بمشتريات سلاح الجو ، وجلبت له الملايين · كما ظهر على نائب وزير الحربية لشؤون التسلح ، الجنرال حسن طوفانيان ، آثار مماثلة لعمليات عمولة شبيهة ، واستلم الموظفون في المراتب الادنى حصصهم ، وبدأت الاموال تتدفق على المخابىء الآمنة في الغرب » ·

لم يكن من الممكن اخفاء الفساد على هذا المستوى الى الابد · ففي عام ١٩٧٦ اصبح معروفا ان المسؤولين الحكوميين البارزين ـ بمن فيهم اعضاء في الاسرة المالكة ـ كانوا يتلقون رشاوى · ورغم ان الشاه حاول متأخرا ان يبعد نفسه عن اية علاقة بالوباء المنتشر من خلال اعتقال بعض اصدقائه الذين لم يعد بالامكان اخفاء قيامهم بالنهب ، الا ان سمعة حكومته كانت قد تلوثت الى حد لا يمكن اصلاحه ، وبدأ الشاه يفقد تأييد التجار ورجال الاعمال الصغار الذين عانوا من الفساد السائد ·

في اواخر السبعينات بدأ برنامج الاسلحة الامريكي يعطي ردات فعل عكسية باتجاهات اخرى · ففي الايام الذهبية عامي ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤ ، كان الشاه يستهلك ثروته النفطية الجديدة وكأن البترو دولارات ستستمر في تراكمها الى الابد · لكن زيادة الاسعار التي فرضتها الاوبيك سارعت في حدوث ركود اقتصادي في الغرب ، وبدأت مبيعات النفط الايراني في الهبوط· غير ان الشاه ، الذي لم يكن راغبا في الحد من برامجه التسلحية الهائلة ، وغير مبال بالاستماع الى نصائح خبراء الاقتصاد لديه ، استمر في شراء الاسلحة وكأن ثروته لا تنفذ · ورغم ان صادرات ايران من النفط انخفضت بنسبة ٥ر١٢ بالمئة عام ١٩٧٥ ، الا ان الشاه اوصى بزيادة قدرها ٢٦ بالمئة في عام ١٩٧٥ بحيث ذهب جزء كبير من الزيادة لشراء اسلحة ومشاريع اخرى ذات علاقة بالجيش · وبالامكان التنبؤ بالنتائج · فالتضخم ، وقد كان مشكلة عند ايران التي اصبحت غنية بسرعة ، ازداد بشكل لم يعد بالامكان السيطرة عليه · وكانت نسبته عام ١٩٧٥ تبلغ ٣٠ بالمئة ، وتزيد كثيرا على زيادة الاجور لمعظم العمال المنتظمين · وعانى الموظفون وعمال النفط والجنود ومعظم افراد الطبقة الوسطى انخفاضا في الاجور الحقيقية ، في نفس الوقت الذي انتشر فيه الحديث عن الفساد في الاوساط العليا · ورغم ان الشاه قلص انفاق جيشه لفترة قصيرة ، الا ان اصراره على شراء اسلحة اجنبية في وقت شدت فيه الاحزمة بشكل واسع في ايران اثار استياء كبيرا ·

وكان هذا الاستياء حادا بشكل خاص في حالة جهود الشاه لخلق مجمع عسكري ـ صناعي حديث في ايران · ففي عام ١٩٧٦ كان قد وقع على عقود مع عدة شركات امريكية وبريطانية لبدء بناء مصانع اسلحة جديدة في ايران · وهكذا دعيت شركة وستنغهاوس وشركة هيوز للصناعات الجوية الى الانضمام الى صناعة الالكترونيات الايرانية التي تملكها الحكومة ، لبناء مصنع لاصلاح وتجميع الصواريخ في شيراز ، واوكل الى شركة بل هليوكبتر مهمة بناء صناعة كاملة لبناء طائرات الهليوكبتر في اصفهان · ولم تكن هذه سوى البداية : فقبل ان يرغم على مغادرة البلاد عام ١٩٧٩ ، اعلن الشاه عن مخططات لاقامة صناعة طيران محلية وتسهيلات لانتاج الطائرات · ووصف الشاه هذه المشاريع بأنها ذروة جهوده لادخال التكنولوجيا الصناعية الحديثة ، لكن الكثير من المثقفين ورجال الاقتصاد الايرانيين اعتبروها الهاء عن برامج التنمية

الاقل بريقا ولكن الاكثر اهمية · وقال النقاد ان برامج الاسلحة ستخلق بؤرة صغيرة من الانتاج ذي الراسمال المكثف والتكنولوجيا المتقدمة ، في اقتصاد لا يزال ناميا ، في حين تترك المشاريع ذات القاعدة الاوسع والعمل الاكثر كثافة لتتردى بسبب تدهور ميزانية ايران · وفي النهاية تطور هذا النزاع ليصبح جدالا واسع المدى حول فوائد ما كان الشاه ومؤيدوه يطلقون عليه « التحديث » ، الذي كان الكثير من الايرانيين يعتبرونه ادخال مغامرات عسكرية يسيطر عليها الاجانب ولا تسهم بشيء في تقدم ايران الاقتصادي والاجتماعي ·

وفي هذه النقطة ايضا بدأ وجود اعداد كبيرة من التقنيين الاجانب يصبح مشكلة خطيرة · فالاسلحة التي تمت التوصية عليها عام ١٩٧٣ و ١٩٧٤ بدأت تصل بسرعة متزايدة في منتصف السبعينات ، مما فرض ضغوطا هائلة على البنية التحتية للدعم التقني في ايران · وكتب الصحفي والمعلق جاك اندرسون عام ١٩٧٥ « ان جبالا من الذخائر تتكدس في الموانىء والحقول الايرانية ، ان الطائرات وطائرات الهليوكبتر واسلحة متطورة اخرى تترك في الصناديق لفترة تمتد الى اسابيع ، بانتظار تجميعها » · وردا على هذا المأزق لجأ الشاه الى الحل الذي اصبح ميزة معروفة له الآن : لقد استخدم المزيد من الامريكيين للمساعدة على حل هذه الورطة في مسائل النقل · وقفز عدد الامريكيين المستخدمين في المشاريع ذات العلاقة بالاسلحة من ١٢٠٧ عام ١٩٧٥ الى ٤٤٧٣ عام ١٩٧٧ ، وهي زيادة بنسبة ٢٧٠ بالمئة · وتم تجنيد امريكيين آخرين (الى جانب اخصائيين بريطانيين وفرنسيين والمان غربيين) للمساعدة على ادارة اجهزة النقل والمواصلات والطاقة الايرانية التي كانت تعمل فوق طاقتها · ومن الطبيعي ان يخلق وجود غربيين اثرياء بصورة واضحة ، في وقت انخفض فيه الدخل الحقيقي لمعظم الايرانيين ، مرارة كبيرة · كما ان هؤلاء الاجانب ـ الذين استخدموا بمعاشات شهرية مرتفعة وحسابات نفقات مربحة ـ بدأوا ينافسون ابناء الطبقة الوسطى الايرانية للحصول على شقق في ايران حيث المساكن نادرة ، مما ادى الى زيادة الايجارات والتضخم المتنامي · وزادت العداوة الدينية من تعقيد الاحتكاك الذي نتج عن ذلك ، اذ اخذ الاجانب في ادخال انماط سلوك غربية ـ تعاطي المشروبات علنا ، الملابس المكشوفة ، الافلام الاباحية ··· الخ ـ والتي آذت مشاعر سكان ايران المسلمين المحافظين ·

وفي صفوف الجيش نفسه ، ادت سياسة التجنيد التي اتبعها الشاه

الى احساس الضباط الصغار والمرشحين والتقنيين بالاغتراب ، عندما شعروا انفسهم بحكم الواقع تحت اشراف الاجانب · وعندما نذكر ما استنتجه تقرير لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ بأن « من غير المحتمل ان تذهب ايران الى الحرب ··· دون تأييد الولايات المتحدة على اساس يومي » ، ربما امكننا تقدير الاستياء والاحساس بالذل الذي لا شك ان هؤلاء الضباط الشباب ذوي الشعور الوطني الحاد احسوا به عندما وجهت اليهم الاوامر باطاعة تعليمات مدنيين امريكيين · ومن المؤكد انه لو عكست الادوار لشعر الامريكيون بالقدر نفسه من الاستياء ·

والحقيقة ان برنامج التسلح الذي اتبعه الشاه بدأ يسبب انقسامات عميقة في صفوف الجيش الايراني ـ الذي كان يعتبر ذات مرة الدعامة المتراصة للنظام · وشعر الكثير من التقنيين الايرانيين ، الذين كانوا يفتقرون الى المزايا التي منحت للضباط ذوي المناصب العليا ، ان الشاه كان لا يعطي مهاراتهم والتزاماتهمحقها في تفضيله للاميركيين · واصبحت هذه الاحاسيس المتوترة اكثر ظهورا في سلاح الجو ـ الذي كان يتلقى اكثر انواع التكنولوجيا الاميركية تقدما ـ حيث قام العسكريون باظهار سخطهم للمرة الاولى في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٨ بأن دمروا عدة طائرات مقاتلة من طراز ف ـ ٥ ·

ولكن قبل ان تصبح هذه الانقسامات بادية للعيان تماما امر الشاه القوات الايرانية بالنزول الى الشوارع لسحق مظاهرات الطلاب والعمال والزعماء الدينيين المعادية للحكومة · وبدأت هذه المظاهرات في اواخر سنة ١٩٧٧ ، عندما فتحت الشرطة النار على طلاب يحضرون ندوة شعرية في جامعة طهران ، وتكررت المظاهرات بعد ذلك كل اربعين يوما ، وفقا لتقاليد فترة الحداد الاسلامية التقليدية · وقتل آلاف المدنيين العزل في هذه الصدامات ، وجرح الكثيرون غيرهم او اعتقلوا في سجون ايران الشهيرة · وبالتدريج انضمت فئات اخرى من المجتمع الايراني الى هذه الاحتجاجات ، حتى بدا الشعب الايراني بأكمله متحدا في معارضته للشاه ·

ومع ازدياد زخم الاحتجاجات ، اصبحت صفقات الاسلحة الامريكية مصدر جدال من جديد عندما بدأت القوات الايرانية تستخدم اسلحتها التي زودتها بها الولايات المتحدة ضد المدنيين العزل · وعندما اعلن الشاه الاحكام العرفية في جميع انحاء ايران اعلنت ادارة كارتر عن ارسال شحنة مستعجلة من عصي المظاهرات والغاز المسيل للدموع والخوذات والدروع للجيش الايراني ، مقدمة بذلك اشارة واضحة على دعم الولايات

المتحدة للنظام المتعثر · كذلك عندما تلقت القوات الايرانية اوامر باحتلال المدن الايرانية ، انهار سريعا الفرق بين الاسلحة المقدمة لاغراض دفاعية تقليدية وتلك المقدمة من اجل الامن الداخلي · فعندما اطلق الطيارون الايرانيون النار على شوارع طهران من طائرات الهليوكبتر التي قدمتها الولايات المتحدة ، وعندما جالت وحدات الجيش في الشوارع في دباباتها ومصفحاتها الامريكية ، اصبحت الولايات المتحدة مرتبطة في الاذهان بصورة لا رجوع عنها ، بجهود الشاه الدموية للحفاظ على السلطة · ولذا لم يكن من المستغرب ان ترتدي المظاهرات المعادية للشاه حلة العداء للولايات المتحدة في النهاية ·

وقبل رحيل الشاه النهائي يوم ١٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩ بفترة طويلة ، اصبح واضحا بشكل مؤلم ان علاقات الاسلحة الامريكية ـ الايرانية غير المعتادة لن ترجع اطلاقا الى سابق عهدها · ومع توقف انتاج النفط ، ودمار الاقتصاد بعد اشهر من الاضطرابات ، لم تبق اموال في الخزينة لدفع ثمن الاسلحة المستوردة (وكانت معظم الملايين التي حصل عليها المسؤولون الايرانيون في صفقات اسلحة مشبوهة قد وضعت بالطبع في حسابات مصارف سرية في سويسرا وبنما) · بل ان خليفة الشاه الذي انتقاه بنفسه ، الدكتور شاهبور بختيار ، اعلن يوم ٣ يناير (كانون الثاني) ان ايران لن تستمر في اداء دور « شرطي الخليج الفارسي » · ان وصول « الحكومة الثورية » برئاسة مهدي بازركان الى السلطة يوم ١١ شباط (فبراير) لم يكن سوى رصاصة الرحمة لسياسة التوكيل ·

وعندما ننظر الى تلك الفترة لا يصعب علينا رؤية كيف ادى برنامج الاسلحة الامريكي الى تفاقم المشاكل ، واحيانا خلق المشاكل ، التي قادت الى انهيار الملكية · ومنذ عام ١٩٧٦ كان الكثير من المحللين الامريكيين ، بمن فيهم كاتب هذه السطور ، قد حذروا من ان مبيعات الاسلحة المفرطة كانت تساهم في زيادة الصعوبات التي يواجهها النظام ·

ان تقرير لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ عام ١٩٧٦ . المشار اليه في هذه الدراسة ، يقدم دلائل عديدة على الوضع المتدهور · لكن واشنطن كانت قد اصبحت عاجزة عن الحركة بسبب التزامها الحازم بسياسة التوكيل · فالولايات المتحدة ، بعد ان كانت قد اتفقت مع الشاه على تولي مسؤولية القيام بدور الشرطي في الخليج بالنيابة عن الغرب ، لم تعد تستطيع القيام بتحرك يمكن ان ينفر الشاه او يقلل من سلطته

المحلية ، دون تهديد بقاء الاستراتيجية نفسها · وفي حين كان الشاه معتمدا ذات مرة على الولايات المتحدة من اجل المساعدات والدعم السياسي ، اصبحنا الآن بشكل ما معتمدين عليه للحفاظ على مصالحنا الاستراتيجية · وكلما زادت كمية الاسلحة التي نقدمها له ، كلما ازداد رهاننا على ايران وعلى بقاء الشاه · وفي النهاية وقعت واشنطن ضحية لولائها الاعمى لسياساتها المضللة · ولعلنا لا نجد وصفا اكثر تعبيرا عن ظواهر مبدأ التوكيل من النخب غير العادي الذي شربه الرئيس كارتر ليلة رأس سنة ١٩٧٨ اكراما لملك الملوك : « ان ايران تحت زعامة الشاه العظيمة هي جزيرة استقرار في احد اكثر مناطق العالم اضطرابا · انني اقدم دليل اكبار لك ، يا صاحب الجلالة ، ولقيادتك ، وللاحترام والاعجاب والحب الذي يمنحك اياه شعبك » ·

ايران : الأزمة الجديدة في الهيمنة الاميركية

بول سويزي وهاري ماجدوف

كتب سمير امين ما يلي في العام ١٩٧٦ :

« بالمقارنة مع الغرب المستقر نسبيا والذي استطاع حتى الآن ان يتخطى ازماته ··· بدون ان يتعرض لهزات كبيرة ، نرى ان في الاطراف عالما تسود علاقاته الطبقية حالة من الاضطراب · وهذا ما يشكل قوة الدفع الرئيسية للتاريخ المعاصر » · وتبرهن ايران مرة اخرى على مدى صحة هذه الملاحظة ·

وايران التي كانت تعرف ببلاد فارس لم تخضع يوما للامبريالية بشكل رسمي · فقد كانت ايران ، كالصين ، مسرحا لتصارع القوى الامبريالية (البريطانية والروسية في ايران) ، لكن المنافسة والغيرة فيما بينها اتاحت لايران ، كما للصين ايضا ، ان تحافظ على استقلال مهزوز وبلا مضمون ما في اغلب الاحيان · وفي القرن التاسع عشر كانت تحكم ايران سلالة القاجار (١٧٩٤ ـ ١٩٢٥) · وبسبب الضغط الامبريالي ، لم تعد هذه السلالة تحمي عباد الله بأمره تعالى ولم تحل دون التفكك الاجتماعي بل اصبحت سلالة فاسدة ذات سطوة تشارك في نهب البلاد وتدميرها » (١) · ومع انحلال النظام التقليدي ، دخلت ايران حقبة جديدة من تاريخها لا تزال تعيش فيها الى يومنا هذا ·

ففي العامين ١٩٠٥ و ١٩٠٦ ، شهدت ايران ثورة قامت ضد طغيان

● بول سويزي : Paul Sweezy محرر ومؤسس ـ مشارك في مجلة Monthly Review (MR) التي تصدر في نيويورك · اقتصادي بارز · من مؤلفاته : « نظرية التطور الراسمالي » (١٩٤١) ، « راس مال الاحتكار » (بالاشتراك مع بول باران) ، « الاشتراكية » ، « الحاضر كتاريخ » ··· الخ

● هاري ماجدوف : Harry Magdoff ، رئيس تحرير مشارك لمجلة (MR) منذ ١٩٦٩ ، اشتهر بكتاباته عن الامبريالية وديناميـة الراسمالية · كتابه الاخير « الامبريالية ، من عصر الاستعمار حتى الآن » ، سيصدر قريبا عن مؤسسة الابحاث العربية ·

● نشر هذا البحث فيمجلة (MR)، المجلد ٣٠ ، العدد ٩ ، شباط ، فبراير ؛١٩٧٩

★ عن Monthly Review ـ العدد التاسع ، شباط (فبراير) ١٩٧٩ ·

سلالة القاجار وبلغت ذروتها في منح دستور عام ١٩٠٦ (الذي انشأ البرلمان وحد من سلطات الملك) والذي لا يزال حتى الآن القاعدة الشكلية للنظام السياسي في البلاد · وهكذا تم التحضير للصراعات المعقدة الداخلية والخارجية التي نشبت في العقدين التاليين من السنين · وحتى قبل الحرب العالمية الاولى كانت البلاد في الغالب تحت الاحتلال ، الروسي في الشمال والبريطاني في الجنوب · ومع قيام الثورة الروسية ، وصلت هذه الحقبة من الزمن الى نهايتها ، فقد تم انسحاب القوات الروسية والغيت كافة المطالب الروسية في ايران · اما البريطانيون فقد ثابروا ، آملين في تحويل ايران الى ما يسمى اليوم « النيوكولوني » او المستعمرة الجديدة ، لكنهم ما لبثوا ان اشعلوا الاحاسيس الوطنية مما ادى الى فترة من الاضطرابات والهيجان في السياسة الداخلية (اذ تم تغيير في منصب رئيس الوزراء تسع مرات في فترة تقل عن السنتين) · وفي مثل هذه الظروف اصبحت القوة الحقيقية وراء العرش في ايدي ضابط خيالة مغمور يدعى رضا خان · وكان هدفه الاول بعد ان وطد مكانته هو الغاء الملكية وانشاء جمهورية · لكن التكوين الطبقي الايراني في تلك الفترة لم يكن ارضا صالحة لنمو الافكار الجمهورية · فقد كانت البرجوازية وبورجوازية البازار الصغيرة كما ارستقراطية الملاكين والزعماء الدينيين كلها ملكية ، اما البروليتاريا فقد كانت لا تزال صغيرة وضعيفة جدا · ومرة اخرى كانت المظاهرات في الشوارع هي العامل الحاسم ، تلك المظاهرات التي كان لها دورها عند كل منعطف من منعطفات التاريخ السياسي منذ بداية القرن · وهكذا ، وتحت ضغط الجماهير ، تخلى رضا خان عن فكرة الجمهورية واستحصل على اعلان دستوري للمبايعة له كشاه وانشأ سلالة البهلوي الجديدة التي لا تزال حتى هذه اللحظات تحاول الحفاظ على وجود مهزوز ·

وكان الشاه الجديد « مجددا » لا هوادة فيه بالمعنى الذي اكتسبته كلمة « المجدد » في المصطلح السياسي البرجوازي · فقد استعمل وارداته النفطية المتزايدة ، على ضآلتها حينئذ ، لبناء جيش وبيروقراطية مركزهما العرش وتدينان بالولاء له · وعلى هذا الاساس اوجد نظاما اكثر فعالية لكن اكثر اضطهادا بكثير من سوابقه · لكنه ارتكب خطأ التودد الى هتلر والنازية في الثلاثينات · ولا ريب ان مزيجا من الدوافع هو الذي دفعه الى ذلك ، منها مثلا التعاطف السياسي والعداء للشيوعية والعداء التاريخي للبريطانيين · ونتج عن ذلك ان احتل البريطانيون والروس ايران بعد الهجوم الالماني على الاتحاد السوفياتي واجبروا الشاه على ترك البلاد

والتخلي عن العرش لصالح ابنه وهو الشاه الحالي ·

وفيما يختص بأمور ايران الداخلية ، كان احتلال الحلفاء بداية فترة من الليبرالية النسبية · فقد عادت الجماهير في المدن لتلعب دورها الناشط في العملية السياسية ·

وتمخضت عن ذلك قوتان سياسيتان هامتان هما حزب توده (الشيوعي) الذي يمثل العمال والعناصر اليسارية المنحى (الطلاب ، اصحاب المهن ، المثقفون) ، والجبهة الوطنية التي كانت تمثل طبقات البرجوازية والبرجوازية الصغيرة التي كانت تشعر انها معزولة عن النظام السياسي القائم · وقد اصبحت « الجبهة » حركة جماهيرية تحت زعامة محمد مصدق الذي كان زعيما سياسيا موهوبا يعرف كيف تثار المواضيع لدعم سياسته (وهذا الامر الاخير الذي له اهمية بالغة في تسيير السياسة الايرانية هو الذي كسب لصاحبه شهرة في الغرب كخطيب « ديماغوجي » يلهب احاسيس « الرعاع ») · وكانت الاهداف التي وضعها لنفسه وبنى عليها شعبيته وقوته هي ، اولا ، تأميم صناعة النفط التي كانت حتى ذلك العهد حكرا على البريطانيين ، وثانيا ، التقيد الصارم بدستور ١٩٠٦ ، خصوصا في ما يختص بسيطرة رئيس الوزراء على القوات المسلحة تحت طائلة المسؤولية امام البرلمان ·

وقد سجل مصدق انتصارات كاسحة في هذين الحقلين لكن اعتماده كان دوما على الدعم الشعبي الذي عبر عن نفسه بمظاهرات ضخمة واضرابات ومعارك في الشوارع · ووصل الامر الى نهايته في الصراع الناشب حول السيطرة على الجيش في صيف العام ١٩٥٢ · فبعد ان جوبه بمعارضة من البرلمان والبلاط الملكي ، دعا مصدق اتباعه ، بمساندة الجبهة الوطنية وحزب توده ، فنزلوا الى الشوارع بأعداد ضخمة وحاربوا في شوارع العاصمة ثلاثة ايام دامية الى ان اجبروا الشاه على الاستسلام · وقد كتب عالم ايراني في العلوم الاجتماعية يصف ما حدث ، بعد ذلك التاريخ بسنوات عدة ، في مجلة Monthly Review (الاميركية) وبأسلوب واف ومقتضب :

« وزاده الانتصار قوة ، لكن مصدق نسي ضرورة تزويد اتباعه بالسلاح وطفق يهاجم المؤسسة العسكرية برمتها · فقد بتر ميزانية الجيش بترا واعلن ان البلاد لن تشتري من الآن فصاعدا سوى اسلحة دفاعية خفيفة ، وطهر الجيش من ١٣٠ ضابطا كبيرا ، وخفض الخدمة العسكرية الى النصف ثم اثار ريبة النخبة العسكرية ايما اثارة اذ شكل ثلاث لجان للتحقيق في اشاعات حول الاختلاس في العقود العسكرية وللتثبت من مقدرة

الضباط الكبار ولتبيان ان الغرض من الدستور هو ان يكون الملك قائدا اعلىللقوات المسلحة بالاسم فقط · وقد ادى هجوم مصدق الى نتيجة تبدو لنا الآن وكأنها كانت حتمية ، اذ عمد الضباط الذين باتوا على قناعة ان العسكر بدون ملك عسكري امر مستحيل (لا ضباط بدون شاه) ، فألفوا جمعية سرية اسمها « لجنة انقاذ الامة » من « الجمهورية » و « الفوضى الاجتماعية » ووطدوا الصلة مع وكالة المخابرات المركزية التي منحتهم عونا ماليا وتنظيميا كان له تأثير حاسم ، ثم قاموا بانقلابهم الناجح · وبعد ان القوا القبض على مصدق وبددوا اتباعه العزل ، وجهوا الدعوة بسرعة الى الشاه الذي كان قد هرب الى المنفى لكي يعود الى بلاده منتصرا وخليفة لابيه · (علي جندنحي ، « الوضع القائم في ايران » في مجلة MR (تشرين الثاني ، ١٩٧٣) ·

وشهد الربع التالي من القرن (١٩٥٣ ـ ١٩٧٨) تثبيت دعائم نظام الشاه الذي كان يستند الى سلك الضباط والذي ازدادت قوته وامتيازاته ازديادا كبيرا ، كما شهد كذلك انخراط ايران في امبراطورية اميركا العالمية ، اذ اصبحت ايران شرطيا هاما لاميركا في المنطقة · وتبع ذلك ايضا برنامج براق « للتحديث » و « التصنيع » لم يدرس بدقة كما تم خنق المعارضة بشتى اشكالها بلا رحمة من قبل الجيش والشرطة السرية (السافاك) التي دربتها وكالة المخابرات المركزية · وهكذا تزايدت النقمة الشعبية والغضب والكراهية حتى وصلت حدا كان يبدو من المستحيل ان تصل اليه من قبل شهور قلائل · وفيما يلي ، نحاول ان نلقي الاضواء على هذه التطورات ونشدد على تلك النواحي التي لم تنل الاهتمام او التي لم تفهم او التي شوهتها وسائل الاعلام الغربية والخبراء الغربيون ·

« التحديث » على الطريقة الايرانية

عثر على النفط في ايران قبل نهاية القرن التاسع عشر لكن البلاد لم تجن اية فائدة منه ولم تجن الفائدة سوى قلة قليلة من الايرانيين وبعد انقضاء العديد من السنين · فقد كان النفط حكرا كاملا على البريطانيين منذ البداية واستمسكوا بهذا الاحتكار حتى ايام مصدق · اما الرسوم فقد كانت تدفع الى ايران بمقياس البخل الذي كان سائدا في الفترة الكولونيالية الاولى ·

كان مصدق قد بنى قوته على قضية التأميم وكاد ان ينجح ، كما رأينا اعلاه ، باستعمالها لطرد الشاه طردا نهائيا · لكنه ارتكب خطأين :

اولا ، ارتكب الخطأ الذي ارتكبه اليندي في تشيلي بعده بعشرين سنة ، فقد اخفق في السيطرة على القوات المسلحة او في تحييدها او التصدي لها • ثانيا ، ظن مصدق ان الاميركيين قد يرحبون بالتاميم كضربة ضد البريطانيين ، اخصامهم التقليديين ، لانهم لا يملكون اية مصلحة في النفط الايراني • لكن الاميركيين كانوا ينظرون الى ابعد من ذلك • فقد عزموا على مساعدة الضباط لاسترجاع الشاه وعلى استخدام نفوذهم المتزايد للحصول على حصة كبيرة من النفط الايراني (عرف فيما بعد انها تبلغ ٤٠ بالمئة) • ولم يلغ التاميم بل تم تعطيله بموجب ترتيبات واتفاقيات جديدة معقدة اتاحت لشركات النفط الكبرى ان تمضي في سلب ايران حصة الاسد من واردات النفط ، كما استفاد الشاه واتباعه نسبيا اذ ان حصة ايران من العائدات والامتيازات والضرائب رفعت لتتطابق مع ما جرت عليه العادة في الدول الاخرى التي تنتج النفط • وفوق كل هذا وذاك ، اضحت الولايات المتحدة في موقع القوة والسلطان الجديد بلا منازع في سائر ارجاء الخليج • وهكذا فقد تم تحضير المسرح الذي جرت عليه تلك المسرحية التاريخية العظمى والتي وصلت الآن وبعد مرور ربع قرن ، الى ذروتها المخيفة الدامية في شوارع المدن الايرانية الكبرى •

وفي السنوات الاولى التي اعقبت استرداد الشاه لعرشه كان هنالك تركيز كبير على ترطيب وتطوير اجهزة الحكم القمعية والتي كان الغرض منها على ما يبدو الحيلولة دون اعادة التجربة مع مصدق نهائيا • وتدفق العون الاميركي الاقتصادي والعسكري مباشرة ونال اصحاب الشاه المكافآت السنية ، اما اعداؤه فقد تم نفيهم او تصفيتهم • وقبل كل شيء تم انشاء جهاز متقن شامل للقمع السياسي وللسيطرة على الافكار • وكان قلب الجهاز هو (السافاك)، وهي هيئة للشرطة السرية تم انشاؤها في العام ١٩٥٧ تحت اشراف الوكالة المركزية والمخابرات الاسرائيلية • وقد تطورت (السافاك) لتصبح من اشرس وسائل الارهاب الشرعي واعظمها رعبا في العالم بأسره ، وذلك في عالم اصبحت فيه مثل هذه المؤسسات واسعة الانتشار •

ولم تصبح ايران جاهزة « للتحديث » الاقتصادي المواكب الا بعد ان استكمل الشاه ونصائحه من الاميركيين تثبيت هذا الجهاز القمعي الذي يعد نموذجا « للحداثة » • وعند رجوع الشاه كانت الصناعة الرأسمالية التي تستخدم الماكينات والعمال المأجورين تنحصر في الغالب ، كما هي الحال في معظم الدول النامية في مثل هذه المرحلة من النمو ، ببضع صناعات تنتج بضائع للاستهلاك الشعبي كالتنباك مثلا وعلب الكبريت

واخيرا ، لا آخرا ، النسيج ٠ ففي العام ١٩٤٧ ، كان النسيج ومركزه اصفهان اهم هذه الصناعات على الاطلاق ، فقد كان يمثل ٦٠ بالمئة من يد العمل الصناعية و ٧٠ بالمئة من الطاقة الميكانيكية العاملةفي الصناعة(٢)٠ اما ما تبقى ، فقد كان الاقتصاد من النوع الذي يسمى « التقليدي » ، اي انه كان زراعيا في الاغلب (شبه اقطاعي او بدويا) مع وجود قطاع مديني يرتكز الى « البازار » ، وهي كلمة فارسية الاصل (٣) ٠

وكانت الامور قد بدأت تتغير منذ عهد والد الشاه الحالي ٠ لكنعملية التغيير هذه لم تتخذ ابعادا هامة الا بعد ازدياد واردات النفط بعد العام ١٩٥٣ مع ما واكبه من ازدياد تأثير الغرب وخصوصا اميركا في الفكر والعمل معا ٠ وجاءت اموال النفط لتدفع اثمان موجة متصاعدة من الواردات ، على اشكالها ، بما فيها الطعام ٠ وفي الوقت ذاته ، اوجدت هذه الاموال طبقة جديدة من التجار الاغنياء ومنهم الكثيرون الذين كانت لهم علاقات حميمة مع البلاط الملكي او خلقوا مثل هذه العلاقات ، او اصبح البلاط يوزع الامتيازات الخاصة بشكل اجازات ومقاولات للدولة والى ما هنالك ٠ وانتقل البعض من هؤلاء التجار من ميدان استيراد البضائع الجاهزة الى ميدان تجميع القطع المستوردة وفي بعض الاحيان الى عمليات التصنيع الكاملة تقريبا ، مستخدمين في سبيل ذلك الرشوة والوساطة مع اصحاب النفوذ للحصول على حماية قانونية ضد المنافسة الاجنبية او المحلية(٤) ٠ وكانت الخطوة المنطقية التالية هي ان تبدأ الشركات الاجنبية ذات الملكية المتعددة الجنسيات باستثمارات جديدة داخل البلاد وكثيرا ما تعاونت مع رأسماليين محليين ناجحين لكي تتفادى التعرفة الجمركية وحواجز الاستيراد الاخرى ٠ وقد تفاعل مع هذا النوع من الاستثمار الاجنبي ، مسببا ومسببا ، فيض من الرأسمال المصرفي الاجنبي الذي كان من اوائل اشكال الاستثمار الاجنبي في ايران ولا يزال من اهمها على الاطلاق ٠

وما ان فارت هذه الفورة المالية في منتصف والى اواخر الخمسينات وتسارع نموها ، حتى بدأت تتغير قطاعات اقتصادية اخرى ٠ فقد ازداد الطلب على اليد العاملة وتبع ذلك نمو في الطبقة العاملة في الصناعة ٠ اما المدن ، وخصوصا طهران ، فقد اتسعت بسرعة (في العام ١٩٥٦ ، كانت نسبة السكان التي تعيش في المدن ٢ر٣١ بالمئة فارتفعت الى ٩ر٤١ بالمئة عام ١٩٧٢)(٥) ٠ واستوعب قطاع البناء اعدادا هائلة من العمال غير المهرة في الغالب واصبح المستخدم الاول في المدن ٠ وكما يحدث في مثل هذه الاحوال ، فان المضاربة بأسعار الاراضي اصبحت تجارة مزدهرة واصبح

الارض والبنـاء في المدن نوعـا مفضلا من انـواع الاستثمار لدى الاغنياء الايرانيين ولدى العديد من الاجانب كذلك(٦) ٠

اما فيما يختص بتوزيع الدخل والثراء فان النتائج المترتبة عـلى عملية نمو كالتي وصفناها اعلاه هي نفسها ما قد نتوقعه من عبر التاريخ الطويلة ٠ فقد كانت الارباح طائلة وانحصرت في قلة قليلـة من السكان ٠ اما الاجور فقد بعثرها بسرعة تضخم مالي غير محدود حتى بالنسبة الى ذوي الاجور العليا ٠ اما عامة العمال ، فقد تدنت اجورهم بالفعل الى ما دون كلفة اعـادة الانتـاج للقوة العاملة (وهـذا ممكن دائمـا في البلدان النامية حيث يوجـد فائض نسبي كبير من السكان بدون عمـل او يعملون دون طاقتهـم في الريف وهـذا الفـائض متوفر لسد احتياجات الصناعـة الرأسمالية) ٠ وفيما يلي مقتطفات من مقالة منتظمي ونراغي من شأنهـا ان توضح بجلاء التطورات التي ألمحنا اليها ٠ ونبدأ بالارباح :

« ان معدل الارباح في معظم الحالات يحدد بأن يضرب ثمن الوحدة بمعدل يجري تحديده على اساس قدرة رجل الصناعة على التفاوض تجاه الموظفيـن التكنوقراطيين في وزارة الاقتصـاد ٠ والتدخـل الخـارجي مستحيل ٠ فهناك في الواقع سوق للبائعين تحتكره قلة ويستفيد من حماية حكومية شديدة جدا ، يستعمل طرقا شتى ، فمنها مثلا ضرائب على السلع المستوردة (فالبضائع الاجنبيـة التي تنافس البضائع الوطنيـة قد تجبى عليهـا رسوم جمركيـة تسمى الرسوم على الارباح التجـارية وتصل الى ٥٠٠ بالمئة) ، وحصص علنية ، وتحديد عدد المنتجين بطريقـة تعسفية ٠ لذا فلا غرابة في معدل للارباح يمتد من ٤٠ بالمئة ليصل الى ما فوق ١٠٠ بالمئة من رأس المال المستثمر ٠ ففي صناعـة السيارات وحدهـا مثلا بلغ مجمل الارباح المحصلة عام ١٩٧٢ مقدار ضعفي ونصف الاجور المدفوعة في هـذا القطـاع ، اي ٢١٤٨ مليون ريـال (الدولار يساوي ٧٥ ريالا) بالمقارنة مع ٨٦٨ مليون ريال ٠

والنزعـة نحو تركيز الدخـل تزداد بسبب الوجود الارستقراطي في صفوف النخبة الصناعية ٠ «ففي العام١٩٧٢، كانت ٥٦ عائلة تملكحصصا في ١٧٧ عن مجموع ٣٦٤ شركة صناعية كبرى وتسيطر على ٣٩ بالمئـة منها ٠٠٠ وبالاضافة الى ذلك فان ٧٢ عائلة اخـرى كانت ممثلـة في ٨٨ شركة اخرى على لائحة الشركات الكبرى ٠ وبالاجمـال فان ١٢٨ عـائلة وبنك التطوير الصناعي والمنجمي (وهو بنك خاص بمساهمـة اجنبيـة) كانت تملك حصصا في ٧٣ بالمئة من الشركات المشار اليها » ٠

اما فيما يختص بالاجور ، فيقول الكاتبان ما يلي :

« لا ريب ان القطاعات الاكثر نشاطا تدفع اجورا اعلى ، وعلى سبيل المثال فقد كان قطاع الادوية ، ومعدل الاجور الشهرية فيه ٦٥٧٦ ريال (٨٨ دولارا) ، وقطاع السيارات ، ومعدل الاجور فيه ٧٠٦٤ ريالا (٩٤ دولارا) ، على درجة اعلى من قطاع صناعة المأكولات (٤٢٣٣ ريالا اي ٥٦ دولارا) والنسيج (٥٤٣٦ ريالا اي ٧٢ دولارا) ··· وقطاعات الصناعة الثلاث ، اي المأكولات والنسيج والملبوسات كانت معا تشكل ٦٠ بالمئة من مجموع العمال في المدن في العام ١٩٧٢ · لذا فلا غرابة انه في العام ١٩٧٣ ، كان ٧٠ في المئة من العمال الايرانيين يكسبون حسب التقديرات اقل من ٢٤٠ ريالا (٢ر٣ دولارا) في اليوم وهو الحد الرسمي الادنى لاخراج قوة العمل ·

وفي هذا الخصوص ، فان تفاصيل الاستهلاك لدى الشعب يلقيضوءا جليا على الحالة الاجتماعية الاقتصادية · ففي العام ١٩٧٢ كانت الاسرة في المدينة تكسب ٩١٦٢ ريالا فقط (١٢٢ دولارا) في الشهر · ومن هذا المجموع استهلكت النفقات على الطعام ٦ر٤٣ بالمئة بينما غطت النفقات على غير الطعام ٧٠ بالمئة فقط من مجموع ضرورات العيش الاساسية الاخرى كالمسكن والثياب والتدفئة والصحة والمواصلات » ·

وقد انحصر بحثنا حتى الآن بالفترة التي سبقت قيام دول الاوبيك برفع اسعار النفط اربعة اضعاف في اواخر العام ١٩٧٣ · ومن نافل القول ان هذا الامر قد زاد واردات ايران النفطية زيادة كبرى وبدا المستقبل وكأنه يزخر بامكانات باهرة · وقد جاء في تقرير لهيئة الخطة والميزانية الحكومية يعدل النص الموضوع لخطة ايران الخمسية الخامسة (١٩٧٣ــ ١٩٧٨) ما يلي : « ويأمل الايرانيون جميعا ، بقيادة زعيمهم العظيم صاحب الجلالة الامبراطورية شاهنشاه اريامهر (ملك الملوك ونور الآريين) وبهدي من اوامره الحكيمة ان هذه الخطة من شأنها ان تكون فاتحة لاحد اهم التغييرات التي طرأت علىالبلاد ، وان وضعها قيد التنفيذ سوف يأتي بازدهار عظيم للامة والشعب ويرشد ايران بسرعة اكبر الى عصر الحضارة العظيمة » ·

ياللاوهام ! فالفيض من المال لا يبني حضارة عظيمة ولا حتى ازدهارا اكبر للامة والشعب · فهذا الفيض من شأنه ــ وايران ليست المثال الوحيد ابدا ــ ان يأتي بثراء فاحش لقلة من الطفيليين على قمة الهرم الاقتصادي ويخلق طائفة جديدة من المشاكل التي لا حد لها للامة والمزيد من القلق والتعاسة للشعب ·

ولن نحاول فيما يلي ان نفصل المهازل والخيبات والنكبات التي جلبتها هذه الفورة المالية العظيمة من جراء فتح سدادة برميل الدولارات النفطية في العامين ١٩٧٤ و ١٩٧٥ ، وسوف نكتفي بايراد بعض الامثلة القليلة ونستند الى تقارير روبرت غراهام الصحفية (كما وردت في الهوامش) فقد كان غراهام مراسلا لجريدة « فايننشال تايمز » في ايران خلال السنوات الحاسمة الثلاث (١٩٧٥ ـ ١٩٧٧) ولم يطلع على المعلومات المنشورة فحسب بل على مصادر موثوقة كانت ترغب او تهتم في تدوين آرائها ٠

كثيرا ما يقال ان المال في المجتمع الرأسمالي هو القوة ٠ وهذا صحيح ، لكن المال ليس سحرا ٠ وقد فشل حكام ايران في التمييز بين الامرين ٠ فقد كانت الخطة الخمسية الخامسة بصورتها الاولية تتصور استثمارا مقررا مقداره ٣٧ بليون دولار ، اذ كان هذا الرقم يتناسب مع تخمينات موارد النقد الاجنبي المتوفرة من واردات النفط والقروض الاجنبية ٠ وبعد ارتفاع اسعار الاوبيك ، ارتفعت واردات النفط المقدرة من ٢٢ الى ٩٨ بليون دولار ٠ وزال القيد الاجنبي ، وجرى اعتبار هذا الزوال ، بقفزة منطقية مذهلة ، وكأنه مؤشر لزوال كافة القيود ٠ وهكذا فان خطة العام ١٩٧٥ كما جرى تعديلها ، رفعت رقم الاستثمار المحدد بنسبة ٨٩ بالمئة ، من ٣٧ الى ٧٠ بليون دولار ٠ ويعلق غراهام (ص ٨٠) كما يلي :

« ولما تم ترتيبها ، اصبح واضحا (لمن ؟) ان هنالك مشاريع تكفي ليس فقط للخطة الخامسة بل وللخطة السادسة ايضا التي تلي فترة السنوات الخمس بعد العام ١٩٧٨ » ٠ في البدء كان الدولار هو المؤشر ٠ يقول غراهام « في اوائل العام ١٩٧٥ ، اصبح الاقتصاد الايراني غير قابل للضبط » ٠ ويتابع قائلا : « في الربع الاول من السنة الايرانية الجديدة (من منتصف اذار (مارس) والى منتصف حزيران (يونيو)) ارتفعت المصاريف الحكومية بنسبة ٢٨ بالمئة عما كانت عليه في العام المنصرم ٠ فقد استهلكت نسبة ٤٠ بالمئة من الاعتمادات المقررة للبنوك التجارية ٠٠٠ وكانت امدادات النقد لا تزال تزداد بنسبة ٦٠ بالمئة في السنة ٠ وفي هذه الاثناء ، كانت المستوردات وقيمتها حوالي ٢ر١ بليون دولار في الشهر ، قد ارتفعت ١٠٠ بالمئة تقريبا عما كانت عليه في الفترة نفسها من العام ١٩٧٤ ٠٠٠ وتضاءلت المنجزات مع ارتفاع الكلفة » (ص ٨٦ ـ ٨٧) ٠

وكانت مرافىء البلاد عاجزة كليا عن استيعاب المستوردات ففي منتصف العام ١٩٧٥ ، كانت اكثر من ٢٠٠ سفينة تنتظر دورها للتفريغ

في ميناء خورام شهر ، وقد تبلـغ فترة الانتظار خمسة اشهر او اكثر قبـل الدخول الى المرفأ · وكان معدل الافراغ اليومي ١٢٫٠٠٠ طن لكن ٩٠٠٠ طن فقط كانت تشحن الى خارج الميناء · وفي خريف العام ١٩٧٥ كان هناك اكثر من ميون طن من البضائع تقبع على ارصفة الموانيء واحواضهـا · وبلغ التلف والفساد مبلغا عظيما ·

امـا معدل التضخم فقـد ارتفـع بحدة حتى بالاستناد الى الارقـام الرسميـة المنمقـة · ويصدق هـذا الامر بالاخص على اسعـار الاراضي والاسكان اذ كانت اسعار الاراضي ترتفع من اسبوع لآخر · وبالرغم من ان العمال قد حصلوا على زيادات في الاجور وعلى علاوات خاصة ، الا ان ضغط المعيشة عليهم قد ازداد اكثر من اي وقت مضى ·

وحصل نقص شديد في اليد العاملة ، خصوصا فيمـا يختص بشتى اصناف العمال المهرة الذين تحتاجهم مشاريع البنـاء · ويقول غراهام في هذا الصدد « واذا كان عامل البنـاء يكسب ٥٫٥ دولارات في اليوم ، كان عامـل تركيب الانـابيب يكسب ما بين ٤٤٠ الى ٤٦٠ دولارا في الشهـر · وكان يدفـع لسكرتيرة جيـدة تجيـد لغتين حوالي ١٢٠٠ دولارا شهريا ، والمهندس المتخرج حديثا ، خصوصا اذا كان قـد تعلم في الخـارج ، كان يحصل على اكثر من الفي دولار شهريا · اما مدير اعمـال يملك شهـادة جامعية عليا وعمره ٣٠ سنة فقد كان يطلب اجرا يفوق ٤٥٠٠ دولارا في الشهر » (ص ٩٠) · وقـد ادى ذلك الى دخول اعـداد كبيرة جـدا من الاجانب معظمهم من ذوي الدخل المرتفع من اوروبا واميركا والذين زادوا الطلب التضخمي على الاسكان وعلى البضائع الاستهلاكية النادرة وزادوا الطين بلة بالنسبة الى الايرانيين الاقل حظوة والنقمـة ضد الاجانب التي شهدتها الانتفاضة الحالية ترجع الى هذه الفترة من الزمن ·

وفوق كل هذه النشوة وهذه الفوضى ، جاءت الضربة من مصدر غير متوقع · فقد انخفض الطلب على النفط من جراء التراجع الاقتصادي في الدول الرأسماليـة المتطورة والذي بدأ في العـامين ١٩٧٤ و ١٩٧٥ · ومع نهاية العام ١٩٧٥ كان الانتاج الايراني قد هبط بنسبة ٢٠ بالمئة عمـا كان عليه في العام المنصرم · وعلى مدار السنة ، كان الانتاج اليومي قـد هبط بمقدار ١٢ بالمئة · وهبطت الواردات النفطية كذلك اذ عادت ايـران عـام ١٩٧٧ الى الاقتراض من البنوك الغربية ومن السـوق الاوروبيـة · وخففت الميزانيات والغيت العقود وتأجلت الدفعات واختزلت المشـاريع او اهملت · وازداد عدد اصحاب الملايين في ايران ازديادا كبيرا وكان العديد منهم يملك ارصـدة ضخمـة في البنـوك السويسرية او سندات المانيـة او

اراض اميركية • اما الحياة بالنسبة الى غالبية الايرانيين العظمى فقد ازدادت سوءا واصبح المستقبل قاتما ، وهكذا انتهت فترة التحضير التي سبقت انتفاضة عام ١٩٧٨ الكبرى •

المعارضة

يبدو الآن بجلاء ، حتى في نظر اشد انصار الشاه حماسة في واشنطن والاعلام الغربي ، ان الغالبية العظمى من الشعب الايراني باستثناء فئة الضباط (وباستثناء زبانية السافاك طبعا) تناهض الشاه ونظامه بشدة • وحتى اولئك الذين نالوا الحظوة لديه من بين رجال المال والاعمال لا يجرأون الآن على الجهر بمناصرة طاغية ادانه شعبه هذه الادانة الحاسمة ، فمحاولاته الدموية للتشبث بسلطته لم تنجح ابدا في ترهيب الرعية بل على العكس ، اذ زادهم ذلك الترهيب نقمة وكرها وباتوا اكثر تصميما على التخلص منه • وهذه الانتفاضة مثال عجيب حقا على ارادة شعبية جلية تكاد ان تكون ملموسة • وهناك بالطبع سوابق تاريخية خصوصا في ايران ذاتها في الفترة ما بين ١٩٥٠ و ١٩٥٢ ، لكن مصداقية الاحداث الآن هي اقوى بكثير مما كانت عليه في السابق •

اما المعارضة فانها وان كانت على رأي واحد لكنها ليست على نمط واحد وليست بالتأكيد تجتمع على رأي واحد حيال الوضع الذي سيخلف الشاه • ولهذا السبب فمن الواجب تحليل تركيبة المعارضة كشرط لا بد منه لتقويم ما قد يحدث في المستقبل •

من الواضح الجلي ، وهو امر قد ركزت عليه وسائل الاعلام ، ان الدين يلعب دورا بارزا في المعارضة • لكن هذا لا يسمح لنا باستعمال لفظة «المعارضة الدينية» • فالمشكلة اعوص من ان تحيط بها معادلة بسيطة كهذه • وهنا من الضروري ان ندخل في سانحة تاريخية •

ايران بلاد اسلامية تدين بالمذهب الشيعي (ويقال مثلا في هذا الخصوص ان ايطاليا بلاد مسيحية تدين بالمذهب الروماني الكاثوليكي) • وقد فتح العرب ايران حوالي العام ٦٤٠ للميلاد وسرعان ما دانت ايران بالاسلام وتم ذلك بموجب قاعدة اشتهرت فيما بعد في اوروبا في عصر الاصلاح الديني ، اي « الناس على دين ملوكهم » • لكن بلاد فارس اعتنقت الاسلام الشيعي لا الاسلام السني الذي كان سائدا حينئذ في البلدان العربية • ومن هنا فان المذهب الشيعي كان ولا يزال يرتبط ارتباطا وثيقا مع القومية الايرانية • وبالاضافة الى ذلك ، هنالك عامل يوازي الآخر اهمية ، وقد اشار اليه المستشرق الالماني جوزف شخت حين قال : « وفي خارج جزيرة العرب ، اصبحت الشيعة تستقطب كافة النزعات الثورية

وغير السنية بين المسلمين »(٧) ٠

والمذهب الشيعي ، كمذاهب الاسلام الاخرى ، لا ينتظم في كنيسة مع درجاتها الكهنوتية ٠ ويقول شاخت :

« ان علماء الدين ليسوا سوى الفقهاء في الشريعة وهم لا يمثلون طبقة كهنوتية بالمعنى الحقيقي ، لكنهم على جانب كبير من النفوذ لان المسلم العادي بالرغم من انه لا يستطيع العيش بموجب الشريعة ، يعبر عن احترامه لها بالاحترام الذي يكنه لممثليها » (المصدر السابق ص ٣٣٧)٠

والمذهب الشيعي يختلف عن المذهب السني في نظرته الى الحكم ٠ فقد كان الخلفاء السنيون يجمعون السلطتين ، السياسية والدينية ، وفي البلاد السنية تدعم الدولة المؤسسات والنشاطات الدينية بشكل طبيعي ٠ اما في ايران وهو البلد الوحيد الذي يحوي اغلبية شيعية ، فان الحكام لم يمارسوا ابدا اية سلطة دينية ولم يطالبوا بها ٠ وباستثناء بناء المساجد فان الدولة لا تساهم في اعالة الدين ٠

ورجال الدين « كالملا » و « آية الله » مثلا يعتالون من تبرعات المؤمنين الطوعية ، ولهذا السبب وحده فهم يشاركون المؤمنين في مشاكلهم ويدافعون عن مصالحهم ٠ ويصف كلود فان اينغلاند ، وهو مراسل للراديو والتلفزيون البلجيكي ، ما ينتج عن وضع كهذا وصفا جيدا حيث يقول :

على العكس من المراتب الكاثوليكية التي لا تحافظ الا على القليل القليل من الصلات مع النضال السياسي الشعبي ، فان رجال الدين الايرانيين يعيشون في حالة تمازج تقريبا مع جماهير المسلمين الذين يطالبون بذهاب الشاه ٠ ولا ريب ان هذا يعود الى عدم وجود كهنوت من طبقة عالية ، فلا سلطة فوق سلطة « الملا » سوى « آية الله » ٠ وقد قال لنا آية الله الجليلي : « نحن نظراء الكرادلة عندكم » ٠ لكنهم كرادلة يعيشون عيشة بسيطة الى درجة تثير العجب ولا يتخذون قرارا بدون مشاورة « الملا » والشعب ٠ وآية الله صدوقي ، وهو من اعنف معارضي الشاه ، يعيش في قلب حي شعبي يرتبط ببازار مدينة يزد ٠ ويمضي الشباب ساعات في منزله في الحديث معه ومع « الملا » في المنطقة عن السياسة والدين ٠ وهذا التوجيه الذاتي هو الذي يمثل قوة الحركة الدينية »(٨) ٠

ويتابع فان اينغلاند تحليله فيقول ان هذا الجانب من الحركة الدينية الايرانية هو ايضا مصدر ضعف من بعض الوجوه ٠ فانعدام الكيان التنظيمي يجعل العمل المتناسق الواسع المدى مستحيل المنال ٠

وفي وضع كالوضع القائم حاليا حيث يوجد هدف يجمع عليه الجميع ويولونه الاهتمام الكلي وهو الاطاحة بالشاه ، فان هذا الامر له فائدة • وهذا يعني انه مع وجود المساجد ورجال الدين الذين يقيمون شبكة من المعلومات والمواصلات ، لا يستطيع شخص بذاته ، او قيادة ذات سلطة ، ان يوقف المسيرة واذا حاول ذلك تركوه او هجروه • وهذا ما يفسر القوة الهائلة التي يمارسها آية الله الخميني في الوقت الحاضر • فقد نفي الخميني من البلد قبل ١٥ عاما ومنذ ذلك الحين نال بحق شهرة اكثر معارضي الشاه تصميما • ولا غرابة ان الشعب ، بسبب تجاربه خلال هذه الفترة ، قد اصبح هو الآخر لا يقل عن الخميني تصميما على الاطاحة بالشاه ، يحتضن زعامته بحماس ولا يصغي الى اي شخص آخر ، دينيا كان ام غير ديني ، ممن تظهر عليهم علامات التردد او القبول بالحلول الوسط •

لكن للأمر وجها آخر • فقوة الخميني نابعة من الظرف التاريخي وهي ليست قوة بنيوية ولا دائمة • ومن المنتظر ان تستمر هذه القوة ، وقد تضعف حين يضعف الاجماع الشعبي بعيد سقوط الشاه وتبدأ المشاكل حول النظام البديل • وعندئذ فان الدين سوف يتكلم بأصوات متعددة وسوف تتجاوب معها قطاعات مختلفة من الشعب بنسب متفاوتة • والعديد من الايرانيين الذين يسيرون الآن بنشوة خلف القيادة الدينية حتى ولو لم تكن معتقداتهم الدينية على درجة عالية من الثبات ، سوف يكونوا على استعداد للتفكير في حلول اخرى تنبع من مصالحهم وآمالهم في ذلك الحين • والمشاكل الطبقية التي هي الان مغمورة او مخفية بسبب الطبيعة الشاملة للحركة المناهضة للشاه ، سوف تبرز الى الوجود ولن يلعب الدين دور الزعامة الموحدة الذي اعطته اياه ظروف الصراع القائم حاليا •

ومما تقدم يبدو بوضوح ان التركيب الطبقي في ايران قد تعرض لتغييرات واسعة في ربع القرن المنصرم وخصوصا منذ الاصلاحات التي تمت في اوائل الستينات • فقد قامت طبقة جديدة من البورجوازية العليا ، جذورها في المال والصناعة والاراضي في المدن • والشاه واسرته مع ما لديهم من اموال خاصة طائلة وحقوق لامتناهية تقريبا في الوصول الى خزانة الدولة الغنية بالنفط ، كانوا ولا يزالون في صلب عملية التغيير هذه • ونشرت صحيفة «النيويورك تايمز» في ١٠ كانون الثاني ، (يناير) ، مقالا بقلم مراسلتها المالية ، آن كرتندن ، يوجز ما هو معروف عن مصالح الاسرة البهلوية المالية • واشار المقال الى وثيقة تقول الكاتبة ان الخبراء الايرانيين يعتبرونها صحيحة رفعتها الى وزارة العدل جماعة معارضة في

طهران « احتجاجا على تغلغل العائلة المالكة في كل زاوية تقريبا من زوايا الاقتصاد الوطني » ۰ ومضت الكاتبة تقول :

« وتشير اللائحـة الى ان اسرة بهلوي تملك مصالح في ١٧ مصرفا وشركة تامين بما في ذلك ٨٠ بالمئة من ملكية شركة للتامين هي الثالثة من حيث الحجم في البلاد ، و ٢٥ شركة للمعادن ، و ٨ شركات للمناجم و ١٠ شركات لمواد البناء ، بما فيها ملكية ٢٥ بالمئة من اكبر شركة للاسمنت . و ٢٣ شركة للاطعمة و ٢٦ شركة تجارية بما في ذلك حصص من ملكيـات كل فندق كبير في البلاد تقريبا ۰ واستنادا الى مصدر آخر ، تملك الاسرة البهلوية ٧٠ بالمئـة من طاقـة البـلاد في القطاع الفنـدقي ۰ ومن بين هذه الملكيات بعض المشاريع المشتركة مع شركات اميركيـة ۰ ولعـل اكثر هذه المشاريع اهمية هي حصة ١٠ بالمئة من شركة « جنرال موتورز ـ إيران » التي تملك شركة جنرال موتورز حصة ٤٥ بالمئة منها ۰ اما ما تبقى فتملكه عائلة ايرانية » ۰

من هذه الحقائق وغيرهـا مما ورد اعـلاه ، يسهـل الاستنتاج ان البرجوازية العليـا هي طبقـة صغيرة متماسكة تندمـج في نظـام الدولة السلطوي وتنتمي الى ، بل وتعتمـد على بنـوك وشركات ذات ملكيـات متعددة الجنسية وخصوصا الاميركية منهـا ۰ وذهاب الشاه سوف يسدد بلا ريب ضربة موجعة الى هذه الطبقة وسوف يجعل افرادها عرضة لنفس الاتهامات الموجهـة ضد الشاه بمـا في ذلك الفساد والسرقة والخيانـة ۰ وسوف يهرب البعض الى المنفى اما البعض الآخر فسوف يسعى للنجـاة بنفسه وبماله بكل الطرق الممكنة ۰ وسوف يلتمسون الحماية بلا ريب من الاميركيين ومن الجيش ۰ ومجمـل القول ان هـذه الفئـة من البرجوازية العليا سوف تفعل ما في وسعها لانقاذ ما يمكن انقاذه او لاعـادة ما يمكن اعادته من الوضع الذي كان قائما من قبل ۰

وماذا عن البرجوازية الوطنيـة ؟ هـذه اللفظـة تشير في الغالب الى الطبقة العليا من اهل البازار ۰ وعلى حد قول الكاتبين ، منتظمي ونراغي، فان نمط النمو في العقدين الاخيرين قد ادى الى :

« تخفيض في الحصة النسبية من الصناعة التقليدية ۰ والبازار كان حتى زمن قريب في قلب تدفق السلع الاستهلاكية ۰ اما الآن ، ومنذ بـداية الستينات ، فان غالبية اهل البازار الذين يعتبرون فترة السنوات ١٩٥٠ـ ١٩٥٤ فترة ازدهار ، يرون ان السنوات القادمة سوف تكون اسوأ من كل ما سبق ۰ ومن المفارقات الغريبة ان هذه الفترة المزدهرة تتطابق مع فترة كان فيها الاقتصاد « بلا نفط » وكانت فيها السياسة في زمن مصدق تنحى

منحى « الابواب المغلقة » ٠ وفي الواقع فقد شهدت هذه الفترة انتعاشا في الصناعة التقليدية في صلة وثيقة مع البازار ومع الطلب الشعبي (على النسيج والشاي والى ما هنالك) ٠ وحصل ايضا تطور في التصدير لسد حاجات الاستيراد التي لم تعد واردات النفط تفي بها (لوموند دبلوماتيك لشهر ديسمبر ، ١٩٧٨)(٩) ٠

واذا اخذنا تجربة السنين الاخيرة بعين الاعتبار ، نرى ان البرجوازية الوطنية من شأنها ان تساند السياسات التي تدعم الاستقلال الوطني وفي الوقت ذاته توسع السوق الجماهيرية لبضائع الاستهلاك الشعبي التي لا تنتجها شركات متعددة الجنسيات وشركاؤها من البرجوازية العليا المحلية ٠ وهذا يعني انتهاج سياسة اقتصادية تتعارض في كثير من الامور تعارضا مباشرا مع تلك التي انتهجت في السنوات الاخيرة ، اي اعادة توزيع الثروة من خلال الضرائب ومشاريع الانعاش الاجتماعي وتشجيع الصناعة الوطنية والزراعية وزيادة الاجور الخ ٠٠٠ وبما ان اهل البازار هم الحلفاء الطبيعيون لزعماء الدين الشيعة وانصارهم لاسباب تقدم شرحها فهنالك ما يدعو الى الاعتقاد ان اهل البازار سوف ينتهجون سياسات من هذا النوع على العموم فيما يختص بالاستراتيجية الاقتصادية ٠

وبروز الطبقة العاملة هو اهم عامل جديد في النظام الطبقي الايراني وهو في الوقت ذاته ابعد هذه العوامل عن الفهم الصحيح ٠ والعمال ليسوا جمهورا مستسلما من الاجراء المستغلين بل هم قوة فاعلة قادرة ليس فقط على الدفاع عن مصالحها الاقتصادية الضيقة بل وعلى التدخل الحاسم في مجرى السياسة ٠ ولم يشهد التاريخ الحديث الا القليل من الامثلة التي تشابه في روعتها وفي وقعها في الفؤاد ما حدث في ايران حين قام سبعون الفا من عمال النفط ، وهم بين كافة العمال ارفعهم اجورا واكثرهم حظوة ، قاموا بايقاف صناعة النفط الايرانية بكل انتاجها الضخم ونظام تكريرها المعقد ايقافا تاما ٠ وفعلوا ذلك الامر لا للحصول على زيادة في الاجور او على امتيازات خاصة بل لمساندة المطالب السياسية البحتة للشعب الايراني بكامله والقاضية برحيل الشاه وكل ما يمثله ٠ وبالطبع لم يكن عمال النفط وحدهم في الساحة ، فهنالك جماهير العمال من مختلف القطاعات الاخرى بما فيها البنوك وسلك الدولة الذين شاركوا في النضال في ما قد يكون اقرب شيء عرفه التاريخ الى اضراب وطني عام ومستمر ٠ لكن عمال النفط هم الذين في يدهم القوة الحاسمة وقد تصبح في يدهم ايضا مفاتيح المستقبل ٠

ولا يمكن التكهن حول كيفية استعمالهم لهذه القوة · وهناك بعض الاشارات فحسب في ما ورد من تقارير صحفية كتبها من ايران بعض صحفيي الغرب من ذوي النظر · وهاكم تقريرا كتبه يوسف ابراهيم ونشر في صحيفة « نيويورك تايمز » في ١٩ تشرين الثاني ، نوفمبر ، من الاهواز: « هنالك وجوم في الموقف هنا وهو يعكس ارادة خطرة للاستمرار في تحدي حكم الشاه محمد رضا بهلوي · وهذا الامر يناقض عزم الجيش الايراني على المحافظة على النظام مهما كان الثمن · وبالرغم من تهديدات الجيش فان الالوف من العمال لا يزالون يعملون ببطء في حقول النفط او المصانع او لا يزالون متغيبين عن اشغالهم ·

والعمال ، يساندهم التجار والطلاب ، يرفضون الانصياع لاوامر الجيش لكي يعودوا الى اعمالهم مع اجتناب المواجهة مع الجيش · والعمال يسمون العسكر « اخوانهم » ويحاولون كسبهم الى جانبهم · اما الاتفاقيات التي تعقد مع العمال في الصباح فيجري تعطيلها في فترة بعد الظهر ، وفي كل يوم طلبات جديدة · والسياسات القمعية كاعتقال زعماء الثورة ، لا تجدي نفعا · ومن الواضح انه على الرغم من اختلاف مطاليبها ، الا ان شتى الفئات في هذه المدينة التي يبلغ عدد سكانها ٤٥٠ الفا تجمع على رفض نظام الشاه · وفي شوارع المدينة كما في منعطفات البازار وفي حرم جامعة جنديشابور المترامي الاطراف ، لا تسمع اية كلمة تنم عن عطف على الشاه او على عائلته · وفي « السوبر ماركت » ، المسمى « هزلية » ، حيث لا يزال عمال النفط المضربون يشترون حوائجهم، قال احد العمال ويدعى ياسين ، انه لا يهتم بخسارة ايران المالية من جراء تضاؤل صادرات النفط · وقال : « لم نلمس هذه الاموال يوما ، فقد كانت كلها تذهب الى جيوب علي بابا ولصوصه الاربعين » · وقال مبتسما يغمز بعينه انه يعني الشاه واقربائه ·

وبالرغم من ان مناهض الشاه الرئيسي ، آية الله الخميني ، يحظى باحترام كبير هنا ، لكن الاحاديث مع عدد من العمال اشارت الى ان دعمهم للزعيم الديني المنفي يرجع الى معارضته للشاه لا الى اعتبارات دينية · وقال احد العمال في هيئة المياه والطاقة « ان آية الله الخميني قد جلب انظار العالم الى مشكلتنا هنا وجعلهم يدركون ان الشاه العوبة في يدي الاجانب الذين يسرقون اموالنا » · والشعور بأن الاجانب وخاصة الاميركيين هم الذين يتحكمون بمصير ايران وسياساتها ، شعور سائد في هذه المدينة وهي عاصمة مقاطعة خوزستان ، مركز النفط الايراني · والعداء للولايات المتحدة يؤججه اعتقاد شامل ان السبب الوحيد لوجود

الشاه في مركز السلطة هو الدعم والمشورة التي يتلقاها من وكالة المخابرات المركزية والمستشارين العسكريين الذين يدربون الجيش الايراني ·

وفي صفوف التقنيين الايرانيين المثقفين العاملين في شركات النفط في الاهواز ، يتخذ الاستياء من الخبراء الاجانب ابعادا واقعية · وقال مهندس يعمل في شركة ايرانية ـ اميركية للمعادن ان معظم العمال الاجانب في شركته لا حاجة لهم ·

وقال : « لدينا عمال تقنيون هنا قادرون على القيام بعملهم · لكن الحكومة تسمح للاجانب ان يديروا الشركة كما يشاؤون وانا اعلم انهم لا يعملون لمصلحة بلادنا وصناعتنا وهدفهم الاول هو الابقاء على ايران في وضع تبعي الى الابد » ·

ويبدو ان هذا الاستياء المتزايد من التدخل الاجنبي في ايران مرجعه في الاساس الى الشعور القومي لا الى الشعور المناهض للغرب · وقال عدد من اساتذة الجامعة هنا ان على البلاد ان تنهج السياسة النفطية التي انتهجها رئيس الوزراء الراحل محمد مصدق وهي ان تنوع ايران بائعيها · وقال استاذ في الهندسة ان البلاد لا يجب ان تبيع نفطها بكامله الى الغرب وغازها الطبيعي بكامله الى الاتحاد السوفياتي · وايران تبيع الغاز الطبيعي الى الاتحاد السوفياتي منذ العام ١٩٧٠ وهي تضخه من حقول النفط الجنوبية الى الحدود السوفياتية في استره ·

وغالبية طبقات هذا المجتمع ـ من عمال وطلاب وتكنوقراطيين من الطبقات الوسطى وتجار البازار ـ لا يعتقدون ان الشاه صادق في وعوده حول الاصلاح السياسي » ·

كتب هذا التقرير قبل شهرين وهو اليوم اقرب الى الواقع مما كان في تشرين الثاني ، نوفمبر (١٩٧٨) · واذا استقرانا المستقبل وقرانا بين السطور ، قد نرى بدايات نهج قد يشكل اساسا لتحالف طبقي شامل يضم العمال والطلاب والمثقفين والتقنيين واهل البازار والزعماء الدينيين · وقوة العمال ، كما برهنت التجربة ، هي التي سوف تجعل من هذا النهج اكثر من مجرد امل او مشروع على الورق · وسوف تجتمع الكلمة بالطبع على استقلال الامة واكتفائها الذاتي ، الامر الذي يتطلب سياسات تختلف اختلافا تاما عن سياسات السنوات الاخيرة في كل حقل تقريبا من الحقول الاقتصادية والاجتماعية · اما المرتكز التاريخي فهو نظام مصدق الذي انهار وهو يناضل في سبيل المبادىء والآمال نفسها التي تسود النضال الحالي ·

والعقبة الرئيسية التي تعترض مثل هذا التطور ، باستثناء الخلافات التي قد تنشب في صفوف قوى المعارضة الحالية ، هي بالطبع القوات المسلحة التي سوف تلقى بلا ريب تأييدا تاما من الاميركيين والقوى الامبريالية الاخرى ٠ وهذه عبرة تاريخية كان على الايرانيين ان يتعلموها بأصعب الطرق منذ سقوط مصدق قبل ربع قرن ومرورا بالصراع مع الشاه في العام المنصرم ٠ ومن المتوقع ان لا ينسى الايرانيون هذه العبر بسرعة٠ لكن يبقى السؤال والذي لن يجيب عليه سوى التاريخ وهو : هل باستطاعة حكومة تضم طبقات عدة وتسعى نحو الاستقلال الوطني الحقيقي في بلد ذي موقع استراتيجي كايران يملك موارد طبيعية هائلة ، هل باستطاعتها ان تؤسس جيشا وتحافظ على السيطرة عليه ؟ هذا السؤال لا يشبه في الواقع السؤال عما اذا كان من الممكن في الظروف الحاضرة ان يحدث انقلاب عسكري طالما ان سلك الضباط الذي اسسه الشاه لا يزال على حاله تقريبا ٠ ولا يظن آية الله الخميني ان هذا الامر ممكن اذ قال في حديث مع فلورا لويس نشرته صحيفة « نيويورك تايمز » في ١١ كانون الثاني ، يناير، ما يلي :

« لا بد لي من القول ان الانقلاب العسكري لن ينجح في ايران » ٠

وكان الخميني يشير الى انقلاب قد يحدث ضد حكومة بختيار التي هي طبعا حكومة مؤقتة ، ورأيه في الارجح رأي صائب ٠ فايران تعيش منذ عدة شهور تحت نظام لا يختلف كثيرا عن ديكتاتورية عسكرية واضحة ٠ واذا لم تستطع هذه الديكتاتورية ان تحافظ على السلطة فمن الصعب التكهن بنجاح جنرالات الشاه في استبدال هذا النظام بنظام مثيل انجع منه ٠ وتشير التقارير الواردة من واشنطن الى ان الحكومة الاميركية نفسها تدرك هذا الامر فقد ارسل الجنرال هيسر ، وهو نائب القائد العام لقوات حلف الاطلسي ، الى طهران ليحذر الجنرالات المتعصبين من مغبة القيام بمثل هذا الانقلاب ٠ لكن المشكلة الحقيقية لا تكمن هنا فجذورها اعمق بكثير ٠ فالحكومة العتيدة ، حتى لو كان لها برنامج اقتصادي شعبي وعملي ، سوف تحتاج الى قوات مسلحة ذات شأن لاجل الدفاع عن استقلال البلاد (لكنها طبعا لن تكون ابدا كالمؤسسة العسكرية الضخمة التي صرف الشاه عليها حتى الآن ما بين ١٠ و ٢٠ بليون دولار) ٠ وسيستمر الصراع الطبقي (ويزداد حدة من آن لآخر) وسوف ينعكس هذا الصراع على الانقسامات والازمات الحكومية ٠ اما القوات المسلحة ، فلن تبقى ابدا على الحياد في مثل هذه الصراعات وسوف تساند دائما القوى المحافظة في الداخل والقوى الامبريالية في الخارج ٠ ومع مرور

الزمن فقد تصبح هذه القوات محورا للصراع وتكون في وضع يسمح لها بحسم الامور • ولربما اصبحت في وضع يتيح لها الحسم ما لم يحافظ العمال على قوتهم ، التي لا جدال فيها بعد اليوم ، ويكونوا في حالة استنفار دائمة للتدخل الحاسم في صراع الطبقات كما يتدخلون الآن في الصراع للاطاحة بالشاه •

ولا جدال انه من المستحيل التكهن بما اذا كانت حركة العمال الايرانيين سوف تنمي ارادتها وقدرتها على الاستمرار في لعب دور بارز في سياسة البلاد بعد مضي الازمة الراهنة • لكن هنالك امرا واحدا اكيدا وهو بروز البروليتاريا الايرانية بقيادة عمال النفط كقوة في مقدورها ان تلعب هذا الدور في وضع تاريخي جديد له ابعاد عالمية • ولطالما ركزنا في مقالاتنا الافتتاحية في هذه المجلة على ان الشرط الرئيسي لحصول تقدم حقيقي في بلدان العالم الثالث هو انفصام ثوري في علاقاتها التُبعية مع المراكز المدينية الكبرى • وكتب احدنا في هذا المقام في عدد المجلة الصادر في كانون الثاني ، يناير ، ١٩٧٨ ما يلي :

« ان مثل هذا الانفصام الثوري هو وحده الكفيل بتحقيق نمط جديد من التطور يرتكز الى رفاه الطبقات المنتجة الحقيقي • وهذه فكرة قد جاءت في وقتها المناسب ومثل تلك الافكار من شأنها ان تكون على جانب عظيم من القوة • ومع ان تطور الصناعة تحت سيطرة شركات مختلفة متعددة الجنسيات قد نفع القلة واضر بالكثرة ، فان هذا التطور مع ذلك قد جلب الى بلدان عديدة العلم والخبرة في مبادىء التكنولوجيا الحديثة واوجد طبقة عاملة صغيرة ولكن تكمن فيها قيادة بالغة الاهمية ، اولا كقوة ثورية للاطاحة بالنظام القديم ، وثانيا ، كقوة بناءة لتشييد الجديد » (ص ٧) •

وقد برهن عمال ايران حتى الآن على صدق هذا القول فيما يختص بالاطاحة بالقديم ، اما السؤال القادم والمهم على جدول اعمال التاريخ فهو : هل باستطاعة العمال ايضا ان يلعبوا نفس الدور الرائد فيما يختص ببناء الجديد ؟

ازمة الهيمنة الاميركية

اشرنا فيما سبق الى ان سقوط مصدق في العامين ١٩٥٢ و ١٩٥٣ على يد الجنرالات الايرانيين وبمعاونة وكالة الاستخبارات المركزية كان النقطة الفاصلة لانتقال الهيمنة الامبريالية في الخليج الفارسي / العربي

من بريطانيا الى الولايات المتحدة · ومنذ ذلك الحين اتبـع الاميركيون ، الجمهوريون منهم والديمقراطيون ، استراتيجية لهـا جانبان في ايران · فقد سعوا من جهـة الى بنـاء قوات ايران المسلحـة لتصبح اقوى جيوش المنطقة · وفي تلك الاثناء تم توسيع وتثبيت تبعية هذه القوات للولايـات المتحدة كمصدر للسلاح ومدرب وكقوة تحمي البـلاد من الدولـة العظمى الاخرى التي تقبع على حدود ايران الشماليـة · ومن جهـة اخرى سعوا لتطوير ايران كمستعمرة جديدة تعود بالفائدة الكبرى ــ كمصدر للنفط لا تفوقـه الا السعودية (المحكوم عليهـا بالضعف العسكري بسبب ضآلـة السكان وهم حوالي ١٠ ملايين بالمقارنة مع اكثر من ٣٥ مليونا في ايران)، وسوق غنية للصادرات الاميركية المتطورة تكنولوجيا (خصوصا الاسلحة) وكميدان فسيح جدا للاستثمار المباشر وعمليات الانتاج من قبـل شركات اميركية متعددة الجنسيات · وكان الشاه منذ البداية اداة طيعة ثم بـدأ يلعب اكثر فأكثر دور نائب الحاكم ذي الحظوة الكبرى في النظام الاميركي العالمي الامبريالي ·

وسارت الامور على ما يرام لربع قرن تقريبا واعتاد الجميع على الامر الى ان بدأوا يتصرفون وكأنه جزء من النظام الطبيعي للامور · فقد كتب جون· ب· اوكس ، وهو من كبـار رؤسـاء التحريـر في صحيفـة « نيويورك تايمز » عن حديث اجراه مع الشاه في قصره بطهران في ايلول ، سبتمبر ، ١٩٧٥ ، يقول : اوضـح لي الشـاه الذي بدت عليـه امـارات الارتياح والسعادة ما يلي : «ان نظامنا يناسب العقلية الفارسية تماما··· وقد تساءلت ، لم الدولة محصورة بي ، بشخصي ··· واذا كنت في هذا المنصب الفريد فالسبب يكمن في مـا امثلـه ، اي الامـة ··· ان الشعب معي » · هذه الكلمات بالطبع كانت هي التي ارادت الادارة الاميركية ان تسمعها ، ووصل بها الامر الى حد منع ممثليها في طهران منعا باتا ــ اي السفارة ووكالة الاستخبارات المركزية ــ من الحديث مع من قد يسمعهـم كلاما من نوع آخر ·

وعندما انفجر الوضع القائم في وجوههم ، اصيبوا بصدمة ودهشة عظيمين · وحدث ذلك في تشرين الثـاني ، نوفمبر · ومنـذ ذلك الزمن لا نبالغ اذا قلنـا ان ايران قـد اصبحت الهـاجس الاكبر لرجـال الاعمـال والحكومة · فلا يمر يوم بدون فيض جديد من القلق والغضب والخيبـة في وسائل الاعلام المطبوعة منها والالكترونية · وهاكم امثلة على ما ورد في عنـاوين الصحف للشهـرين المنصرمين من الصحافـة البرجوازيـة المحترمة :

١ ـ « انتفاضة ايران تودي باقتصاد ديناميكي » ٠ مجلة Business Week
٢٧ تشرين الثاني ، نوفمبر ٠
٢ ـ « الصراع يشل اقتصاد ايران » ٠ « نيويورك تايمز » ، تشرين الثاني، نوفمبر ٠
٣ ـ « شركة تكسترون توقف الطوافات الايرانية » ٠ « نيويورك تايمز » ، ٦ كانون الاول ، ديسمبر ٠
٤ ـ « الاضطرابات في ايران كابوس للعديد من الشركات الاميركية » ٠ « نيويورك تايمز » ٢٢ كانون الاول ، ديسمبر ٠
٥ ـ « توقف تام ومخيف عن الحركة في ايران » ٠ « نيويورك تايمز » ، ٢٣ كانون الاول ، ديسمبر ٠
٦ ـ « الازمة في ايران تخيف الاصدقاء والاعداء » ٠ « نيويورك تايمز » ، ٣١ كانون الاول ، ديسمبر ٠
٧ ـ « يوم لف بساط الريح وطوي امره » ٠ مجلة Euromoney ، عدد كانون الاول ، ديسمبر ٠
٨ ـ « الشركات الاميركية في ايران توقف انتاجها » ٠ « نيويورك تايمز » ٣ كانون الثاني ، يناير ٠

ولا يرد اي ذكر ، حتى ولو على مضض ، للاشادة بشعب كامل انتفض يطالب باستقلاله وبالتحكم بمصيره ٠ ومن سخرية القدر ان هذا الشيء هو نفسه الذي يفتخر الاميركيون انهم قاموا به بنجاح قبل مئتي عام ! وفي هذه الاثناء ، وفي داخل الحكومة الاميركية نشاهد مسرحية فكاهية تتم فصولها على عدة مسارح في واشنطن ٠ وكتب ريتشارد برت في ركن « تحليل الاخبار » في « النيويورك تايمز » في ١٢ كانون الثاني ، يناير ، يقول : « ان تعامل ادارة الرئيس كارتر مع الازمة الايرانية قد اصبح موضع مساجلات داخلية عنيفة ، ويقول العديد من المسؤولين ان الخلافات ما بين الوكالات الحكومية والحلول الوسط التي تقترحها البيروقراطية قد اعاقت جهود الرئيس كارتر وابرز مستشاريه لخلق وتنفيذ استراتيجية شاملة » ٠

ويصف برت النزاع المرير بين بريجنسكي وفانس ثم يصف قيام لجان كبيرة وغير منظمة تضم كافة الدوائر الحكومية التي لم تنجح سوى في زيادة المشاكل تعقيدا فيما يختص بتحديد اهداف سياسة معقولة وتنفيذها » ، كما يصف التخبط في المواصلات بين واشنطن وطهران والبحث الجدي في خطة ترسل بموجبها قوة بحرية الى مدخل المحيط الهندي(١٠) الخ ٠٠٠ وفي السطر الاخير من هذا المقال اسفاف شديد ،

وهو كما يلي : « وفي البيت الابيض قال مسؤول كبير ان منتقدي سياسة الادارة فشلوا في فهم عجز الادارة عن التاثير في مجرى الازمة الايرانية »· واضاف المسؤول «لم تستطع القيام بأي عمل هام من شأنه ان يعطي نتائج ايجابية » ·

وهذا صحيح ، ولكن الم يكن من الاوضح لو استهل هذا المسؤول حديثه بمقدمة يفسر فيها كيف ان سلسلة كاملة من « الاعمال الهامة » الاميركية هي التي خلقت هذه الازمة التي لم تعد واشنطن قادرة على السيطرة عليها ؟

ومن الجلي ان سياسة اميركا العالمية قد اصيبت بأسوأ هزيمة منذ فيتنام · وبما ان نفط ايران والسعودية اهم بكثير للامبريالية من اي شيء آخر في فيتنام وجنوب شرق اسيا فان هذه الهزيمة قد تمسي اعظم خطرا من هزيمة فيتنام · وفي كلا جانبيها ، ادت الاستراتيجية الاميركية الى نقيض ما كانت تسعى اليه ، اذ ان هذا الشرطي الاقليمي القوي الذي عقدت عليه الآمال يميل الآن نحو عدم الانحياز واذا ازداد عليه الضغط غير المرغوب فيه فقد ينقلب عدوا · وحلم المستعمرة الجديدة المربحة اصبح كابوسا حيث بلد مستقل غني بالنفط يسعىللافلات كليا من السيطرة الامبريالية · ولم نصل بعد الى نهاية المطاف ، فقد انهت فيتنام اسطورة القوة العسكرية الاميركية التي لا تقهر وايران تنهي الآن اسطورة اخرى وهي ان الارهاب الشرعي لا يصلح في النهاية كنظام للحكومة · وفي رأي جميع الثوار العظام فان الشعب هو في النهاية صانع التاريخ · وايران الآن تبرهن عن صحة هذا الراي ·

شباط (فبراير) ١٩٧٩

هوامش

(١) راجع مقال ي· ابراهيميان بعنوان « الحشود في السياسة الايرانية ١٩٠٥ ـ ١٩٥٣ » ·

(٢) انظر كتاب روبرت غراهام :

Iran, the Illusion of Power (New York : St. Martin Press) . P 44 .

وكان المؤلفمراسلا لصحيفة «الفايننشالتايمز»اللندنية فيايران من ١٩٧٥ـ١٩٧٧ ومع ان كتابه يضم معلومات عديدة مفيدة لكنه ضيق الآفاق · وهذا الضيق نراه حتى في أحسن الكتب التي كتبها صحفيون من أمريكا وبريطانيا ، فهي تفتقر الى منظار تاريخي نظري دقيق ·

(٣) كثيرا ما يعتقد الغربيون أن البازار مـا هو الا مركز للتسويق والتجارة ، ولربما كان ذلك ناتجا عن معنى هذه اللفظة كما ترد في اللغات الغربية ، لكن اللفظة في ايران وغيرها من البلدان التي لها اقتصاد مماثل قد تعطي انطباعا خاطئـا ٠ فالبازار في طهران مثلا يضم بالاضافة الى أصحاب الدكاكين والتجـار ، نظامـا شاملا من النشاط الانتاجي (اليدوي في الغالب) كالملابس مثلا والادوات المنزلية والمنتجات المعدنية والحلي والى ما هنالك ٠ وهذا النشاط ينتظم في نقابات حرفية عديدة تشابه تلك التي كانت سائدة في مدن اوروبا في العصور الوسطى ٠ وكان البازار حتى وقت قريب أهم مصادر المنتجات الاستهلاكية ، وكما ننوه فيما يرد ، فان الناس الذين يكسبون معاشهم في البازار لا يزالون يلعبون دورا هاما في حياة البلاد الاقتصادية والسياسية ٠

(٤) روبرت غراهام ، ص ٤٧ـ٤٩ ٠ والمؤلف هنا يبحث في موضوع نشأة هذه الطبقة الجديـدة من الرأسماليين فيحكي عن العديـد من الافـراد النشيطين الذين خرجوا من البازار ليصبحوا مستوردين وبعد ذلك منتجين بفضل جهودهم الخاصة٠ ولا ريب أن البعض الآخر يدين بنجاحه الى منة من الشاه في زمن كان يجاهد فيـه لتثبيت سلطانه بعد الاطاحة بمصدق ٠

(٥) راجع مقال بهروز منتظمي وخسرو نراغي (وهما عالمـان اقتصاديان يعيشان في فرنسا) بعنوان : « Miraculous Growth and the Upheaval » في مجلة « لوموند ديبلوماتيك » (كانون الاول ١٩٧٨) ٠ وقد زادتنا هذه الدراسة الممتازة علما بالتطورات الاقتصادية في هذه الفترة ٠

(٦) ورد في مقدمة تقرير لصحيفة « نيويورك تايمز » (٥ يناير ، ١٩٧٩) ما يلي :

« ان شركة ستاريت للاسكان والتي بنت مركز « سيتي كورب » وجزيرة روزفلت وبنايـة « الامبيارستايت » ومدينـة « ستاريت » في بروكلين ، كانت قد استثمـرت مالها ولربما نصف ما تملك في مشروع بقيمـة ٥٠٠ مليون دولار للاسكان المشترك في بلـد كان يكفيهـا مؤونـة العمل غير المضمون في مدينـة نيويورك ٠ والبلد كان ايران ٠ أما اليوم ، فالشركة تواجه خسائر فادحة وقد تكون أكثر شركـة أميركية عاملة في ايران عرضة للخطر ٠ ويقول كنيث كامبل وهو خبير في الاسكان : « لا يستطيعون اكمـال بناء الوحـدات ولا يقدرون على ايصال الشحنات فقد توقف كل شيء فجأة » ٠

(٧) انظر مقالته بعنوان : Islam فـي :

Encyclopedia of the Social Sciences (Macmillan, 1932)

المجلـد الثـاني ، ص ٣٣٣ ، وتجـدر الاشـارة فـي هـذا الصدد الى أننـا حين كنـا لا نـزال نكتب هـذه الدراسـة ، وقعت اضطرابات عنيفـة في عدد من مدن تركيا الشرقية ٠ وأدى ذلـك الى فرض نظـام القـانون العسكري على مناطق واسعة ٠ وفيما يلي ما جاء في تقرير نشرته صحيفة « نيويورك تايمز » في

عدد ٣ كانون الثاني (يناير) : « النزاع الديني ، وهو يمثل بالاضافة الى الاقتصاد المهزوز الخطر الرئيسي الذي يواجه حكومة يولند أجويد ، أدى الى مقتل أكثر من ٧٠٠ شخص في تركيا في العام ١٩٧٨ حسب التقارير الرسمية ٠ أما التقديرات غير الرسمية فانها تشير الى أن عـدد الضحايا يصل الى ١٠٠٠ من جـراء الاشتباكات والهجمات حيث اختلط الكره الديني مع النزاعات السياسية ٠ وفي هذه المنـاطق (أي جنوب شرق تركيا) يعيش السنة والشيعة معا (أو العلوية كما يعرفون هنا) على حافـة الانفجـار ٠ وفي هـذه المدينـة التي يعيش فيها ٢٠٠ الف انسان (كهرمان مرعشي) كما في مناطق أخرى من تركيا ، يتطابق النزاع بين السنة والعلوية مـع الاختلافات السياسية ٠ فالعلوية في الغالب من أهـالي القرى سابقـا وينتمون في الغـالب الى فئـات يساريـة ، أما السنة المحليـة فهم يناصرون الاحزاب السياسية المحافظـة على العموم ٠

(٨) انظر مقال :

Puissance et ambiguités du mouvement religieux

في جريدة « لوموند ديبلوماتيك » ، لشهر كانون الاول ، ديسمبر ، ١٩٧٨ ٠ ويمدنا فان اينغلاند بمعلومات اضافية تتناقض تناقضا جليا مـع مثالات تبسيطية يوردهـا الغرب عن وضـع ديني يسيطر عليه رجـال متعصبون عفى عليهم الزمـن ٠ ويكتب قائلا : « قبل ١٥ عاما ، كان المثقفون عامـة لا يزالون يزدرون رجـال الدين ، وفي السنوات الاخيرة ، تخرج من الجامعات القرآنيـة رجال دين شباب أعلى ثقافـة من موظفي النظام ٠ أما وجود « آيات الله » من الجيل القديم في قلب المسرح السياسي، فمرجعه الى الاحترام الذي يكنه لهـم الشعب والذي يمنحهم الحماية ضد القمـع السياسي ٠ والقرارات الاساسية للحركة كثيرا ما يتخذها الشباب الذين يحيطـون بشيوخهم ٠ وهؤلاء الشباب النابتون هم الذين يعتمد عليهم آيـة الله الخميني لكي يكونوا طلائع الجمهورية الاسلامية التي يريد انشاءها ٠ والنظام يعلم كل هـذا ٠ فمن مجموع رجـال المعارضة المقبوض عليهم بعـد اعلان الاحكام العرفية ، لا يزال القليل منهم في السجن ومنهـم محمد مفتح ، وهو « مـلا » طهراني شاب كان يلقي الخطبة في جامع « جبة » خلال شهر رمضان فتبعه الالوف من الشبان المثقفين » ٠

(٩) ان القارىء المطلع على ما كتبه اندره غندر فرانك وخصوصا كتابه :

Capitalism and Under development in Latin America (MR press, 1967)

لن يجد أيـة مفارقة في حصول انتعـاش للصناعـة التقليديـة في أطراف البلاد يواكبه ضعف في العلاقات الاقتصادية مع المراكز في المدن الكبرى ٠

(١٠) يبدو أن هذا الاقتراح الفذ كان بمثابة انذار الى الاتحاد السوفياتي الذي هو في

نظر بعض الاوساط في واشنطن التي لا تزال تؤمن بمنطق الحرب الباردة خلف كل الاضطرابات في ايران ٠

ايران ١٩٠٠ ـ ١٩٨٠

يشكل مجمل هـذه الدراسات عرضا لتـاريخ ايران المعـاصر · فهي تتناول المراحل التي مر فيهـا نضال الشعوب الايرانية منـذ بداية القرن الحـالي حتى اعـلان الجمهوريـة الاسلاميـة · وهي تعرف بنية القوى الاجتماعية والدينية والسياسية الفاعلة ، وطبيعـة دور كل منهـا وتأثير القوميات والعوامل ، الداخلية والخارجية ، التي ادى تراكم فعلها المتشابك الى التغييرات المفاجئة والشاملة التي نشهدها منذ عامين ·

وتعـالج الدراسات الضغوط الجـديدة التي تولدت عن سقوط نظـام الشاه ، والتي تعبر عن نفسها من خـلال صراعات وتناقضات جـديدة ، تبرز معهـا التساؤلات حول آفاق الوضـع الراهن · وتشمـل الدراسات الموضوعات التالية :

★ خلفيات الثورة الدستورية ، ١٩٠٦ ★ عوامـل القوة والضعف في الحركة العماليـة ★ اسباب ثورة ١٩٧٨ ★ القوى السياسية في الثورة الايرانيـة ★ حركـة حرب العصـابات وتأثيراتهـا ★ دور الريف في ثورة ١٩٧٨ ★ دور الحشود الجماهيرية ★ دور العلماء المعارض ★ علي شريعتي ومقاومـة الاضطهاد ★ المجتمع والدين عند الامـام الخميني ★ صعود وهبوط استراتيجيـة التوكيـل ★ الازمة الجديدة في الهيمنة الاميركية

وضع الدراسات ، التي اختارها وقدم لها نوبار هوفسبيان ، عدد من المختصين بشؤون ايران وقضايا التسلح والسياسة الخارجية في الولايات المتحدة :

★ بول سويزي ★ هاري ماجدوف ★ يرفند ابراهميان ★ مايكل كلير ★ ايريك هوغلوند ★ مرتضى كتبي ★ جان ليون فاندورن ★ حامد الغار ★ منصور فرهانق ★ فرد هاليداي ·

مؤسسة الأبحاث العربية . ص . ب ٥٠٥٧ - ١٣ بيروت - لبنان ٢١ ل . ل .